دراسات تحليلية للثورات

كرين برنتون

ترجمة
عبد العزيز فهمى

مراجعة
د. محمد أنيس

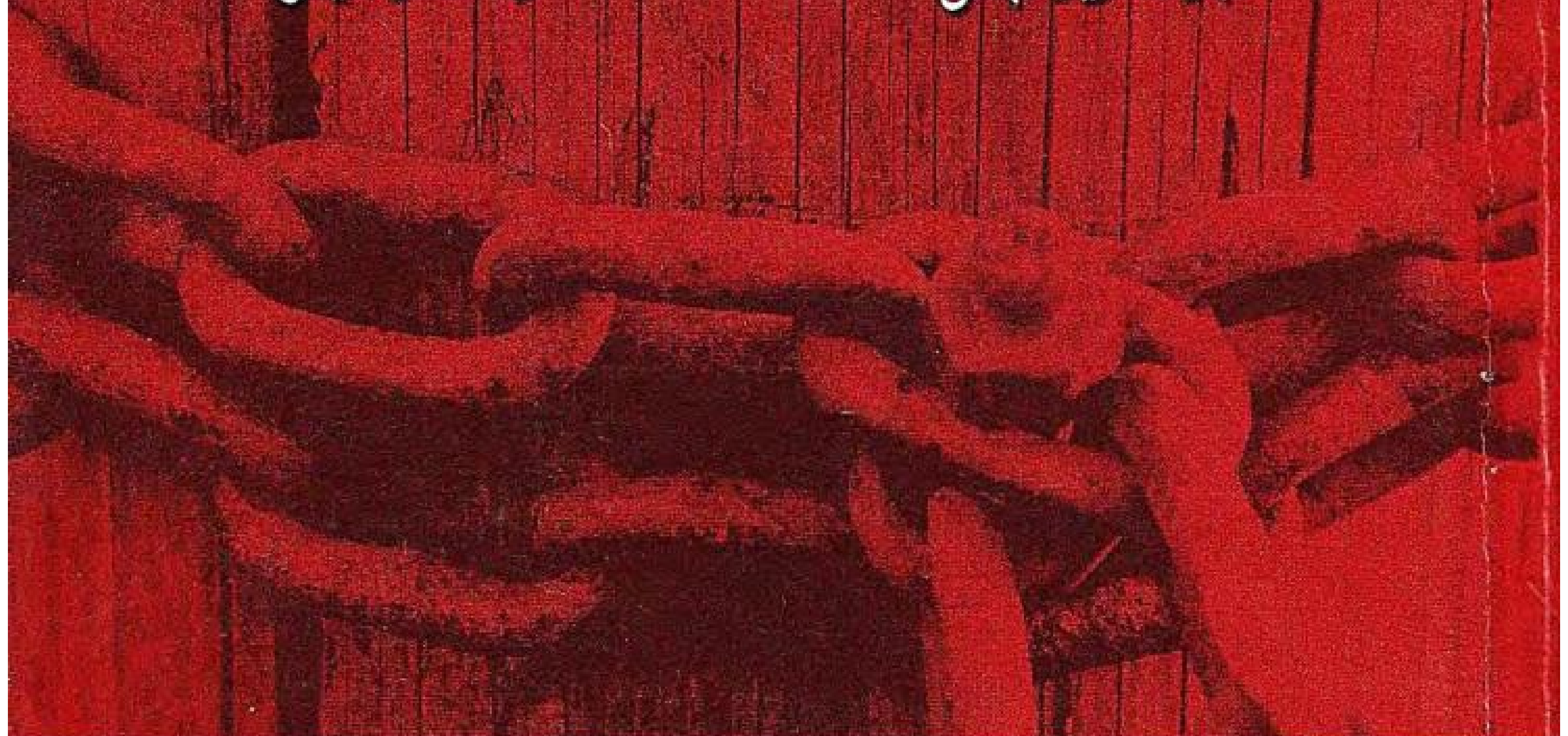

دراسة تحليلية للثورات

تأليف: كرين برنتون
ترجمة: عبد العزيز فهمى
مراجعة: د. محمد أنيس

وزارة الثقافة
الهيئة العامة لقصور الثقافة

وزارة الثقافة

الهيئة العامة لقصور الثقافة

مطبوعات
الهيئة العامة لقصور الثقافة

رئيس مجلس الإدارة
د. أحمد مجاهد

أمين عام النشر
سعد عبد الرحمن

مدير إدارة النشر
على عفيفى

الإشراف الفنى
د. خالد سرور

• دراسة تحليلية للثورات
• ترجمة: عبد العزيز فهمى
الهيئة العامة لقصور الثقافة
القاهرة - 2010م
17×24 سم
• تصميم الغلاف: د.خالد سرور.
• رقم الإيداع: ٤١٠١/ ٢٠١١
• المراسـلات:
باسم / إدارة النشر
على العنوان التالى: 16أ شارع
أمين سامي - القصر العيني
القاهرة - رقم بريدى 11561
ت: 27947897
البريد الإلكترونى:
elnashr@yahoo.com

التجهيزات والطباعة:
شركة الأمل للطباعة والنشر
ت: 23904096

• حقوق النشر والطباعة محفوظة للهيئة العامة لقصور الثقافة.

دراسة تحليلية للثورات

دراسة تحليلية للثورات

تأليف

كرين برنتون

ترجمة : عبد العزيز فهمي

مراجعة : د . محمد أنيس

الفصل الأول

مقدمة

١ ــ مجال الدراسة :

الثورة احدى الكلمات الفضفاضة .. وتكاد قائمة الثورات الا تنتهى .. الثورة الفرنسية الكبرى ، الثورة الأمريكية ، الثورة الصناعية ، ثورة هندوراس ، ثورة اجتماعية ، ثورة فى تفكيرنا ، أو فى أزياء السيدات ، أو فى صناعة السيارات .

والحق ان الثورة فيما تتضمنه من معان أصبحت عادة لا تعنى شيئا أكثر من مرادف مؤكد « للتغيير » وربما التغيير المفاجىء الهائل .

بل ان مثل هذا التأكيد لا تتضمنه دائما ...

ان محررى مجلة فورشن فى كتابهم الأخير ــ الثورة الدائمة فى الولايات المتحدة الأمريكية ــ رغم أنهم استعاروا العنوان من ليون تروتسكى ، لم يقصدوا بلا شك شيئا أكثر من تغيير دائم من نوع طيب أو « التقدم » أو « النمو » بل لم يقصدوا ما كان جيفرسون يعنيه حين قال فى رسالته الى صمويل كيرشيفال سنة ١٨١٦ « أن تصحيح الأوضاع كل تسع عشرة عاما أو نحوها قد يكون أمرا مرغوبا فيه » . ولا مراء فى أن جيفرسون كان يفكر فى تغيير شامل للهيئة الحاكمة فى بلد ما ، وفى التكوين السياسى والى حد ما فى العادات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والأنظمة التى يعيش فى ظلها شعب ما .. كان يفكر فى الثورة الفرنسية الكبرى التى حدثت فى القرن الثامن عشر ، وهى الثورة التى ما زالت عند أكثرنا فى العالم الغربى نوعا من الثورة النموذجية ..

فنحن وان كنا نستخدم لفظ « الثورة » والصفة المشتقة منها « ثورى » للدلالة على مجموعة من التغيرات المتباينة ، فاننا نحتفظ فى اركان عقلنا بمعنى محدد أكثر بكثير من ذلك .. معنى واحد لا يتغير .. اننا نفكر فى الانقلابات الكبيرة التى حدثت فى الماضى فى مجتمعات سياسية كانت مستقرة من قبل — الثورة الانجليزية فى سنة ١٦٤٠ ثم فى سنة ١٦٨٨ والثورة الأمريكية ، الثورة الفرنسية وما تلاها فى القرن التاسع عشر ، الثورة الروسية فى سنة ١٩١٧ وما تلاها فى القرن العشرين .

وقد نفكر أيضا فى العنف والارهاب ، فى عمليات التطهير والاعدام شنقا .. ولكننا نركز اهتمامنا على الأعمال العنيفة التى تقوم بها فجأة جماعة من الناس لانتزاع السلطة من يد جماعة أخرى فى اقليم ما .. وهناك معنى آخر : ان استبدال جماعة بأخرى ، اذا لم يتم بثورة فعلية عنيفة ، فانه يتم بعملية انقلاب أو بطش أو بنوع آخر من عمليات تحطيم الرؤوس . واذا حدث التغيير دون عنف نتيجة لانتخابات حرة ، مثلما حدث سنة ١٩٤٥ فى الانتخابات البريطانية التى أدت الى تسليم السلطة للاشتراكيين (١) ، (وهو ما يبدو لأكثرنا نحن الأمريكيين أمرا ثوريا) فعندئذ يكون أقوى تعبير يستطيع المعلقون استعماله هو « الثورة البريطانية بالتراضى » .. ولكن هل حقا تكون الثورة التى تتم بالتراضى ثورة ؟

ان لفظ « الثورة » لا يتعب اللغوى بسبب ما يتضمنه فى معان لدى الجماهير فحسب ، بل أيضا لأنه من تلك الألفاظ المحملة بمضمون عاطفى .

والحق أن أى دراسة اجتماعية كاملة للثورة فى مجتمعنا الغربى — وهذا الكتاب ليس كذلك بالتأكيد — لا بد أن تأخذ فى اعتبارها الطريقة التى كانت الجماعات المختلفة فى الأزمنة والأمكنة المختلفة تثور بها عندما تتداعى المعانى المعقدة لألفاظ « الثورة » و « الثورى » .

ان بنات الثورة الأمريكية يشعرن بالشرور والتسامى حين يفكرن فيما جرى هنا (٢) سنة ١٧٧٦ ، ولكنهن لا يجدن شيئا من ذلك فيما حدث فى روسيا منذ نوفمبر سنة ١٩١٧ أو ما يجرى اليوم فى الصين ..

---

(١) يعنى حزب العمال .

(٢) يعنى امريكا .

والطبقات العليا القديمة فى فرنسا لم تفق تماما قط من صدمة حكم الارهاب ، ولا شىء يستطيع أن يجعل الارستقراطى الفرنسى يحس بالارتياح لأى ثورة — حتى ولو ارتبطت بالحق ، أو القومية الكاملة ، بل حتى لو اقترنت بقولة « نحن فيليب بيتان » .. أما فى روسيا فان كلمة الثورة لا تزال تحاط بالاجلال ككلمة مقدسة .. ولكنها فى اسبانيا الفرانكوية تعتبر من المحرمات ..

وعلى أية حال فان الثورة بمعناها الدقيق كما هى بمعناها الفضفاض صارت مرة أخرى فى منتصف هذا القرن العشرين موضوع بحث كامل .. ولقد كان القرن التاسع عشر ، الذى ظن انه أوشك على الغاء الحروب الخارجية ، يظن أيضا أنه أوشك على الغاء الحروب الداخلية أو الأهلية التى نربطها نحن بالثورة وفى الحق كان ينبغى جعل الثورة أمرا غير ضرورى . ولقد ظل التغيير هو الطابع المميز لثقافتنا ، ولكن كان لا بد أن يحدث بطريقة منتظمة سليمة وبالتدريج .

ان شعار أجدادنا « التطور لا الثورة » له الآن صدى بعيد .. اننا نعيش وسط نذر الحرب والثورة وفى الحق نعيش فى عالم يكاد يكون فيه نظام الحكم والدستور بل التكوين الخلقى والقانونى والسياسى للولايات المتحدة الأمريكية أعتق الأنظمة وأكثرها دواما فى الدول الكبرى بعالمنا وليس هناك مفر من هذا التناقض : ان هذا البلد الجديد يعتبر الى حد ما من أقدم البلدان .. أقدم من بريطانيا الاشتراكية ، واقدم من الجمهورية الفرنسية الرابعة ، واقدم من أى جمهورية سوفييتية ، واقدم — بدرجة لا يمكن تصديقها — من حكومات تلك البلاد الشرقية المتناهية فى القدم : الهند والصين ..

فنحن الأمريكيين نبدو اذن فى كثير من النواحى مجتمعا مستقرا وسط مجتمعات تخوض تغييرا ثوريا .. اننا نخاف قليلا من الثورات .. النوع الخطأ من الثورات « الثورات الشيوعية أو الفاشية » .

والحق أن بعض نقادنا يعتقدون أننا فى أساسنا رجعيون ، واننا فى أساسنا بعيدون عن نوع الآمال والأمانى التى تعتمل فى نفوس الشعوب الأخرى ، والتى اعتملت فى نفوسنا نحن منذ قرن أو يزيد وحفزتنا للثورة .. ولا شك أن هؤلاء النقاد يتجنون علينا .. ولكننا مجتمع

مستقر ، ورغم كل ما حدث منذ ذلك العهد بتمسك بشعار القرن التاسع عشر المليء بالأمل « التطور لا الثورة » . وربما لا نستطيع ان نفسل الشيء الكثير حتى الآن للسيطرة على عملية التغيير الاجتماعى .. ولربما كان من المحتم لوقت طويل أن يظل ما يجرى فى علاقات الجماعات الانسانية بعيدا عن سيطرتنا مثل الجو .. وقد تكون الثورات مثل العواصف الراعدة أمرا لا يمكن تجنبه ، وأمرا مفيدا فى أغلب الأحوال مثلما تفيد العاصفة الريف الملتهب بالحرارة ..

ولكننا نفهم العواصف الراعدة — أو هكذا يجب أن نعتقد ما لم نطرح جانبا ما قدمته الدراسة العلمية فى الغرب خلال ألفين من السنين — افضل مما كانت تفهمها الشعوب القديمة التى رأت فيها فعل الثور او جوبيتر ، وفى استطاعتنا أن نتخذ بعض الوسائل لحماية أنفسنا منها .. فى استطاعتنا على الأقل أن نحاول فهم ثورة ما ، سواء أردناها أم لم نردها .. الا اننا لن نذهب بعيدا فى الاتجاه الى فهم ثورة ما اذا لم نستطع أن نحتفظ تجاهها بموقف اللا مبالاة أو على الأقل بموقف التجرد ..

ومن المرجو الا تكون هذه الكلمة الأخيرة مجرد طريقة ملائمة للتعبير عما تعنيه كلمة اللامبالاة بطريقة غير ملائمة .. فان الطبيب قد يشعر بأنه ابعد ما يكون عن اللامبالاة تجاه مريضه ، ولكنه لن يكون طبيبا ناجحا ما لم يتجرد أثناء ملازمته لمرض مريضه ومعالجته من عواطفه وقد نتنصل هنا من مجموعة كاملة من الصعوبات الفلسفية الكامنة ، ونقول فى بساطة ان ما نسميه عادة بالعلم الحديث يتخذ عنصرا أساسيا فيه تجرد رجل العلم .. فرجل العلم من حيث هو شخص خاص قد يحب ويكره ، يأمل ويخاف ، ولكنه من حيث هو عالم يجب عليه أن يحاول الكف عن كل ذلك حين يدخل معمله أو مكتبه ..

على أنه فى تحليل الشئون الانسانية تكون محاولة عالم الطبيعة او عالم الكيمياء للاحتفاظ بموقف التجرد أمرا جد عسير ، وهى تبدو عند عدد كبير من الأذكياء المستقيمين أمرا لا فائدة منه ، بل أمرا يتسم بالخيانة . فهم يشعرون بأن من واجبك أن تكره هتلر او ستالين — او اذا كنت فى الجانب المضاد أن تكره تشرشل — طول الوقت ، قبل وأثناء وبعد البدء فى شرحه ، والا فان شرحك قد ينتهى الى تخفيف جرمهم ..

ولكن فهم كل شيء ليس معناه بحال من الأحوال التسامح فى كل شيء .. وعلى أى حال فان الفهم العلمى لدور البعوضة فى الحمى الصفراء لم يؤد بنا الى التسامح أو اللامبالاة مع ذلك النوع المعين من البعوض ، بل على العكس من ذلك تماما .. فنحن لا نستطيع — طبعا — أن نتوقع مثل هذه النتائج المباشرة التى تبدو فى ظاهر الأمر متعلقة بالمشاهدة التى حصلنا عليها فى دراسة الحمى الصفراء من دراسة الانسان فى المجتمع — من تلك التى نسميها بشيء من التفاؤل العلوم الاجتماعية — علم الأجناس ، الاقتصاد ، العلوم السياسية ، التاريخ ، علم الاجتماع ، وما أشبه .. ولكنا قد نستطيع دراسة الثورات فى شيء من الروح التى يحملها عالم الطبيعيات الى عمله .

ان هدفنا المتواضع فى الدراسة التالية هو — مثلما قد يفعل العالم — محاولة ايجاد بعض الشبه الملحوظ بين أربع من الثورات الناجحة فى دول حديثة — الثورة الانجليزية سنة ١٦٤٠ ، الثورة الأمريكية ، الثورة الفرنسية الكبرى ، والثورة الحديثة أو الراهنة فى روسيا . ولا بد أن نوضح من البداية بعض حدود دراستنا : ان دراستنا هذه ليست هى الوحيدة وليست بالضرورة أفضل طريقة لدراسة الثورات ولا نزعم أنها دراسة اجتماعية كاملة للثورات ، فهى تقتصر على أربع ثورات درست نسبيا دراسة جيدة ، ويجب أن تفهم نتائجها على أنها تشير الى هذه الثورات الأربع ، ولا بد أن يؤخذ تطبيق هذه النتائج على ثورات أخرى أو الثورات عامة بحذر وتواضع ..

ولو أننا كنا نحاول ايجاد نموذج مثالى للثورة ، وأن البحث عن نوع من الفكرة الأفلاطونية عن الثورة ، لأمكن بحق توجيه اللوم الينا لأننا التقطنا أربع ثورات لطيفة انيقة تمثل حالة جيدة الى أقصى حد ، أو نموذجا كاملا جدا .. ولكننا لا نقوم بمثل هذه المحاولة .. ويجب أن يكون واضحا كل الوضوح أن الثورات فى الماضى والحاضر والمستقبل لا تطابق كلها النموذج الذى رسمناه هنا ..

ان ثوراتنا الأربع ليست بالضرورة « نموذجية » بالمعنى المفهوم من كلمة « نموذجية » عند النقاد الأدبيين أو الأخلاقيين . انها ببساطة أربع ثورات هامة اخترنا أن نبدأ بها بحثا منظما لا يزال فى طفولته .. أما

البحوث الأدق فستجيء فيما بعد ، من بحاثة اخرين اكثر تقدما .. وفوق هذا كله نحن لا ندعى هنا أى حكمة نبوية .. ولسنا نتوقع أن نستطيع التنبؤ من هذه الدراسة متى وأين بالضبط تشتعل الثورة القادمة على هذه الأرض .

وهنا قد يعترض بأن العلوم الاجتماعية ظلت تقلد العلوم الطبيعية لعدة قرون ، ولم تتقدم الى الأمام شوطا بعيدا ، وبأنه ينبغى عليها اذن ان تحاول الوقوف على قدميها ، أن تستنبط أساليبها الخاصة دون اهتمام بما عمل فى العلوم الطبيعية .. وفى هذا الاعتراض شيء من الحقيقة — فمن المؤكد أن كتابا مثل فورييه أو هربرت سبنسر Herbert Spencer Fourier الذين أعلنوا عن أنفسهم أنهم بالضبط مثل نيوتن Newton او داروين Darwin فى العلوم الاجتماعية — قد أخطأوا فيما يبدو منذ البداية .. فان الروح العاكف على الفلسفة والفنون — كشبنجلر وتوينبى مثلا — Toinby Spengler سوف يستنبط على الأقل من دراسة الناس فى المجتمع قدرا من المعنى مساويا لما سوف يستنبطه عالم الاجتماع الذى يحاول أن يضطلع بالأساليب والمواد التى تستخدم فى علم الطبيعة وعلم الأحياء دون تغيير .. الا أن الانسان يتردد فى أن يحيل دراسة الناس فى حياتهم الاجتماعية كلها الى أمثال سبنجلر بل وأمثال توينبى .. فان التقاليد الطويلة لما يمكن أن يسمى المذهب العقلى قد أحرزت فى مجتمعنا انتصارات لا يمكن التخلى عنها بسهولة حتى فى عالم ما بعد الحرب .. ان هذه التقاليد تحتم علينا أن نحاول مواصلة وتوسيع نطاق العمل الذى نسميه علميا . وفى الحق لقد كتب قدر كبير من الهراء تحت حماية اسم العلم ، ومن اليسير مشاركة مستر ماكس ليرنر Max Lerner غضبه ..

« انى بصراحة أشك عندما يبدأ المشتغلون بدراسة المجتمعات يسلحون أنفسهم بالمشارط والرشائح وأنابيب الاختبار .. لأنهم يعدون بأكثر مما يمكن أن يحققوه .. والاحتجاجات بالموضوعية الكاملة التى ظللنا نسمعها من دارسى المجتمع فى ربع القرن الماضى تتخذ طابعا دينيا .. فكأنما هم يغسلون أنفسهم بدم حمل علمى » .

ويحتمل أن تكون بعض اعتراضات مستر ليرنر على الالتجاء الى العلم ، والتجرد العلمى ، اعتراضات المحب الولهان بأقرانه ، لا يمكن

رفضها كلية بالمنطق أو التجربة ، ولكن بعضها اعتراضات المتشكك والناقد ومثل هـذه الاعتراضات تقوم الى حـد كبير على سوء فهم للمنهج العلمى وهو أمر لا يقتصر بحال من الأحوال على مستر ليرنر وحده .. فان سوء الفهم هـذا شائع الى حـد يجعل من الواجب علينـا أن نحـاول هنـا توضيح المسألة قدر الامكان فى كلمات قليلة جـدا ... ولن يكون هـذا بأى حال انحرافا عن القصد ، بل سيكون مدخلا أساسيا الى موضوعنا .

٢ ـ العناصر المجردة للمناهج العلمية :

أولا : حتى العلوم « المضبوطة » مثل علم الفلك أو علم الطبيعة ليست مضبوطة بمعنى أنها « مطلقة » أو « منزهـة عن أى خطأ » فان اقوى قوانينها لا بد أن ينظر اليها على أنها تجريبية .. ومن الممكن هدمها فى أى وقت بمزيد من البحث .. ولكن ليس من الممكن التغاضى عنها فى أى لحظة ما لم يثبت أنه لا يمكن الاعتماد عليها بالنسبة للحقائق المشاهدة .. ولقـد أحدث قليل من المتصوفين ـ الذين حرموا فى مجتمعنا الفظيع من متع الحياة ـ الشىء الكثير من الثورة المعاصرة فى علم الطبيعة . ولم يحدث أن ثبت بطلان قوانين نيوتن ، كما أن مبدأ « عدم التحديد » لم يقرر باحكام الى الحد الذى يجعل كل الناس سواسيه أمام لعبة البوكر .. وما حدث فى علم الطبيعـة الحديث ، على قدر ما يراه غير العلماء ، هو أن علم الطبيعـة أصبح يذكر تماما أن أدق القوانين التى يأتى بها ليست مطلقة ، وانما هى خاضعـة للتصحيح ، وأن من الأسلم له أن يعتبر أن هـذه القوانين قائمـة على الملاحظات بدلا من اعتبارها مستمدة من ارادة اللـه أو طبيعـة الأشياء أو الحقيقة .. وهـذا يؤدى بنا فى يسر الى النقطة الثانية .. ان العـلم لا يبـذل أى محاولة لدراسـة الحقيقة أو وصفها ـ والمؤكد أنهـا ليست الحقيقة النهائية .. بل ان العلم لا يعنى حتى بالحقيقة بما لها من معنى عند اللاهوتيين ، وعنـد أكثر الفلاسفة ، وعنـد الكثير من النـاس ، وربما أيضا عنـد ذوى العقول الراجحة وتبدو الرغبة فى البحث عن قضية نهائية ، وعن محرك لا يحركه غيره Ding an sich عامة بين الناس حتى أننـا لا يمكننا الاعتقاد بأن هـذا البحث ليس ـ بصورة أو بأخرى ـ عنصرا دائما فى المجتمع الانسانى . وانمـا لا يسهم العلماء من حيث هم علمـاء فى مثل هـذا البحث . ويجب ألا تؤخذ هـذه العبارة للدلالة على أن هذا البحث سخيف ولا بد من منعه .. ومنـذ عهد قريب ، كان بعض العلمـاء

نشطين جـدا فى البحث ، وفى الحق كانوا ناجحين .. ومنـذ زمن طويل وجـد الايمان باللـه فى أماكن يسودها الجهل .. الا أن هـذه الكشوف ليست كشـوف العـلم . أن ادنجتـون ، وجينـز ، بد وهوايتهـد Edington Jeans White Head كفوا عن ممارسة العلم ابان دراستهم اللاهوت .. فالعلم لا يقوم على الايمان ، وانما على الشك ، على الشك الذى لا يهتم حتى بمكانه فى الوجود .. وهكذا يواصل العالم بحثـه فى هدوء ، لا يزعجه طعن الفيلسوف وشكه الدائم معناه أن يؤمن بالشك ، الذى يعتبر فى آخر الأمر شكلا من أشكال الايمان ..

ثالثا : العالم لا يقتصر بحال من الأحوال على « الحقائق وحـدها » .. وأعماق المعرفة الخطرة تتثائب عنـد هذه النقطة ، ولكن علينـا أن نحاول وأن نمضى قدما رغما عنها .. ومن المحتمل أن يكون تعميم أفكار باكون Bacon عن الاستقراء هو المصدر الرئيسى للفكرة الخاطئـة القـائلة بأن رجل العلم لا يفعل شيئا فى الحقـائق التى يستنبطها بداب ونزاهة ، الا أن يتركهـا تستقر فى مكان تتخـذه لنفسـها .. وفى الواقع لا يستطيع العـالم أن يعمل دون خطـة مرسومة فى ذهنـه .. ومع أن العلاقة بين الحقائق والخطط الذهنية ليست واضحة بأى حال من الأحوال فمن الواضح على الأقـل أن الخطة الذهنيـة تتضمن وجود شىء ما الى جوار الحقائق . انهـا تستلزم حقـا عقـلا نشطا ..

ولا يخافن أحـد من المصطلح الفنى « الخطـة التصورية » اذ أن المعنى فى الواقع بسيط جدا . فان الرعد والبرق يرتطمان بحاستى سمعنا وبصرنا .. ومن المحتمل أن يكون مجرد تمييز هـذا الصوت وهـذا الضوء عن غيرهما من الأصوات والأضواء معنـاه أننـا نستخدم خطة تصورية .

ومن المؤكد أننـا حين نفكر فى جوبيتر وسهامه ، والثور ومطرقتـه أو فى تفريغ الشـحنة الكهربائيـة فى علم الطبيعة الحديث ، فاننـا نكون بكل وضوح قـد هيأنا ادراكنا الحسى وفقـا لخطط تصورية محـددة .. والحق أننـا نملك العناصر الأساسية لثلاث نظريات مختلفة فى شأن الرعد والبرق ، وثلاثة قوانين مقررة بطرق مختلفة فى هـذه الظواهر الطبيعيـة ولكن الأسباب الوحيدة الهـامة التى توجب علينـا تفضيل تفريغ شحنتنا الكهربائيـة على جوبيتر أو الثور كخطة تصورية هى أنهـا أكثر نفعـا ،

واننـــا نستطيع باستخدامها أن نسير أيضا بطريقة أفضل بالخطط التصورية الأخرى التى نستخدمها لأغراض مشـــابهة .. ولكن بالمعنى الذى لكلمـــة « حقيقى » عنـــد اللاهوتيين ومعظم الأخلاقيين الفلاســـفة ، ليس تفريغ شحنتنا الكهربائيـــة « أصدق » من الأفكار العتيقـــة عن جوبيتر والثور .

بل قـــد نستخدم خطتين تصورتين متناقضتين ، ونختـــار الواحـــدة أو الأخرى حسبما يلائمنا أو وفقـــا لعاداتنا . فنحن جميعا خرجنا أثنـــاء تعليمنا من الخطة التصورية القـــديمة التى وضعها بطليموس والتى كانت ترى أن الشمس تدور حـــول أرض ثابتـــة ، الى الخطـــة التصوريه التى وضعها كوبر نيكوس والتى ترى أن الارض تدور حول الشمس الثابتة .. واستخدم أنيشتين طبعـــا خطة تصورية مختلفـــة بعض الشىء عن هاتين الخطتين ولكن أكثرنا لم يرتفع بعـــد الى مستوى أنشتين ، ومع ذلك نقول دائما والرضا يملأ نفوسنا أن « الشمس تطلع » ولا بد أن نكون متحذلقين حقـــا اذا أصررنا على القول بألفاظ كوبرنيكيـــة أن الأرض دارت فظهرت الشمس .. وأهم من هـــذا الوضع الراهن فيما يتعلق بالخطط التصورية فى علم الطبيعـــة الحديث .. وانا لنعلم — بقـــد رما يستطيع غير العلماء أن يعلموا فى مثل هـــذه الأمور — أن علماء الطبيعـــة يجدون من الملائم لهم فى دراســـة بعض المسائل أن يعتبروا الاليكترون جزئيـــا ، أو على الأقل نقطة ، وفى دراسة مسائل أخرى أن يعتبروه موجه .. ولقـــد أزعج هـــذا التناقض بعض علمـــاء الطبيعة — وكثير منهم من ذوى الشهرة العظيمة حقـــا — وعملوا على استنباط خطة تصورية واحـــدة تجعل من الاليكترون وحـــدة منطقيـــة دقيقـــة مرة أخرى ..

ومع ذلك فان الانسان يخـــالجه الشك فى أن هؤلاء العلمـــاء تركوا فى أنفسهم قليلا مما فى نفس الفيلسوف وأن نفوسهم المتفلســـفة هى نفسها التى تتطلب الوحـــدة فى الاليكترون .. ولا نزاع فى أن نفوسهم المتفلسفة موضع الاحترام كله طبعـــا ، تدفع نفوسهم العلمية الى العمل المثمر لأقصى حـــد . ولكن بعض علمـــاء الطبيعـــة يمضون فى عملهم بطريقة تدعو الى الاعجاب مع هـــذا الاليكترون المتعب من الناحيـــة المنطقية — فيعتبرونه موجة حينما يريدونه كذلك ، وجزئيـــا عنـــدما يريدونه أن يكون كذلك .. وهم كعلمـــاء يرضون تمام الرضا بأن يحلوا مشاكلهم التى تتنـــاول هـــذا العـــالم ، ويمكن أن تحل فى هـــذا العـــالم — ولو أنهـــا بلا شك ليست فى العـــالم الآخر — دون اعتبار للحقيقـــة النهائيـــة ..

لذلك يمضى العالم الى عمله بطريقة ما على النحو التالى تقريبا .. فهو يبدأ بخطة تصورية على نحو ما ، وبالأسئلة او حتى الافتراضات التى يشكلها وفقا لتلك الخطة .. ثم يجد فى البحث عن الحقائق ..

وانا نتفق مع ل.ج. هندرسون على تعريف الحقيقة فى العلوم الطبيعية « قرار يمكن اثبات صحته بالتجربة فيما يتعلق بالظواهر الطبيعية وفقا لخطة تصورية » وهو يعمل على ترتيب هذه الحقائق فى قوانين او نظريات تجيب على أسئلته وربما توحى بأسئلة أخرى . ثم يعود فينكب على البحث عن الحقائق ، ويخرج بقوانين جديدة أو معدلة .. ويهم العالم ان يعرف من أين جاءته خطته التصورية ، أو ان كانت قد سبقت الحقائق او أعقبتها ، او ان كانت هى « ذاتية » والحقائق « موضوعية » وانما يترك هذه المسائل للفلاسفة الذين لما يحسموها حتى الآن بعد ألفين من السنين قضوها فى الجدل .. ولكن العالم حين يعترف بأن الخطة التصورية أمر أساسى لازم لعمله مثل الحقائق المشاهدة ، فانه يحرر نفسه تماما ممن يسمون الماديين العلميين ، والوضعيين ، والتجريبيين الذين يؤكدون فى بساطة أن مدركاتنا الحسية هى فى حد ذاتها حقيقة واحدة منظمة أو « انعكاس » لمثل هذه الحقيقة .. ولنلاحظ على وجه الخصوص أن الحقائق التى يتناولها العالم ليست ظواهر طبيعية أو مدركات حسية ، و « عالما خارجيا » ، تلك المطلقات الغريزية على الوضعيين البسطاء ، وانما مجرد قرارات عن الظواهر الطبيعية وحينئذ فان أى أمر يمكن اثباته بطريقة مضبوطة فى شأن كروموبل Cromwel يعتبر حقيقة بقدر مماثل لقراءة الترمومتر فى المعمل .

رابعا : رغم أن العالم يكون حقا حريصا جدا فى مسائل التعريفات ، ويهمه كثيرا أن يقوم بعملية التنسيق مثل أى مؤرخ ويزدرى التفكير الردىء مثل أى منطقى ، فانه لا يثق فى الجمود ويحاول الوصول الى الكمال .. واهتمامه بجمال التعريف ودقته يكون عادة أقل من اهتمامه بأن يكون التعريف ملائما للحقائق وليس لعواطفه وأمانيه .. وهو فوق كل شىء لا يجادل فى الكلمات .. اهتمامه بالتمييز النظرى الدقيق بين الجبل والتل أقل من اهتمامه بالتأكد من أنه يعالج ارتفاعات قائمة على هذه الأرض . وهو لا يتوقع أن تكون الألفاظ التصنيفية كاملة ، أو قاصرة وحين يميز بين نبات وحيوان ، لا يغضب اطلاقا اذا وجهت انتباهه الى شىء حى يبدو أنه ينتمى الى الصنفين فى وقت واحد . انه يسارع الى دراسة الشىء الحى وسوف يعدل — اذا اقتضت الضرورة — ألفاظه

التصنيفيــة . ولكنــه أيضا على استعداد تام — اذا ثبت أن هــذا أكثر ملاءمة — أن يضع لفظا تصنيفيــا جــديدا للدلالة على الحــد بين النبات والحيوان . وهــدا الاستعداد البسيط الذى توجهه الملاءمة هو بالطبع احد الأشياء المدهشة فى العــالم وأحــد الأشياء التى يصعب علينا جــدا نحن الذين لم ندرب تدريبــا علميــا أن نكيف أنفسنا معها .. فان معظمنا قــد تدرب فى وقت مبكر على أن نفصل آراءنا على ما يلائمنــا .

خامسا : أن البحث العلمى المحترم تمــام الاحترام يمكن أن يجــرى — وهو كذلك على الدوام — فى مجالات يتعــذر فيها اجراء نوع التجارب المنظمة التقليدية المرتبطة على سبيل المثــل بعلم الطبيعة وعلى الكيمياء .. وقــد نسمى هــذا النوع من البحث العلمى القائم حقــا على عمل تجريبى مساعد — ولكنه لا يؤلف فى ذاته سلسلة من التجارب المنظمة — اكلينيكيا .. والاكلينيكى معروف جيــدا فى العــلوم الطبيــة ، حيث ظهر فى اليونان فى أوائل القرن الخامس مع ابقراط Epicure .. ويقوم الاكلينيكى بعمله عن طريق منهج دراسة الحالات ولا تتجمع معلوماته عن طريق التجــارب التى يستطيع الاشراف عليهــا وانما من خلال مجموعة من الحالات التى يشاهدها ويقارنهــا .. ثم ان الاكلينيكى دقيق فى عمله .. ولكنه لا يمكن — الا فيما ندر — أن يكون بالغ الدقة كما هو الحال فى العلوم الطبيعية .

وهو يجــد معونة عظيمة حين يستطيع الاعتماد على العلوم التجريبية — الكيميــاء العضوية مثلا — ولكن الاكلينيكى الجيــد قــد يكون عالمــا جيــدا . ومن الواضح أن العلوم الاجتماعيــة تستطيع الاعتماد الى مدى محــدود على التجريب الفعــلى المنظم ، ولكن من الممكن أن تصير علوما اكلينيكيــة .

وأخيرا ، فان التفكير العــلمى لا يمكن أن يكون — اللهم ربما الا فى الايحاء بدراسة المشاكل — كما يظن أكثرنا فى الوقت الحاضر أنه اعتقــاد قائم على الرغبــات بدلا من الحقــائق وأمانى العالم الخاصة ومخاوفه ، ومعــاييره لمــا يود أن يسود هــذه الأرض يجب أن تبقى بعيــدة بقــدر الامكان عن عمله ، وبعيدة بصفة خاصة عن ملاحظاته للحقائق أو معالجته لهــا .. أما الى أى مدى تتدخل مثل هــذه الآمال والمخاوف والمعــايير فى اختيــاره للخطط التصورية ، والى أى مدى تؤثر فى نوع الأسئلة التى يثيرها ، فمشاكل عسيرة ربما يسمح لنــا بتجنبها . ويكفى أن الطرق الفنية فى معظم العلوم المقررة تزودنا برقابة فعالة جــدا على الأشــكال الفجة

فى الاعتقاد المبنى على غير الحقائق ولأن التاريخ ظل لعهد طويل فنا ومهنة ، فانه ربما يكون اشد العلوم الاجتماعية احتراما ، وهو يمد المؤرخين المحترفين فى أثناء تدريبهم الفنى برقابة فعالة الى درجة مدهشة الأنواع العنيفة من الكتابة والتفكير .

والامر كله ، أن ليس هناك من سبب يحتم علينا الشعور بأن عالم الطبيعيات يستخدم مناهج ومعايير ثابتة ، لا يستطيع العالم الاجتماعى ابدا الحصول عليها تماما .. وان العلوم الطبيعية ، كما كان الماديون السذج فى القرن الماضى يعتبرونها — دقيقة لا تخطىء ، وعالما مبنيا على الاستقراء — يجب أن يبدو بعيدة المنال عن الاقتصادى أو الاجتماعى المكافح . ولكن العلوم الطبيعية كما يفهمها دائما أقدر المشتغلين بها والمفهومة الآن على نطاق واسع — وكما شرحه بوانكاريه Poincare بطريقة منهجية — ليست بديلا رقيقا للعناية الالهية ، وليست هذا التجريد الميتافيزيقى .. ان الله وحده هو الدقيق المنزه عن الخطأ والعليم بكل شىء ، لا يلحقه التغيير ، وقد قنع العلم الحديث بأن يترك البحث عن الله للدارسين الذين وفقوا لمثل هذا البحث بعد شوط طويل .

٣ — تطبيق المناهج العلمية على هذه الدراسة :

ان العلوم الاجتماعية عامة تعتمد جيدا على الحقائق المستمدة من عناصر التفكير العلمى الظاهرة — الخطة التصورية ، الحقائق ، « الحالات التاريخية » بصفة خاصة ، العمليات المنطقية ، القوانين ، بل انه فى مجال التاريخ ، حيث لا تكون مناهج البحث فى المعمل أو مناهج الاستفتاء ، فان الزاد الموجود من الحقائق جيد الى حد مدهش .. ولا يستطيع المرء أن يعيد كروموبل الى الحياة ، كما لا يستطيع أن يعيد الديناصور الى الحياة .. وما نعرفه عن كروموبل يمكن التعويل عليه فى كثير من النواحى مثل ما نعرفه عن الديناصور . والقول بأن التاريخ أسطورة اتفق عليها أو مجموعة من الألاعيب خدع بها الموتى ، معناه الافتراء أو على الأقل اساءة الحكم بفريق كبير من الباحثين المجتهدين الوقورين الذين قاموا بدراسة التاريخ . وجدير بالذكر أن القرن الماضى أو نحو ذلك شهد قيام جماعة من الباحثين فى التاريخ يحتفظون رغم كل أخطائهم بمعايير يمكن مقارنتها فى بعض جوانبها بتلك التى احتفظت بها جماعات مماثلة فى العلوم الطبيعية . وهؤلاء الباحثون لا يكشفون فى الواقع المادة الخام البسيطة

للحقائق ، وانما أشد علماء الآثار تواضعا هو الذى يرتب الحقائق التى يستخرجها من وثائقه بحيث يجعل منها نموذجا ؛ ومع ذلك فان عملية الترتيب هذه ليست هى التكوين الواعى للنظريات عند عالم الطبيعة . بل لم يعرف قط أن هذه العملية تتعلم كما يتعلم العالم الأسس النظرية لعلمه ، وانما تكتسب غالبا مثلما يكتسب العامل اليدوى المهارة .. وهذه المهارة الفنية فى جمع الوقائع المتعلقة بسلوك الناس فى الماضى ، وفحصها وتمحيصها هى التى تعطى قوة كبيرة للمؤرخ المحترف . ولو أنك سألت مثل هذا المؤرخ ما هى الحقيقة ، فمن المحتمل أنه يشعر بارتباك شديد عند هذا السؤال ، وهو عادة يعجز تماما عن الاجابة فى ألفاظ عامة مناسبة . وفى وسع أى فيلسوف جيد أدانته بالسذاجة التامة فى المعرفة . ولكن المؤرخ فى عمله اليومى يفرق تماما بين الحقيقة والنظرية ، ويظهر مقدرة حقيقية على تناول الوقائع وترتيبها .

واذن فسوف نعتمد على المؤرخين فى الحصول على الحقائق الضرورية .

وفيما يتعلق بالثورات الانجليزية والأمريكية بل والفرنسية أيضا ، فان مجموعة الكتابات التاريخية المشهورة والمنزهة عن الغرض الى حد معقول ، كبيرة جدا فى الواقع .. ولا تزال الأهواء تحتدم حول الثورة الفرنسية ، ولكنها أخذت فى الهدوء ببطء من جراء كثرة ما كتب عنها وفى الواقع أن المشكلة الكبرى هى فى الاختيار من هذا العدد الضخم من الكتابات .. ولا تزال الثورة الروسية قريبة العهد جدا حتى أن المؤرخين المحترفين يعتبرونها غير صالحة للتناول بالروح التى يحبونها فمصادر مادتها مبعثرة ، ولا يزال أكثرها محجوبا عن الدارسين .. ولم تزل اللغة حاجزا ولكن يمكن التغلب عليها تدريجيا فى الغرب . وقد أسدل الستار الحديدى أمام الباحث الغربى .. الا أن المعين الذى لدينا من الحقائق عن الثورة الروسية ليس ضئيلا أو تافها بحيث يعرقل مشروعنا الى حد يفقدنا الأمل . فان خمسا وثلاثين سنة وقت طويل ، والمراحل الأولى من الثورة الروسية قد أجرى استقصاؤها ان لم يكن بطريقة مطلقة فعلى الأقل بتجرد عن الفرض نسبى الى حد ما ومن ثم فان لدى محبى النظام الراهن فى روسيا وكارهيه الفرصة للافصاح عن آرائهم ، ويستطيع أى شخص يهمه الأمر أن يوازن بين أقوالهم .

ولسوف تعطينا خطتنا التصورية قدرا من الصعاب أزيد مما يعطينا معين الحقائق . وفى العلوم الاجتماعية على الأقل لا يزال الفرق بين الخطة

التصورية والاستعارة غير مؤكد ، ولا ضرر من النظر الى مشكلتنا الراهنة كبحث عن اطــار من استعارة غير مغرقــة فى الأدب لكى نلم بتفــاصيل ثوراتنــا .. والا أن واحــدة من أوضح هــذه الاستعارات ، ونعنى بهــا العاصفة تتضمن عــدة اخطاء . ونستطيع أن نلخصها بسرعة : فهنــاك أولا القعقعــة البعيــدة ، والسحب القاتمة ، الهدوء المشئوم الذى يسبق الانفجار ، وهــذا كله يطابق ما تعودت كتبنــا المدرسية أن تذكره باطمئنان باعتبــاره « أسباب » الثورة ، ثم تأتى فجأة بدايات الريح والمطر ، وهى بوضوح بدايات الريح والمطر ، وهى بوضوح بدايات الثورة نفسها ، ويتبع ذلك النهــاية المخيفــة ، مع شــدة الريح ، والمطر ، والرعد ، والبرق ، بل واكثر وضوحا « حكم الارهاب » . وأخيرا يجىء الســكون التدريجى ، والسماء الصافية ، وشروق الشمس مرة أخرى ، كما حدث فى أيام عودة الملكية فى عام ١٦٦٠ .. ولكن هــذا كله مغرق فى الأدب والدراما الى حــد لا يتواءم مع أغراضنا ، وقريب كله جــدا من الاستعارة كمــا استخدمها الأنبيــاء والوعاظ .. وبقــدر ما يمكن استخدام الخطة التصورية ، فهى تعتمــد على علم — علم الأرصاد الجوية — ليس لديه سوى القليــل من المساعدة المباشرة التى يقدمها لعــالم الاجتماع .

وفى الجانب المقابل تقريبــا توجد الخطة التصورية لنظــام اجتماعى متوازن كما شرحها بريتو Parito فى كتــابه « العقل والمجتمع » . وان أصحاب العقول الدقيقة ليضيقون ذرعا فى أغلب الأحيان بلفظة « التوازن » التى تعنى عندهم انغام مغرقة فى الآليــة مدمرة لكرامة الانســان .. ومع ذلك ففى العلم الحــديث أثبت هــذا اللفظ أنه مفيــد فى مجــالات مثــل الكيميــاء ، وعلم وظائف الأعضاء ، أى بعيــدا تماما عن مجــال الميكانيكا الذى نشأ فيــه هــذا اللفظ .. وفوق ذلك ، فان الكلمة كمــا يستخدمها العــالم الممارس ليس لهــا دلالات ميتافيزيقيــة أيا كانت .. وان تصورات نظام فيزيقى كيمــاوى متوازن ، أو نظــام اجتماعى متوازن ، أو جسم جون جونز فى توازن لا تمس فى أى شىء خلود روح أى انسان ، بل ولا تمس الانتصار النهائى لأصحاب مذهب الحيــاة على أصحاب المذهب الميكانيكى . ان فكرة التوازن تساعدنا على فهم وأحيــانا على استخدام أو ضبط آلات نوعيــة وكيماويات بل وأدوية .. وقــد تساعدنا فى يوم ما على فهم الناس فى المجتمع وعلى تشكيلهم الى حــد ما .

واستخدام هذا التصور فى دراسة الثورات واضح من حيث المبدأ .. ومن الممكن من الناحيــة الفطرية البحتــة تعريف المجتمع المتوازن توازنا

كاملا بأنه مجتمع يحصل فيه كل عضو على كل ما يمكن أن يرغب فيه فى وقت معين ، ثم أنه راض كل الرضا .. أو قد يمكن تعريفه بأنه مجتمع شبيه بمجتمعات بعض الحشرات الاجتماعية مثل النحل والنحل التى يتوقع فيها من كل عضو أن يستجيب لحوافز معينة . ومن الواضح ان اى مجتمع انسانى لا يستطيع الا أن يكون فى حالة توازن غير كامل ، وهى حالة تقوم فيها الرغبات المختلفة والعادات المتنوعة لدى الافراد ومجموعات من الأفراد بعملية تكيف متبادلة ومعقدة الى حد لا يمكن معالجتها فى الوقت الحاضر بالعلوم الرياضية . فحالما تنشأ رغبات جديدة أو حالما تقوى الرغبات القديمة فى الجماعات المتنوعة أو حالما تتغير الظروف البيئية وحالما تحقق الأنظمة فى احداث التغير ، فعندئذ قد تنشأ حالة اختلال نسبى فى التوازن وينفجر ما نسميه ثورة . ونحن نعرف أن فى جسم الانسان — مثلا — يكون اختلال التوازن الذى نسميه مرضا مصحوبا ببعض التفاعلات التى تعمل على اعادة الجسم الى حالة تشبه ما كان عليه قبل هجوم المرض . ويبدو من المحتمل تماما أنه فى النظام الاجتماعى المختل التوازن ، يكون هناك شىء ما من نوع هذه التفاعلات التى تعمل على اعادة الظروف القديمة ، وان هذا ليساعد على أن يفسر لماذا لا تصبح الثورات كما يريدها الثوار . ان التكيفات القديمة تعمل على اعادة استقرارها ، وتنتج ما يعرف فى التاريخ بالرجعية او العودة .. وفى الأنظمة الاجتماعية مثلما فى الجسم البشرى ، نوع من القوة الطبيعية الشافية يعمل فى الغالب بطريقة تلقائية على موازنة نوع من التغير بتغير آخر يجدد الماضى وهذه الخطة التصورية للتوزان الاجتماعى قد تصبح على مر الأيام أعظم ما يكون فائدة فى البحث فى الثورات من الوجهة الاجتماعية .

ومع ذلك ، فانها بالنسبة لأغراضنا الراهنة مغرقة فى الطموح بعض الشىء . فهى تحتاج لكى تنجح نجاحا تاما الى الالمام التام بمجموعة من المتنوعات العديدة أكبر مما نستطيع فى الوقت الحاضر . ومع انه ليس من الضرورى أن تصاغ فى مصطلحات رياضية دقيقة فمن الواجب أن تصاغ فى مصطلحات قريبة من مصطلحات العلوم الرياضية أكثر مما نستطيع أن نستخدمها بأمانة . وبعبارة أخرى ، أنها تصلح لدراسة الثورات من الناحية الاجتماعية أو « ديناميكة الثورة » أكثر من دراستنا المتواضعة لتشريح أربع ثورات معينة ، فنحن هنا نحاول مجرد تحليل أولى ، ونحاول التصنيف والتنظيم فى شىء من البساطة .

ومع أن بهــذه الخطة عيبا خطيرا جــدا ، فان أفضل خطة تصورية ملائمة لأغراضنا قــد تبدو أنهــا الخطة المستعارة من علم الأمراض .. وليكن مفهوما اننــا سنعتبر الثــورات ، دون التمسك بصحة الرأى الى الأبد ، نوعا من الحمى ، ومن السهل معرفة الخطوط العريضة التى تبين الحمى .. ففى المجتمع خلال الجيل أو نحوه قبل انفجار الثورة — فى النظام القــديم — ستوجد علامات الاضطراب القادمة . وهــذه العلامات على وجه الدقــة ليست أعراضا تامة ، اذ أنه عنــدما تظهر الأعراض بصورة كافيــة يكون المرض قــد حل الجسم فعلا . ولربما من الأفضل وصفا بأنها نذر ، ودلالات يعرف منهــا الطبيب أن المرض فى طريقه الى الظهور ولكنها ليست ناميــة بالقــدر الكافى لتصبح هى المرض نفســه . ثم يأتى وقت تظهر فيــه الأعراض تماما وعنــدئذ نستطيع أن نقول أن حمى الثورة قــد بدات . وهــذه الحمى تشتد حينــا وتخف حينا ويصحبها فى أغلب الأحيان هذيان ، هو حكم أشــد الثوار عنفــا ، حكم الارهاب .

وبعد ذلك تجىء فترة النقاهة ، وهى تتميز عادة بنكسة أو نكستين .. واخير تنتهى الحمى ، ويستعيد المريض نفســه مرة أخرى ، وربما يشعر بالقوة فى بعض النواحى نتيجة التجربة ويكتسب على الأقل مناعة لفترة ما ضــد مرض مماثل . ولكن من المؤكد أنه لا يصبح كلية انسانا جــديدا .. وهــذا ينطبق على المجتمعات التى تقوم بثورة كاملة . فانهــا تخرج منها قوية الى حــد ما ، ولكنهــا لا تكون جــديدة تماما ..

وهذه الخطة التصورية قد تستخدم دون أن تورط الذين يستخدمونها بأى حال فى نظــرية عضوية للمجتمع .. والنظــرية العضوية ، « فكرة المجتمع » ليست الا استعارة طورها الفلاسفة السياسيون الى نوع من الميتافيزيقــا ، وفى وسع بعض الفلاسفة السياسيين أن يجدوا فى الغالب أى شىء يريدونه فى النظــرية العضوية ، من الالزام الحتمى الى تبرير العــداوة للساميين واستنكار الديمقراطية البرلــانية ، وكلمة مجتمع تستخدم فى هــذه الدراسة كطريقة ملائمة للدلالة على سلوك الناس — كما يشاهد — فى حيــاتهم الاجتماعيــة ، وعلاقتهم بعضهم ببعض ، وهــذا كل ما فى الموضوع . ونجــد من الملائم تطبيق خطة تصورية مستعارة من الطب فى بعض التغيرات المشاهدة فى بعض المجتمعــات .

الفصل الثانى

الأنظمة القــديمة

١ ــ تشخيص العلامات الأوليــة :

من فرنسا ، التى أنجزت خلال عهد طويل نوعا من الحرية اللغوية ، تجىء عبــارة « النظــام القديم » .. وحين تطبق هــذه العبارة على تاريخ فرنسا ، فانهــا تشير الى طريقــة الحيــاة فى الأجيــال الثلاثة أو الأربعة التى سبقت ثورة ١٧٨٩ ، وبخاصــة آخر هــذه الأجيــال .. وقــد يحق لنــا التوسع فى استعمالها لوصف المجتمعــات المتنوعة التى بزغت منهــا ثوراتنا .. وتبعا لخطتنا التصورية سنبحث فى هــذه المجتمعات عن شىء ما مثل النــذير الثورى ، عن مجموعة من العلامات الأولية للثورة القادمة ..

ويجب ألا نقــدم على هــذا البحث دون احتياط شديد .. فاضطراب النظــام يبــدو الى حــد ما مرضا متوطنــا فى المجتمعــات كلهــا ، ومن المؤكد أنه كذلك فى مجتمعنا الغربى .. وفى وســع المؤرخ الذى يتحول الى مشخص للأمراض أن يجــد دلائل الاضطراب والتبرم فى أى مجتمع يختــاره للدراسة .. ويسجل البروفسور ب.أ. سوروكين فى ملحق الجزء الثــالث من كتــابه « الديناميكا الاجتماعية والثقافيــة » لانجلترا ــ وهى بلد قديم يتميز بالوعى السياسى ــ مائة واثنين وستين « اضطرابا داخليا فى العلاقات الاجتماعيــة » فيما بين سنة ٦٥٦ ، ١٩٢١ وهــذا يعنى على وجه التقريب أن « الاضطرابات تحدث مرة كل ثمانى سنوات » . وهى تتراوح فى الخطورة ما بين « الثورة الكبرى » والحرب الأهليــة فى الأربعينــات من عام ١٩٤٠ اللتين سنتناولهما فى هــذا الكتــاب ، والحوادث التافهة نسبيا مثل العصيان العسكرى فى مقاطعة ويسكس سنة ٧٢٥ .. وفى محاولة جريئــة يقــدر مستر سوروكين الأولى بنسبة ٧٧ر٢٧ والثانية ٦٦ر٢ ، ولكنهــا جميعــا مدرجــة فى كتب التــاريخ ..

واذا كان المجتمع المستقر او الســوى هو المجتمع الذى ليس فيــه اي تعبيرات عن السخط علي الحكومة أو على النظم القــائمة ، ولا تخالف

فيه القوانين قط ، فلن يكون هناك اذن مجتمعات مستقرة او سوية . وحتى الدولة الموحدة ذات الحزب الواحد يتوقع المرء أن تعيش فى هذا المستوى .

واذن فمجتمعنا العادى او السوى من يكون مجتمعا خاليا من التنديد بالحكومة او الطبقة الحاكمة ، او الخطب الحزينة على التدهور الخلقى السائد فى العصر ، او الأحلام الخيالية بعالم افضل فى الأفق ، أو الاضرابات واغلاق المصانع ، او التعطل ، أو الموجات الاجرامية ، أو الاعتداء على الحريات المدنية .. وكل ما نستطيع أن نتوقعه مما قد نسميه مجتمعا سويا ، هو الا يكون هناك مغالاة شديدة فى هذه التوترات ، كما يجب ان يتصرف معظم الناس فيه كأنما يشعرون أن المجتمع رغم كل أخطائه مشروع ناجح .. ثم قد نبحث عن الدلائل التى فرغنا من وصفها منذ هنيهة — تذمر يعبر عنه بالأقوال أو بالأفعال — ونحاول أن نقدر خطورتها .. ولا شك اننا سرعان ما نجد أننا نتناول عددا كبيرا من العوامل ، وأن هذه العوامل فى بعض المجتمعات التى درست فى أنظمتها القديمة تترابط بطرق متعددة وبنسب مختلفة وفى بعض الحالات لا توجد كلية أو تقريبا بعض العوامل ، ومن المؤكد الا يتيسر لنا أن نجد فى جميع الحالات التى ندرسها عرضا واحدا ظاهرا موجودا فى كل مكان بحيث نستطيع أن نقول :

عندما تجد (أ) أو (ب) فى مجتمع ما ، فستعرف أن ثورة ستحدث بعد شهر او سنة او عشر سنوات أو أى وقت فى المستقبل . على العكس من ذلك ، فان الأعراض عديدة ومتنوعة وليست بحال من الأحوال مجمعة بدقة فى نمط واحد . ويسعدنا كثيرا اذا أمكن التعرف عليها .

٢ — نقط الضعف الاقتصادية والسياسية فى البناء :

نحن ملزمون بوصفنا ابناء صالحين لعصرنا بأن نبدأ أى دراسة كهذه بالوضع الاقتصادى . ونحن جميعا — بغض النظر عما قد نشعر به من ميل قليل نحو الشيوعية المنظمة — نخدع أنفسنا عن مدى أثر ماركس فى الدراسات الاجتماعية ، ومدى أثر العوامل المختلفة فى ماركس ، عندما نوجه السؤال « ماذا كان للمصالح الاقتصادية من

علاقة بالموضوع كله ؟ » .. ومنذ قيام بيرد بدراسته لدستورنا ، شعر كثير من الباحثين الأمريكيين — كما يبدو حقا — بأ هذا هو السؤال الوحيد الذى يحتاجون الى توجيهه .

والآن ، لا جدال فى انه فى كل المجتمعات الأربعة التى ندرسها شهدت السنوات التى سبقت اندلاع الثورة مشكلات اقتصادية أو على الأقل مالية من نوع خاص خطير الى حد غير عادى .. وقد كان الاثنان الأولان من ملوك أسرة ستيوارت Stewart فى نزاع دائم مع برلماناتها بشأن الضرائب .. وفى السنوات قبيل سنة ١٦٤٠ كثرت الشكاوى من جراء الأموال المستحقة على السفن ، والتبرعات الخيرية ، والحمولات والأوزان ، وأشياء أخرى لها أسماء غريبة علينا الآن ، ولكنها كانت ذات يوم قادرة على أن تجعل من رجل غنى جدا من بكنجهام يدعى John Hampden جون هامبدن بطلا ، وقد كان من الناحية المالية قادرا تماما على ان يدفع من الضرائب قدرا أكبر كثيرا مما كان يدفعه .. والأمريكيون ليسوا فى حاجة الى من يذكرهم بالدور الذى كان للاضطرابات التى حدثت حول الضرائب فى السنوات السابقة مباشرة للرصاصة التى انطلقت فى الكونكورد Concorde وتحدت كل القوانين .. ولقد يرفض المؤرخون المحدثون أن يعتبروا شعار « لا ضرائب دون تمثيل » تفسيرا كاملا بذاته لبدايات الثورة الأمريكية ، ولكن تبقى الحقيقة وهى أنه كان فى السبعينات من عام سنة ١٧٧٠ شعارا قادرا على اثارة آبائنا الى العمل .. وفى سنة ١٧٨٩ كانت حالة الحكومة المالية السيئة هى التى ادت الى دعوة مجلس طبقات الأمة فى فرنسا وعجلت بقيام الثورة فيها .. فقد كانت فرنسا الرسمية فى سنة ١٧٨٩ من الناحية المالية فى حالة سيئة الى حد لا يمكن لأحد حتى عصرنا الحالى أن يعتقد أن الحكومة يمكنها أن تكون فيها .. وفى روسيا سنة ١٩١٧ ربما لم يكن الانهيار المالى بارزا الى مثل هذا الحد ، لأن النظام القيصرى كان قد انهار تماما فى جميع مجالات النشاط الحكومى .. من الحرب الى ادارة الشئون القروية .. ولكن ثلاث سنوات من الحرب قد أرهقت روسيا ، حتى انه رغم معونة الحلفاء — كان غلو الأسعار وندرة الحاجيات فى سنة ١٩١٧ أشد العوامل وضوحا فى التوتر العام .

الا انه فى كل هذه المجتمعات كانت الحكومة هى التى تعانى الصعوبات المالية ، وليست المجتمعات نفسها .. ولنضع المسألة بطريقة سلبية ،

نقول ان ثوراتنــا لم تحدث فى مجتمعات متخلفة اقتصاديا أو فى مجتمعــات تعــانى بؤسا أو كسادا اقتصاديا شاملا .. ولن تجد فى هــذه المجتمعات فى نظمها القديمة أى شىء مثل العوز الاقتصادى الشامل غير المألوف .. فلا بــد أن يكون المعيــار الذى يقاس به الفوز أو الكساد فى أية حالة هو مقياس المعيشة المقبولة الى حــد ما لدى جماعة معينــة فى وقت معين .. فان ما كان يرضى فلاحا انجليزيا سنة ١٦٤٠ قــد يكون بؤسا وعوزا عند العــامل الزراعى الانجليزى سنة ١٩٥٢ .. ومن الممكن أن تكون بعض الجماعات فى مجتمع ما ، فى حالة عوز شديد ، حتى ولو كان المجتمع ككل يتمتع «بدخل قومى» متزايد ومع ذلك فعندما يتزايد الدخل القومى بسرعة ، يحصل شخص ما على النفع منــه .

ولقــد كانت فرنسا فى ســنة ١٧٨٩ نموذجا رائعــا لمجتمع غنى له حكومة فقيرة . ولقــد بدأ القرن الثامن عشر يجمع الاحصاءات عن نفسه ، ومع أن هــذه الاحصاءات لا ترضى الاقتصاد الحديث ، الا أنها تساعد على التيقن من الرخاء المتزايد فى فرنســا ابان القرن الثامن عشر .. ولدينــا مجموعة من الأدلة — التجارة الخارجيــة ، زيادة عــدد السكان ، حركة البنــاء ، الصناعات ، الانتاج الزراعى — تبين الثراء والتقــدم خلال القرن الثــامن عشر كله .. واليك أمثلة قليــلة : استصلحت الأراضى البور فى فرنســا كلهــا . وفى دائرة ميلون وحــدها خلال عامين ما بين ١٧٨٣ ، ١٧٨٥ ، انخفضت مساحة الأراضى غير المزروعة من ١٤٥٠٠ الى ١٠٫٠٠٠ آرينت ، وكانت روين تنتج سنويا فى عام ١٧٨٧ من المنسوجات القطنيــة ما قيمتــه خمسون مليون جنيــه ، وضاعفت انتاجها على الأقل خلال جيل واحــد .. وزادت التجارة الفرنسية مع شمال افريقيــا من حوالى مليون جنيــه ســنة ١٧٤٠ الى ٦٫٢١٦٫٠٠٠ جنيــه فى ســنة ١٧٨٨ .. وزاد اجمالى التجارة الخارجية الفرنسية فى سنة ١٧٨٧ حوالى مائة مليون جنيه فى الاثنى عشر عاما منــذ وفاة لويس الخامس عشر سنة ١٧٧٤ .

بل حتى فى احصاءاتنا الناقصــة نستطيع أن نتبين العوامل الدورية قصيرة الأجل ، ويبــدو واضحا أنه فى بعض الجوانب وبخاصة فى محصول القمح كانت ١٧٨٨/١٧٨٩ سنة سيئة .. الا أنها لم تكن بحال من الأحوال سنة كساد شــديد مثلما كانت ســنة ١٩٣٢ بالنسبة لهــذا البلد (يعنى الأزمة الاقتصادية فى أمريكا ، ولو عمل رجال الأعمال الفرنسيين فى القرن الثامن عشر رسوما بيانيــة ، لصعدت الخطوط فيها بثبات يدعو الى الرضا طوال معظم الفترة التى سبقت الثورة الفرنســية .. ولكن من المؤكد أن

هـذا الرخاء كان يوزع بطريقة أبعد ما تكون عن المساواة .. وكان الناس الذين يحصلون على نصيب الأسد منـه هم فيما يبـدو التجار وأصحاب البنوك ورجـال الأعمـال والمحـامون والمزارعون الذين يديرون مزارعهم كمشروعات تجارية .. الطبقة المتوسطة كمـا أصبحنا ندعوها .. وكان هؤلاء الموسرون فى الثمانيـات من عام ١٧٨٠ أشد النـاس عداوة ضـد الحكومة ، وأشدهم ترددا فى انقـاذها بدفع الضرائب لهـا أو اقراضها الأموال ..

ولكن تبقى الفكرة الملحة وهى أنه لا بـد أن النـاس الذين صنعوا الثورة الفرنسية كانوا بطريقة أو بأخرى يعانون حرمانا اقتصاديا خطيرا ..

ولقـد أمضى س.أ. لابروس حياته — وهو بحـاثة معاصر مشهور جـدا — يكافح فى البحث فى الأسـعار فى فترات زمنية مسلسلة فى دلائل اقتصادية وما أشبه ذلك خلال النصف الثـانى من القرن الثـامن عشر فى فرنسا ، ساعيا الى اثبات أن الفقراء وأصحاب الدخول المتوسطة كانوا يضيقون بالأسعار الى حـد حفزهم على الثورة بسبب ما أحسوه من عوز فعلى ، أو على الأقل من عناء ، ولكن رغم عمله الشاق ، فان بحثه لم يكن مقنعـا ..

فالرجال الذين صنعوا الثـورة الفرنسـية كانوا يحصلون على دخل مطرد الزيادة .. الى حـد جعلهم يطلبون المزيد الكثير .. وفوق هـذا كله — كمـا سنرى — كانوا يريدون الكثير الذى لا يستطيع الاقتصـادى قياسـه ..

أما فى أمريكا — تلك القـارة الخالية التى كانت فى متناول البؤساء — فان الظروف الاقتصادية العـامة فى القرن الثـامن عشر تكشف عن ثروة وعـدد من السكان فى زيادة مطردة ، مع البؤس الاقتصادى — نسبيا .. فلا يمكن أن يكون هناك حـديث عن الموت جوعا ، أو الفقر المدقع بولاية نيوانجلنـد فى عهد قانون الدمغـة .. بل ان التقلبـات الطفيفة فى دورة الأعمـال لا تتفق والثـورة ، وقـد كانت السنوات الأولى من السبعينات فى عام ١٧٧٠ تتميز بأنهـا سنوات الرخاء .. كان هناك ضغوط وأزمات اقتصادية فى أمريكا المستعمرة ، كمـا سنرى عاجلا — ولكن لم يحدث أن ناخت طبقة من جراء الفقر .

وليس من السهل أيضا القول بأن انجلترا فى بواكير عهد أسرة ستيوارت كانت اقل رخاء من انجلترا فى أواخر عهد أسرة تيودور بل هناك دليل على انه وبخاصة سنوات الحكم الفردى ، التى سبقت العهد البرلمانى الطويل ، كانت انجلترا فى حالة رخاء ملحوظ .. وكتب رامساى موير يقول أن « انجلترا لم تعرف قط رخاء أكثر استقرارا أو أكثر انتشارا ، وكان عبء الضرائب أخف منه فى أى بلد آخر .. ومن المؤكد أن الثورة القادمة ليس مرجعها البؤس الاقتصادى » .

وحتى فى روسيا سنة ١٩١٧ اذا طرحنا جانبا انهيار جهاز الحكومة تحت ضغط الارهاق الذى أحدثته الحرب ، فمن المؤكد أن القدرة الانتاجية للمجتمع ككل كانت أكبر مما فى أى فترة أخرى من التاريخ الروسى ، ونعود مرة أخرى الى النظرة البعيدة المدى ، فنجد أن الرسوم البيانية للنواحى الاقتصادية تتجه كلها على وجه العموم الى الصعود فى روسيا فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين وكان التقدم ملحوظا فى التجارة والانتاج منذ الثورة الفاشلة فى سنة ١٩٠٥ .. ولا يكاد أى مؤرخ غير ماركسى الآن يجادل فى الحقيقة الواقعة وهى أن روسيا فى عهد البرلمانات الثلاثة الأولى (١٩٠٦ — ١٩١٢) كانت فى طريقها الصاعد كمجتمع غربى ..

واذن ، فثوراتنا لم تولد — كما هو واضح — فى مجتمعات متخلفة اقتصاديا ، بل على العكس انها حدثت فى مجتمعات متقدمة من الناحية الاقتصادية .. ولكن هذا لا يعنى بالطبع أنه لم تكن هناك جماعات فى هذه المجتمعات تعانى صنوفا من الضيم الاقتصادى ..

ويبدو أن ثمة منبعين أساسيين للدوافع الاقتصادية على السخط : الأول والأقل أهمية ، هو البؤس الفعلى لجماعات معينة فى مجتمع معين .. فليس من شك أنه كان فى كل مجتمعاتنا — حتى فى أمريكا — جماعة من الفقراء تعيش على هامش الحياة ، وكان تحررها من بعض أنواع القمع صورة هامة جدا من صور الثورة نفسها .. ولكن عند دراسة العلامات الأولية للثورة ، يتبين أن هؤلاء الناس ليسوا ذوى أهمية كبيرة .. ولقد أصر المؤرخون الجمهوريون الفرنسيون طويلا على أهمية المحصول السىء فى سنة ١٧٨٨ ، والشتاء القارس فى ١٧٨٨/١٧٨٩ وما أعقب ذلك من متاعب للفقراء .. كان الخبز نادرا نسبيا فى ذلك الربيع عندما اجتمع

مجلس طبقات الأمة .. ومع أن الأعمال فى أمريكا فى ١٧٧٤/١٧٧٥ ضاقت بشكل واضح فمن المؤكد أنه لم يكن هناك شىء مثل انتشار البؤس او التعطل . وفى الواقع كانت المتاعب المحلية فى بوسطون ، وهى كثيرة فى ظل قانون الموانى ، جزءا من الثورة نفسها ولم تكن علامة من علاماتها . ومن المؤكد أن شتاء ١٩١٦/١٩١٧ كان شتاء قارسا فى روسيا ، مقترنا بتوزيع الطعام بالبطاقات فى كل المدن ..

ومع ذلك فالشىء المهم الذى نلحظه هو أن كلا من التاريخ الفرنسى والتاريخ الروسى مليئان بأخبار المجاعات ، والأوبئة ، والمحاصيل السيئة . وقد كانت اقليمية أحيانا وقومية أحيانا أخرى من حيث الانتشار ، وكان أكثرها مصحوبا باضطرابات متقطعة ، ولكن فى كل حالة كانت احداها فقط هى التى تصحبها الثورة .. ولكننا لا نجد فى الثورة الانجليزية أو فى الثورة الأمريكية حتى هذه الدرجة من العوز الاقليمى أو الجماعة . واذن فمن الواضح أن البؤس الاقتصادى للمحرومين من الامتيازات ، ولو أنه يصحب الوضع الثورى ليس من الأعراض التى تتطلب التمسك بها .. وهذا ما يعترف به الماركسيون الأشد مرونة ، وقد كتب تروتسكى .. « فى الحق أن مجرد وجود الحرمان ليس كافيا لاحداث ثورة .. ولو أنه كان كذلك ، لكانت الجماهير فى ثورة على الدوام » .

وأهم من ذلك كثيرا هو احساس جماعة أو جماعات بأن الظروف السائدة تحدد أو تعرقل نشاطها الاقتصادى . وانا لندرك بصفة خاصة هذا العنصر فى ثورتنا الأمريكية ، وقد أظهر البروفسور أ.م. شليسنجر الأكبر كيف أن التجار الموسرين ، حين لحق الأذى بمصالحهم المباشرة نتيجة السياسة الامبريالية الجديدة للحكومة البريطانية ، قادوا المظاهرات ضد قانون ١٧٦٤ ، ١٧٦٥ ، وساعدوا فى اثارة السخط فى صفوف الأقل ثراء منهم ، وهم الذين وجدهم هؤلاء التجار فيما بعد مرتبكين ماليا ..

وليس من شك أيضا أن كثيرا من النقاط السوداء فى سياسة الحكومة البريطانية غير المستقيمة والمترددة — قانون التمغة وما أعقبه من اضطرابات واعلان العزم على تنفيذ قانون الملاحة .. الخ .. كأن لها آثار سيئة على الأعمال ، كما سبب خروج الناس من أعمالهم ، كذلك أسىء بطبيعة الحال تناول مسألة العملة فى وقت لم يكن الجهل بالعمليات

الاقتصادية يتسامح فيه ولقد كانت المستعمرات دائما فى حاجة الى النقود وكانت مشروعات الأعمال تعانى من هذا النقص .. وكانت الاوراق النقدية التى اقتضى الأمر الرجوع الى استخدامها مصدرا لا يمكن تجنبه أيضا لمزيد من المنازعات بين الحاكمين والمحكومين .

وان احتمال الدوافع الاقتصادية الى حد الثورة فى نفوس الطبقات المالكة التى تميل عادة الى تأييد الأنظمة القائمة يتضح بصفة خاصة وسط الأرستقراطيين فى ولاية فرجينيا . وكان الكثيرون من المزارعيين الذين يعتمدون الى حد كبير على محصول واحد (الطباق) والذين اعتادوا على مستوى رفيع من المعيشة ، والذين تزايدت ديونهم لبنوك لندن يرجون أن يعيدوا جميع ثرواتهم فى الأراضى الغربية التى يعتبرونها تماما تابعة لولاية فرجينيا .. وتعتبر تورطات جورج وشنطن فى المضاربات على الأراضى الغربية أحد الموضوعات المحببة الى نفوس من فقدوا حسن السمعة ، ومع ذلك فان الحكومة البريطانية استولت بقانون كويبك سنة ١٧٧٤ على الأراضى الواقعة وراء الليجينى شمال أوهيو من فرجينيا وغيرها من المستعمرات التى تدعى ملكيتها ودمجتها فى كندا .. ولقد اثار هذا القرار موجدة آخرين فضلا عن المزارعين والمضاربين .. وكان اقفال هذه الحدود مسيئا أيضا الى طبقة ربما كانت فى الظروف العادية أميل الى الثورة وتشمل الحطابين وتجار الفراء المتبرمين وصغار الفلاحين الرواد الأقل تبرما الذين كانوا قد احتلوا من قبل وديان الابلاش وكانوا مستعدين أن يتقاطروا على ولايتى كنتوكى وأوهيو ، الا أن قانون كويبك فى ذاته لا يفسر بالطبع الثورة الأمريكية .. ولكنه حين يؤخذ مع القوانين الأخرى : قانون التمغة ، قانون الملاحة ، قانون العسل الأسود ، فانه يوضح سبب ما تشعر به الجماعات النشطة الطموحة فى أمريكا بأن الحكم البريطانى كان قيدا غير ضرورى وثقيل ، وعقبة تحول دون نجاحهم الكامل فى الحياة .

وفى فرنسا تميزت السنوات التى سبقت ١٧٨٩ بسلسلة من الاجراءات التى تخاصم جماعات مختلفة .. لقد كانت الحكومة بسماجة مذهلة تعطى بيد ما تسحبه بالأخرى .. وأساءت الجهود التى بذلت لاصلاح النظام الضريبى — الذى لم ينفذ قط تنفيذا كاملا — الى الجماعات المتميزة كما لم ترض الجماعات غير المتميزة . ولقد حاول ترجوا أن يدخل نظام « حرية العمل » فأساء الى كل المصالح المكتسبة للطوائف القديمة .

كما اثار عجزه عن تنفيذ اصلاحاته أصحاب العقول الراجحة والتقدميين عامة .. كذلك أضرت معاهدة التخفيضات الجمركية المشهورة مع انجلترا فى سنة ١٧٨٦ بصناعة المنسوجات الفرنسية ، وزادت عدد المتعطلين فى نورماندى وغيرها من الأقاليم وأوغرت صدور طبقة أصحاب الأعمال ضد الحكومة .. وكذلك كان الحال فى بريطانيا فى القرن السابع عشر ، فليس من شك فى أن محاولة احياء النظم الضريبية البالية قد بدت لتجار لندن أو بريستول تهديدا لرخائهم المتزايد ولمكانتهم .

وهكذا نرى أن بعض المظالم الاقتصادية — ليست عادة فى شكل بؤس اقتصادى ، بل شعور من جانب بعض الجماعات الرئيسية صاحبة المشروعات بأن الفرص المتاحة لتقدمها فى هذا العالم تحدها دون وجه حق اجراءات سياسية — قد تبدو أحد أعراض الثورة .. ولا شك فى أن من الواجب أن يعم الاحساس بالظلم المجتمع كله بالدعاية ، وضغط الجماعات ، والاجتماعات العامة ، ويفضل أن تحدث أيضا بعض الاضطرابات المثيرة مثل حفلة الشاى التى أقيمت فى بوسطون . ويجب — كما سنرى — أن تحاط هذه المظالم مهما كانت وثيقة الصلة بالحالة المالية بالوقار وأن تمس الروح .. فان ما لا يكون حقيقة أمره الا قيدا على جماعة صاعدة وناجحة بالفعل ، أو على عدة جماعات يجب أن يبدو ظلما فاحشا تجاه كل فرد فى المجتمع . ان الناس قد يثورون — بعضهم أو غالبيتهم لأنهم مقيدون أو كما يقول دكتور جورج بيتيز عاجزون عن القيام بنشاطهم الاقتصادى ولكن عليهم — فيما عدا نفر قليل جدا من المنافقين — أن يظهروا أمام العالم وأمام أنفسهم بأنهم مظلومون .

ان التعجيز عن القيام بوجوه النشاط الاقتصادى يجب أن يثير الاستياء بين الناس قبل قيامهم بالثورة .. ولن تستطيع الثورات أن تنشب دون كلمة « العدالة » وما تثيره من عواطف .

ومع ذلك فان هذا كله أقل مما يعنيه الماركسيون عندما يتحدثون عن ثورات القرون السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر باعتبارها عملا متعمدا من البورجوازية الواعية بمصالحها الطبقية .. بل ان الثوار والساخطين فى القرن الثامن عشر الذين لم يطلعوا على كتابات ماركس

او حتى على مؤلفات آدم سميث الذى لم يزل اقل شهرة ، كانوا يستخدمون كلمات بعيدة جدا عن الاقتصاد .. وطبيعى أن الماركسى — يؤيده فرويد — يستطيع أن يجيب فى اتقان بأن الدافع الاقتصادى دفع هؤلاء البورجوازيين الى مستوى اللاوعى أو الوعى الباطن .. والصعوبة فى هذا من وجهة نظر الشخص الذى نشأ على تقاليد البحث التاريخى الفنى هو أن الوعى الباطن لا يكتب قط — آو نادرا ما يكتب — الوثائق أو يلقى الأحاديث . اذا اقتصرنا على ما كان هؤلاء البورجوازيون يقولونه او يفعلونه ، فاننا نجد كثيرا من الشواهد على أن الجماعات المتفرقة — التجار الأمريكيين مثلا — كانت تشعر ببعض المظالم الاقتصادية ولكن ليس ثمة علامات تدل على أن البورجوازيين والمستثمرين ورجال الأعمال كانوا كطبقة يدركون أن مصالحهم فى التوسع الاقتصادى الحر تعوقها الاجراءات « الاقطاعية » القائمة . والحق كان فى فرنسا عدد كبير جدا من رجال الأعمال يضيقون بالمعاهدة التجارية التى عقدت مع بريطانيا سنة ١٧٨٦ أكثر مما يضيقون بأى اجراء من جانب الحكومة . ومن المؤكد ان أحدا لا يجد فى انجلترا أو أمريكا أو فرنسا أثرا لأناس يقولون « ان الاقطاع المنظم يمنع غلبة رأسمالية الطبقة المتوسطة .. هيا بنا نثور عليه » ، وفى الواقع لم يكن فى هذه البلدان قبل الثورات مباشرة اى حواجز اقتصادية جسيمة تمنع المجتهد حتى ولو كان من الطبقات الدنيا من الثراء اذا كانت لديه القدرة على جمع المال .. وثمة عشرات من السير تظهر هذا .. دوفيرنى باريس ، وفولتير ، وادموند بيرك ، جون لو ، جون هانوك .. ومن المؤكد أن أحدا لا يستطيع أن ينكر أن المنازعات الطبقية وجدت فى هذه البلدان ، ولكن بقدر ما نستطيع الحكم لم يكن لهذه المنازعات الطبقية أساس اقتصادى بسيط وواضح . ولا شك أن التعبير عن هذه المنازعات فى روسيا خلال القرن العشرين كان بلغة الاقتصاد ، ولو أنه من المحتمل هنا أيضا أن نجد أن العواطف البشرية لها دخل مثل المصالح الانسانية على حد سواء .

ومجمل القول أننا حين ننظر الى الحياة الاقتصادية فى هذه المجتمعات فى السنوات التى سبقت الثورة ، نلحظ أولا أنها كانت بصفة عامة مجتمعات ميسورة ، وثانيا أن حكوماتها كانت تعانى عجزا ماليا مزمنا ، أى أنها كانت أعجز ماليا مما تكون عليه أكثر الحكومات عادة ، ثالثا أن بعض الجماعات كانت تشعر بأن سياسات الحكومة تجرى ضد مصالحها الاقتصادية الخاصة ، رابعا فيما عدا روسيا لم تكن

المصالح الاقتصادية الطبقية متقدمة صراحة فى الدعاية كدافع لمحاولة قلب الاوضاع السياسية والاجتماعية القائمة .. ومن المفيد أن نذكر هنا أن ر.ب. مريمان فى دراسته لست ثورات من ثورات القرن السابع عشر فى انجلترا وفرنسا وهولندة وأسبانيا والبرتغال ونابلى وجد أنها فى مجموعها كان لها أصل اقتصادى ومالى ، وكلها بدات كاحتجاجات على النظم الضريبية .

واذا نحن تركنا الآن الضغوط والقيود على الحياة الاقتصادية الى الأعمال الفعلية لأجهزة الحكومة نجد حالة أكثر وضوحا ، وهنا مرة اخرى يجب الا نضع الكمال كشرط عادى .. فان الحكومة فى أحسن أحوالها على هذه الأرض ليست منزهة عن العيوب وسيجد المحكومون دائما ما يتذمرون منه ؛ من المحسوبية والفساد .. ولكن من الواضح أن عجز الحكومة على درجات كما أن صبر المحكومين على درجات وفى مجتمعاتنا الأربعة يبدو أن الحكومات كانت عاجزة نسبيا وأن المحكومين نفذ صبرهم نسبيا ..

والحق أن قرب افلاس حكومة ما فى مجتمع ميسور يمكن أن يعتبر دليلا أوليا جيدا على عجزها عن العمل ، أو على الأقل فى الأزمنة القديمة عندما كانت الحكومات تتولى عددا قليلا من الخدمات الاجتماعية أو المخصصة لخدمة المجتمع .

وتوحى أساليب الحكم فى المانيا وروسيا بأنه ربما من الآن فصاعدا لا يحدث مجرد الافلاس المالى أى اضطراب للحكومة ، حيث أن حقائق ماليتها لا يمكن أن تعرف . وتعتبر فرنسا سنة ١٧٨٩ مثلا رائعا لمجتمع لم تعد حكومته تؤدى وظيفتها بطريقة مرضية .. ولقد ظل الملوك الفرنسيون ووزراؤهم طوال أجيال يحاربون الاتجاهات الذاتية فى الأقاليم التى تهدف الى الخروج عن سيطرة باريس وذلك بانشاء سلسلة كاملة من المؤسسات المركزية التى يمكن أن يقال أنها كانت قائمة فى عهد شرلمان وانتقلت الى فرنسا فى عهد ريشيليو ولويس الرابع عشر . ومع ذلك كانوا كالأنجلوسكسونيين ، لأنهم لم يقضوا الا القليل جدا من القديم فى هذه العملية ، ولذلك كانت فرنسا فى سنة ١٧٨٩ أشبه بطابق ملىء الى آخره بكل أنواع الأثاث القديم .. محتويا فى الوقت نفسه على بعض كراسى جديدة جميلة من صنع ترجو ، لا تتلاءم مع حجرة الجلوس .

ولسنا فى حاجة الى التوغل فى تفاصيل الحـالة التى يمكن تلخيصها بقولنا انه بينما يستطيع المرء أن يرسم خريطة للولايات المتحـدة تبين مناطقهـا الادارية ، والمدن والمقاطعـات والولايات ، لا يستطيع أن يرسم خريطـة واحـدة للمناطق الادارية فى فرنسا القديمة ، بل ان الغموض الذى يكسو خريطة ادارية للولايات المتحدة الأمريكيـة نتيجة للجان والمكاتب والوكالات والادارات الفدراليـة المتنوعة والجـديدة نسبيا لا يصل الى ما فى خريطة فرنسـا من غموض سنة ١٧٨٩ .. ولقـد يحتـاج المرء الى ست خرائط على الأقـل لتبين الوحـدات المتقاطعـة فى باروأس ، سينيورى وبالاج وسينشوسى ، وجنراليتيـه ، ومركز الحكومة ، أراضى الدولة والدوائر ، والمزارع الخمس الكبيرة ، مدن ضريبة الملح الكبيرة والصغيرة ، وليس ذلك الا بداية .

ومعنى ذلك أنه فى فرنسا القرن الثامن عشر كان من العسير جـدا على الحكومة أن تقوم بأى عمـل ، الأمر الذى يعتبره دكتور بتى من أهم المعوقات . ويذكر عن لويس الخامس عشر احدى الأقاصيص ذات الدلالة التى لا تهم حقيقتها التاريخيـة الفعليـة ، ما دامت تعكس الرأى المعاصر للظروف الواقعـة .. ان جلالته وهو يطوف بالأقاليم رأى شـقا فى سقف القـاعة المقرر استقباله فيهـا فقـال « آه لو كنت وزيرا ، لأصلحت ذلك » ولربما كانت الحكومة التى أمكن ذكر هـذه القصة عنهـا ، حكومة استبدادية ، ولكن من المؤكد جـدا أنهـا كانت عاجزة .. وعلى العموم يبـدو أن العجز سرعان ما يعترف بـه من جانب الذين يعـانون منه أكثر من الاسـتبداد .

ولقـد كان عجز الحكومة البريطانيـة فى عهد أول اثنين من ملوك أسرة ستيوارت أقل وضوحا من ذلك بقـدر كبير .. ولكن نستطيع أن نقرر مطمئنين أن الحكومة المركزية لم تكن تدار وبخاصة فى عهـد جيمس الأول بمثل الجودة التى كانت بهـا فى عهـد الملكة اليزابث .. وأشـد ما يدعو الى الدهشـة فى الوضع الانجليزى هو العجز الكامل من حكومة حديثـة عن ايجاد نظام للضرائب قائم على الاحتياجات المتواضعة لحكومة اقطاعية مركزية .. وذلك لأن حكومة جيمس الأول كانت فى بداية الطريق الى أن تصبح حكومة حديثـة وأن تتولى بعض الخدمات الاجتماعيـة الأولية وأن تعتمـد على جهاز ادارى ، وجيش نظامى وأسطول لا بـد أن تدفع لـه الرواتب نقـدا .. ولم تكن الحـاجة المزمنـة الى النقود التى واجهت

جيمس الأول وشارل الأول نتيجة حياة التبذير ، والاسراف فى نفقات القصر بل كانت ترجع فى معظمها الى النفقات التى لم تكن أى حكومة حديثة تستطيع تجنبها .. الا أن دخل هذه الحكومة فى عمومه كان يحدد ويجمع بالطرق الاقطاعية العتيقة . وعلى أى حال كان من الواضح أن ملوك أسرة ستيوارت فى حاجة الى المال ، ولكن محاولاتهم لملء خزائنهم كانت بشعة ، وكانت تجرى بطرق سيئة مما أوقعهم فى منازعات حادة مع أولئك الذين كانوا يستطيعون أن يحصلوا منهم وحدهم فى تلك الأيام على الأموال بسرعة — الأعيان والطبقة المتوسطة .. وكانت منازعاتهم مع البرلمان مما عطل جهاز الحكومة الانجليزية كله .

وفى أمريكا كان اخفاق جهاز الحكومة مزدوجا .. أولا : كانت ادارة المستعمرات المركزية فى وستمنستر قد سمح لها بأن تنمو بطريقة التجربة أو الخطأ التى ظل الانجليز عهدا طويلا يعتبرونها قمة الحكمة السياسة .

ومع ذلك ففى هذه الأزمة كان شق الطريق غير كاف .. ولم تؤد محاولة اصلاح ادارة المستعمرات بعد حرب السبع سنوات الا الى زيادة الأمور سوءا مثلما أدت محاولات الاصلاح التى قام بها ترجو فى فرنسا اذ أنها نفذت فى سلسلة من التقدم والتراجع ، والمداهنة ، والتهديدات ، والتغلب بين الشدة واللين ..

ثانيا : لم يكن جهاز الحكومة فى داخل المستعمرات متلائما تماما مع الحدود .. كانت الأقاليم الغربية الجديدة فى كثير من المستعمرات تشكو من أن تمثيلها النيابى والمحاكم والتقسيمات الادارية كلها تعد لمصلحة المستعمرات القديمة الساحلية .

ولقد أصبح انهيار الادارة القيصرية الآن أمرا عاديا حتى أن الانسان ايميل الى الظن بأن الحديث عنه مبالغ فيه بعض الشىء .. وحين ننظر الى عشرات السنين التى سبقت ١٩١٧ — لأننا فى هذه البلدان جميعا كنا ننظر دائما فيما وراء الثورات وليس فى انفجاراتها الفعلية — يبدو أن فى الامكان الاعتقاد بأن حكومة روسيا فى عهد السلم على الأقل ربما كانت أكثر قدرة من الحكومات الأخرى التى درسناها . ففيما بين كاترين العظمى وشوليبين يمكن أن نرى قدرا كبيرا من التحسن الفعلى فى الحكومة الروسية .. ولكن شيئا واحدا يتضح منذ المائة سنة التى سبقت

سنة ١٩١٤ وهو أن روسيا لم تستطع أن تعد نفسها* للحرب وقد جلبت الهزيمة فى الحرب وبخاصة سنة ١٩٠٥ انهيارا جزئيا فى جهاز الادارة الداخلية .. ولا بد من التمسك بالحقائق وتجنب الأحكام التى أقحمت نفسها فى معرفتنا بروسيا الى الحد الذى جعلنا نعتبرها من الحقائق .. وتحقيقا لأغراضنا يكفى أن نلحظ أن انهيار الحكومة الروسية الذى اتضح سنة ١٩١٧ بل فى سنة ١٩١٦ لم يكن بحال من الأحوال واضحا فى سنة ١٩١٢ مثلا .

وأخيرا فان أوضح الأمور التى يمكن أن تسجلها هى الجهد الذى يبذل فى كل مجتمع من المجتمعات لاصلاح جهاز الحكومة .. ولا شىء يمكن أن يكون أكثر خطأ من تصوير النظام القديم على أنه نظام طغيان عنيف ، غارق فى عدم المبالاة بصيحات رعاياه الذين أسىء استغلالهم .. ان شارل الأول كان يعمل على « تجديد » حكومته ، وادخال بعض الأساليب الفرنسية الفعالة الى انجلترا .. ولم يكن ستافورد من بعض الوجوه سوى ريشيليو السىء الحظ .. وكان جورج الثالث ووزراؤه يحاوون جاهدين أن يوحدوا الأجهزة المبعثرة لحكومة المستعمرات البريطانية .. والحق أن هذه المحاولة للاصلاح ، وهذه الرغبة فى استنباط « نظام « استعمارى جديد هى التى أعطت المبادأة فى أمريكا للحركة الثورية .

وفى فرنسا وروسيا كان هناك سلسلة من محاولات الاصلاح مرتبطة بأسماء مثل ترجو ، وماليرب ، ونكر ، ووت ، وستوليبين Malerbe Necker Watt Stolypyn . ومع أن هذه الاصلاحات كانت حقيقة غير كاملة وانها كانت تلغى أو تنقض نتيجة أعمال التخريب من جانب أصحاب الامتيازات .. الا أنها فى سجل التاريخ جزء أساسى من العملية التى أعقبتها الثورة فى هذه البلدان .

٣ — هروب المثقفين :

حتى الآن ركزنا انتباها على أجهزة الحياة الاقتصادية والسياسية ، وحاولنا أن نميز علامات أى انهيار مقبل .. ولنتحول الآن الى الحالة العقلية ، أو بالأحرى الشعور ، للجماعات المتباينة داخل هذه المجتمعات .. وقد نسأل أولا .. هل اختلال نظام الحكومة يجد نظيرا له فى تنظيم

معارضيها .. ؟ وسوف يكون علينا فيما بعد أن نعالج ما يعرف جيدا الآن بأنه « الجماعات الضاغطة » رجال ونساء منظمون فى جمعيات لها اهداف خاصة ، جمعيات تجلب كل صنوف الضغط ، من الدعاية والحديث فى الصالونات الى الارهاب ، لكى تبلغ أهدافها .. وهذه الجماعات الضاغطة فى شكل أو آخر هى جزء جوهرى فى كل الدول الحديثة ، ومجرد وجودها كحقيقة واقعة لا يمكن أن يؤخذ على أنه عرض من أعراض الثورة والا وجب علينا آن نعتبر جمعية « الرفق بالحيوان » وجمعية « المؤلفين » او روابط مقاومة القمار علامات لثورة أمريكية أخرى مقبلة .. ويبدو أن ليس هناك محك وحيد بسيط لتحديد متى وتحت أى الظروف يمكن أن يؤخذ وجود الجماعات الضاغطة كدليل على قرب عدم الاستقرار السياسى . ومع ذلك فان عشرات السنوات السابقة للثورة فى مجتمعاتنا الأربعة تبين اشتداد نشاط الجماعات الضاغطة ، نشاط يتجه اكثر فأكثر بمضى الزمن نحو التغيير الجذرى للحكومة القائمة .. والحق أن بعض جماعات تبدأ فى مجاوزة الثرثرة فى الصالونات والدعاية ، وتقوم بتخطيط اجراءات مباشرة وتنظيمها أو على الأقل استبدال حكومة بأخرى بطريقة مفاجئة مثيرة نوعا ما .. انها بدايات لما نعرفه مستقبلا بالحكومة الغير الشرعية ، ففى أمريكا فعلت لجان التجار التى نظمت لمقاومة اجراءات الرقابة الامبريالية الشىء الكثير مما تفعله أحدث الجماعات الضاغطة من الدعاية الصريحة الى اثارة المظاهرات الشعبية والى التعاون مع المستعمرات عن طريق القرارات والمؤتمرات وما أشبه ..

وهى مقدمة لتلك الخلايا الثورية الفعالة ، لجان المراسلة التى أداها Sam Adams سام آدامز بطريقة ممتازة فى السبعينات من عام ١٧٧٠ .. وتوجد أشباه هذه الجماعات فى مستويات اجتماعية أقل حيث كانت تتسلل الى حفلات الحانات الصاخبة . وكان من الممكن فى كثير من المستعمرات أن تستخدم الجماعات الضاغطة المجالس التشريعية للعمل ضد الحكومة الاستعمارية بطريقة غير ممكنة فى المجتمعات الأخرى التى ندرسها .. وكان اجتماع بلدة نيوانجلند بمثابة اطار جاهز لهذا النوع من الاثارة ..

وفى فرنسا ، أظهر بحث كوشين كيف أن ما سماه جماعات الفكر كانت جماعات غير رسمية تعقد الاجتماعات لتناقش العمل العظيم لعصر

الاستنارة ثم تحولت بالتدريج الى أعمال الاثارة السياسية ثم ساعدت آخر الأمر فى توجيـــه دفة الانتخابات لمجلس الطبقات سنة ١٧٨٩ ..

ورغم أن المدرســـة الرسمية للمؤرخين فى الجمهورية الثالثـــة قـــد ارتابت دائما فى الفكرة القـــائلة بأن ثورتهم الكبرى أعدت كلها مقدما فانه من العسير على شخص أجنبى ألا يشعر بأن كوشين وضع أصبعـــه على النوع الرئيسى للعمل الجماعى الذى حول مجرد الكلام والتأمل الى عمـــل سياسى ثورى ..

والمؤرخون الفرنسيون الجمهوريون أنفســـهم يعترفون بأن الحـــركة المـــاسونية كان لهـــا مكان فى الاعداد للثورة .. ومن الواضح أن نشاط المـــاسونيين فى فرنسا أثنـــاء القرن الثامن عشر لم يكن مؤامرة سوداء ، ولكن من المؤكد أنه لم يكن نشاطا اجتماعيا أو ترفيهيا أو تعليميا صرفا .. ولقـــد كان النبلاء وأصحاب البنوك الطموحون وكل المثقفين فى الغـــالب من المـــاسونيين الأحرار .. وحتى فى ذلك الوقت كان المحافظون المتدينون يصدمون بما كانوا يعتبرونه النواحى الهدامة فى الحركة المـــاسونية .

وفى روسيا كانت الجماعات على اختلاف درجاتها المعادية للأوضاع السائدة قـــد ازدهرت قبـــل الثـــورة بوقت طويل .. فكان العـــدميون والفوضويون والاشـــتراكيون والأحرار ، ودعاة الغرب ، وأعداء الغرب كلهم يعبرون عن أنفسهم بطرق متعددة — من القـــاء القنابل الى التصويت فى الانتخابات البرلـــانية . وان الانســـان ليستنتج من التأمل فى السنوات الأخيرة للنظام القيصرى أن تنوع أغراض الجماعات المعادية له قـــد صنع الشىء الكثير لابقاء ذلك النظـــام قائما .. ومن المؤكد أن الثورة الروسية كان لهـــا مقدمات كثيرة من الدعاية وكان الدور الذى قامت به الجماعات الضاغطة فى الاعداد لهـــا واضحا بطريقة فريدة فى نوعها ..

وتعتبر انجلترا فى هـــذا المجال حالة أقل وضوحا .. الا أن هنـــاك دلائل محددة على المعارضة المنظمة التى كان التجار وبعض الأعيان يقومون بهـــا ضد بعض الاجراءات مثـــل ضرائب السفن ، وثبت أن الأغلبيـــات البرلـــانية التى تجمعت ضد الملك شارل بعـــد فترة الحكم الفردى كانت حصيلة الجمـــاعات الضاغطة الناشئة كما تظهر تلك الكتيبـــات الأدبيـــة العديدة التى صدرت حينذاك . وفوق ذلك فان الثورة الانجليزية كانت آخر

الانقلابات الاجتماعية العظيمة فى نطاق الأفكار المسيحية بنوع خاص وكان اظهر الجماعات الضاغطة الى حـد ما فى انجلترا ابان القرن السابع عشر هى فقط الكنائس البيوريتانيـة وبخاصـة الكنائس التى تسمى الكنائس المستقلة .. وقـد كان وجودها نفسه يهـدد الملك شارل مثلما كان الحزب البلشفى يهـدد نيقولا .

وجدير بالذكر أن بعض هـذه الجماعات الضاغطة ــ لجان التجار الأمريكيين ، وجمعيات الفكر الفرنسية ، والبناءون الأحرار (المـاسونيون : مثلا ــ لم تكن فى عز نشاطها تعترف بأنها تعمل للثورة ، ومن المؤكد انهـا لم تكن تعمل لثورة عنيفـة . ولربما كان ما يفصل هـذه الجماعات عن الجمـاعات الضاغطة مثل جمعيـة الرفق بالحيوان أو جمعيات مقـاومة القمـار ــ التى نستطيع بالتأكيـد آن نتفق على عدم اعتبارها عرضا من اعراض الثورة ــ هو هدفها الأساسى فى احداث تغيير جذرى فى العمليات السياسية الهـامة .. وهكذا كان التجار الأمريكيون يهدفون حقـا الى قلب سياسة وستمنستر الامبرياليـة الجـديدة كلهـا ، وكان الفرنسيون الذين أعدوا الانتخابات للجمهورية الثالثة يهدفون الى الحصول على دستور جـديد لفرنسا . ومن ناحيـة أخرى كانت بعض المنظمات الروسية منـذ البداية ثورية الى حـد عنيف ، الا أنهـا لم تكن العناصر الهامة فى الوضع الروسى فيما بين ١٩٠٥ ــ ١٩١٧ ، ولم تكن آهم من الجماعات المعادية للحكم المطلق أو الشيع الفوضوية الدينيـة فى انجلترا قبل سنة ١٦٣٩ ..

كان هناك اذن فى هـذه المجتمعات كلهـا جمـاعات ضاغطة لهـا أهداف ثورية الى حـد ما .. ويرى نشاطها فى خلال المناقشات السياسية والأدبيـة العنيفـة التى تدور فيها .. ونجىء الآن الى عرض من أعراض الثورة أبرزه جيـدا ليفورد ب ادواردز فى كتابه « التاريخ الطبيعى للثورة » ووصفه فيـه بأنه « تحول ولاء المثقفين » ، ومع أن كلمة « هروب » قـد يكون لهـا وقع أدبى سىء الا أن العبارة الأقصر « هروب المثقفين » اكبر ملاءمة بحيث نقترح استخدامهـا ، بـدلا من استخدام العبـارة الأطول فى هـذه الدراسة .

ومع ذلك يجب أن نكون واضحين فيما نتحدث عنه قبل أن نحـاول استخدام هروب المثقفين كعرض من الأعراض . ويمكننـا دون أى عنـاء فيما يتعلق بالدقة أن نقول ان المثقفين هم الكتـاب والفنانون والموسيقيون والمثلون والوعاظ .. أما التقسيم الأكثر من ذلك الى مجموعة صغيرة من

القادة الذين يبادرون أو على الأقل يبرزون أمام أنظار الجمهور ، ومجموعة أكبر تتغــذى على المــادة التى تحصل عليهــا من القــادة ، فليس بذى أهميــة كبيرة فى هــذا المجــال .

وان ما يهم ويحير بعض الشيء هو الوضع العام للمثقفين فى مجتمعنا الغربى منــذ العصور الوسطى ، ومن الواضح أنه يجب علينــا ألا نفترض الاتفــاق بين المثقفين فى مجتمع معين قبل أن نقرر أنه مجتمع مستقر الى حــد معقول .. فانه حتى فى القرن الثالث عشر الذى يجد فيــه الكثيرون من مفكرينا المعاصرين اجماعا فى الآراء يحسد عليه بالنسبة للأمور الأساسية فى العقيــدة ، كانت المنازعات بين المثقفين فى الحقيقة كثيرة جــدا .. فقــد كان هنــاك عــدد وفير من المتمردين والمتنبئين خلال العصور الوســطى . وفى العصور الحديثــة نتوقع من المثقفين أن يختلفوا فيما بينهم ، ومن المؤكد ان يختلفوا أيضــا مع غير المثقفين ، مع العــامة ، وضيقى الأفق ، وذوى العقول الجــامدة — أو أى اسم آخر قــد يصوغونه لهم .. وفوق ذلك ، ولعــدة أسباب ، فان الكتــاب والمعلمين والوعاظ ، ملزمون الى درجة كبيرة بحكم وظيفتهم بأن يتخذوا موقف الناقد تجــاه الروتين اليومى للشئون الانسانية .. ونظرا لافتقارهم الى الخبرة بسبب أعباء مسئولياتهم ، فانهم لا يعرفون كيف أن العمل الجديد مهما كان ضئيلا يكون فى العــادة ممكنا ، أو فعــالا .. والمثقف الذى يرضى عن العــالم وعن نفسه لا يمكن ابــدا ان يسمى مثقفــا .

وهنا كما هو فى الغالب فى العلوم الاجتماعية ، فى الواقع فى العلوم الطبيعية نتناول مسألة ألقت عليها الخلافات الكمية والنوعية ظلا كثيفا .. وتمييزنا بين الاثنين ليس فى الواقع الا للتبسيط ، صورة عقليــة معقــدة يرسمها العقــل الفاحص ..

فقــد نقول من الناحيــة الكمية أنه فى المجتمع غير المستقر الى درجة ملحوظة يوجد عــدد أكبر من المثقفين أو على أى حال عــدد اكبر نسبيا من المثقفين ، يهاجمون بمرارة الأنظمة القائمة ويتحرقون شوقا الى حدوث تغيير كبير فى المجتمع والأعمال والحكومة ..

ومن الممكن على سبيل الاستعارة الصرف أن نقارن المثقفين من هــذا النوع بالكرات البيضــاء التى تحرس تيــار الدم ، ولكن من الممكن وجود زيادة مفرطة فى الكرات البيضاء ، وعندما يحدث ذلك بمرض الجسم .

ونستطيع من الناحية الكيفيـــة أن ندرك اختلاف الموقف ، وبعضه بلا شك ناتج عن عـــدد هؤلاء المثقفين المهاجمين واتفاقهم ، ولكن بعضه الآخر ناتج عن حقيقـــة أكثر دقـــة .

فالمجتمع الانجليزى فى العصر الفيكتورى كان فى حـــالة توازن يبـــدو عنـــد التأمل أنه غير مستقر بعض الشىء ولكنـــه مع ذلك كان متوازنا . وفى هـــذا المجـــال عنف كارليل جيلا يدمن على حبوب موريسون بدلا من التعلق بالأبطال ، وضاق مل Mill بطغيان الأغلبية ، ووجد ماثيو ارنولد Mathew Arnold أن انجلترة يعوزها الجمال والمعرفة . وسعى نيومان Newman الى أن يجد فى روما ترياقا لسموم الديمقراطية الانجليزية وحث موريس Morris مواطنيـــه على تحطيم الآلات والعودة الى اساليب العصور الوسطى ، بل ان تنيسون Tennison أزعجه اخفاقه فى الوصل الى أى شىء أكثر نفعـــا من السخط الفلسفى الغامض العنيف .

ولقد كان الكثيرون من المثقفين فى العصر الفيكتورى ـــ وليس كلهم ـــ على غير وفاق فيما بينهم ، ولم يتفقوا على شىء سوى نفورهم العميق من البيئـــة المحيطـــة بهم . ومع ذلك ، فلو أنك نظرت اليهم بعين فاحصـــة لوجدت بينهم اتفاقا غريبـــا ، على أن ما يجب عمله على الفور لمعالجـــة الأمور ليس بالشىء الكثير .. وفوق ذلك ـــ كما أوضح مستر آلان براون فى دراسته للجمعيـــة الميتافيزقيـــة ـــ كانوا يستطيعون بالفعل أن يجتمعوا معا ليناقشوا خلافاتهم . وليس الأمر كمـــا يقال لنـــا كثيرا عن المثقفين الفلاسفة فى العصور الوسطى ـــ ان أولئك الفيكتوريين كانوا يتفقون على الافتراضات الميتافيزقية واللاهوتية الأساسية .. فلم يكن بينهم قط مثـــل هـــذا الوفاق .. بل كانوا يتفقون فى الراى على الأعمال النمطية والعادات اليومية القليلة الأهمية فى بعض النواحى ولكنها عظيمة الأهمية من النواحى الأخرى ولم يكونوا يتوقعون من الحكومة أن تحدث تغييرا فى مثل هـــذه الأمور .

وســـيتضح الخـــلاف على الفور بين الجو العقـــلى لجمـــاعة مثل الفيكتوريين ، الكتاب الذين لا يمكن أن يقـــال عنهم اجمـــالا أنهم هربوا ، وجماعة هاربة ، اذا نظرنا الى تلك الجماعـــة المشهورة فى فرنسا أثنـــاء القرن الثامن عشر التى وقفت فى وسط حركة التنوير الكبرى .. ان الانسان ليحس أول وهلة بالأعـــداد الكبيرة للمثقفين ، الكبار والصغـــار ، الذين

يدرسون الشئون السياسية والاجتماعية ، وكلهم مقتنع بأن الدنيا وبخاصة فرنسا تحتاج الى تجديد كل شيء ابتداء من أدق التفاصيل ، وأقلها أهمية الى المبادىء الخلقية والقانونية العامة ويعبر فى أى كتاب مدرسى على قائمة بالفلاسفة : فلتير ، روسو ، ديديرو ، رينال ، دولباخ ، فولنى ، هيلتيسوس ، دالمبير ، كوندورسيه ، برناردين دى سانت بيير ، بوماشيه ، كلهم ثوار ، رجال حشدوا كل ذكائهم ضد الكنيسة والدولة ، أو بحثوا فى الطبيعة عن الكمال الذى ينبغى أن يتوفر فى فرنسا . ولن تجد فى غير عسر ادباء محافظين نشيطين مثل سام جونسون أو سير والتر سكوت ، او حتى ادباء محايدين ممن يتابعون فى مجال الأدب الجمال أو الفهم خارج نطاق السياسة تماما .. بل ان أولئك الذين طواهم النسيان الآن ممن عارضوا الفلاسفة ، بل حتى المتشائمين الذين أنكروا مذهب التقدم كانوا مثقفين مذهبيين ، وكانوا متعصبين « للعقل » مثل المتطرفين .. كان الأدب فى فرنسا فى أواخر القرن الثامن عشر أدبا اجتماعيا بطريقة ساحقة .. ولو أنك نظرت فى البقايا الصغيرة من صحف فرنسا فى القرن الثامن عشر ، ولو أنك حاولت أن تعيد ما كان يقال فى الصالونات والمنتديات ، لوجدت الكل يشكو وينقد النظم القائمة ، والكل يبحث عن خطة الطبيعة البسيطة لتحقيق الكمال فى السياسة .. وكانت هذه الشكاوى الجماعية مريرة ولا مثيل لها فى شكاوى العصر الفيكتورى ، وقد يستطيع الانسان عن طريق الاحصاءات أن يقرر أن عدد المثقفين الذين كانوا يضادون الحكومة فى فرنسا فى أثناء القرن الثامن عشر كان أكبر نسبيا من عددهم فى بريطانيا فى أثناء القرن التاسع عشر . ولكن هذا الاختلاف يتجاوز الاحصاء .. ويدخل فى نطاق ما سميناه الاختلاف الكيفى .. فان لدى الفرنسيين نغمة أكثر مرارة وأشد أملا فى الوقت نفسه ، وتختلف تماما عن نغمة الفيكتوريين .. أما ان ذلك الاختلاف ليس كله اختلافا قوميا فسوف يتضح لأى شخص يقرأ كتب الأدب فى عصر ميلتون .. حينذاك كان المثقفون الانجليز قد هربوا بينما لم يفعلوا ذلك فى عصر فيكتوريا .

وروسيا كذلك نموذج واضح لهذا الهروب من جانب المثقفين .. فمن المؤكد انه كان هناك شيء أكثر كثيرا من الدعاية السياسية فى سلسلة الكتاب الذين جعلوا من الأدب الروسى جزءا من برامج التعليم لنا جميعا .. ولكن لا ريب انه كان هناك نقد سياسى واجتماعى لروسيا القيصرية حتى فى أعمال أكثرهم تحررا وأعلاهم قدرا : ترجنيف . ان الانطباع الذى يحصل عليه الانسان حتى من نظرة عابرة للحياة العقلية الروسية فى

القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين لا يحتمل الخطأ فيــه وهو أن الكتابة والتعليم فى تلك الأيام كان معناهما الوقوف فى وجه الحـكومة .. وليس معنى ذلك بالضرورة حينذاك أن يكون الشخص ماركسيا .. والحق ان تأثير ماركس فى حياة المثقفين الروس قبل الثورة كان أخف كثيرا من تأثير كتاب حركة الاستنارة والفلاسفة الرومانسيين فى القرن التاسع عشر ..

أما أمريكا فليست مثلا دقيقا الى هــذا الحد .. ففى بوسطن مثلا أثنــاء الستينات والسبعينات فى القرن الثامن عشر كان عــدد كبير جــدا من أمثال من نتحدث عنهم من المثقفين ثابتين تمــاما فى معــارضتهم مثلما يعارض الكثيرون الآن أى عمل بوسطنى مثل الشغب .. ومن الواضح أن هارفرد لم تكن بحال من الأحوال مجمعة على معاداة التاج ، ولنــدع جانبا جهود خريجها المشهور سام آدامز فى تأييــد الأجهزة الديمقراطية .. الا أنه اذا أمكن احصائيا أن نحــدد ما اذا كانت المنتجات الأدبية والصحفية فى المستعمرات فيما بين ١٧٥٠ — ١٧٧٥ ، وحتى اذا أدرجنا فيها الخطب الموالية أو المعارضة لسياسة الحكومة الاستعمارية حينــذاك فانه يبــدو أن هناك شك قليل فى شدة مناوأة هــذه السياسات . ان حركة الاستنارة خاصة من خلال كتابات لوك Locke ومونتسكيو Montesquier قــد بلغت المستعمــرات الأمريكية .. وكانت حقوق الانسان الطبيعيــة الأبدية فى هــذه البلاد مثلما كانت فى أوربا مفاهيم أدخلها المثقفون ..

ولقــد تبدو انجلترا لأول نظرة استثناء من هروب المثقفين .. فيبدو لوفليس وسكلنج بل ودون أنهم غير مشغولين بأمور الاجتماع .. ولكن عند النظرة الثانية يتضح تماما أن الأدب الانجليزى فى عهد أول ملكين من ملوك أسرة ستيوارت أبعد ما يكون عن الولاء للعرش كما كان الحال أيام اليزابث الأولى .. وأن نظرة سريعة فى مؤلف الأستاذ جريرسون « تيارات متقاطعة فى الأدب الانجليزى فى القرن السابع عشر » سيظهر مقدار خلو الأدب من انجلترا المرحة فى عصر النهضة .. بل أهم من ذلك الحقيقة الواقعة وهى أنه لم يكن هناك صحف حقيقية فى تلك الأيام .. وكانت الكتيبات تقوم مقام الصحف .. وعندئذ كان أدب الــكتيبات فى أوائل القرن الســابع عشر — وهى ضخمة العدد — حتى بالمقاييس الحديثة — تعنى كلها على وجــه التقريب بأمور الدين أو السياسة الأفضل وهى أحسن ما يمكن أن توجــد كنموذج لأشياء المثقفين .. فى الواقع كما يقول الأستاذ جوش كانت الأوامر تصــدر تباعا فى عهــد جيمس الأول لتحريم بيع الكتب المثيرة للفتنة وكتب

البيوريتان « وكان هناك الكثير من الحديث عن الكتابات التى تطعن فى النظم القائمة والكتابات الخطرة » .

وفى الولايات المتحدة الأمريكية الآن — فى منتصف القرن العشرين — مثل هذا الحديث ويجب أن تذكرنا هذه العبارة البسيطة بصعوبة تشخيص الثورات الوشيكة الانفجار وبالحاجة الى دراسة كل جوانب الأشياء وليس جانبا واحدا ، حتى ولو كان ذلك الجانب الخلاب الذى سميناه هنا « هروب المثقفين » .. فان الانسان يستطيع أن القول بأنه منذ حوالى ١٩٠٠ فصاعدا كان هناك استياء من جانب المثقفين فى الولايات المتحدة الأمريكية .. الا أن الولايات المتحدة لا تبدو فى هذا القرن ناضجة للقيام بثورة ولا يبدو عليها انها مجتمع فى حالة اختلال ملحوظ .. ولربما كان المثقفون الأمريكيون فى القرن العشرين مثل الفيكتوريين الذين تحدثنا عنهم يعترضون على ذوى العقول الجامدة . الا أن الكثيرين من الكتاب الأمريكيين يشعرون بالمرارة نتيجة الاحساس بأنهم بعيدون عن شئون بلد يديره رجال أعمال غير مثقفين ، الأمر الذى لا يحسه الانسان تماما حتى فى كتابات أمثال ماثيو ارنولدز Mathew Arnolds وموريس وكارليل Carlyle ان المثقفين الأمريكيين يميلون الى التعلق بعضهم ببعض كأنهم طبقة معادية للطبقات الأخرى ، وربما كان هذا هو السبب فى أنهم لا يظهرون ما يدل على أنهم قد يوحون بثورة .. ومع ذلك يجب ألا نضل فى المشاكل العسيرة والتى لم تزل غير مفهومة الى حد كبير والمتصلة بسلوك الطبقات المثقفة فى أمريكا المعاصرة .

ويكفى أنه من دريزر Dreiser ولويس Lewis الى هيمنجواى Hemingway وفارل Farrel وميلر Miller كان معظم كتابنا الذين يقرأ لهم كثيرا يعادون الأوضاع الراهنة فى الولايات المتحدة الا أن هذه الأوضاع ظلت كما هى لا يهددها انقلاب ثورى ..

أين هرب المثقفون الثوريون ؟ الى عالم آخر وأفضل من عالم النظم القديمة الفاسدة والعاجزة .. ان من ألوف الأقلام والأصوات هناك تبنى فى السنوات السابقة لاندلاع الثورة ما نسميه الآن أسس الأسطورة الثورية .. أو الأدب الشعبى أو الرموز أو الأيديولوجية .. ومثل هذا العالم الأفضل الذى يراه المثالى يختلف عن هذا العالم القائم غير الكامل فى جميع النظم الخلقية والدينية التى عاش فى ظلها أهل الغرب

وبخاصة فى عهد المسيحية .. وليس من الدقة تماما أن نزعم أن العالم الآخر المثالى كان فى نظر المسيحية ابان العصور الوسطى عالما كله سعادة الا انه من الواضح أنه فى عهد الاصلاح الدينى وعصر النهضة بدأ الناس يفكرون بجدية أكثر فى جعل عالمنا هذا جزءا من الجنة مهما كان الثمن . وأن ما يفرق عالم ثوارنا المثالى عن العالم الأفضل كما يراه الأشخاص العاديون هو احساس ملتهب بقرب المثل الأعلى ، شعور بأن هناك شيئا ما فى الناس جميعا أفضل من مصيرهم الراهن واعتقادا بأن ما هو قائم ، لم يكن من الواجب وجوده ، بل لم يكن هناك من حاجة الى وجوده أصلا .

ولربما فى الواقع كان هذا العالم الأفضل القريب فى عقول المثقفين الأمريكيين هو الذى يفسر السبب فى أنهم لا يلعبون الآن الدور الذى لعبه أمثال فولتير ولوك فى القرن الثامن عشر .. ان المثقفين الأمريكيين لم يشاركوا قط الماركسيين حلمهم وانما كان حلمهم — كما يشهد بذلك بارنجتون — هو الحلم القديم للقرن الثامن عشر الذى لا يمكن فى الوقت الحاضر أن يعتبر فى الواقع ثوريا .

ولسوف نلتقى فيما بعد بهذه المثل العليا الثورية فى أشكالها المتطورة تطورا كاملا .. وما علينا الا أن نلاحظه أنه فى كتابات وخطب البيوريتان (المتطهرين) الانجليز وبقدر أقل فى كتابات المحامين الدستوريين، وفى كتابات فلاسفة القرن الثامن عشر وكتابات الماركيسيين فى القرنين التاسع عشر والعشرين كان النظام السىء والغير المشروع يختلف كلية عن النظام الصائب الخير الذى لا بد من قيامه ..

وفى انجلترا وأمريكا وفرنسا كان المبدأ الرئيسى الذى يستغيث به الناس من الظروف القائمة هو الطبيعة بقوانينها الواضحة البسيطة . ولقد كانت الضرائب المفروضة على السفن فى انجلترا ، وضرائب التمغة فى أمريكا ، امتيازات النبلاء فى فرنسا كلها تتعارض وقانون الطبيعة . وحتى انجلترا رغم الحقوق المذكورة فى العهد الأعظم Magna Charta أو فى القانون العام ، كان الميل شديدا دائما لقانون الطبيعة « المنقوش فى قلوب الناس » .. ويقول هنرى ماركر وهو من البيوريتان فى انجلترا ، كانت المحاكم العامة مزودة بقوانين خاصة بالعدالة ، وهى قوانين ضيقة جدا بالنسبة لموضوع هائل (العلاقة بين التاج والشعب) ولذلك يجب الرجوع الى قانون الطبيعة .

ومع القرن الثامن عشر أصبح هـذا النوع من اللغة عاما تقريبا بين المثقفين .. وثمة ملاحظة نشعر فى هـذه الأيام أننا ملزمون بابدائها وهى أن الطبيعة كانت دائما تمثل ما يريده المثقفون الثائرون .. ومع ذلك يبدو من المحتمل أن الطبيعة كانت فى نظر معظم أولئك الذين ينادون بها ، محددة وظاهرة كما كان اللـه فى وقت من الأوقات ، وكما كان من المقرر ان تصبح المادية الجدلية فى يوم ما ..

ولم تقم الطبيعة بمثل هـذا الدور البارز عند الكتاب والثوريين الروس فى عهد النظام القيصرى .. وليس معنى هـذا أن الطبيعة تعوز الصفحات التى كتبها تولستوى وزملاؤه أو أن الفرق بين المجتمع المصطنع والغرائز « الطبيعية » لم يحتقر حتى فى الدعاية الاشتراكية .. أما بالنسبة للاحرار فقد بث فيهم الفكر الغربى المتقدم من عصر النهضة حتى داروين حماسا أكثر من مستويات ثابتة . ولكن الأيدلوجية الرسمية للثوريين المتطرفين الناجحين فى روسيا كانت هى الماركسية ، وترى الماركسية أن وجود الراسماليين وحكم البورجوازيين أمر طبيعى كله . الا أن تحطيمهم على يد العمال هو ايضا أمر طبيعى وأن الذى يقرر هـذا التحطيم هو قوى ، بعيدة عن متناول السيطرة الراسمالية .

وأن الزحف الحتمى للقوى الاقتصادية قد يحقق عندئذ ما كان يتوقعه البيوريتان الانجليز من اللـه والفلاسفة الفرنسيين من الطبيعة والعقل . وأن الشىء الأساسى الذى يشترك فيه هؤلاء المثيرون من طلائع الثورة والعنصر الجوهرى من الناحية الثقافية على الأقل فى الأسطورة الثورية هو تلك القوة المجردة القادرة على كل شىء ، ذلك الحليف الكامل .

وهنا نقطة خاصة تستحق اهتمامنا هنيهة وهى أن ليس اللـه وحده أو الطبيعة أو المادية الجدلية هو الذى يجعل النصر الراهن أمرا أكيدا .

أن النتيجة الحالية يمكن أن توضح — وربما يجب أن توضح لأن أغراض الدعاية تتطلب ذلك . ان احرازه للتفوق بالصدفة أو بشكل خاص بخدعة قدرة بينما اللـه والطبيعة فرضا وقتيا .

وهكذا فى الثورة الانجليزية كان الملكيون أو فى الحقيقة الطبقة العليا بصفة عامة يطلق عليهم النورمانديون ، سلالات جماعة من الغزاة الأجانب ليس لهم أدنى حق فى الأرض الانجليزية . ويذهب جون ليلبورن الاشتراكى

فى هـــذا الشأن الى حد التأكيد بأن القانون العام كله كان رمزا للعبودية فرضه الغزاة النورمانديون على شعب انجلترا الحر .

وكراهية الأمريكيين للحكومة الانجليزية المقيمة بعيـــدا عنهم لم تكن بحاجة الى من يشعل نارها . ولقد قيل للفرنسيين على لسان رجل فى مثل مكانة سييس Syés . ان كل متـــاعبهم جاءت من اغتصـــابات الفرنجة منـــذ ما يزيد عن ألف سنة .

وان النبـــلاء الفرنسيين فى ســـنة ١٧٨٩ كانوا من سلالة الألمـــان المتوحشين بينما كان الشعب الفرنسى من سلالة الغال والرومان المتحضرين ولم تكن الثورة الا اعادة الأوضاع التى كانت سائدة فى ٤٥٠ قبل الميلاد . ولقد فسرت المـــاركسية الطبقة المستغلة دون الرجوع الى مثل هذه الأفكار التاريخية الكاذبة . ومع ذلك ففى أعمال الاثارة التى مهدت للثورة فى روسيا الكثير من الاشارات الى اغتصاب النبلاء للأرض والى أصولهم الفرنجيـــة أو التتريه أو الغربية أو على أى حال أصولهم الأجنبية . ان الشر الراهن مثله فى هـــذا مثل الخير فى المستقبـــل يتطلب القـــوة المدعمة التى يطلق عليها سورل Saurel « الأسطورة » .

وأخيرا فان قدرا كبيرا من الجهد قـــد بذل فى التساؤل عما اذا كانت هـــذه الأيدولوجيـــة الثورية تسبب العمـــل الثورى أم هى مجرد نوع من الزينـــة السطحية التى يغطى بهـــا الثوار أعمـــالهم الحقيقيـــة ودوافعهم الفعليـــة . ان معظم هـــذا النقاش فى أقصى درجاته عبث لا طائل تحتـــه حيث أنه قائم على فكرة فجـــة للسببية لا يمكن الدفاع عنهـــا فى عمل علمى مثمر يتجـــاوز المستوى البسيط جـــدا . وليس من فائدة فى الجـــدل حول ما اذا كان روسو قـــد صنع الثورة الفرنسية أو اذا كانت الثورة الفرنسية هى التى صنعت روسو أكثر من الجـــدل فيما اذا كانت البيضة قـــد وجدت أولا أم الدجاجة . وانا لنلحظ أنه فى مجتمعـــات ما قبل الثورة كان يصحب التذمر والصعوبات المتعلقـــة بالأحوال الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التى يعنى بهـــا المحـــدثون الســـاخطون كتـــابات كثيرة وأقوال لا حصر لهـــا عن المثل العليـــا وعن عالم أفضـــل وعن بعض القوى المجردة التى تعمل على اخراج هـــذا العـــالم الأفضل الى حيز الوجود ، ان « التعبير » عن الأفكار هو الذى يصنع الانسجام أكثر من الأفكار الخاصة التى قـــد تتبـــاين تباينـــا ضخما فى مختلف الثورات ، وانا لنجـــد أن الأفكار تكون

دائمـــا جزءا من وضع ما قبل الثورة ونحن مقتنعون تماما بتركها عند هـــذا الحـــد ، فانه بغير أفكار لا تكون هنـــاك ثـــورة . ان هـــذا لا يعنى أن الأفكار « تسبب » الثورات أو أن أفضل الطرق لتـــلافى الثورات هو رقابة الأفكار انهـــا تعنى أن الأفكار تكون جزءا من العوامل المعتمدة بعضها على بعض التى ندرسها .

رابعـــا ــ الطبقـــات والعـــداوة الطبقيـــة :

كانت بعض الجمـــاعات فى مجتمعاتنـــا الأربعة ابان النظم القـــديمة تعضد احساسات الكراهيـــة ــ المشوبة أو الغير المشوبة بالاحتقار ــ نحو الجماعات الأخرى . واذا ما نحينا جانبـــا الدلالات الاقتصادية للفظ ففى مقدورنا أن نسمى هـــذه الجماعات طبقـــات ، واذا ما تحققنا أن الصراع لم يكن مجرد صراع بين طبقتين متنـــازعتين بين الاقطـــاع والبورجوازية أو بين البورجوازية والبروليتاريا فقـــد يحق لنـــا أن نتكلم عن الصراعات الطبقيـــة . وهـــذا النموذج من الصراع فى شكل أو آخر يبـــدو مستوطنا مثل أنواع أخرى كثيرة من العنف فى أشد المجتمعات الغربيـــة استقرارا .

وهنـــا يجب علينـــا مرة أخرى ألا نفترض فى المجتمع العادى الذى يختلف عن مجتمعاتنـــا فيما قبل الثورة انه يضع الأسد والحمل معـــا جنبا الى جنب . والواقع أنه ربما يتطلب الأمر أن نفترض فى العلاقة بين الطبقة الممتازة ــ العليـــا أو الحاكمة ــ وبين بقيـــة الشعب انهـــا العلاقة التى يطلق عليهـــا توينبى اسم الانســـجام البيئى ، المشـــاركة فى المثل وتطلع الجماعات الدنيـــا الى الجماعات العليـــا ، العـــلاقة التى حاول التعبير عنهـــا بيرك وجون آدامز وربما حتى أفلاطون . وهنـــا مرة أخرى نجـــد أنفسنا أمام حالة بالغـــة الصعوبة فى التشخيص وذلك لأننـــا لا نستطيع أن نتأكد تماما من ماهيـــة الصحة الفعليـــة . ان شيئا ما أقل من التقليد الكامل يميل الى الانتشار فى معظم المجتمعات الغربية حتى ليظهر فى أثينـــا فى القرن الخامس غرب أوروبا فى القرن الثـــالث عشر اللذين يظهران الآن مثل العصور الذهبيـــة . وتبـــدو أن الصيحة القائلة :

من كان السيد يوم كان آدم يفلح الأرض وحواء تغزل ؟

« من كان الســـيد يوم كان آدم يفلح الأرض وحواء تغـــزل ؟ » .. مستعدة دائما للظهور . ولكن حتى مع هـــذا سرعان ما يظهر أن هـــذه

الأحقــاد الطبقية قــد تأججت وأوغرت الصدور بدرجة ملحوظة فى النظم القديمة . ان الامتيازات الطبقيــة ينظر اليهــا لا باعتبارها حواجز يستطيع الأذكيــاء والشجعان والطموحون أن يجتازوها وانما باعتبارها امتيازات غير طبيعيــة وغير عادلة فرضها رجال لئــام ضــد مشيئة اللـــه جلت قدرته وضــد الطبيعة والعلم . ان هــذه الصراعات الطبقية ليست بحال من الأحوال مبارزات هينــة ، فهنـــاك جماعات داخل جماعات وتيارات داخل تيــارات . ويجب علينــا أن نحاول تحليل بعض هــذه التيارات .

أولا — تبــدو الطبقــة التى تسمى الطبقة الحاكمة فى كل مجتمعاتنا الأربعة منقسمة على نفسها وعاجزة . وان ما نقصده بالطبقــة الحاكمة — وان كان فى هــذا ربما تساهل شديد — هم الأشخاص الذين يصرفون الأمور والأشخاص الذين يبرزون أمام الرأى العــام — الساسة وأصحاب المناصب الهــامة فى الحكومة ، ورجال البنوك ورجال الأعمال والنبلاء من ذوى الأطيــان الواسعة ورجال الدين وربمـــا حتى بعض المثقفين . ان النبالة الرسمية القائمة على صلات الدم كانت عادة فى دول الغرب معيارا شــديد الضيق للعضوية فى الطبقة الحاكمة . وحتى فى أوائل العصـــور الحديثة كانت الطبقــة الحاكمة شيئا شبيها بذلك — أقليــة من الرجال والنســاء يعيشون حيــاة مثيرة وتثور حولهم أشــد الفضائح وينشرون الأزياء ويملكون الثــروة أو المركز أو على الأقــل يتمتعون بالصيت أو هم باختصار الذين كانوا يحكمون أنهم « طبقــة موسكا السياسية » . وفى الواقع فى المجتمع المستقر من الناحيــة الاجتماعية تبــدو الكتل الضخمة من الفقراء ومتوسطى الحــال وكذلك أيضا المغمورون والفاشلون الذين قــد يكونون بحكم المولد والتدريب الطبقة الحاكمة ! كل هؤلاء قــد يقبلون فى واقع الأمر قيادة أولئك الذين يكونون على قمة الهرم الاجتماعى ويحملون بالانضمام اليهم بــدلا من تنحيتهم — ولو أن هــذه العبارة سوف تبــدو للمثالى كأن فيهــا تقليلا طفيفــا فى « الانسجام البيئى » عند توينبى .

والآن تبــدو الطبقــات الحاكمة فى مجتمعاتنا ، أبدا فاشلة لأنهــا عجزت عن تحقيق المهام الملقاة على عاتقها — فيما عــدا اسبرطة وبروسيا لا يكفى الطبقــة الحاكمة الاقتصار على الصفــات العســكرية وحــدها ومع ذلك يتحتم على هذه الطبقة ألا تتوانى فى استخدام القوة اذا ما أرادت أن تحتفظ بكيانهــا كما يتحتم عليهــا ألا تبــالغ فى تقييم صفــات البراعة والاصــالة فيمن ينتمون اليهــا وهى تســتطيع عادة — وبأى ثمن — أن تستأجر البراعة والمهــارة من مصادر أخرى . ان مزيجا من الفضــائل

العسكرية والاحترام لطرق التفكير والسلوك المقررة والاستعداد لتسوية الخلافات والتجديد اذا اقتضى الأمر ذلك هو فيما يحتمل قريب تماما من الصفات اللازمة لطبقة حاكمة ناجحة . وهى صفات توفرت تماما للرومان ابان عهود الحروب البونية وكذلك لساسة القرن الثامن عشر من الانجليز رغم فشلهم فى علاقاتهم مع أمريكا .

وعندما يبدأ عدد كبير من أعضاء هذه الطبقة ومن ذوى النفوذ فيهم فى الاعتقاد بأنهم يقبضون على زمام القوة بدون وجه حق أو بأن الناس جميعا ليسوا الا اخوة يقفون على قدم المساواة فى نظر العدالة المطلقة او عندما يؤمنون بأن المعتقدات التى نشأوا عليها معتقدات سخيفة أو أن « من بعدنا الطوفان » فانهم عندئذ لا يعودون قابلين لأن يقاوموا بنجاح أى هجمات جدية على مركزهم الاجتماعى أو الاقتصادى والسياسى . ان موضوع تدهور الطبقة الحاكمة والعلاقة التى تربط ما بين هذا التدهور والثورة يخلب الألباب وهو مثل كثير من موضوعات التاريخ الاجتماعى غير مطروق نسبيا وليس فى وسعنا هنا الا أن نقول أن هذا التدهور ليس بالضرورة تدهورا « أخلاقيا » هذا اذا كنت تقصد « بالأخلاقى » ما يعنيه المسيحى الانجيلى الطيب بهذه الكلمة . فالطبقات الحاكمة الناجحة كانت منكبة على الألعاب الرياضية الشرسة مدمنة على الخمر والميسر وارتكاب الفحشاء وغيرها من الموبقات التى يجب علينا جميعا بلا تردد استنكارها . ومن الصواب أن يقال أن لافاييت التقى كان دليلا واضحا على عدم صلاحية الارستقراطية الفرنسية لممارسة الحكم اكثر من بومبادور أو حتى دى بارى .

ويزودنا الروس بأحسن مرجع فى هذا الموضوع واذا نحن حكمنا على الارستقراطيين الروس بما يظهر عنهم فى المطبوعات وجدنا أنهم خلال عشرات السنين قبل سنة ١٩١٧ تملكتهم عادة التحسر على تفاهة الحياة وتأخر روسيا وأحزان الأجناس السلافية على ما وصلت اليه من تدهور . لا شك أن فيه كثير من المبالغة . ولكن من الواضح أن كثيرا من الطبقات الروسية الحاكمة كانت تشعر فى قلق بان امتيازاتها لن تدوم . وكثير منهم مثل تولستوى انضم الى الجانب الآخر وتحول آخرون الى أحرار وتنازلوا عن امتيازاتهم وهى ظاهرة لاحظناها من قبل فى فرنسا . وحتى دوائر القصر أصبح فى المألوف بمجىء عام ١٩١٦ السخرية من القيصر وحاشيته . ويقول وزير من وزراء القيصر المكروهين :

حتى اعلى الطبقات صارت من المتذمرين المعارضين قبيل الثورة ، ففى الصالونات والنوادى الكبيرة كانت سياسة الحكومة موضع النقد العنيف غير الودى وتناول النقد بالتحليل العلاقات التى كانت قد نشأت فى اسرة القيصر وتلقفتها الألسن بالكلام . ولاكت الألسنة القصص عن رئيس الدولة . ونظمت القصائد . وكان يحضر هذه الاجتماعات علنا كثير من كبار الدوقات .

ولم يستيقظ أى احساس بخطر هذه اللعبة حتى اللحظة الأخيرة .

وآخيرا عندما استخدم أفراد الطبقات الحاكمة الذين يتقلدون المناصب ذات السلطة السياسية القوة فعلا فانهم استخدموها فى فترات متباعدة بعضها عن بعض وبطريقة غير فعالة . وسيكون لدينا المزيد لنذكره عن هذه المشكلة العامة المتعلقة باستخدام القوة عندما نتناول المراحل الأولى للثورة الفعلية . ويكفى فى هذا الصدد أن الطبقات الروسية الحاكمة رغم تراثها الآسيوى المعروف فانها فى أواخر القرن التاسع عشر كانت تشعر بقدر كبير من الخجل فى استخدام القوة ولهذا فانها أساءت استخدامها حتى لنجد بشكل عام أنها أثارت هؤلاء الذين وجهت ضدهم بدل أن تخضعهم . أن الحد الفاصل بين ممارسة الحكومة للقوة وممارستها للاقناع هو فى الواقع حد دقيق لا ترسمه الصيغ الجامدة أو يحدده « العلم » والكتب المنهجية وانما يحدده رجال مدربون على فن الحكم . ومن أحسن الأدلة على عدم صلاحية الطبقة الحاكمة لممارسة شئون الحكم افتقار أعضائها لهذه المقدرة . وهذا الافتقار مسجل فى التاريخ مقترن بتجمع الاضطرابات الصغيرة وألوان السخط التى تسبق الثورة .

ولم تزل روسيا هى المثل التقليدى للدلالة على عجز الطبقة الحاكمة ولكن هذا لا يمنع من أن فرنسا نموذجا جيدا لهذا ايضا ..

وفى كثير من الأحايين كان يترأس الصالونات التى يجرى فيها تمزيق النظام القديم — بالكلام بطبيعة الحال النبيلات ويحضرها النبلاء . وأصبح الأمراء الذين تجرى فى عروقهم الدماء الملكية من الماسونيين واذا لم يتآمرا تماما على قلب الأوضاع القائمة ، فانهم على الأقل عملوا على تطهير انفسهم بالتخلى عن امتيازاتهم والقابهم . وربما لا يوجد خير من فرنسا حيث يبد واضحا تفكك الطبقة الحاكمة . وهذا هو الانحياز المتعمد من جانب أفراد الطبقة الحاكمة الى جانب قضية الطبقات الساخطة او المكبوتة — الفئات

العليا تتحول بمحض اختيارها لتأخذ جانب الفئات الدنيا ولسنا نبالغ فى السخرية اذا ما غامرنا بالتخمين بأن هذا يكون أحيانا دلالة على أن هناك تبدلا فى وضع الفئات . ويعتبر لافاييت فى بعض النواحى نموذجا طيبا لهذا النوع من الفئات العليا اذ يبدو انسانا طموحا وان كان يفتقر الى الذكاء وتحدد طريقة الى حد كبير بالأسلوب الذى ساد عصره . لقد حاول لافاييت أن يفعل الأشياء التى تستحوذ عادة على اعجاب الوسط الذى ينتمى اليه . ولما كان لا يستطيع الرقص جيدا فانه ذهب الى أمريكا للقتال من أجل الحرية وهو أمر كان الوسط الذى ينظر اليه بشىء من الاعجاب . ولكن الطبقات الحاكمة لا تستطيع أن تخوض كفاحا من أجل الحرية بطريقة لا تعود عليها بلكسب . والحرية معناها كسب للطرف الآخر .

وعلى أى حال فمرة أخرى يصبح من الضرورى أن نبرز بوضوح أن وجود المتطرفين الثوريين فى الطبقات العليا ليس الا عرضا من الأعراض فى حالة معقدة . ولا بد أن يكون هؤلاء الخارجون من الطبقة العليا كثيرى العدد وظاهرين نسبيا فى مجتمع مختل التوازن . وعليهم وعلى الفاشلين والساخرين أن يكونوا قدوة للطبقة . ان هؤلاء الأفراد « التائهين من الطبقات العليا » كما يسميهم لوثروب ستوارد الذين يأخذون جانب الفئات الدنيا . كانوا كثيرين فى مجتمع مستقر مثل مجتمع انجلترا فى العصر الفيكتورى ولكنهم لم يكونوا قدوة للمجتمع — كما أنهم ليسوا كذلك فى أمريكا اليوم حيث أكثر اللاغوتيين والفاندربلتيين ليسوا من المتطرفين بغض النظر عن الماركسيين . يضاف الى هذا فانه يبدو أن « التائهين من الطبقات العليا » من معاصرينا الأمريكيين عاجزون عن أن يتفقوا على برنامج واحد أو منبر واحد وهذا بعكس الذين كانوا يهاجمون النظام السائد فى القرن الثامن عشر بل انهم لايتحدون ولو فى الظاهر ، وهم مثل الفيكتوريين يتطوحون وسط أكثر الأفكار والعقائد الغريبة ولو كان « التائهون من الطبقة العليا » عندنا من الشيوعيين اتباع ستالين — وهم ليسوا كذلك — لكان وجودهم فى سنة ١٩٥٢ مما يؤخذ كدلالة تسهم فى تشخيص الاختلال السابق للثورة .

ان هذا التدهور الذى أصاب الطبقة الحاكمة فى أمريكا فى القرن الثامن عشر لم يكن عرضا بارزا من أعراض الثورة الآتية ، فان طبقتنا الوطنية الحاكمة كانت لا تزال ناشئة وفى دور التكوين . وحين ينظر اليها كطبقة فانها لا تظهر شيئا من العجز الذى لاحظناه فى روسيا وفرنسا ، على

انه من الطبيعى أن قطاعا كبيرا من طبقتنا الحاكمة ارتبط بالثورة الأمريكية وهذا بطبيعة الحال من الأسباب التى أدت الى عدم قيام عهد ارهابى ملىء بالدماء . وفيما يتعلق بالطبقة الحاكمة فى انجلترا أيام ثورتنا فانها كانت أعجز ما تكون عن اتباع سبيل الحزم تجاه أمريكا . فقد عملت على الاحتفاظ بمركزها فى انجلترا فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، ولكن ذلك ما كان ليحدث الا بمنح الامتيازات للطبقات المتوسطة وهى امتيازات رفضت الطبقات الفرنسية الحاكمة منحها . ومع ذلك فان كثيرين من هؤلاء الانجليز لم يكونوا الا مدافعين عن النظام القائم فيما يتصل بالعلاقات مع أمريكا . ولقد وقف فوكس وبيرك والأحرار بضعة عشر عاما جنبا الى جنب مع الأمريكيين حتى بعد سنة ٧٧٥ ولا جدال فى أن موقفهم هذا ساعد على تشجيع الثوار الأمريكيين .

حتى فى انجلترا ابان القرن السابع عشر نستطيع أن نتبين مثل هذا النوع من الأعراض . ولن نجد بطبيعة الحال فى الارستقراطية الانجليزية زمن اليعاقبة هذا المزيج نفسه من القلق والشك فى الآمال الانسانية واللامبالاة التى وجدناها فى كل من روسيا أو فرنسا . الا أن معظم هذه العوامل يمكن وجودها فى الجماعة التى عرفت فيما بعد بالفرسان .

وبالرغم من أن الفرسان يبدون لنا فيما يكتب أو يتناقل عنهم فى صورة جميلة جذابة وعواطف متدفقة فقد يكون من العسير القول انهم أظهروا التضامن والاتزان اللازمين للطبقة الحاكمة . هذا وأسطورة الفرسان ليست كلها نتاجا للسنوات التى أعقبت الثورة الكبرى . فالفرسان كانوا خياليين حتى بالنسبة لأنفسهم . وفى عالم قاس مثل عالم البيوريتان (المتطهرين) وجمع المال كان قد بدأ فعلا البحث عن ماض ذهبى له مثل الصفات المميزة التى كانت للمهاجرين فى الثورات التى حدثت بعد ذلك . ولم تكن الطبقات الانجليزية الحاكمة فى ذلك العصر تفتقر الى المستنيرين أو الملهمين أمثال لافايت أو أمثال تولستوى . وحتى وان كنت تقبل تقييم القرن التاسع عشر للانجليز على أنهم عنيدون عمليون يحبون المساومة فيحسن بك أن تتذكر أن انجليزيا عاشرا فى عصر التيودور أطلق كلمة « يوتوبيا » المدينة الفاضلة على الفكر السياسى وأن مثالية هارينجتون Harrington المشهورة المسماه أوسانا Oceana هى من نتاج القرن السابع عشر .

ومع ذلك ما يخفى عنا المدى الذى بلغه الكثير من السادة الانجليز القادرين والطامحين فى هروبهم من النظام القائم فى بواكير عهود أسرة

ستيوارت هو أنهم هربوا — لا كما فعل لافاييت بالذهاب الى أمريكا والدفاع عن حقوق الانسان — ولكن لجؤا الى اللـه وبحثوا عن طريق الخلاص

ان مذهب البيوريتان (المتطهرين) فى أى من أشكاله المتعددة كان لا يستهوى المساكين أو حتى التجار ورجال البنوك فحسب بل أيضا الخاصة والنبلاء . ولا تنس أن كرومويل نفسه كان من الخاصة . واخيرا كان يقوم بما قد نسميه معارضة سياسية قانونية لأول اثنين من أسرة ستيوارت — رغم أن التفرقة بين المعارضة السياسية والدينية فى هذا العصر مسألة تحليلية صرف فان الأمرين وقد اختلطا اختلاطا معقدا فى مشاعر المعاصرين — نفرا من الخاصة والنبلاء كلية تقريبا أن رجالا مثل هامبدن Hampden واسكس يشبهون واسنطن فى أنهم كانوا أصلا محافظين ودفعوا الى الثورة دفعا نتيجة لعجز حكامهم المباشرين . ولم يكونوا مثل لافاييت من الهاربين هروبا عاطفيا من طبقتهم .

وربما اذا ما استثنينا الطبقة الحاكمة فى أمريكا فاننا نجد الطبقات الحاكمة فى الأنظمة القديمة منقسمة على نفسها بشكل ملحوظ وغير مهيأ بدرجة شنيعة للقيام بوظائفها كطبقة حاكمة . لقد انضم بعض أفرادها الى المثقفين وتنكروا للنظام القائم وصاروا بالفعل فى أغلب الأحيان قادة فى الحملة التى شنت لاقامة نظام جديد كما تحول آخرون الى ثوار ليس من أجل الأمل فى المستقبل بقدر ما كان ذلك ضيقا بالحاضر فى حين استكان آخرون أو أضحوا ناعمين لا يبالون أو ساخرين . ومن الممكن أن نجد الكثيرين ومحتمل أن يكون معظمهم من أعضاء الطبقات الحاكمة كالاقطاعيين الانجليز ونبلاء الريف فى فرنسا وروسيا وقد تمسكوا بالايمان الساذج بأنفسهم وبمراكزهم وواضح أن هذا أمر ضرورى لأى طبقة حاكمة . الا أن هؤلاء ليسوا ممن يصنعون أسلوب الحياة فى الطبقات العليا . فكل ما هو عصرى كان قد ارتحل مع المثقفين . فلم يكن للفضائل والأحكام على القيم التى تقف حارسة للطبقة صاحبة الامتياز لتحميها من نفسها ومن الآخرين وجود فى هويتهول Whitehall أو فى فرساى أو فى ساحة البلاط القديم فى سان بطرسبرج . ان «العصبية» شىء دقيق ومن العسير بل وفى الحال تحليلها بطرائق الكيميائى أو الاحصائى ان الميزان المعقد للعواطف والعادات التى تؤلف بين قلوب الأفراد فى اى من الجماعات مثل تلك التى نناقشها قد يتحول نتيجة لتغيرات تبدو فى الظاهر عديمة الأهمية ومن العسير للغاية متابعتها . ولكن حقيقة

التحول واضحة . ان الظرف والأدب والجمال الثقافى وهى الصفات الواضحة فى الفرسان وكذلك فى الأرستقراطيين الفرنسيين فى قصور فرساى أو الصالونات، وكذلك عند الطبقات العليا من الروس فى مسارح الباليه والأوبرا ونوادى القصص انما هى علامات تدهور ليس بالضرورة أخلاقيا ولكنه بالتأكيد تدهور سياسى يصيب الطبقة الحاكمة .

كما أنه من غير الممكن حتى بالنسبة لهؤلاء الذين يجدون التفسيرات الاقتصادية للتاريخ غير كافية ومضللة أن ينكروا أن فى ثلاثة أو أربعة من مجتمعاتنا وهى انجلترا وفرنسا وروسيا علامات واضحة على أن الطبقات الحاكمة هناك كانت فى وضع اقتصادى مهزوز الى حد كبير . وفى كل من هذه الحالات كان هناك ارتفاع ملحوظ فى مستويات الحياة الخاصة بالنبلاء والأعيان : قصور منيفة وثياب فاخرة وكماليات جلبتها فنون التجميل والنحت والرسم والموسيقى وكلها تكلف الكثير من المال ولم تكن فى المفهوم الاقتصادى الخالص استثمارا نافعا لهذه الأموال . وبالرغم من أن القيود التى كانت تقام فى وجه الأثرياء فى استثمار الأموال فى المشروعات كانت بلا جدال مطلقة . حتى فى فرنسا كما تبدو فى كتب التاريخ المدرسية فمن المؤكد أن معظم هؤلاء الناس لم تكن لديهم الموهبة أو الدربة لمثل هذا النوع من استثمار المال . كان معظمهم يعيشون على الايجارات الزراعية التى لم يكن فى مقدورهم زيادتها للوفاء بنفقاتهم المتزايدة أو على المعاشات والأجور التى تدفع لهم نظير أعمال صورية وعلى غيرها من الاعانات التى يتلقونها من الحكومة ولم يك من الممكن زيادتها نظرا للصعاب المالية المتزايدة التى كانت تواجه تلك الحكومات . حقيقة أن لويس الرابع عشر استغل بالفعل طبقة نبلائه الجديدة حيث التجأ فى أغلب الأحيان الى سحب القاب النبالة ثم اعادة بيعها . وجدير بالذكر فيما يختص بالطبقات الفرنسية والروسية العليا أن بعض السخط الذى قوض أركان عصبيتهم عند انفجار الثورة كان يستمد أصوله من الصعوبات الاقتصادية التى كانت تواجههم .

ويكفى هذا القدر بالنسبة للطبقات العليا أو الحاكمة ، أما

الطبقـــات التى تليهـــا مباشرة فى البنـــاء الاجتمـــاعى فانهـــا كانت تظهر فى انجلترا وفرنســـا وروســـيا والى حـــد أقـــل فى أمريكا شيئا أكثر من الكراهيـــة العادية نحو سادتهم . وهنا مرة اخـــرى نجابه المشكلة التى تعتبر مشكلة عادية فى علاقات الطبقات فى المجتمعات الغربية . ان الرأى القـــائل بأن أى مجتمع سوى لا توجـــد فيـــه منازعات طبقية لا بـــد أن يقابل بالرفض والأمر بالمثل فى رأى المـــاركسيين القائل بأنه فى مثل هـــذه المجتمعات — على الأقل حتى الوقت الحاضر — كان الصراع الطبقى مريرا وعنيفـــا على الدوام . ان صـــورة ترسم لجنوبنا القـــديم على ســـبيل المثـــال لتظهر العبيـــد أناسا قانعين يتوفر لهم الغـــذاء الجيـــد والصناع والتجار فى حالة رواج بلا كراهيـــة يضمرونها لحماتهم من الأعيان أصحاب المزارع ليست الا هراء واضحا ولكن هنـــاك صورة أخرى غير الســـخط المتأجج بين العبيـــد والحسد والكراهيـــة بين البيض المساكين والكبرياء والرعب بين الزراع . ان النـــاس فى المجتمعات الغربيـــة لم يكونوا أبدا احرارا ولا متساوين ولا تجمعهم روابط الأخوة . وانما كان هنـــاك دائما عدم المساواة السياسية والاجتماعيـــة والاقتصادية بين الجمـــاعات التى تعيش فى هـــذه المجتمعـــات — وهى الجمـــاعات التى اعتدنا ان نسميها طبقـــات — ان وجود العـــداوة بين الطبقات انما هو حقيقـــة مهما تكن الفـــائدة التى تعود على الطبقـــة أو الطبقات الحاكمة من انكارها ولكن فى مجتمع سوى نجـــد أن الخـــلافات المتنوعة — هى ليست اقتصـــادية صرف — التى توغر صدر طبقـــة ضـــد أخرى تنتج عن امور أخرى وتنتهى بفعل منازعات أخرى أو يقضى عليها نتيجة مصالح اخرى . وعلى أى حال فهى لا تتركز أو تزداد مرارة أو تشتد نتيجة لتأييـــد يكاد يكون اجماعيـــا من جانب المثقفين كما سنرى فى الأنظمة القديمة التى ندرسها .

وفى انجلترا حيث تعلمنـــا ان نؤمن بأن الكراهية الطبقيـــة تتضاءل باقامة علاقات طيبـــة بين السادة والفلاحين وباندماج أبنـــاء النبـــلاء من الشبان فى الطبقـــات المتوسطة ثم بث الاحساس بأن الشعب الانجليزى كتلة واحـــدة متماسكة ، الا ان القرن السابع عشر شهد صراعا طبقيـــا

مريرا . والعبـارة التالية المقتبسة من مسز لوسى هتشنسون ليست عينة مناسبة تعبر عن احساسات الطبقة المتوسطة من المتطهرين البيوريتـان نحو طبقـة النبلاء فحسب وانما تبين الكراهيـة الشديدة بين الطبقـات فى مجتمعات ما قبل الثورة ..

« ان بلاط الملك (جيمس الأول) كان مهـدا تترعرع فيـه الشهوة والدعارة ... كانت طبقة نبلاء الأرض منحطة انحطاطا تاما ... وسرعان ما اقتـدى أعيان البلاد بمليكهم وأصبح كل بيت من البيوتات الكبيرة مباءة فساد . ثم انتشرت جرائم القتل والفسق والزنا والسكر والهرطقة والفجور وكل أنواع البذاءات التى تعتبر من الرذائل لأنهم طبقوا المثل الذى لمسوه فى البلاط الملكى » .

وثمة عبارة أخرى فى هذا المعنى كتبها الشاعر ميلتون بأسلوب أرق :

ولن نجد صعوبة فى القول بأن كلا من الطبقتين المتوسطتين الفرنسية والروسية كانت تكره وتحقـد وتحس انهـا أسمى خلقـا من الطبقـة الأرستقراطيـة وأن الكتابات الصادرة عنهما كانت مليئة بفقرات تدل على مدى قوة هـذه الاحساسات وانتشارها . فقـد كتبت فتـاة فى الرابعة عشرة من عمرها تدعى مانون فيلبون — مدام رولان فيما بعـد — تخبر انهـا بعد أن أمضت أسبوعا مع سـيدة من حاشية الدوقات « لن تنقضى أيام أخرى قليـلة حتى انفر من هؤلاء النـاس الى حـد لا أستطيع فيه ان اتحكم فى كراهيتى » ، ولمـا سألتها أمها عمـا لحقها من أذى من هؤلاء الأرستقراطيين ، أجابت : « أنه مجرد الاحساس بالظلم ثم التفكير فى كل لحظة فى سخافة هـذا كله » . لقـد كان البورجوازى الفرنسى كلما زاد علوا زاد قربا من أسلوب الحيـاة الأرستقراطية وزاد احساسه فى بعض النواحى بمـدى الهوة التى تفصـله عن جاره الذى ارتكزت نبالتـه على اربع مقاطعـات .

ولقـد كتب ريفارول Rivarol فى مذكراته يقول : « لم تكن الضرائب او الأوامر الملكيـة بالسجن ولا سـوء استعمال السلطة ، ولا مضايقات

المديرين ولا التأجيلات القضائيـة المهلكة هى التى أثارت غضب الأمة الى أقصى حـد . وانمـا كان تحامل النبـلاء هو الذى أثاره ـ يثبت ذلك أن البورجوازيين والأدباء والمولين أو كل هؤلاء الذين يضمرون الحقد لطبقة النبلاء هم الذين عملوا على تأليب صغار البورجوازيين فى المدن والفلاحين فى الريف ضـد طبقـة النبـلاء » .

ان المـدى الحقيقى الذى وصلت اليـه طبقـات الأجراء الكادحـة أو البروليتـاريا فى الثورة على سادتها فى هـذه المجتمعات أمر غير واضح تمام الوضوح وربما كان ذلك فيما عدا روسيا .ففى انجلترا قد يكون هناك شك ضئيل فى أن العمال الأكثر رخاء فى المـدن الكبيرة وكذلك الفـلاحون فى مناطق مثل شرق انجليـا قـد أسلست قيادها الى فئـة البيوريتـان (المتطهرين) وكان معنى ذلك أنها اتخذت موقف المعاداة للطبقات العليـا الانجيلية . ولقـد امتزجت بالغيرة الدينيـة والآراء التى تثبتهـا الكتب الأدبيـة بقـدر كبير من الكراهيـة الاجتماعية مما أدى الى نشوب ثورة عنيفة الى أقصى حـد . ولقـد أظهر الفلاحون الفرنسيون فى كثير وربما فى معظم المناطق بتصرفاتهم سنة ١٧٨٩ أنهم يكرهون الاقطاعيين المقيمين بعيـدا عنهم وكذلك النظم الخاصة بامتلاك الأرض ولكن الدليـل الحاسم على أن هـذه الكراهيـة كانت أشد عنفـا أو أكثر شمولا مما كانت عليه فى مئات السنوات السابقة دليل لم يستخلص بعـد وليس فى استطاعتنا أن نتأكد مما اذا كانوا يكرهون الأفراد أو الوضع الاجتماعى . ومن المؤكد أن الفكرة القديمة ـ وهى واضحة حتى فى كتابات تين Taine ـ من أن الفلاحين الفرنسيين كانوا يئنون فى سنة ١٧٨٩ تحت نير نوعين من القهر الشديد على يد كل من الحكومة والنبلاء انما هى أسطورة ثورية أكثر منها حقيقـة تاريخية . ولا بـد من بذل جهد كبير لدراسة الموضوع دراسـة موضوعيـة للوقوف على حقيقـة شعور الطبقـات المكبوتة أو المقهورة القابعة فى قاع السلم الاجتماعى .

ان الكادحين الروس ـ فى المدن على الأقل ـ قـد تعرضوا بكل تأكيد الى أجيـال متعددة من الدعاية المـاركسية واكتسبوا احساسا بالرسالة

التى ألقيت على عاتقهم ضد النبلاء وأفراد الطبقة الوسطى ويقول البيان الأول الذى أصدره الديمقراطى الاشتراكى سنة ١٨٩٨ قبيل حدوث الانقسام بين المكنشفيك والبولشفيك « كلما اتجهنا صوب شرق أوروبا وجدنا البورجوازية أكثر ضعفا وأحط شأنا وأشد جبنا ومن ثم تقع المهام الثقافية والسياسية الكبرى على كاهل الطبقة الكادحة . فعليها أن تعمل فى سبيل انتزاع الحرية السياسية . ان هذا أمر ضرورى ولكنه الخطوة الأولى نحو تحقيق الرسالة التاريخية العظمى للطبقة الكادحة : اقامة نظام اجتماعى لا يكون فيه مكان لاستغلال الانسان للانسان . ان الطبقة الكادحة الروسية سترفع عن كاهلها نير الاستبداد لكى تواصل بكل طاقتها الكفاح ضد الرأسمالية وضد البورجوازية حتى يتم النصر النهائى للاشتراكية » .

ان مجرد معرفة كيفية احساس الفلاحين الروس تجاه الطبقات الأعلى منهم مشكلة عسيرة . ولقد نفترض الكثير — كما هو الحال كذلك بالنسبة لفرنسا ابان القرن الثامن عشر — معتمدين على الظروف المحلية وسلوك الاقطاعيين وعلى رخاء الفلاحين أنفسهم . وثمة ما يدل على أنه مع القرن العشرين يستطيع الانسان أن يجازف بالقول : كلما ازداد الفلاحون رخاء ازداد سخطهم . ولكن هنا — كما هو الحال فى مجال دراستنا — نجد المصادر الموثوق بها نادرة . فلا المؤرخون ولا علماء الاجتماع كلفوا أنفسهم عناء الاهتمام الكافى المنتظم لبحث « العواطف » تجاه الجماعات الأخرى ، العواطف السائدة فى جماعة أو طبقة اجتماعية . ولقد لاحظنا عجز الطبقات الحاكمة وعواطف العداء الشديد التى تكنها نحوها الطبقة الوسطى وقطاعات من الطبقة الدنيا . وعلينا أن نبحث أى مدى من الجمود بلغته هذه الفواصل الطبقية ثم بنوع خاص الى أى مدى كان الطريق مفتوحا أمام المواهب فى هذه المجتمعات . ولقد يقول المرء بداهة ان أى تناول للنظام الطائفى الجامد فى المجتمعات الغربية الذى قد يحول دون تمكين أصحاب القدرات ممن يولدون فى بيئة فقيرة من الارتقاء أو أن أى تعطيل ما يسميه بارتو Pareto بـ « دورة النخبة الممتازة » قد يكون من الأعراض الأولية البالغة

الأهميـة للثورة . ان الأكفـاء قـد يولدون فعلا فى أحط الدركات وأن أى تجميع للأكفـاء والساخطين قـد يهيىء زعماء محنكين وطبيعيين لفئـات متبرمة وعلى استعداد للثورة . الا ان تجربة الباب المفتوح أمام الأكفـاء من أصعب الأمور تطبيقـا فى مجتمعاتنـا . وفى الواقع أن تصوير المستوى العـادى فى مجتمع غربى لأمر بالغ الصـعوبة حتى ولو غضضنا الطرف عن توفر الدقة كمـا فعلنـا فى العوامل الأخرى .

ويستطيع المرء أن يبـدأ بفرض أمريكى مميز فيقول بأننـا فى هـذه البلاد على الأقل نتمتع بمبـدأ تكافؤ الفرص .

حسن جدا ، لنأخذ كيفما اتفق بعض الأمريكيين العصاميين فى القرن العشرين : تدوليـامز Ted Williams وهنرى فورد Henry Ford وبوب هوب Bob Hope ثم تيودورد دريزر Theodore Dreiser ولقـد يكون مما يريح النفس أن يكون فى مقدورنا القول فى ثقـة بأن فى مجتمعات الأنظمة القـديمة كان من الممكن أن يبقى هـؤلاء الرجال الذين اثبتـو مقـدرتهم فى الحضيض بسبب الحواجز الطبقيـة الشديدة ويستمروا مغمورين أو أن يسلكوا طريق الثـورة . ولكن من سوء الحظ أن هـذا ليس صحيحا . وعلينا فى الواقع الا نندفع فى ثقـة غير لائقـة عندما نخوض فى مثل هـذه الأمور الافتراضية . ان الرياضى المحترف له من الصفات ما لمستر وليـامز لا يحتمل أن يكون فى مقدوره أن يجمع فى أى مجتمع آخر غير مجتمعنـا تلك الثروة التى يملكهـا مستر وليامز أو أن يحظى بهـذا التشريف الذى يلقاه أو ان شئت بهذا الاهتمام من الرأى العام الا ربما يحدث مثل هذا الأمر فى روما بلد المصارعين المحترفين الا أنه فى بداية المجتمع الاقطاعى ربما اكسبته قوته البدنية وبراعته لقب الفروسية أو انه فى المجتمعات الحـديثة ربما دفعته حماية النبـلاء الى ما هو أكثر من ذلك . ويمكن أن نأخذ فورد على أنه مبتكر المشروعات . ومع ان المرء يشك فى أن أى مجتمع آخـر خلاف مجتمعنا كان يجعل منـه بطلا وطنيـا ولربما كان فى مقدوره فى فرنسـا القرن الثـامن عشر أو فى روسـيا القيصرية فى أوائل القرن العشرين أن يضمن لنفسه مركزا ماليا ناجحا . أما مستر هوب فانه الرجل الذى يدخل

البهجة على النفوس ولقد اعتاد المجتمع الغربى أن يكافىء عادة وبشكل كاف بل وأحيانا بشكل مبالغ فيه هؤلاء الذين يدخلون البهجة عليه . وربما لم يخف الأرستقراطيون أبدا احتقارهم لهؤلاء الذين يسلونهم وربما كذلك لم يبذل الديمقراطيون أية محاولة لاخفاء اعجابهم بهؤلاء الناس . ومع هذا فان الممثلين والموسيقيين والمهرجين وأمثالهم كانوا رغم المثال الخاص ببومارشيه فيجارو لا يضيقون كثيرا بسبب مركزهم الاجتماعى فى الماضى . وفى الحق كان القرن الثامن عشر الفرنسى عطوفا للغاية عليهم كما أنه أغدق عليهم الأموال والرعاية . أما فيما يختص بدريزر فانه كان من المفروض أن يكون أصلا بين الفلاسفة أو بالتعديلات القومية العنصرية المناسبة بين الجوركيين (نسبة الى جوركى) والتشيكوفيين (نسبة الى تشيكوف) . وكان فى وسعه أن يجمع ثروة مثلهما ويكون موضع التكريم أكثر منهما .

اننا نعالج أنواع من العواطف الانسانية متغايرة دقيقة للغاية . ومن المحتمل فى كل العصور وكذلك فى كل المجتمعات أن يشعر بعض الأفراد بأن لهم قدرات لا يستطيعون ابرازها بسبب القيود الاجتماعية والسياسية والاقتصادية القائمة . فليشعر بعض الناس بأنهم مقيدون مكبوتون وفى الواقع هذا حق لا مراء فيه . ومن المحتمل أن يكون فى المجتمعات التى على أهبة الثورة عدد ضخم من أمثال هؤلاء الناس . الا أنه من العسير جدا أن يضع المرء أصبعه على هذه الأنواع من القدرات ، وهذه المجالات من الامتياز حيث يكون هذا القيد محسوسا الى اقصى حد ، وهنا كما هو الحال فى أى مكان آخر يكون الوضع المعين دائما عبارة عن قيود معقدة لا يمكن لواحد منها أو اثنين أو ثلاثة بدون عوامل اضافية من الاضطراب أن يكون شيئا سوى أنه حقيقة اجتماعية عادية . وزيادة على ذلك هناك عوامل أخرى الى جانب هذه القيود . وقد يتحمل الناس كثيرا من المشاق فى سبيل الوفاء . ويبدو أن الحقيقة تختلف عن الاحساس كثيرا . وهكذا كان فى المجتمع الغربى دائما — ولنقارنه مثلا بالمجتمع الهندوكى الطائفى — الباب مفتوح « أمام الكفايات »

ولا عقبة فى طريق دورة النخبة الممتازة . ونستطيع أن نلقى على مجتمعنا نظرة سريعة لنرى هل هناك أية قيود تقف فى سبيل هذه الدورة فى السنوات السابقة للثورة .

ان الطريق الى الثروة والشهرة فى فرنسا أبان القرن الثامن عشر كان فعلا مفتوحا لرجال الأعمال دون عائق وكذلك للمغامرين والمغامرات والممثلين والفنانين والكتاب — كان مفتوحا أمام صمويل برنارد Samvel Bernard وباريس دوفرنى Pâris Duverney وكاجليوسترو Cagliostro ومدام دى بارى Mme. Du Barry وفراجونا Fragonard وفولتير Voltaire .

أما الطريق الى السلطة السياسية فكان أشد صعوبة ولو أن أسقف ديبوا Abbé Dubois وهو ابن صيدلى استطاع أن يبلغ أقصى قمتها . وعلى العموم كان الطريق الى السلطة السياسية الجوهرية — وهى القدرة على رسم الخطط ووضع السياسات — مفتوحا أمام الكفايات من رجال الحاشية ربما اكثر مما كانت بالنسبة لذوى الأصول النبيلة ، وكانت السلطة الادارية كلها على وجه التقريب فى أيدى النبلاء أصحاب المناصب وهى بيوقراطية وراثية حية الضمير مقتدرة . وكان المركز الاجتماعى والقاب الشرف الرفيعة — كما وصل الى علمنا — لا تمنح الا لهؤلاء الذين فى استطاعتهم ان يظهروا اركان النبالة الأربعة . وزيادة على ذلك كانت هناك دلائل على أن النبلاء فى فرنسا فى القرن الثامن عشر تحت قيادة النبلاء أصحاب المناصب يضيقون الأبواب ليزيدوا من الصعاب أمام الطامحين من طبقة غير النبلاء . ومن المقطوع به أن طبقة من النبلاء ذوى الامتيازات كانت موجودة فعلا وأنها كانت مكروهة جدا من جانب كثير من الطبقة البورجوازية .

ولقد كانت روسيا فى القرن العشرين تشبه ذلك الى حد كبير فكان على رأس النظام الاجتماعى طبقة من النبلاء صاحبة الامتيازات اغلقت أبواب التقدم الاجتماعى فى وجه أصحاب مواهب من الطبقة الدنيا . وكانت

هـــذه الطبقة مكروهة جدا من جانب هؤلاء الذين كانوا ينظرون اليها من الفئات الأخرى . ومما لا شك فيـــه أن كثيرا من أفرادها كانوا متعجرفين بطريقـــة لا تحتمـــل ، متغطرسين ، ومنحلين ، ومغرورين ، وتافهين . وغير ذلك من الصفات السيئة التى اتصفوا بها فى قصة المدينتين . ومع ذلك كان الطريق الى الشهرة والثروة أبعد من أن يكون مغلقا فى روسيا قبيل الثورة بما فيها من صناعات جديدة ناشئة وما فيها من نهضة مسرحية وصالات للرقص والموسيقى وما فيها من جامعة ومراكز ادارية مفتوحـــة أمام الشباب الطامحين وذوى الكفايات حتى وان كانوا من الريف . ولربما يعتبر راسبوتين Rasputin نموذجا سيئا للباب المفتوح أمام أصحاب المواهب ولكنك لا تستطيع أن تنكر أن الراهب السيبيرى قد بلغ القمة .

ان أحد مفاتيح هذه المشكلة الخاصة بدورة الصفوة الممتازة يكمن فى توقف تلك الدورة عنـــد نقطة خاصـــة بالغة الحساسية مثل المهن وخاصة المهن الثقافية أى بين الناس الذين قد يحسون بخيبـــة الأمل أو الشعور بأنهم محرومون من المراكز الطيبـــة .

وان المرء ليصدم عنـــد دراسة المجتمع الفرنسى فى السنوات السابقة للثورة بنوع من العوائق التى تقف فى سبيل الشباب النابه المتدفق نحـــو باريس ليكتبوا ويتحـــدثوا عن طريقهم الى الســـعادة . ويبين ميرسيه فى لوحة باريس كيف كان الشبان فى كل يوم تسطع فيـــه الشمس يرون على الأرصفة يستحمون ويجففون قمصانهم التى لا يملكون ســـواها كرمز للقلق وسوء الوضع الاجتماعى . وفى روسيا كان هناك دلائل على الصعوبات التى تعترض طريق أولئك الذين يجب أن نسميهم نحن الأمريكيين « أصحاب الياقات البيضاء » والمثقفين ، والبيروقراطيين والكتبة وما أشبه . ونحن نعرف أن قيدا مشابها فى مجتمع جمهورية فيمار Weimar كان له دور هام فى ثورة النازى سنة ١٩٣٣ . وهـــذا العرض ـــ مثل معظم الأعراض الأخرى التى تدل على التوتر الاجتماعى العنيف ـــ يكاد ينعدم فى أمريكا القرن الثامن عشر ومن الصعب الى أقصى حـــد تعقبه ـــ للافتقار بعض الشىء الى نقص المواد التاريخية الصحيحة فى الثورة الانجليزية ، وطبيعى

جدا ان يؤدى صد النخبة الممتازة عن النجاح فى الصحافة والأدب وغير ذلك من المهن الى هروب المثقفين .

واخيرا تبدو العداوة الطبقية فى أعنف صورها عندما تصل الطبقة الى الثروة بينما تكون — أو تشعر بأنها — قد حرمت من بلوغ أعلى مراتب الامتياز الاجتماعى أو المراكز ذات السلطة السياسية . وهذا بطريقة عامة يصف موقف اتباع كالفن Calvin والتجار فى القرن السابع عشر فى انجلترا والارستقراطيين المستعمرين والتجار فى أمريكا الذين كانوا على الأقل مرتبطين بالطبقة الانجليزية الحاكمة البريطانية والبورجوازية الفرنسية فى القرن الثامن عشر والبورجوازية الروسية فى القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين . ويحتمل فى كل مجتمع أن يبرز أفراد من صفوف أقل حتى من مستوى الطبقة المتوسطة وأن يجتازوا كل هذه العقبات . بل أن البورجوازية كطبقة فى كل المجتمعات الأربعة كان لها فى الواقع صوت حاسم فى معظم القرارات السياسية حتى فيما قبل الثورات . ولكن البلاد كان يديرها أناس آخرون لهم امتيازاتهم الخاصة كما أن البورجوازية قد أقصيت كطبقة عن أعلى مراتب الامتيازات الاجتماعية دون أن يترك لها أمل فى ذلك . وفضلا على ذلك كان هذا الاقصاء مضرب الأمثال وأمثال الحديث دائما فى كل مكان عدا المناطق الريفية النائية . فقبل ماركس بزمن طويل وقبل أوسيانا الذى وضعه هارنجتون كان الناس العمليون يعرفون أن السلطة السياسية والشرف الاجتماعى هما الميدان اللتان تعتمد عليهما السلطة الاقتصادية . وحيث لا تستطيع الثروة — ونحن بكل تأكيد الجيل الثانى أو الثالث للثروة — أن تشترى كل شىء — كل شىء فى هذا العالم — بأى ثمن — فأنت أمام العلامة الأولية التى يمكنك أن ترتكز عليها ارتكازا تاما فى التنبؤ بقيام الثورة .

خامسا — ملخص :

وعندما نلخص ما قلناه فان ابرز ما يجب أن نلحظه هو أن كل هذه الدلائل الأولية — مثل عجز الحكومة المالى والشكاوى من فداحة الضرائب ومحاباة الحكومة لمجموعة من المصالح الاقتصادية على مصالح

اخرى والتعقيدات والارتباكات الادارية وهروب المثقفين وفقدان الثقة بين كثير من اعضاء الطبقة الحاكمة وتحول الكثيرين من افراد هــذه الطبقة الى الاعتقاد بأن امتيازاتهم غير عادلة او ضارة بالمجتمع واشتداد حدة المتناقضات الاجتماعية وغلق أبواب العمل أمام ذوى الكفاءات ، (عادة فى المهن والفنون وربما فى وظائف ذو« الياقات البيضاء عامة) ، وفصل القوى الاقتصادية عن القوى السياسية ثم التمييز الاجتماعى وبعض هــذه الدلالات ان لم يكن كلها قــد يوجد فى كل مجتمع حديث بوجه عام وفى أى عصر من العصور . وبهــذه الحكمة التى تقترن عادة بالنظر الى أمر ما بعــد أن مر عليه وقت طويل نستطيع الآن أن نقول هــذه العلامات فى اربعة أو على الأقل فى ثلاثة من مجتمعاتنا هــذه . ومما لا شك فيه أننــا قد حذفنا علامات اخرى أم نذكرها — وجدت فى ترابطات وتعقيدات غير عادية بعض الشىء قبل اندلاع الثورة —ولكن من الواضح أنه يجب علينا أن نستنتج مما انتهينا منه فورا أن تشخيص الثورة وهى فى مراحلها الأولى أمر بالغ الصعوبة ومن غير المستطاع بكل تأكيد ارجاعه الى صيغة محددة او وصفة معينة أو الى مجموعــة من القواعد . ان هــذا ايضا مما يصدق على تشخيص أمراض الانسان . ان اقــدر المشخصين للأمراض ، كما اخبرنا الثقاة ، لا يستطيعون أن يحللوا أو يبينوا فى ترتيب منطقى رسمى كل الخطوات التى اتخذوها فى تشخيصهم الأكلينيكى للمرض .

على أننــا مع ذلك لم نقف عاجزين تماما أمام منحة صوفية لنبوءة قصيرة المدى يتنبأ بها شخص ناجح . ان طرائقه ليست تلك التى يستخدمها السحر وانما هى — حتى تجعلها الألفــة سهلة ميسورة — اقرب الى أن تكون موهبة تحاول تركيب تجربة الماضى (وهو أمر يندر أن يكو صريحا) . وملاحظة الحاضر ثم استنباط حكم عام يلازمه التوفيق — أو ان شئت حكما شاملا . كما أننا نستطيع فى هذا المجال أن نجازف بشىء آخر خاص بعلامات الثورة فى مجتمعاتنا الأربعة . ان فيها جميعا وبخاصة فى فرنسا وروسيا قبيل الاندلاع الفعلى للثورة يتزايد الحديث عن الثــورة ويتزايد الوعى بالتوتر الاجتماعى والعجز والغضب . ودائما يوجد من يتنبأ بالشر . ولســنا فى حاجة الى أن نركــز كثيرا على أية نبــوءة خاصة بثــورة

معينـــة مثلما فعـــل المركيز دى أرجنســـون Marquis d'Argenson قبل الثـــورة الفرنســـية بأربعين عـــاما . ولكن عنـــدما تصبح هـــذه المخـــاوف أو الآمال شـــيئا ما شبيها بالملكيـــة العـــامة وعند ما تكون منتشرة نستطيع أن نعتبر ـــ ونحـــن مطمئنون ـــ أن هـــذه العاطفـــة العامة علامة نهائية من علامات الثورة . ومع ذلك حتى ذلك الوقت يصعب استخدام العلامة التى لدينا . . ذلك لأن الناس لا يتوقعون ابدا الثورة فى زمانهم وانمـــا فى زمن أولادهم أن الثورة الفعليـــة تجىء دائما مفـــاجأة . وهـــذا يصدق حتى بالنسبة لروســـيا مع أن الثـــورة ظلت لفترة طويلة متوقعـــة . وعلى كل يجب أن تكون منتشرة وليست فقط فى افواه العرافين المحترفين أو المحافظين الهيابين . ويجب فوق كل شىء أن تتجاوز حـــدود المثقفين . وذلك لأنه مهما تكن قيمة هروب المثقفين كعلامة فـــلا قيمة لهـــا وحدها الا اذا وجدت مع غيرها من العـــلامات الأخرى . وبعد هـــذا كله فان احـــدى المهام الكبرى التى كان المثقفون فى المجتمع الغربى يقومون بهـــا دائما هى أن يهزوا النـــاس العاديين ليخرجوهم من تفـــاؤلهم الذى لا يقوم على أى تفكير ، وربما كان من حق كاسندرا Cassandra أن يدعى مثل افلاطون انه مؤسس تراث اكاديمى عظيم ولكن خلفـــاء كاسندرا لم يحققوا على الوجه الأكمل تنزهها التعس عن الخطأ .

الفصل الثالث

المراحل الأولى للثــورة

١ ــ فيجــارو الخــالد :

فى مسرحية بومارشيه « زواج فيجارو » التى مثلت لأول مرة فى باريس فى عام ١٧٨٤ مناجاة مشهورة لفيجارو فيها الكثير مما بذلنــا الجهد لتحليله فى الفصل السابق وهو مركز تركيزا دراميا فى صفحات قليلة . وفيجارو نفسه ليس الا الشاب الذى تتوفر له القــدرة ولكنه يظل فى الحضيض دون وجه حق نتيجة لنظــام اجتماعى قائم على الامتيــازات . وحينما يرفع الستار يكون منتظرا فى الظــلام ليفاجىء عروســه مع ســيده كونت المــافيفــا Count Almavia وتتحــول تأملاته الأولى عن طبيعة المراة المتقلبــة بسرعة شديدة الى هجوم عنيف على سيده النبيل . « الأنك سيد عظيم تظن أنك عبقرى عظيم ! ... الى هــذا الحد تفعل النبالة ، الثروة ، الرتبة ، المناصب كل هــذا فتجعل الانسان مغرورا ! .. ولكن ماذا فعلت لتستحق كل هــذه الخيرات الكثيرة ؟ انك لم تتعب الا فى خروجك من بطن أمك ! » وعنــدئذ يتطلع الى الوراء فيتــأمل أنواع الكفــاح التى ملأت حيــاة أصله الخامل ودراســته للكيميــاء والصيدلة والجراحة كل ما يكاد يكفى ــ لانحطاط مولده ــ لكى يعطيــه ميزة ممارسة الطب البيطرى ، ومغامرته بتــأليف الروايات المسرحيــة واصطدامه المحتوم مع الرقيب ثم تحوله الى الكتــابة فى ماليــة الدولة وما ترتب على ذلك من قضاء فترة فى السجن ، ومحاولة أخرى فى الأدب وكانت هــذه المرة فى الصحافة ثم ما تلا ذلك من زجه فى السجن مرة أخرى ثم رفض طلبــه عندما تقدم لوظيفة فى الحكومة ومنعه عنها سوء حظه ، رغم انه كان أهلا لهذه الوظيفة وانقلابه الى مقامر عندما كان سادته من النبلاء يأخذون معظم أرباحه ثم عودته آخر الأمر الى مهنته القديمة كحلاق صحى . ان بعضا من هذا ليس الا سيرة حياته . الا أن

بومارشيه وهو ابن أحد صغار التجار قد كسب لنفسه ثروة ومكانة فى النظام القديم وساعد فى توجيه المعونات الفرنسية الى الثوار الأمريكيين انه — بالمستويات الدنيوية — شق طريقه فى النظام القديم . ولقد كان سيلا من النكت والأمثال يتدفق خلال مناجاة فيجارو . وكانت تدخل البهجة على نفوس المشاهدين العصريين وتداولتها الألسن فى طول البلاد وعرضها ، وفى الحق أن العائلات كانت تأتى الى باريس خصيصا لتشهد تمثيلية « زواج فيجارو » وتستمتع بالنكت الفرنسية فى أظرف صورها موجهة ضد حكومة فاسدة . ونورد هنا القليل من أشهر طرائف بومارشيه .
« انهم اذ يعجزون عن اذلال روح الانسان ينتقمون بالاساءة اليها » .
« ان الصغار وحدهم هم الذين يخافون من الكتابات القليلة » . « كانت الوظيفة تتطلب محاسب ولكن راقصا هو الذى حظى بها » . « لكى تسهل أمورك فى هذه الحياة تعلم كيف تسهلها خيرا من مجرد الحصول على العلم » ثم هناك بطبيعة الحال هذه النكتة المريرة عما حققه الكونت فى حياته « ماذا فعلت لتحصل على هذه الأشياء الطيبة كلها ؟ انك لم تتعب الا فى الخروج من بطن أمك » . وفى هذا الحديث وحده اشارات عديدة الى الثورة القادمة بحيث اذا أضيفت اليها الحكمة المستمدة من الواقع بعد حدوثه وهى الحكمة التى تتوفر بشكل طبيعى عند المؤرخين تستطيع أن تقول أن الثورة قد اندلعت اندلاعا تاما فى فيجارو . وهذا يتضمن بطبيعة الحال حقيقة معينة هى أن الرقيب بعد تردد طويل لم يوقف مسرحية بومارشيه .

ان السنوات التى تسبق اندلاع الثورة الفعلى تشهد سيلا من الاحتجاجات ضد طغيان الحكومة ، واكداسا من الكتيبات ، والمسرحيات والخطب ، وتفجرا فى نشاط الجماعات الضاغطة صاحبة المصلحة . ولا شك أن الحكومة لا تستطيع أن ترتفع الى المستوى الذى يطالب به خصومها . وان محاولاتها الطاغية لكبت المعارضة الثائرة ربما تفشل لأن تلك المعارضة على درجة كبيرة من القوة ومزودة بالمعلومات والفضائل أو لأنها تنفذ دون حماس ودون اقتدار من جانب عملاء الحكومة الذين

تكسبهم المعارضة الى صفها . وتبقى الحقيقة وهى أنهم يفشلون فعلا .

وحتى فترة الحكم الفردى فى عهد شارل الأول Charles I التى سبقت الثورة الانجليزية لم تكن كلها بهذا القدر من الهدوء أو النجاح الذى يبدو فى الظاهر . فان كثيرا من أساقفة البيوريتان نجوا من محاولة لود Laud لعزلهم من الكنيسة القائمة كما أن الكثيرين وجدوا عددا وفيرا من المنابر والمطابع المستقلة .. ولربما استطاع سترافورد أن يكتب فى ١٦٣٨ « ان الناس يشملهم هدوء تام واذا لم أكن مخطئا الى حد بعيد فانهم راضون كل الرضا ان لم يكونوا مبتهجين بحكومة جلالته الرحيمة وحمايته » ولكنه كان على خطأ كبير فان السنوات الاحدى عشر لهذه الحكومة الفردية لم تكن على أقل تقدير الا الهدوء الذى يسبق العاصفة .

أما فى مجتمعاتنا الثلاثة الأخرى فانا لا نجد حتى الهدوء الخادع وانما نجد نموا مضطردا للهياج الثورى . ومن الصعب أن نجد مستعمرة فى أمريكا خلت من شكل من اشكال الشغب فى الفترة ما بين قانون التمغة وليكسنجتون Lexington وقد شهدت جميعها نموا مضطردا للهياج عن طريق لجان التجار ولجان المراسلات وابناء الحرية Sons of Liberty وغيرها من الجماعات المشابهة . وفى سنة ١٧٨٠ اقتربت الحكومة الفرنسية شيئا فشيئا من الافلاس ومع كل اجراء اتخذته لتجنب الافلاس كانت تقترب من دعوة مجلس طبقات الأمة والاشارة بقيام الثورة . أما فيما يخص روسيا فقد كان مجتمعها يعى بطريقة رائعة امكانيات الثورة . ان الطبقات العليا هناك كانت لفترة أكثر من جيل قد حولت قلقها الى الحديث الناعم عن « الجلوس فوق فوهة بركان (أو) بعدنا الطوفان » ، « العاصفة تهب » . وفى ١٩٠٥ و ١٩٠٦ تحت وطأة الهزيمة على يد اليابانيين حدث نوع من « الاعداد » للثورة الكبرى . ولقد أوقفت لفترة ما الحماسة الوطنية فى سنة ١٩١٤ الاستعدادات العلنية للثورة ولكن الهزيمة العسكرية فى ١٩١٥ و ١٩١٦ أرجعت الظروف الى ما كانت عليه فى عام ١٩٠٥ .

٢ ــ أحــداث المراحل الأولى :

بدأت الثورة الروسية تأخــذ شكلا أكثر دراميــا وتحــديدا بحادث واحــد ــ مظاهرة فى الشارع فى بتروجراد فى مارس ١٩١٧ ــ أكثر ممــا فعلت أى من ثوراتنــا الأخرى . الا أنه حتى فى روسيا استغرق الأمر اربعة أو خمسة أيام لكى يتحقق الثوريون انفسهم أن هــذا الشغب الذى تقوم به الجمــاهير حول بتروجراد قــد يحمل معــه سقوط أسرة رومانوف . ان التاريخ والسجل الوطنى قــد أبرزا قصصا مثيرة ــ مثل معارك ليكسنجتون وكونكورد وسقوط الباستيل ــ كبدايات للثورات . لكن رغم أن المعاصرين كانوا يدركون الطبيعة الدرامية لمثل هــذه الأحداث فانهم لم يكونوا على يقين دائما من انهم حولوا الهيــاج الثورى الى ثورة .

ان الخطوات الأولى فى الثــورة لا تكون بحــال من الأحوال واضحة دائما للثوريين أنفسهم كما أن الانتقــال من الهياج الى العمل نادرا ما يكون أمرا مفاجئــا وحاسما .

ولقــد ارتقى شــارل الأول العرش فى ١٦٢٤ ولم يلبث أن وجــد نفسه داخلا مع مجلس العموم فى صراع حول الضرائب . ومن خلال الصراع ظهر الى الوجود ملتمس الحقوق لسنة ١٦٢٨ الذى اضطر فيه أعضــاء مجلس العموم الملك على الموافقة على بيان يضع الحدود للسلطة الملكية . قطع شارلز على نفســه عهــدا بالامتنــاع عن طلب القروض بالقــوة والا يجعل الجنود يسكنون المنــازل رغم ارادة أصحابها والا يسمح للضباط بتطبيق القــانون العرفى فى وقت السلم والا يزج بأى انسان فى السجن دون توضيح السبب الذى من أجله فعــل هــذا . واذ تشجع مجلس العموم بهــذا النجاح واصل أعضاؤه بزعامة سير جون اليوت Sir John Eliot الملتهب بالعواطف زحفهم ورفضوا أن يهبوا للملك ضرائب الدخل المعتــادة المفروضة على الموازين والمكاييل وأصروا فى أســلوب هجومى أو هو فى الواقع أسلوب ثورى على امتيازاتهم .

وفى المناقشة النهائيــة التى جرت فى الثــانى من شهر مارس ١٦٢٩

امسك رجلان همـــا دينزل هولز Denzil Holles وفالنتين Valentine رئيس المجلس وأبقيـــاه فى مقعـــده بالقوة بينما كان اليوت يقترح اصـــدار تصريح يعلن بطـــلان ضريبـــة الموازين والمكاييل دون اذن من البرلمـــان . واندفع المحافظون الى الأمام ليفكوا وثاق رئيس المجلس وتبع ذلك عنـــدئذ مناقشة حامية الوطيس تقف على قـــدم المساواة مع المناقشات التى دارت فيما بعـــد فى الجمعيـــة الوطنيـــة الفرنسية ، ولكن بطريقة ما أو باخرى وابان هـــذا الهرج وضعت قرارات اليوت موضع التنفيـــذ قبل التمكن من تنفيـــذ الأمر الملكى بحـــل البرلمـــان . ان البرلمـــانيين قـــد أحدثوا لفتـــة ضخمة فى أسلوب الاحتجاج ، ومن ذلك اليوم لم يجتمع برلمـــان فى انجلترا لمـــدة احـــد عشر عاما . وارسل اليوت الى السجن بتهمة احـــداث الهياج ولكنه أصر على أن الملك ليس له اى سلطان على عضو فى مجلس العموم . ومات شـــهيدا عام ١٦٣٢ .

وفى ســـنوات الحكم الفردى بذل شارل — يؤيده مساعداه الكبيران سترافورد Strafford ولود Laud — أقصى ما فى جهـــده لتنظيم الحكومة الانجليزية وفقـــا لأفكار المركزية الناجحة والخبراء فى أصول الحكم وهى أهم تراث سياسى من عصر النهضة . وقـــد قام فى هـــذا المجال بعمل يعتبر من بعض النواحى جيـــدا الى درجة مدهشة . ولكن قـــد يكون كمـــا يعتقـــد مؤرخو القرن التاسع عشر الأحرار أنه كان سائرا فى اتجـــاه مضاد للخلق الانجليزى الأساسى والقالب الأساسى للنظم الانجليزية وأنه لاشك كان سائرا نحو الافلاس . ويحتمل أن يكون مجرد الصدام مع طائفة البريسبيتريين الاسكتلنديين (طائفة دينيـــة) هو الذى أسرع بالتغيير المحتوم . لقـــد دعا شارل البرلمـــان الى الانعقاد فى ربيع ســـنة ١٦٤٠ ولكنـــه أصدر قرارا بحله بعـــد أقل من شهر . وكان جيش اسكتلندى قـــد غزا انجلترا حينذاك وكان على شارلز أن يفتديهـــا . ولكى يحصل على المـــال دعا برلمـــانا آخر الى الانعقـــاد .. وعلى هـــذا لم يكن البرلمـــان القصير الأجل الا مرحلة انتقاليـــة لدعوة البرلمـــان الطويل الذى اجتمع فى الثالث من نوفمبر ١٦٤٠ ، وحل فى ٢٠ ابريل سنة ١٦٥٣ ثم عاد الى الحيـــاة مرة أخرى بعـــد فترة وجيزة فى عام ١٦٥٩ قبيل عودة آل ســـتيوارت بوقت قصير وهـــكذا فان

حياة هذه الجمعية غير العادية تستغرق فترة العشرين سنة للثورة الانجليزية .

لقد بدأ البرلمان الطويل عمله فى الحال وذلك لأنه فى ١١ نوفمبر ١٦٤٠ اى بعد أسبوع واحد من اجتماعه لأول مرة اقترح بيم Pym اتهام سترافورد بالخيانة العظمى . وأيد مجلس اللوردات الأكثر رجعية الاقتراح وفى أوائل ١٦٤٠ صدر القرار باعدامه وحرمانه من الحقوق المدنية وكان الاتهام يتضمن على الأقل انواع الاجراءات القضائية فى حين كان الاعدام عملا تشريعيا بسيطا . لقد كان اللوردات على استعداد تام للتخلى عن سترافورد فضلا عن محاكمته ، وفى الثانى عشر من مايو سقط تحت بلطة الجلاد . وفى اقل من ثمانية اعوام كان مقدرا لهذه البلطة أن تهوى على سيده صاحب الجلالة .

وما كان الصدام الفعلى بين قوات شارل وقوات البرلمان المسلحة ليحدث قبل مضى عام آخر ، فقد صوت البرلمان بأغلبية أحد عشر صوتا مؤيدا الاحتجاج الكبير وهو تلخيص طويل للمظالم التى تراكمت ضد الملك خلال السبعة عشر عاما التى قضاها فى الحكم . ورد شارل على هذا التصويت الذى يحمل عدم الثقة بمحاولة القبض على ستة أعضاء من البرلمان هم لورد كيمبلتون Lord Kimbolton فى مجلس اللوردات وبيم Pym وهلمبدن Hampden وهيسلريج Haselrig وهولز Holles وسترود Strode فى مجلس العموم الذين عرضوا أنفسهم للريب عندما قاموا بمفاوضات خيانية من الناحية الفنية مع جيش الاسكتلنديين المغير . ولم يتوان شارل فى أن يذهب بنفسه الى مجلس العموم مع حرسه المسلح ليقبض على هؤلاء الأعضاء . وقوبل بشىء من المقاومة السلبية التى أظهرها البورجوازيون الفرنسيون فى الجلسة التى عقدت فى ١٧ يونية ١٧٨٩ عندما حضر لويس السادس عشر وأمرهم بأن يطرحوا جانبا محاولة تكوين جمعية وطنية . اذ هرب الأعضاء المهددون الى مدينة لندن ووجد شارل نفسه مرة أخرى مغلوبا على أمره . ووجد أعضاء مجلس العموم انهم نجحوا فى تحديهم مما شجعهم على أن يقرروا الاستيلاء على

القوة العسكرية فعينوا الضباط فى الميلشيا . وبدأ شارل بدوره فى تكوين جيشه الخاص واتخذ مقرا له فى نوتنجهام Nottingham فى اغسطس عام ١٦٤٢ ، وبذلك بدأت الحرب الأهلية .

اما من أين بدأت الثورة الانجليزية فى هذه السلسلة الطويلة من الأحداث الملتئمة بعضها مع بعض فهذا أمر يعتبر الى حد ما ذاتيا فمن نقطة ما تقع ما بين دعوة البرلمان الطويل فى ١٦٤٠ واندلاع الحرب الأهلية بعد ذلك بسنتين كانت الخطوات الخطيرة الأولى قد تمت ، ولربما يكون اعدام سترافورد تاريخا مثيرا أو محاولة شارل الفاشلة للقبض على اعضاء مجلس العموم الخمسة .

وعلى اى حال فما كاد يحل صيف ١٦٤٢ حتى كانت الثورة الانجليزية قد اتخذت شكلا لا يمكن أن نخطئه .

اما الأحداث فى أمريكا فلم تتحرك فى خطوات أسرع . ويستطيع المرء الى حد ما ان يقول أن الثورة الأمريكية بدأت حقا فى ١٧٦٥ بقانون التمغة ، أو على اى حال ان الاضطراب الذى بلغ أوجه كرد فعل لهذا القانون كان نوعا من التجربة استعدادا للحركة الكبيرة التى حدثت فى السبعينيات . كانت الحكومة الامبريالية قد صممت على أن تعمل شيئا بالنسبة للمستعمرات الأمريكية وكانت ضرائب تونزهند Townshend الخفيفة على الشاى والزجاج والرصاص وبعض السلع الأخرى الواردة الى أمريكا مصحوبة بحاولة لجمعها بطريقة حديثة فعالة . وبمقتضى قانون تونزهند كانت الجمارك فى أمريكا مزودة بهيئة ادارية لها آمالها وقدرتها . وكانت النتيجة سلسلة من الاصطدامات مع الجماعات الأمريكية الحسنة التنظيم . ان رمى المخبرين بالقار والريش وسرقة البضائع المحجوزة أمام اعين موظفى الجمارك والاستهزاء بالقوات البريطانية أدت كلها الى الأحداث الأشد اثارة والمدونة فى الكتب المدرسية والقبض على الجاسبى فى بروفيدنس ، ومذبحة بوستن فى ١٧٧٠ وحفلة الشاى فى بوستن ثم حريق بيجى ستيوارت .

ان اغـلاق ميناء بوسطن وارسـال جيدج Gage مع قواته الى ماساشوستس Massachusetts وقانون كويبك نفسه كانت كلها فى الواقع الاجراءات التى اتخذتها الحكومة الامبريالية ضد المستعمرات الثائرة . وقد تستطيع اذا كنت ممن تستهويهم هذه الأمور أن تبحث باسهاب متى بدأت الثورة الأمريكية رسميا ، وقد تستطيع أن ترجع فى هذا الى الوراء الى المؤتمر القارى الأول فى ١٧٧٤ أو الى معارك لكسنجتون Sexington وكونكورد فى ١٧٧٥ أو حتى الرابع من يولية ١٧٧٦ الشهير جدا . ولكن المعارك الجماعية المعقدة التى لا تنمو منها الثورات فعلا الا فيما بعد انما تتحول الى مصادر رسمية لسجل التراث الوطنى . ولقد كانت الخطوات الأولى فى الثورة الأمريكية كثيرة وانتشرت على مر الزمن . وليس من السهل أن نفرد حادثة واحدة ونعتبرها بداية الثورة الأمريكية .

ويمكن القول بأن ثورة ١٧٨٩ الفرنسية ظلت تتبلور لعدة عقود من الزمن . فالمقاومة الصريحة والحاسمة للحكومة الملكية كما كانت فى برلمانات شارل الأول وفى جمعيات المستعمرات الأمريكية لا توجد فى فرنسا اذ كانت تفتقر كلية الى مثل هذه الهيئات البرلمانية . وأقرب الأشياء لهيئة نيابية كان برلمان باريس ، وهو نوع من المحاكم العليا مكون من قضاة من النبلاء ويشغلون مراكزهم بالوراثة . وكان هذا البرلمان وما تبعه من برلمانات المقاطعات ، هو فى وضوح الذى بدأ فى الثمانينات من عام ١٧٨٠ معركة صريحة مع التاج بلغت أوجها فى تحدى السلطة الملكية تحديا مثيرا ونفى القضاة بالقوة . وكان الرأى العام على الأقل فى باريس مع القضاة ، ورغم انهم كانوا من النبلاء أصحاب الامتيازات فانهم أضحوا فى ذلك الوقت أبطالا وشهداء .

وفى أثناء ذلك كان الافلاس الوشيك قد أجبر الملك على أن يدعو فى ١٧٨٧ مجلس الأعيان وهو نوع من اللجنة الخاصة تستدعى على عجل وتتكون من نبلاء مشهورين توقع لويس السادس عشر بدون شك أن يستنير برأيهم على طريقة القرن الثامن عشر المألوفة . ولقد حصل

عليه بكل تأكيد وذلك لأن المجلس كان يضم عــددا كبيرا من مثقفى الطبقة العليا مثل لافاييت ممن كانوا يؤمنون بأنه يجب أن ينتهى الحكم الاستبدادى فى فرنسا كمـا يجب أن تزود نفسها بدستور حـديث من ذلك النوع الذى جعلت منـه الولايات الجـديدة فى الاتحاد الأمريكى شيئا عصريا . وانقسم مجلس الأعيـان على نفسه انقساما شديدا وانتابتـه الشكوك فى الطرق التى يملأ بهـا الخزانة الخاوية وان كان من الواضح ان كان لا بـد من استشارة الأمـة . وأخيرا رضخ التـاج وأعاد تعيين نكر Necker فى الوزارة وهو سويسرى من العـامة كانت له سـمعة طيبـة كساحر فى المسائل المـالية . وحـدد الملك ربيع ١٧٨٩ لاجتمـاع مجلس طبقـات الأمة ولم يكن هـذا المجلس قـد اجتمع منـذ عام ١٦١٤ وكان هنـاك شيء من الشك فى كيفيـة انتخابه . وأسرع علمـاء الآثار لانقـاذ الموقف واختير ثلاثمائة عضو عن الطبقة الأولى أو رجال الدين وثلاثمائة عن الثانية أو النبلاء وستمائة عن الثالثـة أو العـامة وتم اختيارهم فى الوقت المناسب تماما لعقـد أول اجتماع . ولم يكن لهـذا العـدد المضاعف الممثل للطبقة الثالثـة سابقة ما فى ١٦١٤ أو فيما قبل ذلك . لقـد كان ذلك فى الواقع خطوة ثورية ، وامتيـازا انتزع من الملك واعترافا بطريقـة أو بأخرى بأن الطبقة الثالثـة أكثر أهمية من أى طبقـة أخرى ، ومع ذلك كانت القرارات النهائيـة فى الدستور القـديم تتخـذ باعتبار الطبقات أو الوحدات بمعنى أنه اذا ما وافق رجال الدين والنبـلاء باعتبـارهم مجلسين متفرقين على سياسة ما ففى استطاعتهم تنفيـذها باعتبـار الأصوات اثنين لواحد حتى ولو كان هـذا دون موافقة الطبقة الثالثـة . وعندما اجتمع ممثلو الطبقات فى مايو ١٧٨٩ كانت المشـكلة الأولى هى البحث فيمـا اذا كانوا سيتبعون الدستور القـديم ويصوتون بالوحـدات أو سيصوتون فى مجلس واحـد كبير تعـداده ألف ومائتان من الأعضاء وفيه سيكون عدد الطبقة الثالثة المضاعف مضافا اليـه « الأحرار » الموجودون بين الهيئتين الأخريين يمثل أغلبيـة واضحة . والواقع أن لويس كعـادته ترك هـذه المشكلة غامضة دون حـل ، وبعـد أن تبين له أن الطبقة الثالثة مصرة على جمعية واحدة كبيرة عندئذ فقط أصر جلالتـه على ثلاث هيئـات منفصلة .

والحادث الذى بدأت منـــه الثورة الفرنسية رسميا كان ذلك الحادث البسيط : مسألة التصويت بالطبقات أو بالأفراد فى جمعيـــة واحـــدة . وأصرت الطبقـــة الثالثة على موقفها ورفضت أن تقوم بأى عمل حتى تنضم الهيئات الأخـــرى اليها فيما يسمى — الجمعية الوطنيـــة ، وكان الاسم نفسه رنانا يحمل أصداء الدعاية للثوار .

وهنـــاك لحظات مؤثرة فى هـــذا الصراع الذى استمر شهرين وكان بالضرورة صراعا برلمـــانيـــا فى جوهره يفتقر الى العنف ، وعنـــدما منعت الطبقـــة الثالثـــة باجراء خاطىء من الملك من عقـــد اجتماعهـــا فى مقـــر الاجتماعات المعتاد سارع أعضاؤها فى ٢٠ يونيـــة ١٧٨٩ الى ساحة من ساحات التنس وأقسموا الا ينفضوا حتى يضعوا دستورا لفرنسا .

ويرجع بعض الفضـــل الى لوحة دافيـــد الشهيرة التى تبـــدو رمزية اكثر مما تبـــدو واقعية فى أن أصبح هـــذا الحدث تاليـــا فى الأهمية لسقوط الباستيل فى التراث الوطنى للجمهورية الفرنسية الثالثة . وأكثر من هـــذا اهميـــة ذلك التحـــدى العنيف من جانب الطبقة الثالثـــة عند ما طالب الملك بكل ما للتـــاج من عظمة وابهة فى جلسة ٢٣ يولية بأن يكون التصويت بطريقـــة الهيئـــات المنفصلة . وفى هـــذه الجلسة بقيت الطبقة الثالثـــة فى الخلف بعد مغادرة الملك للقـــاعة . ويقال أن ميرابو أطلق رده المشهور عندما طلب اليهم رئيس التشريفـــات الملكية أن ينصرفوا بدورهم : « اننـــا مجتمعون هنـــا بارادة الشعب ولن نغـــادر المكان الا بالقوة » وبعد ذلك بقليل اذعن الملك وان تكن خطبة ميرابو بطبيعـــة الحال ليست هى السبب فى هـــذا الاذعان . ومع بداية يولية كانت الجمعية الوطنية قـــد تأسست وكانت على استعداد لوضع نظريات الاستنارة موضع التنفيـــذ بعـــد أن ظلت الى وقت طويل مجرد نظريات فى فرنســـا . لقـــد اتخذت الخطوات الأولى للثورة الفرنســـية .

أما هؤلاء الذين يصرون على أنه لا بد من قيـــام أعمـــال العنف ليقال بأن الثورة بدأت ، فسوف يؤرخون بداية الثورة الفرنسية العظمى

بيوم ١٤ يوليــة ١٧٨٩ عنــدما استولى جمع من غوغاء باريس يؤازرهم الجنود الذين انضموا الى الجانب الشعبى على قلعة سجن الباستيل المظلم فى الجانب الشرقى من المدينــة ، ويوم الباستيل هو الرابع عشر من شهر يوليو بالتاريخ الجمهورى ، وهو يوم عظيم له قدسيته فى واحــد من أحسن المذاهب الوطنيــة المعــاصرة تنظيمــا . ومن حيث هو كذلك فقــد احيط بالأساطير المزودة بقصص الاستشهاد وأصبح يوما مشهودا فى التــاريخ . ولقــد يبــدو أمام المراقب من بعيــد أن الاستيلاء على الباستيل عمليــة متشابكة ومربكة وأنهــا على الأقــل نتيجة ضعف قوة الحــاكم دى لوناى De Launay بالنسبة لقوة المحاصرين . ولكن ما يهمنا هو أن باريس ظلت ثلاثة أيام فى أيدى الغوغاء وأن هؤلاء الغوغاء كانوا يهتفون فى وضوح ضــد القصر وتأييــدا للجمعية الوطنيــة . وبعد ما هدات المظاهرات استطاعت الجمعية الوطنيــة أو بالأحرى الغالبيــة الثائرة فى الجمعيــة أن تواصل الزحف وهى على يقين قاطع بأن الشعب يؤيدها واستطاعت أن تشعر أن لديهــا سلطة مطلقة للتغاضى عن الاحتجاجات الملكيــة بينما هى تواصل مهمتهــا فى اعادة بنــاء فرنســا .

أما الثورة فى روســيا فقــد شقت طريقها فى سرعة هائلة . وكمــا رأينــا فى فصل سابق كان هنــاك قدر كبير من المقدمات لقيــام الثــورة الروسية وظلت عــدة أجيــال من الروس تتحــدث عن حتميــة العاصفة القــادمة . ومع ذلك فان الخطــوات الأولى التى أدت الى ثــورة فبراير (مارس فى تقويمنــا) قــد فاجأت الى حــد ما حتى بعض الزعماء التقدميين مثل كيرنسكى Kerensky ولقــد اعتادت الأحزاب الاشتراكية فى أرجاء العــالم كله الاحتفــال بالثامن من مارس على انه يوم المرأة . وفى هــذا اليوم — ٢٣ فبراير تبعــا للتقويم الروسى ، القــديم ، الذى أسند اليــه اسم ثورة فبراير ومنــه ذهب الى التــاريخ — تدفقت جموع من النساء والعاملات من أحيــاء المصانع الى الشوارع هاتفــات يطلبن الخبز . ثم أخــذت الجموع تزداد يوما بعــد يوم وانطلق خطبــاء الجماعة المتطرفة يلقون الخطب عنــد منحنيات الشوارع . واختلط جنود من حامية بتروجراد

الحربيـــة الكبيرة بالجموع ، وبـــدا أنهم فى الواقع يشاركونهمْ شعورهم ، وحتى القوزاق لم يظهروا عداء للشعب أو انهم — على أى حال — لم يرغبوا فى الحـــرب .

وفى أثنـــاء ذلك كانت السلطات تتشاور وعنـــدما أخفقت الاجراءات الجزئيـــة قررت فى ١١ مارس أن تخمد هـــذه الاضطرابات بخطة محكمة كانت قـــد رسمت على الورق لمثل هـــذه الحـــالة . ولكن الخطة أخفقت . ولمـــا كان جنود الحاميـــة لا يرغبون فى القتـــال فقـــد بدأوا يتأرجحون . وفى ١٢ مارس انفجرت أولى الثورات وتعاقبت واحـــدة بعد أخرى فخرجت فيالق الجيش الامبراطورى المشهور من ثكناتها لا لتطلق النـــار ولكن لتنضم الى الجموع ، وقام الزعماء المجهولون والصاغات والجنود ورؤساء عمـــال المصانع ومن على شاكلتهم وقادوا جماعاتهم الصغيرة الى مراكز استراتيجية . ومن كل هـــذا الغموض والصخب الذى يجعـــل المؤرخ ييأس من تسجيل أحـــداث هـــذا الأسبوع بالتفصيل برزت حقيقة واضحة ، لم يكن هنـــاك حكومة امبراطورية باقيـــة فى العاصمة أو لم تكن هنـــاك حكومة رســـمية على الاطلاق .

وبالتدريج ظهرت هناك نواة الحكومة السوفييتية القادمة التى ستؤلفها النقـــابات والجماعات الاشتراكية وغيرها من هيئـــات الطبقة العـــاملة . أما القيصر ومستشاروه — وقـــد اشتدت بهم الحيرة وبدا منهم العجز عن السيطرة على الحركة — فقـــد منعوا البرلمـــان من الاضطلاع بالمسئولية ، واجتمع المعتدلون من كل الطوائف ليؤلفوا نواة الحكومة المؤقتـــة . وفى الحق يبدو فى مثل هذا الوضع المضطرب أن تصرف المعتدلين يتفق مع الثورات . ان عواطفهم وخبراتهم تجبرهم على محاولة انهاء الاضطراب أو انقـــاذ ما يمكن انقاذه من الأنظمة الثابتـــة .

ولقـــد اتفق الاشتراكيون والأحرار على وجوب تنـــازل القيصر عن العرش . وكان نيقولا نفسه قـــد بدأ يتحرك من مركز القيادة الى قصره فى تساركو سيلو بالقرب من بتروجراد ولكنه اضطر الى التوقف فى بسكوف

نتيجـــة لتزايد الاضطرابات . وعندئذ . وفى الخامس عشر من مارس قرر ان يتنـــازل عن العرش لصالح اخيه الدوق الكبير ميشيل .

أما السلطة المركزية فى روسيا فيبـــدو أنها كانت فى أيدى لجنـــة من البرلمـــان وان هـــذه اللجنة كانت ترقب مجىء ميشيل بنفسه . أما كيرتسكى عضو هـــذه اللجنة فقد بدأ فى الأزمة عصبيـــا بشكل حاد كما هى عادته وعندما رفض ميشيل التاج أبدى سروره الشـــديد لأن روســـيا ستصبح جمهورية . ويبـــدو أن القرار الخاص الذى اتخذه ميشيل برفض العرش أملاه عليه جبنـــه الشخصى . ومن المشاكل الطريفة فى التاريخ ما يدور من أســئلة حول ما كان يمكن أن يحدث لو أن هـــذا الرجـــل من أسرة رومانوف كان يتصف بالشجاعة والحزم والمقدرة . ان أحدا لا يستطيع أن يجيب على هـــذه الأسئلة الا انها تذكرنا بأن التاريخ حتى وهو فى قمة لحظاته الاجتماعية لا يستطيع أن يغفل نسيج المأساة الشخصية والفرصة السانحة بتنازل ميشيل عن العرش فى ١٦ مارس سنة ١٩١٧ ولقـــد كان واضحا أن الثورة الروسية بدأت وأنهـــا أسندت الى المقـــاطعات ولو أن سقوط أسرة رومانوف ظل غير معروف لمدة أسابيع فى بعض الجهات النائية . ولكن العمل الذى استمر فى هـــذه الأيام الثمانية كان حطم حكومة بيروقراطية مركزية فى أهم مراكزها الحيوية — رأسها ومركزها العصبى — وظلت أمور كثيرة فى روسيا دون تغيير نتيجة لثورة فبراير . أما من الوجهة السياسية فان أسبوعا واحدا تم فيه ما استغرق سنوات لاتمامه فى انجلترا وفرنسا . لقد ذهب آل رومانوف بسرعة أكبر كثيرا من السرعة التى ذهب بهـــا آل ستيوارت والبوربون .

ثالثا : العفوية أم التخطيط ؟

يجب أن يكون واضحا حتى من البيان السريع السابق للخطوات الأولى فى الثورات الأربع بالنسبة للمؤرخ الذى يروى الحوادث أن الاختلافات بين الثورات الأربع اختلافات شديدة . فالثورة الانجليزية بدأت فى هيئـــة من أقـــدم وأحسن الهيئات النيابية المستقرة . والثورة الأمريكية بدات اساسا

فى نيو انجلند بين أناس اعتادوا اجتماعات المدينة والمجالس التشريعية فى المستعمرات . والثورة الفرنسية نشأت من اجتماعات هيئة تشريعبة لم يألف رجالها من قبل الحياة النيابية وليست لهم خبرة بهـا . أما الثورة الروسية فانها بدأت من مظاهرات فى الشوارع فى العاصمة ، واستمرت دون معاضدة من أى هيئة برلمـانية ، اذ أن البرلمـان كان لا ينعقـد عن طريق لجنـة الطوارىء . هناك اختلافات فى الشخصية واختلافات فى الزمان والمكان . ان شارل اذ يرتفع بمستوى آماله فى نونجهام سنة ١٦٤٢ يبدو بعيدا بعد السماء عن الأرض عن نيقولا الذليل وهو يتلقى اللطمات أثنـاء شحنه الى السهول الشمالية فى أحد قطارات السكك الحـديدية تحت رحمة عمـال مضربين وجيوش ثائرة ، ثم وهو يتنازل عن العرش . بل قد يكون هناك حتى اختلافات عنصرية فان الحرب الأهلية الانجليزية المنظمة التى تكاد تكون حرب فروسية تبـدو لأول وهلة شيئا مختلفا تماما عن الجنون الذى حدث فى الرابع عشر من يوليه أو هـذا المنظر المضحك المبكى لبيتروجراد العاصمة وهى بين أيدى الغوغاء الذين لم يكن لهم شعار محدد .

الا أن هـذا الاختلاف الأخير يدعونا الى شىء من التأمل . فبين هذه المراحل الأولى للثورة أوجه تشابه رائعة تماما مثل ما بينها من اختلاف . ان رئيس مجلس النواب وهو يتحدى شارل فى محاولته للقبض على الأعضاء الخمسة وميرابو وهو يطلق تحديه كالرعد فى وجه رئيس التشريعات المذهول فى الجلسة التى حضرها الملك فى ٢٣ يونيه وكذلك باتريك هنرى وهو يحذر الملك من المصير المشئوم الذى واجهه حكام آخرون — كل هؤلاء يبدو عليهم انهم يتكلمون بلغة واحدة ويتخذون نفس المواقف المثيرة — وان مجلس العموم البريطانى فى جلسته النهائية فى ١٦٢٩ يشبه الى حد كبير الجمعية الوطنية الفرنسية فى لحظاتها التى تتابعت متأججة بنار الحماس وكما يشبه بعض جلسات هامة فى المجلس السوفيتى بيتروجراد .

وذلك لأن انفعالات الناس كجماعات والبلاغة والحركات الخطابيـة الضرورية لاحداث الأثر المطلوب أكثر تماثلا ممـا يظن العقليون . وأن اى هيئة نيابية يصل عـدد أعضائها الى عـدة مئات تستجيب بطرق محـددة

لمؤثرات معينة ، ثم هى تفعل هـــذا دائما وبكل تأكيد لا تستطيع أن تستجيب للمنطق ، ولا تستطيع أن تواجه وضعا جديدا بحرية تجريبية كاملة . وان الهيئات النيابية الثائرة لتتشابه بصفة خاصة الى حـد كبير ســواء كانت تتألف من الروس غير المسئولين أو الفرنسيين السريعى الانفعال أو الانجليز المتعقلين . ولا عجب اذا ما وجدنا فى هــذه المراحل المبكرة من الثورة تماثلا واضحا فى سلوك الناس فى هــذه الجماعات .

وعلى أية حال يهمنا كثيرا أن نتبين هل لا يوجـد فى هــذه الثورات الأربع أشياء متماثلة يمكن تجميعها معا ولها علاقة بسير الحركات ويمكن أن يكون لها مكان فى خطتنا التصويرية عن الحمى الثورية . ما هو الدليـل الذى نملكه هنا على أننـا نعالج عملية لها مراحل محـددة وعامة ؟ وهل هــذه الخطوات الأولى فى الثورة تحـدث فى ظل ظروف متشابهه اجتماعيا حتى وان كانت لا تتشابه فى أحداثها ؟

ان أحد التشابهات واضح غاية الوضوح . ففى كل مجتمعاتنا الأربعة حاولت الحكومة القائمة أن تجمع أموالا من النــاس رغما عنهم فرفضوا الدفع . وكل ثوراتنا الأربع بدأت تندلع بين أناس اعترضوا على دفع ضرائب معينة ونظموا أنفسهم للاحتجاج عليها ثم بلغوا أخيرا نقطة الغليان لازاحة الحكومة القائمة واحلال حكومة أخرى محلها . وليس معنى ذلك بالضرورة أن أولئك الذين قاوموا فرض الضرائب تنبأوا أو رغبوا فى ثورة جذرية . وانما يعنى بالضرورة أن الانتقال من الحديث عن التغيرات الضرورية الكبرى — وذلك لأن فى كل ثوراتنا الأربع كان ثمة شىء ما فى الجو — الى العمل الحقيقى قـد حدث نتيجة لفرض ضرائب غير مألوفة وهناك تشابه ثان واضح كل الوضوح كذلك وان تكن النتائج المستمدة منه أكثر غموضا بقدر كبير .

ان الأحــداث فى هــذه المرحلة — وهى تمثل الخطوات الأولى فى الثورة — تكشف من بين صفوف المستائين من النظــام القديم عن حزبين يعارض أحدهما الآخر وبعنف شديد . وهــذان الحزبان يمكن أن نطلق عليهما باختصار حزب النظام القديم وحزب الثورة . وفوق هــذا فانه بنهاية هــذه المرحلة من المراحل الأولى يكون حزب الثورة قـد كسب المعركة .

وزالت الشكوك .. ويبدو عندئذ أن الثورة التى لم تكد تبدأ قد انتهت . ففى انجلترا بعد أن تخلص البرلمان الطويل من سترافورد Straford وانتزع الامتيازات من الملك . وفى أمريكا بعد انتصار الكونكورد واعظم الانتصارات الأدبية فى بنكرهيل . وفى فرنسا بعد سقوط الباستيل . وفى روسيا بعد التنازل عن العرش ، كان هناك فترة قصيرة من البشر والأمل، هى بمثابة شهر العسل الخداع والجذاب أيضا فى المزاوجة المستحيلة بين ما هو حقيقى وما هو مثالى .

أما أن ثوراتنا الأربع قد اجتازت مثل هذه المرحلة المبكرة حيث تبلور التعارض بين القديم والجديد بطريقة مثيرة وانتصر الجديد انتصارا مبينا فهذا أمر واضح جدا بحيث لا يستطيع أشد المؤرخين القدامى تمسكا بالمنهج القصصى فى التاريخ انكاره . وعلى أى حال لا يزال الجدل يحتدم حول الأسباب التى من أجلها تطورت هذه المرحلة على النحو الذى سارت فيه بين الكتاب الذين يهتمون بمثل هذه الأمور ومنهم المؤرخون النظريون السياسيون وعلماء الاجتماع وكتاب المقالات . أما جوهر الجدل فأمر تجب تسويته قبل أن يصبح شيئا ما كعلم الاجتماع الخاص بالثورات ممكنا . وموجز القول ان احدى الجماعات المتنازعة ترى بأن هذه الخطوات الأولى المجيدة فى الثورة قامت بها تلقائيا أمة متحدة ناهضة بكل ما فيها من قوة وفضائل لوقف قاهريها ، فى حين تصر جماعة أخرى على أن هذه الخطوات الأولى هى ثمرة سلاسل من مؤامرات متداخلة بدأت بها جماعات صغيرة من الساخطين تتصف بالعزم والتصميم ، على أن وجهة النظر الأولى يتخذها عامة أولئك الذين يؤيدون ثورة ما ، أما الثانية فيتخذها أولئك الذين لا يكنون لها الولاء أو انهم على الأقل يضمرون الولاء لذكريات النظام القديم . وفيما يخص روسيا : فقد كان ايمان لينين الثابت بالدور الذى لعبته الأقلية الماركسية المستقيمة التى لم تصدها وساوس البورجوازية القانونية هو الذى وضع نظرية التخطيط باعتبارها الطريقة الرسمية . وعلى العكس من هذا فان الأمريكيين والفرنسيين وحتى الانجليز يصرون على أن هذه الثورات كانت انتفاضات تلقائية من أناس اشتدت بهم سورة الغضب . ومع ذلك هناك كل انواع الاختلافات فى هذا الموضوع ، وقد

وازن المعلقون المختلفون بطرق مختلفة بين هـذين العنصرين : التلقائية والتخطيط للثورة .

وهـذه المخالفة أوضح مايكون — كما أنهـا تعتبر فى بعض النواحى نموذجا كاملا لتحقيق غرضنا — عند تأريخ الثورة الفرنسية . ولقد اعتاد أوجستين كوشين Augustin Cochin أن يصف هـذه المخالفة بأنها المخالفة بين البحث فى الظروف والبحث فى الخطة أو بين التفسـير اعتمادا على الظروف والتفسير اعتمادا على الخطط . وأولئك الذين يرون الثورة شيئا حسنا يقولون ان شعب فرنسا وبخاصة فى باريس قام — بالثورة نتيجة للظلم الذى عاناه من الملك والحاشية وأن ظروف حياته الاجتماعية والسياسية والاقتصـادية فى ١٧٨٩ تعتبر فى حـد ذاتها كافية لتفسـير ما حـدث . ولو أنك أعطيت مثل هـذه الظروف ثم رجالا ونساءا يجرى فى عروقهم الدم الفرنسى فستحصل على ثورة بطريقة طبيعية « أو آلية » مثلما تحصل على انفجار عندما تصطدم شرارة بالبارود . وهذا التشبيه يمكن تطبيقه على خطوات معينة فى العملية الثورية . فاضطرابات الباستيل كما يقول الجمهوريون الفرنسيون لم تكن مدبرة بأى حال من الأحـوال ، وانها استمعت من باريس الى عزل نكر وعرفت أن الملك يحشد قواته حول باريس وفى ملايين المناقشات التى عفى عليها النسيان انتشر الفزع من أن الملك وحزبه على وشك أن يفض الجمعية الوطنية الثورية وانه سيحكم بالقوة المسلحة . وعلى هـذا فان باريس هبت بكل جبروتها وبغريزة واثقة واستولت على الباستيل كرمز للنظام القـديم الكريه ودمرته تدميرا . وكان الشعب صاحب السيادة فى هـذا كله يستمد القيادة من ذاته ، تحركه ان شئت قوة طبيعية وكراهية للظلم وكان يقوده مئات من صغار الرجال صف ضباط الثورة ، ولم يكن فيهم اى ضابط من الجيش لم تحدثه أى هيئـة عامة أو أى جماعة صغيرة وضعت خطة متعمدة لشن الهجوم .

وتصر النظرية المعارضة على أن كل الحركة الثورية فى فرنسا كانت من فعل أقليـة مدبرة خبيثـة من المـاسونيين والمتفلسفين والمهيجـين المحترفين . وهؤلاء الناس كانوا فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر

قد سيطروا على الصحف نفسها فى أزمة اقتصادية حادة ومتزايدة عمل هؤلاء المتآمرون على شق طريقهم كالديدان الى مجالسها واخيرا حصلوا على وعد باستدعاء مجلس الطبقات . وبدعاية انتخابية بارعة وسط جمهور لم يألف المجالس النيابية ملأوا المقاعد المخصصة للطبقة الثالثة بأعضاء من شيعتهم ونجحوا فى التسلل حتى الى صفوف ممثلى الطبقتين الأولى والثانية . لقد اعتادوا على العمل متكتلين ، والى السنوات التى انقضت فى مناقشة الاصلاح السياسى يرجع الفضل فى أنهم عرفوا ما كانوا يريدونه . ولهذا فان اكثر هؤلاء المتآمرين تصميما ومبادأة استطاعوا أن يتحكموا فى قرارات الجمعية الوطنية الكبيرة التى لم تتحدد ملامحها رغم انهم كانوا اقلية من اعضائها البالغ عددهم ١٢٠٠ عضوا .

ان يوم الباستيل يبدو مختلفا جدا فى نظر الكتاب الذين ينتمون الى هذه المدرسة ، فعندهم أن لويس كان يحشد القوات ليحمى الجمعية الوطنية لا ليحلها ، ليحميها من الأقلية المتطرفة التى كانت تسىء استخدام اجهزتها . وخوفا من الهزيمة راح هؤلاء المتطرفين يهيجون باريس بمئات الطرق : ارسلوا الخطباء الى نواصى الشوارع والمقاهى ووزعوا المنشورات والكتيبات الثورية ، أرسلوا المندوبين لينشروا السخط بين القوات الملكية وخاصة بين رجال الحرس الفرنسى ، ولم يتورعوا حتى عن استئجار العاهرات ليكون تأثيرهم فى الجنود اشد قوة . كان كل شىء معدا مقدما انتظارا للحظة السانحة وعندما هيأت اقالة نكر هذه اللحظة أعطيت الاشارة وثارت باريس ، ولكن لم يحدث هذا تلقائيا فميرابو وأكثر الشخصيات الشعبية فى الجمعية الوطنية — كانوا يبذرون بذور الثورة فى حرص شديد باجراء التغيرات المناسبة يمكن استبعاد هذا النوع من التعارض بين التلقائية والتخطيط فى كل ثوراتنا . ففى نظر أنصار أسرة ستيوارت — كانت الثورة الكبرى مؤامرة ناجحة لسوء الحظ قام بها الكلفانيون المحبون لجمع للمال ضد انجلترا المرحة ذات التقاليد . ولما كان الأحرار هم الذين أعطوا السمعة لانجلترا الحديثة فان البرلمانيين ينظر اليهم على أنهم ابناء العهد الأعظم المحبون للحرية

الذين قاموا بشكل طبيعى جدا وتلقائى ضد طغيان آل ستيوارت الفظيع . أما الموالون للحكومة من الأمريكيين فقد كانوا يقولون أن خير العناصر فى الأمة تؤازرهم وان الأحرار انتصروا عليهم بحسن تنظيمهم وخداعهم . ولقد نشأ أكثرنا بطبيعة الحال على أن نعتبر جورج الثالث طاغيا ومستأجرا للهسيانيين المرتزقة ، رجلا كان يرغب فى سحق الأمريكيين وارغامهم على الخضوع البشع . لقد كانت الثورة الأمريكية بالنسبة لنا الرد التلقائى من أناس أحرار مجروحين من الوقاحة البريطانية .

وأخيرا يبدو أن بعض المهاجرين الروس لا يزالون يؤمنون بأن أقلية من البلشفيك ممن لا ضمير لهم نظموا بطريقة ما ثورتى فبراير وأكتوبر . أن الماركسية تبرىء الثورة من أى عيب وتعترف بأهمية التخطيط والقيادة فى الحركات الثورية . ولهذا فبالرغم من أن التفسيرات الماركسية الرسمية لا تخفف بحال من الأحوال ذنوب القيصرية وطغيانها ورغم أنها تصر على أن الشعب الروسى هب فى فبراير ١٩١٧ من كل قلبه باجماع الآراء تقريبا ضد القيصر فان هذه التفسيرات لا تزال تعترف بل وتمجد بالفعل الدور الذى قام به الزعماء والقادة فى التخطيط للثورة بوعى أو على الأقل كان هذا هو التفسير المعقول فى دوائر الماركسية الصحيحة ، وقد سجل كرأى موثوق به فى الجزء الأول من كتاب تروتسكى « تاريخ الثورة الروسية » .

وفى الواقع أن نشوء هذين التفسيرين المتضادين أو المتناقضين بصورتها المبالغ فيها فيما يتعلق بالخطوات الأولى للثورة هو فى حد ذاته مماثلة واضحة نحصل عليها من المقارنة لثوراتنا . وفى الواقع أن هذين التفسيرين نشآ فى وقت مبكر جدا ، فالثوار المنتصرون ينسبون نجاحهم الى قيام الغالبية فى وجه الطغيان الفظيع ، أما مؤيدو النظام القديم المنهزمون فانهم ينسبون فشلهم الى خطط أقلية من الأشرار المهرة الذين لا ضمير لهم . وكلا التفسيرين لا يعنى بالحقائق أو التفسير العلمى للحقائق، كلاهما يستهدف ارضاء العواطف البشرية . ومن الطريف أن نذكر أنه حتى تفسير الثوريين يتلمس طريقة لتجنب ناحية العنف ويبدو أنه يستحى

الى حــد ما من حقيقة الثورة . وهــذا مرة أخرى أمر طبيعى جدا حيث أن الثوار حينما يتسلمون السلطة يودون أن تبقى فى أيديهم . ومما يساعد على تحقيق هــذا الغرض مساعدة نافعة أن هناك احساســا عاما بين المحكومين بأنه من الخطأ مقاومة أولى الأمر . وعلى العموم فان الثوار الظافرين لا يستجيبون غالبا الى رغبة جيفرسون فى أن تحدث ثورة كل عشرين سنة أو نحوذلك . بل هم يكرسون جهودهم ليخلقوا أسطورة حول ثورتهم لتصبح آخر الأمر ثورة ضرورية . ثم أن النظرية الماركسية تتوقع هــذا ، ما دامت الثورة البروليتارية تؤدى الى مجتمع لا طبقى انمحى فيه صراع الطبقات فلا حاجة فيه الى الثورة .

ومع كل ففى مقدورنا أن نسترسل الى أبعد من مجرد هــذه الملاحظة البسيطة لانقسام الراى بين محبى ثورة معينة وكارهيها فقــد يمكننا أن نغامر بالقول بأن ثمة شىء من الحقيقة فى كل من التفسير وفقــا للظروف والتفسير وفقا للخطة الموضوعة ، ولقــد يبدو هــذا للكثيرين اليوم أنه حل غير دقيق مبنى على الهوى وتمسك غبى بفكرة قديمة عن الوسط بين أمرين مبالغ فيهما . ولكن يبــدو أن له صلة بالحقائق المرضية أكثر من كل من التفسيرين المتطرفين .

أن يوم الباستيل قــد يستخدم مرة أخرى كمثال . وان الشواهــد جمة على أن الجماعات المنظمة ساعدت بالفعل على اثارة الاضطراب فى باريس فى تلك الأيام من يوليه .. وانا لنعرف أن الجماعات المتطرفة — من الوطنيين — فى جمعية فرساى كان لها علاقات وثيقة مع الساسة فى باريس. وكان نوع من التنظيم السياسى قــد بقى بعــد انتخابات باريس فى أيدى الطبقة الثالثة وكان هؤلاء الناخبون الباريسيون هم الذين ســاعدوا كثيرا على قيــام تنظيم جديد للبلدية وحرس وطنى جديد من فوضى الاضطرابات . ان معظم وصف الملكيين للمندوبين الذين يطوفون وسط الجماهير وللنشرات الملتهبة بل والمومســات المــأجورات صــادق فى جوهره ، ولكن ليس صحيحا أن هذه العناصر القائمة بالتخطيط يمكن ارجاعها الى جماعة واحدة أو جماعتين من الجماعات الصغيرة المتآمرة ، الى دوق أورليانز او فئة قليلة

من الماسونيين . وفى الواقع ان كلمة « مؤامرة » كلمة سيئة فيما عدا ما يتعلق بأغراض اليمنيين فى الدعاية اذ أن فائدتها كبيرة . وفى الواقع هناك شواهد على أنواع النشاط المتعدد الذى قامت بها جماعات من ذلك النوع الذى يعرفه جيدا أى مراقب دقيق للمجتمعات — الجماعات الضاغطة ، الأحزاب السياسية ، الشيع الشبيهة بالجماعات الدينية والتجمعات الثائرة . وعلى أى حال ليس هناك دليل على أن هذه الجماعات الشديدة التنافر كانت فى يولية ١٨٧٩ تدار من أى مركز أو كانت تسيطر عليها هيئة ادارية صغيرة موجهة .

وعلى العكس من ذلك هناك كل الأدلة على أنه عندما أثارت اقالة نكر هذه الجماعات المتنوعة قام الغوغاء بما فعلوه . ولم يقل أحد حتى الآن الكلمة الأخيرة فى سيكولوجية الجماهير ولكن من المتفق عليه الى حد كبير أن أبرع زعماء الجماهير لا يستطيع قياس سلوكها مقدما . ومن الواضح فعلا أن باريس فى تلك الأيام لم يكن فيها فريق واحد بل عدة مجموعات على الأقل . فقد خرج الناس الى الشوارع لأن جيرانهم كانوا قد خرجوا اليه قبلهم .. وهاموا على وجوههم هنا وهناك يهتفون وينشدون ويتوقفون بين الفينة والأخرى اما ليعودوا الى احتساء الخمر أو الاستماع لخطيب آخر فى ناصية الشارع . أما من نصبوا أنفسهم زعماء للجماعات الصغيرة فكانوا قطعا يضيفون جهدهم الى أى خطة مرسومة . ان قرار الزحف على الباستيل اتخذ فيما يبدو بشكل مستقل فى احياء متعددة ولا أحد يعرف على وجه اليقين من الذى جاءته أولا هذه الفكرة المتألقة بالذهاب الى مستشفى الانفاليد للاستيلاء على الأسلحة الصغيرة . ويبدو أن المظاهرة قد هدأت لا بسبب سقوط الباستيل بل بسبب الارهاق الذى أصاب المتظاهرين . ان ثلاثة أيام تعتبر فترة طويلة اذا قضاها الانسان متظاهرا أو مخمورا أو كليهما .

وما يصدق فى شأن الاستيلاء على الباستيل يصدق على العمل التحضيرى العام والمراحل الأولى للثورات كما ناقشناها فى هذا الفصل . ولقد تركزت ثورة فبراير الروسية فى بتروجراد طوال أسبوع وهى تبدو

مثل مظاهرات الباستيل ولكن على نطاق اكبر . ان تروتسكى كرس جزءا من افضل كتاباته فى وصفه لثورة فبراير وفى وصفه المتزن لما يجب أن يعتبر انتفاضات شعبية تلقائية وما يجب أن ينسب الى الخطط الثورية الواعية . ويقول كيرنسكى فى صراحة ان الثورة حدثت من تلقاء ذاتها غير موجهة من أحد وولدت خلال الفوضى التى اقترنت بانهيار القيصرية . ويعترف تروتسكى بأن احدا لم يخطط او يتوقع الثورة عندما حدثت فعلا ، وانها نبعت من خلال بيانات الاشتراكيين العادية ومظاهر هينة تطالب بالخبز . ولكنه يضيف أن هذا التطور كان يقوده عمال واعون متحكمون فى عواطفهم وتلقوا معظم تعليمهم على أيدى حزب لينين . وقد نرتاب فى الجزء الأخير من هذا الوصف ولكن لا يمكن أن يكون هناك أى شك فى أنه خلال الأيام الأخيرة من مظاهرات بتروجراد كان زعماء سوفييت المدينة القادم وزعماء الحكومة المؤقتة الآتية قد اتحدو لاسقاط الحكومة القيصرية بالقوة .

أما دور الجماعة الضاغطة فهو أوضح ما يكون فى المراحل الأولى فى الثورة الأمريكية . ففى ابريل ١٧٦٣ نظم تجار بوسطن « جمعية لتشجيع تبادل السلع والتجارة مع ولاية خليج مساشوستس تشرف عليها لجنة مكونة من خمسة عشر عضوا لمراقبة شئون التبادل التجارى والدعوة للاجتماعات . وكانت تقارير نشاطهم ترسل الى التجار فى المستعمرات الأخرى . ولمقاومة قانون الدمغة نظم المعارضون أنفسهم على أنهم « ابناء الحرية » وكانوا يجتمعون علنا أحيانا وسرا أحيانا اخرى لتشجيع العمل على الثورة . وكانت لجان اليقظة التابعة لهم تتحرى عن مبيعات ومشتريات كل رجل من رجال الأعمال وتتقصى مصروفات وايرادات كل عائلة ، وتفحص آراء الأفراد التى ترسل اليها . وكانت المدينة والولاية فى الشمال والولاية فى الجنوب مسرحا للاجتماعات العامة وللقرارات . وكانت لجان Sam Adams المراسلة التى نظمت فى الأصل كمجموعات خاصة ضاغطة يديرها سام آدمز فيما بعد ببراعة حتى حلت جزئيات مكان أجتماعات المدينة الأكثر تحفظا . ولقد دعا آدمز فى ١٧٧٣ الى اجتماع لجنة مشتركة من بوسطن ودور شستر و روكسبرى و بروكلين و كمبردج ، تمكنت من التغلب على اصوات التجار المحافظين

وقتئـــذ . وكان العنف يستخدم كلمـــا بـــدا ذلك ضروريا خلال الحركة . من الأعمال العظيمة التى تمت حينذاك حفـــل شاى بوسطن حيث ضرب المحافظون .

ومع ذلك فان اشد الواقعيين من مؤرخينا العصريين لا يذهب بعيدا الى حـــد التقرير بأن الثورة الأمريكيـــة قـــد دبرتهـــا اقلية ضئيلة .

ان حصيلة اثنى عشر عـــاما من الأخطـــاء البريطانيـــة ، ومن منح الامتيـــازات والغائهـــا ، ومن الهاب المشاعر وتهدئتهـــا بالاضـــافة الى الاضطرابات الكثيرة فى انحـــاء البـــلاد كان لا بـــد أن تؤدى فى ١٧٧٥ الى مؤازرة الشعب عامة لمؤتمر القـــارة فى مقـــاومته لجورج الثـــالث . ومن المستحيل تمـــاما أن نقول كم من الأحرار وكم من الموالين للحكومة وكم من السلبيين أو المحـــايدين كانوا فى المستعمرات الثـــلاث عشرة عند انفجـــار الثورة المسلحة . ولربما كان هناك عدد من الموالين للحكومة أكبر نسبيا مما كان من الملكيين المتطرفين فى فرنســـا ١٧٨٩ وأكبر كثيرا من القيصريين فى روســـيا فى ١٩١٧ . ولربمـــا كان فى أمريكا الثـــائرة عـــدد من الموالين للحكومة أقل من عدد أنصـــار آل ستيوارت فى انجلترا سنة ١٦٤٢ . ولكن المسألة فى كل هـــذه الحـــالات لا تعـــدو أن تكون نســـبية . فقـــد كانت الثورة الأمريكيـــة كغيرها من الثورات نتيجة الى حـــد ما لأقليـــة نشطة قادرة لهـــا مكانتها وأهميتهـــا تعمل للتأثير على أغلبية كبيرة من المستائين الى حـــد يكفى لاثارتهم حين يجىء الوقت المناسب .

ونلخص الموضوع فى شىء من الاستعارة ، ان مدرسة الظروف تعتبر الثورات نموا بريا وطبيعيـــا ، تلقى بذوره وسط الطغيـــان والفســـاد ، يحـــدد تطوره كله قوى خارج نطـــاقه ، او على أية حال خارج التخطيط الانسانى ، أما مدرسة الخطة فتعتبر الثورات نموا الزاميا ومصنوعا تزرع بذوره بعنـــاية فى أرض أعدت تربتهـــا وخصبها البستانيون الثوار وانهـــا تبلغ النضج بطريقة غامضة على أيدى هؤلاء البستانيين أنفسهم ضد قوى الطبيعـــة . وفى الواقع يجب ان نرفض هذين الطرفين النقيضين لأن كليهما هراء وأن نؤمن بأن الثورات تنمو فعـــلا من بذور غرســـها اناس يريدون التغيير وأن هؤلاء النـــاس يبذلون جهـــدا كبيرا فى تنظيم الحـــدائق ولكنهم

كبستانيين لا يعملون ضد الطبيعة وانما بالأحرى يعملون فى تربة وفى طقس ملائم لعمهلم وان الثمار الأخيرة تمثل تعاونا بين النـــاس والطبيعة .

رابعـــا ــ دور القـــوة :

وهنـــاك تشـــابه أخير لا بـــد أن نتبينـــه فى هـــذه الخطوات الأولى لثوراتنـــا وقـــد يكون أوضحها وأهمها جميعـــا . فهناك فى كل ثورة نقطة أو عـــدة نقط فيهـــا تتحدى السلطة القـــائمة الأعمال غير القانونيـــة التى يقـــوم بها الثوار . وفى مثل هـــذه الحالات يكون الرد العـــادي من جانب أى سلطة هو الالتجـــاء الى القوة بوليسية كانت أو حربيـــة ولقـــد قامت سلطاتنـــا بمثل هـــذا الرد . ولكن فى كل حالة كان الفشل ذريعا . ولقـــد اثبت الحكام والمسئولون عن مثل هذا الرد فى كل مجتمعاتنا انهم عاجزون تماما عن استخدام القوة بطريقة سديدة . ولننظر أولا الى حقائق حالاتنـــا التاريخيـــة .

لم يكن فى انجلترا جيش دائم كبير ، وبطبيعة الحـــال لم يكن هنـــاك ما يشبه الشرطة العصرية . وفى الحق أن موضوع السيطرة على ما يمكن أن نسميه جيشا دائمـــا كان أحـــد الموضوعات الكبيرة التى ثار حولهـــا الجدل بين أول اثنين من آل ستيوارت وبين برلمـــاناتهما . ولقـــد اضطر الملك الى أن يسكن جنوده فى بيوت المواطنين الخاصـــة وذلك لكى يحتفظ بأى شكل من اشـــكال الجيش . وكان هـــذا الاسكان من أشـــد المطاعن ضـــد شارل الأول . وعندما عبر جيش اسكتلندى الحـــدود اضطر شارل لدعوة البرلمـــان الطويل الأمد للحصول على الأموال اللازمة لدفع الفدية . وعندما اقتربت القطيعة الفعلية بين الملكية والبرلمـــانيين حاول كلا الجانبين ان ينشىء قوة مسلحة . وكان شارل يحظى بولاء الضباط من النبلاء وعدد من المستأجرين اتباع النبلاء والأعيـــان يكفى لانشاء ما كان فى ذلك العهد يعتبر أقوى قوة مسلحة تسيطر عليهـــا الحكومة أو المحافظون أو الحزب الحاكم فى أى من ثوراتنا الأربع . الا أن الحرب الأهليـــة أثبتت افتقـــاره الى الجنود المهرة وبالنسبة الى المصادر البشرية المتاحة للبرلمـــان . ولقد هزم شارل فى اللحظـــة الأولى لأن القوة الحربيـــة الحاسمة كانت تعوزه .

وكذلك فى الثــورة الأمريكيــة فلم يكن لدى الموالين للحكومة من الأمريكيين ولا الجيوش البريطانيــة القوة الكافية تماما اللازمة للتغلب على الثوريين . وجدير بالملاحظة انه فى المراحل الأولى أخذ البريطانيون على عاتقهم ادخال ما كانوا يعرفون أنه تغييرات حكومية غير مألوفة مع عــدم الاهتمام المذهل بحاجيــات الشرطة . ومما لا شك فيــه أن التراث البريطــانى القــديم فى الحكم الذاتى المخلص جعل من العسير على حاكم مستعمرة بريطانية أن يتصور استخدام اى طرق أخرى . ولكن تبقى الحقيقــة وهى أن هــذه القوات التى كانت موجودة فى شمال أمريكا سنة ١٧٧٥ كانت غير كافيــة تمــاما لفرض السلطة بالقوة . أما كم كان عــدد الجنود اللازمين فعــلا لحفظ الســيطرة الملكيــة على خليج ماساشوستس أكثر ممــا كان لدى جيــدج Gage فأمر يعتبر من قبيل التخمين ويعتبر عديم النفع للتاريخ وفقــا للظروف . وعلى أى حال فان من الثنــاء الذى لا موجب له على حب الأمريكيين للاستقلال أن نفترض انه لم يكن فى وسع أية قوة حربيــة أن تسيطر على ماساشوستس . كان هنــاك نابليون بدلا من جيدج فلربما تبدلت نهــاية القتــال . أما هل كان يمكن الا تتمخض مثل هــذه السياسة القائمة على القهر عن ثورة ناجحة بأى كيفيــة فهــذا أمر ليس من شأننا مناقشته . وان ما يعنينــا هو الحقيقــة البسيطة وهى أن فى أمريكا ايضا كانت الهزيمــة الأولية الهــامة للحكومة ترجع الى فشلها فى اســتخدام القوة بكفــاية وبراعة .

ولقــد كان لدى لويس السادس عشر فى ١٧٨٩ قوة حربيــة يمكن الوثوق بهــا الى حــد لا بأس به . ولربما كانت قواته الفرنســية عرضة لدعاية الوطنيين . ولكن كان لديه قوات هامة فى القصر ، ومرتزقة جندوا من شعوب أجنبيــة وخاصة من السويسريين والألمــان بعيدين عن متناول المثيرين الفرنسيين . أما أن السويسريين كانوا على اســتعداد للموت فى سبيله أو فى ســبيل واجبهم فهــذا أمر أثبتتــه الظروف بعد ثلاثة أعوام عنــد الهجوم على قصر التويلرى . ولقــد كان لديه وبخاصة فى المدفعيــة مجموعة من الضباط الأكفــاء يمكن الاعتماد على أكثرهم فى هــذه المرحلة . ومع ذلك فعنــدما حانت اللحظة الحاســمة وقامت المظــاهرات فى باريس فى شهر يوليو فشل هو ومستشاروه فى استخدام القوة الحربيــة ، ولكن

احــدا لا يستطيع تجنب التساؤل عمــا كان يمكن ان يحدث لو أن قوات قليلة منظمة مزودة بالبنــادق حاولت اخماد باريس فى ١٧٨٩ . ولقــد كان على نابليون أن يظهر فيما بعــد أن مثل هــذه القوة تستطيع فى الحــال أن تخمــد مقاومة المدنيين كمــا كان لا بــد أن تؤكد هــذه الحقيقة على نطاق واسع فى يونيــة ١٨٤٨ و ١٨٧١ . ولربما كان لويس قــد فشل . ولكن المسألة هى انه لم يحاول مجرد محاولة . ومرة أخرى فشلت الحكومة فى استخدام القوة بكفــاية كاملة .

وبتروجراد فى ١٩١٧ هى اكمل مثال لهــذا الدور الهــام الذى تقوم بــه القوة الحربيــة والبوليسية . ان الجميع ابتــداء من القيصريين حتى التروتسكتيين يقررون ان ما حول المظاهرات المضطربة غير الهادفة بعض الشىء الى ثورة انما كان فشل خطة الحكومة فى اعادة النظام فى بتروجراد . ولقــد فشلت الخطة لأنه فى اللحظــة الحرجة رفض الجنود ان يهــاجموا الشعب وانضموا فرقة بعــد فرقة الى الشعب . ثم هنــاك ميزة تمتلكها قوة حربيــة مزودة بالمدفعية الحديثة لتتفوق بهــا حتى على أشد الثوريين المدنيين الهــاما . وما من شك لو أن فرق القوازق وعــددا قليلا من الفرق المشهورة مثل فرق بريوبرازنسكى كانت شديدة الولاء للحكومة فلربما كان فى مقدور حتى حكام بتروجراد على عجزهم البادى بعض الشىء أن يخمدوا الاضطراب . أما انه كان لا بــد من حدوث مظاهرات أخرى اشــد سوءا خلال شهور قليلة فى ظل ظروف الفشل فى الحرب فهذا أمر لا يعنينا هنا . وعلى كل فقــد يجرنا الموقف الى أن نذكر كجمــلة اعتراضية أن الفــكرة الشائعة فى هــذه الأيام من أن الأسلحة الحديثــة تجعــل قيام مظاهرات الشارع مستحيلة فى المستقبل فكرة خاطئة . فحتى الأسلحة الحديثة لا بــد من أن يستخدمها رجال الشرطة أو الجنود الذين يستبعد التــأثير عليهم .

ومع ذلك فان هــذا الفشل المذهل من جانب الحكام فى استخدام القــوة بنجاح ليس ظاهرة منفردة أو جاءت مصادفة . فالواقع أنها تبدو مرتبطة اشــد الارتباط بعدم كفاية الطبقــة الحاكمة وعجزها على نحــو ما لا حظناه فى الفصل السابق . ولقد قضت السنوات الطويلة من التدهور على نظام الجيش كما أن سوء المعاملة دفــع الجنود الى مشاركة المدنيين

وفقد الضباط ايمانهمبالقيم العسكرية التقليدية الحمقاء . ولم يكن هناك قيادة تتولى التنسيق ولا ثقة ولا رغبة فى العمل . وان كان هناك بعض من هــذه الأشياء فانها ما كانت توجــد الا فى بعض الأفراد وتضيع وسط العجــز والتردد والتشاؤم الشامل . ويبــدو أن قضية المحافظين بل وقضية شارل الأول نفسه ــ كانت قضية خاسرة منــذ البداية . أما الحالة الأمريكية فهى مختلفة بعض الشىء . فهنا نجد حكومة استعمارية عاجزة لا طبقة وطنية حاكمة عاجــزة .

ونستطيع اذن ونحن مطمئنون ــ أن نعزو فشل المحافظين فى استخدام القــوة ببراعة الى تدهور الطبقة الحاكمة . وفضلا عن ذلك اننــا نتناول جماعات كبيرة الى حــد ما من ذلك النوع الذى اعتدنا معالجته على أساس أنها موضوعات صالحة للتعميم الاجتماعى . ومع ذلك فعندما نحــاول أن نضع الرؤوس الأربعة المتوجة لمجتمعاتنا تحت مثل هذه القاعدة العامة فلن نستطيع بسهولة أن نخفى احساسنا بأنه ليس لدينا أسس احصائية كافية. الا أن شارل الأول وجورج الثالث ولويس السادس عشر ونيقولا الثانى يظهرون تشابها ملحوظا حتى أن الانسان ليتردد فى القول بأن ذلك جــاء مصادفــة . ويؤكد تروتسكى مطمئنا أن مجتمعا متدهورا لا بد أن يصيبه العجز الذى أظهره هؤلاء الملوك . ولسنا نجرؤ على أن نقول مثــل ذلك ونحن مطمئنون . ولكن علينا أن نسوق هــذا التشابه فى سلوك الرجال الأربعة على أنه جزء صحيح من التشابهات التى لاحظناها . وعلى أى حال فان كونهم على ما هم عليه كان له دور هــام فى تلك العملية التى كسب الثوار من خلالها انتصاراتهم الأولية الحاسمة على سلطة عاجزة . وعلى أقل تقــدير يستطيع الانسان أن يتبين فى كل هؤلاء الملوك أخطاء تشــير الى افتقارهم الى المقدرة الفنية اللازمة لحكم الناس . فلو أن لاعبــا من لاعبى البيسبول استمر يضرب ضربات سيئة فى سلسلة طويلة من المباريات وعــدد كبير من الملاعب فربما يرجع ذلك الى ضعف فى البصر أو همــوم عائلية أو عــدة أسباب أخرى . ولكن مع ذلك تبقى الحقيقة البسيطة وهى أنه لاعب كرة سىء . ولقد كان ملوكنا الأربعة ملوكا مساكين بالرغم من أنهم كانوا جميعا أرباب عائلات صالحين وكانوا رجالا ممن يمكن اعتبارهم بصفة عامة أشخاصا طيبين أو على الأقل أشخاصا حسنى النية . ولقــد

كان نيقولا بسيطا وغيورا مثلما كان جاهلا يتشبث بالخرافات ، وربما كان بمقاييس المستويات الخلقية المسيحية أسوأ الجميع ولكنه أبعد ما يكون عن القسوة والطغيان . وكان لويس رحيما ، طيب القلب ولكنه لا يصلح مطلقا لادارة شئون الدولة . وكلا الرجلين كانا ناقصى العقل وكانا الى حد كبير واقعين تحت سيطرة زوجات ذوات عزم ، متقلبات الأهواء ، متعجرفات وجاهلات . وكلاهما ترك يوميات تظهر شبابها مذهلا فى الغباوة. ولقد خرج لويس للصيد فى يوم الباستيل وكتب فى مذكراته فى ذلك اليوم « لا شىء » وفى أزمة متشابهة سجل نيقولا أنه « مشى طويلا وقتل غرابين ، وشرب الشاى أثناء النهار » .

ولسنا بقادرين هنا أن نتمادى فى هذا الموضوع الجذاب الخاص بالشخصيات التى كانت لهؤلاء الحكام . وكان جورج الثالث متعجرفا غبيا وعنيدا وهى صفات سيئة فى الحاكم ، أما شارل فهو اكثر الأربعة جاذبية من الناحية الانسانية . وهناك أساس سليم للأسطورة الرومانسية التى نسجت حوله . ولكنه كان ملكا سيئا لعدد من الأسباب ربما كان اهمها — **أولا** — العجز الكامل تقريبا عن تفهم ما يدور فى قلوب رعاياه الذين يسمون عادة (البيوريتان) وهذا بالتأكيد يشمل الكالفانيين الاسكتلنديين — ثم — **ثانيا** — الميل الى تدبير المكائد المحبوكة . وفى السياسة يكون الذكاء والكيد اكثر أمانا لو انهما ظلا بعيدين بعضهما عن بعض بطريقة مهذبة . وبهذا القدر من التلخيص يمكن أن نختم الكلام عن ملوكنا . ومهما يكن من اختلافهم كرجال منذ كانوا سواء فى كونهم عاجزين تماما عن استخدام القوة بطريقة فعالة حتى لو كانوا يمتلكونها فى مراحل الثورة الأولى .

واذن ففيما يتعلق بثوراتنا يمكن ان نسجل هذا التشابه الأخير بكل بساطة ، لقد كانت ناجحة فى مراحلها الأولى ولم تصبح ثورات فعلية بدلا من مجرد مناقشات او شكاوى أو مظاهرات الا بعد أن تغلب الثوار وانتصروا على قوات الحكومة المسلحة . ولا نستطيع هنا أن نحاول أن نقيم التشابهات مع ثورات أخرى أو الثورات عامة . ولكن قد نقترح فى شكل تجريبى وافتراضى الى أقصى حد تعميم القول بأن الحكومة لا تسقط ابدا امام الثوار الا بعد أن تفقد سيطرتها على قواتها المسلحة أو تفقد

القـــدرة على استخدامها استخداما فعالا . والعكس صحيح أى أن الثوار لا ينجحون مطلقا الا بعد أن يحصلوا على السيطرة الفعلية على القـــوة المسلحة ووقوفها الى جانبهم . ان هذا يصدق على كل الأسلحة من الحراب والسهام الى المدافع الرشاشة والغازات .

رابعا : شهر العســـل :

ان المرحلة الأولى فى كل ثوراتنا الأربع تنتهى بانتصار الثوار بعـــد شىء أقرب الى المـأساة منـــه الى اراقة الدماء الحارة . لقد تمت هزيمة العهـــد القـــديم البغيض بسهولة .أن الطريق مفتوح أمام التجـــديد الذى ظل الناس يتحدثون عنـــه وقتا طويلا ويأملون فيـــه كثيرا . وحتى ثورة فبراير الروسية رغم أنها اندلعت فى خضم من بؤس الهزيمة وعارها على أيدى الألمـــان والنمساويين قـــد استقبلت بالأمل والفرح اللذين يبـــدوان طبيعيا لثوراتنـــا الأربع . كان الروس فى كل مكان يتلقون الأنبـــاء السارة بكثير من الابتهاج . وكان الأحرار فرحين مثلما كان أجدادهم فى الـــ ١٨٧٦ والـــ١٨٨٩ . أما وقد تطهرت روسيا من وصمة الحكم المطلق ، فقد أصبح فى وسعها أن تأخـــذ مكانها وهى مطمئنة بين اخواتها من ديمقراطيـــات الغرب وتشترك فى فاعلية جـــديدة فى حرب صليبية ضـــد القوى الباقيـــة الوحيدة للظلام من أسرتى الهوهنزلرن والهابسبرج .

ولقـــد نمت مرحلة شهر العسل للثورة فى فرنسا الى أقصى حـــد من الكمال حيث قامت الثورة فى فترة ســـلام وعنـــد نهـــاية حركة المثقفين الكبرى المسماة بحركة الاستنارة التى أعدت عقول الناس لمعجزة جـــديدة وعملية . وكتب وردورث فى هذا الشأن :

فرنسا واقفة فوق قمة الساعات الذهبية (وكأنما الطبيعة الانسانية قـــد ولدت من جـــديد) وأخـــذ الشعراء فى البلاد المختلفة ينظمون القصائد للاحتفـــاء بمولد فرنسا والنوع البشرى من جـــديد . ولم يكن الشعراء فى هـــذا وحدهم من رجال الأعمـــال المتزنين المهنيين وأعيان الريف وكل أولئك الذين يميلون فى القرن العشرين الى النظـــر الى الثـــورات فى هلع

هم الذين شاركوا فى الفرح . بل فى أقصى الجهات فى روسيا غير المستنيرة أضاء النبلاء بيوتهم احتفالا بسقوط الباستيل .

ويروى ستفنز Steffens الأديب الدانمركى فى بعض رسائلة الأدبية كيف أن اباه جاء الى المنزل ذات ليلة فى كوبنهاجن وجمع ابنـاءه من حوله واخبرهم ودموع الفرح تنساب من عينيه أن الباستيل قـد سقط ، وان عصرا جديدا قـد بدأ وانهم اذا فشـلوا فى الحيـاة فعليهم أن يلوموا انفسهم لأنه منـذ تلك اللحظـة « سينمحى الفقـر ويصبح لأحط الناس وكانت المعارضة فى الواقع من فئات مختلفـة ، ولم تكن قط على هـذا مكانة أن يكافح فى الحيـاة على قـدم المساواة مع اقواهم ، بأسلحـة متسـاوية وعلى ارض متسـاوية » . واغتبط الأمريكيون والانجليز ، ان العـدو القديم قـد جاء ليشارك الشـعوب التى تريد أن تحكم نفسـها بنفسها . والفرنسيون انفسهم كانوا لفترة قصيرة سـعيدة متحـدين فى آرائهم . لقـد ادرك الملك خطأ المسالك التى سار فيهـا وعانق البطـل لافاييت واتى الى مدينتـه الطيبة باريس ليسمع هتافات أبطال الباستيل .

الا ان فترة شهر العسل حتى فى فرنسا كانت قصيرة وكانت فى روسيا اقصر . اما فى انجلترا وأمريكا فلم تكن ابـدا لهـا نفس هـذا الوضوح او نفس هـذا التحـديد . ففى المراحل الأولى وعنـد اللحظة الحرجـة عندما يجىء وقت اختبار القوة كان النظـام القديم يواجه معارضة متينـة وكانت المعارضـة فى الواقـع من فئات مختلفة ولم تكن قط على هـذا النحو من التبسيط المبالغ فيـه شعبا متحدا . ولكن تجمع بينهـا ضرورة المعارضة الفعالة للحكومة وتجعل منهـا وحدة سياسية حقيقيـة ، شيئا اكثر من مجرد تآلف عرضى لعنـاصر متناقضة وان انتصارها — اذا كنـا على استعداد لأن نأخذ التعريفـات مأخذا نقديا وليس عاطفيـا — لهو انتصار « للشعب » على « قاهريه » . لقـد أظهر انه أقوى واقـدر من الحكومة القديمة فى هـذا الوقت من الأزمة . واصبح حينئـذ هو الحكومة ويواجه عـددا جديدا من المشاكل . وعندما بدأ فعلا فى العمل لمعالجـة هـذه المشاكل انتهت فترة شهر العسل .

الفصل الرابع

انمـــاط الثوريين

اولا ـــ العبـــارات المبتـــذلة :

ولا ريب أننــا لو استطعنا أن نعزل الثورى كنمط فان ذلك يساعدنا فى بحثنـــا فى هـــذا الموضوع . ومواصلة لتشبيهنا بالحمى نقول هلا يمكن أن يقوم بعض الأفراد بدور « الحـــاملين لجراثيم المرض » وان فى الامكان تصنيفهم وتسميتهم ووصفهم بعبـــارات اقتصادية واجتماعيـــة مثلما يمكن وصفهم بعبارات سيكولوجية أو عامة . ان هـــذا على أى حال مقـــدمة يبـــدو أنهـــا تستحق منـــا المتابعة .

ومع ذلك هناك طرق متعـــددة قد تضللنا فيهـــا هذه المتابعـــة ، وعلينـــا أن نحذر اعتبـــار الثوريين ـــ وزعمـــاء الثورة بصفـــة خاصة ـــ حاملين بمعنى الكلمة لجراثيم مرض الثورة . وهنـــا كما هو فى كل هـــذه الدراسة يجب ألا نسمح اطلاقا لخطتنـــا التصورية أن تقودنا الى الوهم . يجب أن تكون شيئا ملائما ولا خداع فيهـــا . ويجب علينـــا اكثر من اى وقت آخر تجنب استخدام عبارات المدح او القـــدح التى يتردد صـــداها فى كل ركن من أركان هـــذا الميـــدان بالذات . وذلك لأن الكلمة البسيطة « الثورى » قـــد تثير فى عقول معظمنا شخصية انســـان غير اهل للنقـــد نسبيا وأن نوعا من التغيرات فى الاتصالات اليومية تخدمنا بقدر كاف لنفهم سريعا كلمة « شاعر » أو « أستاذ » أو « رجل فرنسى » .

وحتى اقـــدر المفكرين واكثر الفنـــانين دقة ومراعاة للكلمات يجبرون فى الحيـــاة اليومية على استخدام عبارات قريبـــة جـــدا من تلك التى تخدم

رجل الشارع . وانت وانا بطبيعة الحال لا نتصور الشعراء على انهم مرسلو الشعر رقيقو المشاعر وبوهيميون ومصابون بالدرن ولا الأساتذة على انهم غير عمليين وشاردو الذهن وعطوفون او ذوو لحى ولا الفرنسيين على انهم مؤدبون يلبسون افخر الثياب وذوو شوارب مشمعة وازيار نساء . ولكننا لا نستطيع أن ندخل مثل بروست Proust فى تعقيدات لغوية مع انفسنا عندما نستخدم مثل هذه الكلمات ولا يمكننا كذلك أن نستخدمها استخداما دقيقا كما يفعل العالم المنهجى . انما سنمضى بها على احسن ما نستطيع ونحاول أن نكيفها بقدر الامكان مع تجربتنا وعواطفنا .

والآن كل ما تعنيه كلمة « ثورى » عند هذا المستوى بالنسبة لمختلف الأفراد والفئات هو فى حد ذاته عنصر هام فى الدراسة الاجتماعية الكاملة للثورات . وان ما يحس به الناس على اختلاف انواعهم بالنسبة للثورة ربما تكون دراستها من أسهل الأمور فى العبارات التى تبرز من كلمات مثل «ثائر» و «ثورى» أو مرادفاتها الأكثر واقعية مثل «يعقوبى» ، « شيوعى » و « أحمر » وما اليها . ولسنا نستطيع ان نحاول مثل هذه الدراسة هنا ولكن علينا أن ننعم النظر فى القليل من هذه العبارات — الا على سبيل التحذير والمقارنة .

ولربما كانت كلمة « ثورى » تحمل بالنسبة لأكثر الأمريكيين فى القرن العشرين رنينا غير مستحب . وفى نظر الصحافة المحافظة يبدو الثائر فى صورة انسان رث الثياب له عينان كعيون الوحش طليق اللحية جهير الصوت يجيد الخطابة والتآمر ضد الحكومة ومستعد للعنف ومع ذلك يخاف منه . وحتى عند السفسطائيين يخيل للانسان أن كثيرا من مواطنينا يحسون هذا الاحساس تجاه الثوريين او انهم على اى حال مقتنعون انهم قطعا اشخاص ذوو اطوار غريبة فاشلون فى ظروف ما قبل الثورة يعانون من مركبات النقص يحسدون من هم احسن حالا منهم وملتزمون تماما بشعار « ضد الحكومة » وفقا لمبدئهم او استعدادهم . وهناك صور اخرى اكثر اشراقا للثوريين تنبثق بلا شك فى اذهان اخرى .

واذا حكمنا على ضوء ما يكتبه بعض كتابنا البروليتاريين — وان كانوا هم أنفسهم ليسوا ببروليتاريين — الثورى انسان متين البنية من عمال الفولاذ عريض المنكبين لم يفسده زيف البورجوازية الذى يسمونه تعليما ولكنه يحفظ تعاليم ماركس ولينين قوى عطوف له روح المحارب وعليه لمسة من لمسات شيلى الفدائية .

والآن فان الفوائد الاجتماعية لمعتقدات من هذا القبيل جلية بما فيه الكفاية . ففى مجتمع بورجوازى قديم مثل الولايات المتحدة من المحتمل ان تكون العواطف المعادية للثوريين عوامل هامة فى حفظ الاستمرار الاجتماعى . لقد كان الثوريون على صواب فى ١٧٧٦ ولكنهم ليسوا كذلك الآن . وان اى مجتمع ناجح لا بد وان يضم أعدادا كبيرة من الناس الذين يحسون هذا الاحساس تجاه الثوريين . وحتى فى روسيا حيث الذكريات عن الثورة العنيفة ما زالت حية تبذل الحكومة مجهودا ضخما للحط من شأن الثوريين الدمويين الذين لا زالوا على قيد الحياة . لقد كانت الثورة شيئا حسنا فى ١٩١٧ ولكنها ليست الآن كذلك أو على اقل تقدير تعتبر الثورة الآن فى روسيا كما كانت ابان محاكمات كيروف Kirov فى الثلاثينات من عام ١٩٣٠ « ثورة مضادة » . ومن ناحية أخرى فمن الواضح أن الراديكاليين والمتطرفين الذين يرون فى الثوريين زملاء أعزاء ويعتبرونهم أبطالا وشهداء يزيدون بذلك من عددهم ويقوون أنفسهم لاثارة الاضطرابات .

ومع ذلك فان العالم الاجتماعى لا يستطيع أن يدع المسألة تتوقف عند هذا الحد . فعليه أن يحاول تصنيف الثوريين تصنيفا موضوعيا وهو تصنيف معقد بقدر ما تقتضى معلوماته عنهم . ونستطيع أن نقول مطمئنين ان العرض السريع لثوراتنا الأربع التى يعنينا أمرها أبعد ما يكون عن تأييد اى مجموعة من العبارات التى سبق ذكرها . وجدير بالذكر انه رغم أن الحط من شأن الثوار هو الأعم من هذه البلاد فان مثل هذا العرض لا يؤيد القول بأن ثوريينا كانوا أصحاب علل وجهيرى الصوت ومن قاذفى المفرقعات الفاشلين فى ظل النظم القديمة . فاذا ما أدرجنا

ـــ وهــذا ما يجب ـــ هؤلاء الذين قاموا بالخطوات الأولى فى الثورة وكذلك هؤلاء الذين حكموا فى عهد الارهاب فان نمطنــا يصبح أقل بساطة .

ولنأخــذ كيفما اتفق قائمــة بالأسماء التى ترد الى الذهن : هامبدن Hampden وسير هارى فين Sir Harry وجون ملتون John Milton وسام آدامز Sam Adams وجون هانكوك J. Hancock وواشنطن Washington وتوماس بين Thomas Paine ولافاييت Lafayette ودانتون Danton وروبسبير Robespierre ومارا Marat وتاليران Talleyrand وهيبير Hebert وميليوكوف Miliukov وكونوفالوف Konovalov وكيرنسكى Kerensky وشيشيرين Chicherin ولينين Lenin وستالين Stalin

كل هؤلاء ثوريون ، وجميعهم عارضوا السلطة القائمة بقوة السلاح . وتضم القائمة عددا من كبار النبلاء وسادة وتجارا وصحفيين وطالبــا يدرس ليكون قسيسا واستاذا فى التــاريخ ومحامين وزعيمــا سياسيا وغيرهم . وهى تتضمن عــددا كبيرا من الأغنيــاء وواحــدا أو اثنين من الفقــراء . انهــا تتضمن الكثيرين ممن كانوا يعتبرون بمقــاييس العقيــدة المســيحية التقليــدية من الصالحين ، كمــا انهــا تتضمن عــددا ممن يعتبرون بهــذه المقاييس نفسها من المعنين فى الشر . انهــا تتضمن بعضا ممن لهم اهميتهم فى أيام ما قبل الثــورة وبعضا من المغمورين تماما واثنين ربما أو ثلاثة من الفاشلين فشلا واضحا فى الحيــاة الى ان اعطتهم الثورة الفرصة ليرتفعوا . ومؤكد انه ليس من السهل ايجاد قاسم مشترك .

وليس من شك فى أننــا سنجد العون فى مهمتنا من التمييز بين اولئك الذين يسيطرون فى المراحل الأولى للثورة ـــ وهم بصفــة عامة المعتدلون ـــ وبين أولئك الذين يسيطرون فى مرحلة الأزمة ـــ وهم بصفة عامة المتطرفون . ولكن لا فائدة من القول بأن متطرفينــا هم وحــدهم الثوريون الحقيقيون ، وفضلا عن ذلك فان جورج وشنطن نفسه يبــدو انه اقسم يمين الولاء للتاج البريطــانى ، وان حنثــه لهــذا اليمين كان من الممكن ان يعتبر خيــانة

لو فشلت الثورة الأمريكيـــة . ولقـــد تعلمنا من مؤرخى الهويج (الأحرار) الاعتقـــاد بأن اسكس Essex وبيم Pym كانا يدافعان عن قوانين انجلترا المقدسة ومن ثم لم يكونا ثوريين حقيقيين . ولم يكن هـــذا بأى حال هو الرأى الســـائد فى أوروبا فى الأربعينيـــات من ســـنة ١٦٤٠ حيث كان البرلـــانيون يعتبرون ثوارا أشداء ضـــد مليكهم ، كما أن الملكية فى أوروبا فى القرن السابع عشر كانت عميقة الجـــذور فى احساسات الناس بحيث نعطيها قوة القـــانون مثلما يبدو الدستور الأمريكى ضاربا جذوره فى نفوس أمتنـــا فى عصرنا الحـــاضر . كلا ، يجب أن ندرج المعتدلين فى قائمـــة ثوارنا حتى ولو كانوا يدافعون عن القـــانون الأسمى ضـــد الأدنى ، ورغم انهم لم يكونوا فوضويين وثوارا مكروهين .

ثانيـــا ــ الوضع الاقتصـــادى والاجتماعى :

ان من أنفع الطرق فى تناول مشكلة الفريق الذى قام بالحركات الثورية هو تناولهـــا من زاوية الدلالات الموضوعية نســـبيا للوضعين الاقتصـــادى والاجتماعى لهؤلاء الذين يسهمون فى الثورة . ومن الصعب جدا الآن أن نجـــد الشىء الكثير عن مركز الثوريين ومكانتهم . فان الثـــورى العـــادى مثل الجنـــدى العـــادى فى أثنـــاء الحرب لا صوت له ولا اسم . ومع ذلك ليس من المستحيل بالنسبة للثورة الفرنســـية اجراء مثل هـــذه الدراسة . ففى السجلات الباقيـــة لنوادى اليعاقبـــة التى كانت مراكز النشاط الثورى والتى تشـــبه المستقلين الانجليز والسوفييتين الروس ولجـــان المراســـلات الأمريكيـــة نجـــد عـــددا كبيرا من القوائم ــ غير كاملة بطبيعـــة الحـــال ولكنهـــا قوائم . ومنـــذ بضع سنوات درست هـــذه القوائم وبمســـاعدة كشوف الضرائب وبعض الوثائق الأخرى فى دور المحفوظات الفرنسية المحلية أمكننى الوصول الى بعض تعميمات احصائيـــة عامة عن هؤلاء الثوريين . ويجب هنـــا تلخيص بعض هـــذه التعميمات من كتابى « اليعاقبة : دراسة فى التـــاريخ الحديث » .

ويمكن على وجـــه العموم أن نصل الى بعض التقديرات الاحصائيـــة التقريبية للوضعين الاجتماعى والاقتصادى لهؤلاء اليعاقبة الثوريين فى فترة

ما قبل الثورة الفرنسية . فهناك كشوف ضرائب لسنوات مختلفة فيما بين ١٧٨٥ ، ١٧٩٠ وفيها نجد كثيرا من اليعاقبة . ولما كانت هذه ضرائب مباشرة فهى تبين الدخل ولذا فمن الممكن أن نحصل على تقدير تقريبى لثورة اليعاقبة . وقد كانت الوظائف تعطى لهم عادة وهذه دلالة ذات قيمة على الوضع الاجتماعى . وأخيرا من الممكن أيضا دراسة بعض النوادى فى فترات معينة فى الثورة وبذلك يمكن أن تؤخذ عينة خلال الفترة المبكرة أو المعتدلة وأخرى خلال الفترة التالية التى حكم فيها المتطرفون . وسنورد هنا باختصار بعض النتائج .

ففى اثنى عشر ناديا — مجموع أعضائها ٥٤٠٥ طول مرحلة الثورة كلها أى ١٧٨٩ الى ١٨٩٥ — فى المرحلتين المعتدلة والمتطرفة — كلتيهما — نجد أن : ٦٢٪ من الأعضاء كانوا من الطبقة المتوسطة ، ٢٨٪ من الطبقة العاملة ، ١٠٪ من الفلاحين . وفى اثنى عشر ناديا أثناء فترة الاعتدال فيما بين ١٧٨٩ — ١٧٩٢ كان عدد الأعضاء ٤٠٣٧ ، ٦٦٪ منهم من الطبقة المتوسطة ، ٢٦٪ من الطبقة العاملة ، ٨٪ من الفلاحين .

وفى اثنين واربعين ناديا فى المرحلة العنيفة من ١٧٩٣ — ١٧٩٥ بلغ عدد الأعضاء ٨٠٦٢ ، منهم ٥٧٪ من الطبقة المتوسطة ، ٣٢٪ من الطبقة العاملة ، ١١٪ من الفلاحين . وتؤكد كشوف الضرائب ما تقترحه التصنيفات الوظيفية والاجتماعية . ففى ثمانية نواد طول مرحلة الثورة كلها كان أعضاء النادى يدفعون ضريبة تبلغ فى المتوسط ٣٢ر١٢ (جنيها) بينما كان متوسط الضريبة للمواطنين الذكور الذين يدفعون هذه الضريبة المباشرة فى المدن ١٧ر٠٢ جنيها . وفى ٢٦ ناديا أثناء مرحلة العنف وحدها دفع أعضاء النادى ١٩ر٩٤ (جنيها) والأعضاء من الذكور ١٤٤٥ جنيها . وهكذا رغم أنه كان هناك اتجاه الى انزال النوادى أثناء فترة العنف فى السلم الاجتماعى درجة أدنى فان الانسان ليضطر الى أن ينتهى الى النتيجة التالية وهى أن « اليعقوبى لم يكن نبيلا كما لم يكن متسولا ولكن بين هذا وذاك تقريبا وان اليعاقبة كانوا يمثلون قطاعا كاملا فى مجتمعاتهم » .

وهنـــاك أدلة أخرى موضوعيـــة نسبيا تساعدنا بعض الشىء . فلقد كان من الممكن غالبـــا تسجيل أعمـــار أعضاء النوادى خلال الثورة . وعلى قدر ما كان لهـــذه النوادى من مركز ومكانة ، فان القول بأن الثوريين كانوا يختـــارون من الشباب وغير المسئولين لا سند له . ففى عشرة نواد تباينت نســـبة متوسط الأعمـــار من ٣٨ر٣ ســـنة الى ٤٥ر٤ ســـنة . وبالنسبة للنوادى العشرة جميعا وصلت النسبة الى ٤١ر٨ سنة . ومن الواضح أن هؤلاء لم يكونوا من الشـــباب المجازف . كذلك لم يكونوا من هواة التجوال أو من فرق العاصفة التى تستورد من مراكز الثـــورة فى المدن مثل باريس . فمن بين ٢٩٤٩ من الأعضاء المنتمين الى خمسة عشر ناديا نجـــد أن ٣٧٨ فقط أو ١٣٪ قـــد نزحوا الى المدن منذ قيـــام الاضطرابات فى ١٧٨٩ . ولقـــد تباينت العضوية الفعليـــة للنوادى كلما ازدادت الثورية تطرفا — أو بالتعبير الحديث كلما جنحت أكثر فأكثر ناحيـــة اليسار — ولقـــد هاجر كثير من المعتـــدلين أو سقطوا تحت المقصلة . وكثير من المتطرفين ممن ساءت سمعتهم — حتى وان لم يكونوا من الطبقات الدنيـــا — لم يلتحقوا بالنوادى الا فيما بعـــد . ومع ذلك فى ســـتة نواد مجموع أعضائها ٣٠٢٨ فيما بين ١٧٨٩ — ١٧٩٥ نجد أن حوالى ٣١٪ عملوا على بقـــاء أسمائهم فى سجلات العضوية طوال المـــدة كاملة وأنهم نجحوا فى أن يكونوا ملكيين وجيرونديين وجبليين صـــالحين . وليس صحيحا أن هـــذه النوادى أصبحت تسودها الطبقـــة الدنيـــا أو طبقة العمال بعـــد سقوط الملكيـــة فى ١٧٩٢ بل ليس صحيحا أن الملتحقين الجـــدد بهـــا كانوا غالبـــا من الطبقة العاملة . ومن الواضح تماما أن هؤلاء النـــاس لم يكونوا بصفة عامة من الفاشلين فى بيئتهم الأولى ، بل هم يمثلون الأقـــدر والأشد طموحا والناجحين من سكان المدينة التى ينتمون اليهـــا . انهم يبـــدون كمـــا لو كان أعضـــاء نوادى الروتارى الحاليـــة ثوريين . وقـــد لا يكون من المستطاع اجراء دراسة احصائيـــة مشابهة للثورة الانجليزية حيث أن القوائم المشابهة لقوائم أعضـــاء نوادى اليعاقبـــة ليست فى المتناول . ومن المؤكد وجود المـــادة اللازمة لمثل هـــذه الدراسة فى العضوية الفعلية للسوفييتات فى عام التأزم ١٩١٧ ولكن لا بـــد من جمعهـــا من مصادر مختلفة لا توجد الا فى روســـيا وحدها . ونحن على

علم كاف باعضاء جماعاتنـــا الثورية الأمريكيـــة من لجـــان التجار ولجـــان التبـــادل الى مؤتمر القـــارة . وحتى بالنسبة للثورة الانجليزية لدينا المـــادة المتناثرة الكافيـــة التى تسمح بتكوين أحكام عامة عن أشخاص الحركة .

ففى المراحل الأولى للثورة الانجليزية لا يمكن الشك فى المكانة المحترمة والرفاهة الاقتصادية للرجال الذين ساندوا البرلمان . ويقول باكستر Baxter فى شىء من المبالغة ولكن لا تخلو من الحقيقـــة أنه عنـــدما نشبت الثـــورة الكبرى ، كان أنصار الكنيسة المعتدلون والبروتستانيون الكنائسيون الذين كانوا من قبل يستنكرون البدع ويندون بمنكرى القدرية من اتباع ارمانيوس الهولنـــدى وبالبـــابوية والاحتكارات والضرائب غير الشرعيـــة يشكون من خطر الحكومة الطاغيـــة هم الذين أشعلوا الحـــرب . وقام تجـــار لندن وبريستول وغيرهما من المـــدن وكبـــار اللوردات وصغـــار وملاك الأراضى جميعـــا ضد مليكهم . وحتى فى مرحلة ما يمكن أن نسميه بالتطرف أو الأزمة فى الثورة الانجليزية التى تبـــدأ سنة ١٦٤٦ أو سنة ١٦٤٧ عنـــدما أصبح التوتر بين الجيش النموذجى الجـــديد وبين البرسبيتاريين حادا فان الثوريين لم يكونوا ابدا من الأوغاد . وحتى باكستر يقول « وجدت فى هذا الجيش — وقـــد كان بالنسبة للثورة الانجليزية مثلما كان اليعاقبـــة بالنسبة للثـــورة الفرنسية والبلشفيك بالنسبة للثورة الروسية عددا وفيرا من الجنود العـــاديين والضباط الشرفاء المتزنين المستقيمين وآخرين على اســـتعداد لسماع الحقيقة ولهم مقاصد خيرة » . وقـــدر احـــد المؤرخين أن الجيش النموذجى الجـــديد عندما استولى على الميـــدان فى ســـنة ١٦٤٥ كان من بين ضباطه الكبار السبعة والثلاثون تسعة من النبـــلاء وواحد وعشرون من أصـــل رفيع وليس منهم الا ســـبعة لا ينتمون الى فئـــة السادة . ان الطبقـــات الانجليزية الدنيـــا أو على الأقل العناصر الأكثر انتماء الى الطبقة العـــاملة كانت بصفـــة عامة تقف بعيـــدا عن المعركة . وحتى الطائفيين الأشـــد شراسة فيبـــدو أنهم كانوا مستمدين من فئـــات متواضعة ولكنهم لم يكونوا بأى حال من الأحوال ممن اخنى عليهم الدهـــر وكانوا ممن علموا انفسهم متابعـــة المجـــادلات اللاهوتيـــة ، وهم على وجه العموم يمثلون

العناصر الأنشط والأكثر تطلعا فى طبقتهم . وأما الفلاحون الأشد بؤسا وحاجة فى الشمال والغرب فقد انحازوا فعلا الى جانب الملك ووقفوا ضد الثوريين .

وقد سبقت الاشارة فى امريكا الى الحقيقة المعروفة وهى أن التجار هم الذين نظموا لأول مرة المقاومة للتاج .. وهذه المقاومة تولى نشرها كثير من الزراع فى السهل الساحلى الجنوبى ، وكذلك كثير من الفلاحين ذوى المكانة من ملاك الأرض فى بيدمنت Piedmont وفى الحق هناك دلائل متعددة على مشاركة اولئك الذين يعتبرهم المحافظون من حثالة الناس . وابناء الحرية فى بوسطن الذين قاموا بمعظم الأعمال العنيفة هناك كانوا ينتمون الى فئة العمال وكانوا فعلا يجتمعون فى احدى حجرات معمل التقطير . اما المحافظون ممن أصبح الآن يطلق عليهم اسم الموالين للحكومة فقد كان من الطبيعى أن ينظروا الى معارضيهم على انهم فئة من الرعاع . ويكتب هتشنسون Hutchinson عن اجتماع مدينة بوسطن فيقول انه « يتألف من أدنى طبقة فى الشعب من الواقعين تحت تأثير فئة قليلة من الطبقة العليا من ذوى الميول المتطرفة الشرسة واليائسين . ولقد أعرض كل من كان له ملك أو خلق رفيع عن هذه الاجتماعات اذ أيقنوا أنهم سيقابلون مقابلة عدائية ».

وفى الواقع ان الحد الفاصل بين المحافظ والحر خط غير مستقيم الى حد بعيد ، يعتمد على اشياء كثيرة علاوة على المركز الاقتصادى ، كما يتبين من كتاب ج.ف. J.F. Jameson « الثورة الأمريكية كحركة اجتماعية » واذا كان السادة الأغنياء من « تروى رو Troy Row » فى كمبردج قد وقفوا الى جانب التاج فان هناك كثيرا من الفلاحين والتجار والمحامين المتزنين المحترمين قد تحولوا الى ثوار . ولقد فجع هؤلاء الرجال فى نتيجة الأفعال التى قام بها صبية الصناعة الصغار المتهورون فى جماعة ابناء الحرية ولكن هذا لم يحولهم بالضرورة الى الجانب البريطانى وان كان قد جعلهم ينقدون الكونجرس . ومن الدلائل الجيدة

على المكانة المحترمة للثورة تأييد رجال الدين تلك التأييد الذى كان باستثناء فئة « الكنائسيين » تأييـدا شاملا فى معظم المسـتعمرات . ويقول أحـد الموالين للحكومة الساخطين « ان ذوى المكانة من أبنـاء الحرية يضمـون رجال الدين الذين بدلا من أن يعظوا رعاياهم للتمسك بالوداعـة والوقار والالتفات الى أعمالهم المختلفة واحترام قوانين بريطانيا اندفعوا بقوة من فوق منصات الخطابة الى الحديث عن الحرية والاستقلال ومواصلة الجهاد ليتخلصوا من التبعية لبريطانيا . لقد كان القساوسة المستغلون دائمـا المحرضين والمثيرين لكل اضطراب وتدبير كل مؤامرة .

وتلخيصا لمـا سبق لا بد من الاتفاق مع جيمسون على أن قوة الحركة الثورية على مر الأيام كانت تعتمد على البسطاء من الناس — لا على الغوغاء أو السوقة ، وذلك لأن المجتمع الأمريكى كان مجتمعا ريفيا وليس مدنيا — على أصحاب الحرف فى الريف وصغار الفلاحين وسكان الحـدود . ولكن لا بد من الاتفاق أيضا مع ألكسندر جرايدون Alexander Graydon فى أن المعارضة لمطالب انجلترا نشأت بين أناس أرقى مستوى من ذلك : لقـد كانت بحق أرستقراطية فى بدايتها .

ويبـدو أن ثورة فبراير فى روسيا قـد لاقت الترحيب من كل الطبقات فيما عـدا أشـد المحافظين تحفظا — وهم قلة من ضباط الجيش وقلة من رجال الحاشية وطبقـة النبلاء القديمة . ولا أحـد يعرف من الذى صنع ثورة فبراير ولكن لا يمكن أن يكون هناك شك بالنسبة لشعبيتها . فكل فرد سواء فى ذلك النبيل المتحرر او صاحب المصرف أو رجل الصناعة أو المحامى أو الطبيب أو الموظف او العامل كان يسره أن يعـاون فى توجيـه الضربة القاضية الى النظام القيصرى ، حتى البلاشفة الذين كان انتصارهم الفجائى فى ثورة أكتوبر سنة ١٩١٧ سببا فى أن تختلف الخطة الزمنية للثورة الروسية كل الاختلاف عن نظيرتها فى الثورتين الانجليزية والفرنسية ، لم يكونوا بحال من الأحوال مثلما يطلق عليهم الحانقون على الثورة من الرعاع ، أو السفلة أو « الغوغاء » اذ يبدو انهم كانوا عناصر مستمدة أساسا من أفضل العمال واقدرهم كفاية فى مصانع بتروجراد وموسكو والمراكز الصناعية المتخصصة

مثل ايفانوفو فوسنسنسك أو حوض الدون . وكان اهم زعمائهم من بين صفوف الطبقة المتوسطة . وقد يحق للمرء أن يقول ان الشباب تحت قيادة ميلوكوف وقد حرموا التشجيع منذ وقت مبكر لا يعتبرون حزبا ثوريا . ولكن المنشفيك وحزب الاشتراكيين الثوريين — الذين احتقرهم المؤرخون البلاشفة المنتصرون فيما بعد كمساومين — كانوا بكل تأكيد عناصر ثورية . ربما كان أكثر المنشفيك من المثقفين . ولكن الاشتراكيين الثوريين كانوا كذلك مختارين من الفلاحين الموسرين ومن الأشخاص الذين يديرون الجمعيات التعاونية ومن أصحاب الحوانيت الصغار وأشباههم .

ثالثا : الوضع الاجتماعى والاقتصادى :

الزعماء

حتى هذه اللحظة كنا ندرس الهيئات الرئيسية للثوريين وقد وجدنا بصفة عامة انها لا تمثل بحال من الأحوال حثالة الناس ، حتى فى الثورات البروليتارية الكبيرة وأنها تضم فى العادة أعضاء ينتمون الى كل فئة اجتماعية واقتصادية فى المجتمع فيما عدا ربما أولئك الذين يكونون فى قمة الهرم الاجتماعى . ومع ذلك فان أمثال اسكس ووشنطن ولافاييت قريبون جدا من هذه القمة . وحتى فى روسيا عاش بروسيلوف وهو جنرال قيصرى ممتاز ليخدم الحكومة السوفييتية فى زحف ١٩٢٠ على وارسو .

ولننتظر الآن ماذا يمكن ان نفعل فى الزعماء ولنحكم عليهم أولا بالمقاييس الموضوعية نسبيا لمعرفة أصولهم الاجتماعية وأوضاعهم الاقتصادية . وفيما يختص بالعاقبة كان فى امكان مؤلف هذا الكتاب أن يجرى دراسة ما عن القادة المحليين الصميمين ، والرجال الذين جرت العادة الا يدخلوا التاريخ العام . ومن حياة عشرات من هؤلاء الأشخاص الثانويين فى الثورة تبدو نتيجة ما واضحة : « أن القادة ينتمون من الناحية المادية الى الطبقة الاجتماعية التى ينتمى اليها الأنصار . ومن الممكن أن يكون بين القادة خلال عهد الارهاب عدد اكبر ممن كانوا يبدون فى ١٧٨٩ فاشلين قطعا أو انهم

على الأقل ليسوا على وفاق مع بيئتهم ومع ذلك فان نسبة هؤلاء المـاراتيين (نسبة الى مارات) القرويين ليست مثيرة للدهشة .

اما بالنسبة للقـادة الوطنيين فى الثورة الفرنسية فانهم — اذا حكمنا عليهم بهـذه المقاييس — كانوا جماعة تختلف عن ذلك ففى السنوات ما بين ١٧٨٩ — ١٧٩٢ كانوا يضمون رجـالا من النبلاء مثـل ابن عم الملك دوق اورليان ورجـلا مثـل ميرابو واللامثيين ولافـاييت ومحامين كثيرين منهم المعروفون جـدا من محـامى باريس مثـل كامو Camus ومنهم غير المعروفين وان كانوا الى حـد بعيد محـامين محترفين فى المقاطعات مثـل روبسبيير الشاب من آراس Arras (والذى كتب اسمه فى احـدى المرات دى روبسبيير) ومن المحامين الناشئين مثـل دانتون Danton الذى جاء الى باريس من احدى النواحى الريفية فى شامبين Champagne ورجال من العلماء مثل الفلكى بايلى Bailly والكيماوى لافوازييه والرياضى مونج وصحفيين مثل مارا وديمولان اللذين احتضنتهما الصحافة بسلطتها الجديدة وناشرين مثـل بريسو Brissot وهـو بورجوازى ريفى من شـارتر Chartres وكوندورسـيه Condorcet وهو ماركيز وفيلسوف . وبعد ١٧٩٢ كان الزعماء الذين وصلوا الى القمة قلة نادرة . والذين وجهـوا فرنسـا من ١٧٩٣ — ١٧٩٤ كانوا لا يزيدون مكـانة أو شهـرة عن المثقفـين ذوى الآمـال من مريدى مـدام رولان Mme. Roland's Corcle الذين ربمـا كانوا يبدون غرباء فى فرنسـاى فى ١٧٩٣ . ولم يكونوا على أى حال من أصول اجتماعية مختلفة اختلافـا كبيرا عن أولئـك الذين وجهوا فرنسـا حقيقة فى عهدهم القـديم — الا وهم البورجوازيون المتعلمون الذين تمخضت عنهم البيروقراطية فى النهاية .

ومعظم الأمريكيين يدركون المكانة المحترمة والمركز الاجتماعى الرائع للرجال الذين وقعوا وثيقتنا الخاصـة باعلان الاستقلال . فمن بين الستة والخمسين الذين وقعوها كان ثلاثة وثلاثون يحملون درجات جامعية ولم يكن هناك غير حوالى أربعة ممن تلقوا تعليما متواضعا أو عاديا وكان من بينهم خمسة من الأطبـاء وأحد عشر تاجرا وأربعة من الفلاحين واثنان وعشرون

محاميا وثلاثة قسس . وكان هناك اثنا عشر من أبناء الوزراء وكانوا جميعا من الموسرين تقريبا . ان سام آدامز الذى يبدو واحدا من أشد زعمائنا تطرفا ينتسب الى عائلة تاجر متوسط الحال ، وتخرج فى جامعة هارفارد فى سنة ١٧٤٠ حيث كان ترتيبه الخامس من بين اثنين وعشرين فى تلك القوائم الغامضة التى كنا قبل أبحاث الأستاذ س. اى. موريسون S.E. Morison نعتقد جميعا أنها تبين الوضع الاجتماعى . وحتى الموالين للحكومة رغم انهم كانوا يكثرون من استخدام كلمة « الغوغاء » كانوا لا يستطيعون أن يهجوا الزعماء الثوريين بشىء اكثر من القول أنهم مجرد هواة فن الحكم . وكتب أحد المحافظين أو المعتدلين فى صحيفة ميدلسكس فى ٦ ابريل سنة ١٧٧٦ « خرج من بين أصحاب الحوانيت والتجار ووكلاء الدعاوى ساسة الدولة والمشرعون . . . ان كل فرد تقريبا من الحزب الحاكم فى أمريكا يشكل حاليا ، وفقا لهواه الخاص ، مركزا ليس أعلى من كل ما كان يشغله من قبل فحسب بل أعلى مما كان يتوقع من قبل أن يشغله فى يوم من الأيام » .

ولسنا فى حاجة الى الخوض فى الأصول الاجتماعية لزعماء المعتدلين فى الثورة الانجليزية . فواضح أنهم من بين اعلى الطبقات فى البلاد . أما غير المعتدلين فقد كانوا خليطا من رجال نشأوا نشأة حسنة ومن العصاميين ومن رجال متواضعين يلهمهم الغضب وان كان غضبا ساميا لا يصلح للتحليل النفسى . ولا شك أن كرومويل نفسه كان من اعيان الريف فى شرق أنجليا وكانت عائلته تحظى بقدر لا بأس به من الثروة الجديدة التى يرجع أصلها الى مصادرة الأملاك فى عهد آل تيودور . وكان ايرتون Ireton الذى أصبح زوجا لابنته من سلالة مشابهة . وهكذا كان الوضع بالنسبة لكثير من الزعماء الاستقلاليين فى اجلترا القديمة والجديدة . وكان لودلو Ludlow قاتل الملك ابن السير هنرى لودلو أف ويلتشير Sir Henry Ludlow of Wiltshire وقد تعلم فى ترببيتى وكمبردج . وحتى جون ليلبرن John Lilburne الاشتراكى يوصف بأنه من أسرة طيبة ، ترجع فى أصولها الى القرن الرابع عشر وهو صورة طبق الأصل من الأعيان الأقل ثراء ممن لم يتحول ابناؤهم كثيرا الى التجارة ولسنا نعرف الا القليل عن الأصول الاجتماعية لرجال من

أمثال وينستانلى Winstanley الشيوعى أو ادوارد سكسبى Edward Sexby أحد جنود فرقة كرومويل والذى يظهر فيما بعد عميلا دوليا لفكرة الجمهورية . أما روبرت افرارد Robert Everard — فقد كان ضابطا فى الجيش ويوصف بأنه « سيد مهذب ذو ثقافة متحررة » . وكان جون روجرز John Rogers — الذى يعتقد فى رجوع المسيح — ابن أحد رجال الدين الانجيليين وكان ملكيا .

وتشبه روسيا دولنا الأخرى فيما يختص بالأصول الاجتماعية لزعماء ثورتها بأكثر مما يبدو عند أول وهلة فى ثورة بروليتارية — ولربما كان المعتدلون فى روسيا قد امسكوا زمام السلطة فترة قصيرة وغير مريحة الى درجة لا يكاد يقام لهم وزن . ولكن واحدا من الكاديت مثل ميليوكوف وهو مؤرخ ينتمى الى أسرة طيبة ، وتريشنكو Tereschenko صاحب ملايين الجنيهات فى كييف وجوشكوف Guckhov أحد تجار موسكو الأثرياء والأمير المسن المسكين لوفوف Lvov . كل هؤلاء يذكروننا بلوردات المتطهرين الأغنياء والتجار ابان الثورة الانجليزية والرجال ذوى الأصول الطيبة فى الثورة الفرنسية — ولقد كان زعماء المنشفيك والاشتراكيين الثوريين فى الغالب من المثقفين ومن صغار الموظفين وزعماء النقابات والجمعيات التعاونية ، وكان بعض خطبائهم المبرزين من جورجيا مثل جيرو وكان كيرنسكى محاميا متطرفا من بلدة صغيرة تقع على الفولجا كانت تسمى فى ذلك الوقت سمبرسك وتسمى الآن أوليانفشك Ulianovsk تذكارا لشخص أعظم من كيرنسكى جاء أيضا من سمبرسك . والحقيقة التى لا شك فيها أن ف. آى. أوليانوف V.I. Ulianov الذى عرف جيدا باسمه الثورى لينين Lenin انحدر من الطبقة الاجتماعية نفسها التى كان ينتمى اليها كيرنسكى ، كان أبوه مفتشا على مدارس سمبرسك وهو منصب بيروقراطى هام فى روسيا القيصرية أكثر مما قد تبدو لنا — وهو على وجه التحديد احد مناصب البورجوازية الممتازة .

أما الزعماء البلاشفة الآخرون فهم طائفة تختلف عن ذلك : مثقفون مثل تروتسكى وكامينف Kamenev وكلاهما من المتعلمين ، وفليكس

زرشنسكى Fleix Dzerzhinsky وهو من قطاع النبلاء البولنديين اللتوانيين ثم سفردلوف Sverdlov وهو كيمائى بالتمرن ، وكالنين وهو فلاح ثم ستالين (واسمه عند ولادته جوجاشفيلى Djugashvili) وهو من عائلة تشتغل بالزراعة فى جورجيا وكانت أمه تعده ليعمل قسيسا وقضى بالفعل فترة من الزمن طالبا فى احدى مدارس اللاهوت وشيشرين من عائلة أرستقراطية تكفى كى يعتبر نفسه من ناحية نسبه مثل لورد كيرزون Lord Curzon على الأقل ، ثم انتونوف أوفسينكو Antonov-Ovseëko أحد قواد الجيش الأحمر وهو وارث العراقة البورجوازية التى جعلت اسمه مكونا من مقطعين . وعلى أى حال فان المفاوضات التى جرت فى برست ليتوفسك Brest-Litovsk تعطى فكرة دقيقة عن قيادة البلشفيك وتقدم الدليل على طابعهم غير البروليتارى . فعندما أرسل أول وفد روسى الى هذه المدينة ليقابل الألمان كان يتألف من عينات الانجازات البروليتارية احداها تضم بحارا وعاملا وفلاحا ، ويقال ان الفلاح — وهذا القول يردده بلا شك الأعداء الحقودون للطبقة العاملة — امتاز أساسا باهتمامه بالخمر . ومع ذلك فعندما تقدمت المحادثات فعلا بعد فترة توقف الروس بحارهم وعاملهم وفلاحهم الذين كانوا يمثلون مجرد منظر وشكلوا وفدا من رجال ليسوا بطبيعة الحال على قدم المساواة اجتماعيا بالنسبة لنظرائهم من الألمان ذوى الأصل العريق ولكن الانسان لا يشك فى انهم من ذوى الثقافة الممتازة مثل جوفى Joffe وكامينيف Kamenev وبوكرفسكى Pokrovsky وكاراخان Karakhan كما كان من بينهم سيدة بلشفية عصبية بعض الشىء هى السيدة بيتزنكو Mme. Bitzenko التى أدركها المجد لاطلاقها النار على أحد رجال القيصر فى الأيام القديمة العصيبة . ولكن بطبيعة الحال نجد ان الماركسية الصحيحة على استعداد للاعتراف بأن البروليتارية لا تستطيع أن ترفع مستواها بسيور أحذيتها ولذلك يجب ان يخرج قادتها من طبقات متميزة تميزا كافيا بثقافة تؤهلهم لترجمة دقائق النظرية الماركسية .

وأخيرا فان عدم خبرة القادة الثوريين وحداثتهم فى شئون السياسة قد بولغ فيها فى كتبنا الدراسية . لقد كان لهم وبخاصة فى روسيا مران

طويل فى توجيه المجتمعات الصغيرة المتنازعة والمضطهدة والجماعات الثورية. وان الثوريين كجماعة ليشبهون كثيرا اى جماعة أخرى من الناس وتتطلب قيادتهم قطع شوط طويل فى الدربة السياسية .

وحتى فى فرنسا لم يكن أعضاء الجمعية الوطنية من السذاجة السياسية كما يظنون . اذ كان لكثيرين منهم خبرة فى الأعمال أو كانوا من قبل دبلوماسيين أو موظفين فى الحكومة أو أسهموا فى السياسة المحلية فى الأقاليم التى كانت فيها اقطاعياتهم الخاصة . انهم جميعا اعتادوا على سياسة الجماعات الضاغطة . وهؤلاء القادة الثوريون لا يكونون أبدا من أصحاب النظريات الأكاديمية غير الدنيوية والمجردة ، وهم لا يخرجون فجأة من الدير الى قاعة مجلس الوزراء . ولربما كان تدريبهم لا يؤهلهم فى دقة لقيادة مجتمع مستقر . ولكن هذه مشكلة أخرى لا يمكن حلها الآن والمؤكد أنهم أكفاء لقيادة مجتمع غير مستقر .

اذن لقد وجدنا أن كلا من الأنصار والقادة فى الجماعات الثورية النشيطة لا يمكن ادراجهم بطريقة قاطعة على أنهم قد خرجوا من قطاع اقتصادى معين . وانهم ليسوا من الشبان الذين نبغوا قبل الأوان . ان زعماءها عادة من متوسطى العمر فى الثلاثينيات والأربعينيات ولذلك فهم أصغر سنا من معظم الساسة البارزين فى المجتمعات المستقرة ، التى تميل بدون شك الى حكم كبار السن . ولكن أمثال جوستس St. Justs وبونابرت والشباب الذين فى العشرينات هم الاستثناء وليسوا القاعدة . ان قادة الثورة الروسية الذين نميل — نتيجة لحملات التشويه — الى اعتبارهم متطرفين الى أقصى حد ، كانوا فى المتوسط اكبر القيادات سنا فى ثوراتنا . ان الثوريين يميلون الى أن يمثلوا قطاعا كاملا من مجتمعاتهم مع وجود شخصيات لامعة من أعلى الطبقات شأنا فى مجتمعاتهم كلافاييت مثلا وعلى قدر المدى الذى تبلغه الفئة الحاكمة من النجاح نجد انهم يمثلون أيضا فئة قليلة الى أقصى الحدود من المغمورين والمساكين والطبقات الدنيا ان هذا يصدق على البلاشفة مثلما يصدق على (البيوريتان) واليعاقبة . ان المشردين ، والغوغاء والسوقة والأوغاد قد يكونون اهلا لاحداث المعارك

فى الشارع وحرق المساكن فى الثورات . ولكن من المقطوع به أنهم لا يصنعون الثورات ولا يدبرونها حتى ولا الثورات البروليتارية .

رابعا : الخلق والاستعداد :

نواجه الآن مهمة اشق بكثير ، مهمة فيها معلوماتنا ليست موضوعية ولا مبوبة كما هو الحال فى معلوماتنا عن الوضع الاجتماعى والاقتصادى للثوريين . انها المشكلة — السيكلوجية فى أعماقها — فى تبين مدى ما ينتمى اليه هؤلاء الثوريون من الأنماط التى يراها جون جونز(١) John Jones عادة غريبة الأطوار وشاذة أو بعبارة صريحة بها مس من الجنون . والآن قد يقول أحد من الناس — وهو محق فى ذلك — ان من البديهيات أن الانسان الراضى عن حاله كل الرضا لا يمكن أن يكون ثوريا . ولكن المشكلة هى أن هناك عددا لا حصر له من الحالات المؤدية الى السخط والرضا . وفى الحق أن الماركسيين غير الناضجين ، وكذلك الاقتصاديين الكلاسيكيين ممن يتصفون أيضا بهذه الصفة يرتكبون خطأ يكاد يكون متماثلا وكلاهما يفترض أن علم الاقتصاد يبحث فى كل ما من شأنه أن يجعل الناس سعداء أو أشقياء . فالناس لهم حوافز متعددة تدفعهم للعمل الذى لايمكن للاقتصادى الذى يقتصر على دراسة أعمال الناس المعقولة أن يدرجها فى بحثه فمن الملاحظ انهم يعملون أشياء كثيرة ليس لها أى معنى اذا افترضنا فيهم أنهم يسيرون كلية على هدى من دافع اقتصادى معقول مفهوم فمثلا التضور جوعا فى المتحف البريطانى لتأليف كتاب رأس المال " Das Kapital " أو الاستيلاء على الصحراوات بتأثير وهم مريح بأن التجارة تتبع الراية أو جعل العالم آمنا بقدر كاف لقيام الديمقراطية . الا أن من الواضح أن الشخص الذى يسهم فى ثورة قبل أن يثبت بالدليل القاطع نجاحها — وبعد نجاحها قد يقال انها لم تعد بعد ثورة — يكون ساخطا أو هو على الأقل ثاقب الفكر بالقدر الذى يجعله يقدر أن هناك عددا كبيرا من الساخطين يمكن أن ينصهروا فى جماعة تستطيع أن تقوم بثورة ما . وعلينا ان نبذل

---

(١) الرجل العادى فى بريطانيا .

بعض الجهد لدراسة طبيعة هؤلاء الساخطين على ضوء ما نراه في الأفراد. وذلك لأن منهج الدراسة الاحصائية لجماعات كبيرة من الثوريين كاليعاقبة لن تفيد فى هذا المجال . فان هؤلاء الأنصار على أكثر تقدير عبارة عن اسماء لها حرفة ، وربما بعض الدلالات الأخرى على الوضع الاجتماعى . وان الاهتمام الحديث بدراسة التاريخ الاجتماعى والرجل العادى قد جعل فى المتناول بعض المذكرات وخطابات الأفراد العاديين كما بذلت الثورة الروسية قصارى جهدها لكى تبقى ذكرى عامل هنا فى مصنع بيوتيلوف Putilov أو بحار هناك كان يعمل على الأورورا Aurora حية فى الأذهان ، وتروبتسكى نفسه يشيد فى كتابه «تاريخ الثورة الروسية» بدور هؤلاء العمال والبحارة والفلاحين الأبطال . الا آنه يحرص على أن ينفق معظم وقته على الأسماء الكبيرة كما لو كان مجرد مؤرخ بورجوازى . ولدينا بطبيعة الحال التشهيرات — ومن الصعب اعتبارها أوصافا — التى كان كل طرف يهجو بها الآخر . وهى كلها عاطفية الى حد كبير بحيث لا يمكن أن يكون لها قيمة الدليل فيما عدا ما يتعلق بحدة العواطف التى تفجرت ابان الثورات . وحتى فى ثورتنا التى يفترض فيها الاعتدال نسبيا يلحظ الانسان ما يذكر عن احد الموالين للحكومة من أنه قال « سوف يكون أمرا يدعو الى الغبطة أن أخوض فى الدم الأمريكى حتى يبلغ المدارات فى عجل عربتى » وطبيعى أن هؤلاء الموالين للحكومة من الأمريكيين كانوا يظنون أن الثوريين متطرفون وحشيون وسفلة دساسون وأوغاد حقودون ؛ ومن ناحية أخرى فان الكثيرين منا قد تعلموا فى المدرسة أن يعتبروا المحافظين أشرارا وخونة وسيئى الخلق وليس لهم أى ميزات اقتصادية او اجتماعية أو أى ميزات أخرى تفرقهم عن مثل هؤلاء الأشرار الذين تصورهم قصص سيمون ليجرى Simon Legree . وهكذا الحال فى الثورة الفرنسية ، كل جانب كان يتهم الآخر بكل أنواع الآثام ونادرا ما يدخلون فى التفصيلات الحقيقية للحياة اليومية .

واذا لم يكن فى مقدورنا لهذه الأسباب أن ندرس الحالة النفسية والسياسية والاجتماعية للجماعات الكبيرة من الثوريين فاننا نستطيع على الأقل أن نلقى نظرة على بعض الزعماء آملين أن القائمة التى نعتمد

عليها لن تكون بعيدة جدا عن تمثيلهم . وهنا على الأقل نستطيع الوثوق فى بعض المعلومات الخاصة المستمدة من ترجمات الأشخاص أنفسهم لحياتهم . ويرجع الفضل الى تلك المؤلفات العجيبة مثل « قاموس السير الوطنية » و « قاموس السير الأمريكية » فى أننا نستطيع حتى أن نتناول نمطا من الزعماء الأقل شأنا ، ضباط الثورة غير الرسميين . ويعمل الفرنسيون حاليا فى قاموس السير الخاص بهم . وينتظر أن يكون أكثر دقة من نظيره الانجلو سكسونى ، ولكن ما دام لم يكتمل بعد فانه لن يفيدنا فى شىء . كما أن من العسير الحصول على معلومات عن زعماء الثورة فى روسيا ، ومع أن هناك قدرا وفيرا من التعليقات الباهرة على حياة لينين وتروتسكى وستالين الا أنها متناقضة الى حد كبير . وأما عن الشخصيات الأقل شأنا فليس لدينا باللغات الغربية أو بالروسية الكثير من كتابات السير التى يمكن الوثوق بها . ومع ذلك نلحظ هنا أن الكثرة الهائلة فى الأسماء المنتحلة فى الثورة الروسية لم تنشأ بالنسبة لأكثر هؤلاء الأبطال ذوى الأسماء المستعارة من أى احساس بالخجل من ماض اجرامى أو مشين . ان جرائمهم كانت كثيرة من غير شك ولكنها لا تعدو أن تكون جرائم ضد الطغيان القيصرى ولربما كان هناك أصلا فكرة درامية طفيفة ان هذه الأسماء المستعاره كانت أفيد فى التهرب من البوليس القيصرى . ولكنها سرعان ما أصبحت مجرد موضة أو تقليعة ثورية .

وعند هذه النقطة نخشى الوقوع فى قائمة كئيبة ومع الخطر الذى يبدو اننا سنتعرض له بالتنحى عن التنظيم العلمى المنهجى الدقيق سيكون من واجبنا أن نجمع حقائقنا هذه أثناء البحث فى سير بعض الانماط أو الشخصيات البشرية ، وهذه عملية نجح فى آدائها عدد كبير جدا من ثاقبى الفكر الذين راقبوا السلوك البشرى منذ ثيوفراستوس Theophrastus الى موليير Molière وسانت بيف Sainte-Beuve وباجو Bagehot ولربما تكون هذه العملية فى بعض الجوانب طريقة أكثر نفعا فى تصنيف الأفراد من التقسيمات الشكلية السيكلوجية والاجتماعية التى عملت حتى الآن . وهذه النماذج ليست كما يرجى شخصيات خيالية . ولو بلغت فى حقيقتها عشر واقعية آلسست Alceste أو هارباجون Harpagon فانها تكون بذلك واقعية أكثر من أى شخصية عالجها عالم اجتماعى عادى .

ويمكننا ان نبــدأ بالثورى المهذب ، الرفيع المنزلة الذى أسئ توجيهه الانسان الذى ولد فى القمة ولكنه — تمردا منه — لا يريد البقاء هناك . انه ليس بحال من الأحوال انسانا ساذجا وفى الواقع أنه يعمل فى بعض الأحيان على أن يجمع فى نفسه عـددا مذهلا من الملامح الثورية . ويجب ان نعترف بأن نفور هؤلاء المتازين فى مجتمعاتنا الأربعة من الطرق التى تسلكها طبقتهم كان الدافع عليه الى حدما عجزهم عن النجاح فى ممارسة بعض انواع الأنشطة التى تمجدها تلك الطبقة . ولست فى حاجة الى تكون مؤرخا لكى تعترف بأن لافاييت ثارضــد حاشية لويس السادس عشر ومارى انتوانيت لأنه كان الى حــد ما انسانا ثقيل الظل هناك — لحسن الحظ — أن الحرية لا تحتاج أن يخطب المرء ودها فى الملاهى ومن واجبنا الا نبدو ساخرين فى مثل هذه الأمور . ومما لا شك فيه أن حب لافاييت للحرية كان من الناحية الأخلاقية شيئا أفضل بكثير مما لو كان قــد احب المركز أو المرتب أو سيدة . ولكن يجب أن نستدل من اعماله على انه قــد ادرك منــذ وقت مبكر جــدا أن ليس هناك شيء يدفعه الى ابعــد مدى يتمناه سوى حبــه للحرية . والأمر كذلك اليوم . فعندما تجــد فى احدى كلياتنا الجامعية شابا ممتازا قــد تحول الى شيوعى وعلى اية حال الى ماركسى فأنت تستطيع أن تتأكد تماما انه ليس رئيســا لفريق كرة القدم او سكرتيرا لجماعة الشى بى ديجاما Chi Phi Digamma وقــد يكون فى الواقع سكرتيرا لجماعة دراسة اللغة اليونانية . وهــذه الحالة لسنا هنا فى حاجة الى تقريظها أو استهجانها ، ولكن نذكرها فقط ، وسوف يكون على اى حال من السخرية — ومن ثم فليس من العلم فى شيء — أن ننكر أن كثيرا من هؤلاء المتازين الذين ضللوا كانوا مدفوعين أيضا بذلك الشيء الذى سوف نطلق عليه المثالية المخلصة . اذ تبدو الفئة الاجتماعيــة التى ينتمون اليها جماعة منحلة أو غبية أو قاسية أو فاترة الهمة . انهم يرون امكانيات عالم افضل . وهم يتأثرون بما يكتبه المثقفون الذين يكونون قــد بدأوا الهروب من النظام القائم . انهم يكافحون لاقامة عالم أفضل فوق هذه الأرض . ولا شك أنهم يشعرون بالضيق على هــذه الأرض ، وذلك لكثير جــدا من الأسباب التى لا يمكن استبعاد الكثير منها باعتبارها من اختصاص الطبيب النفسانى . ان شــيلى Shelley الذى لم تتح له فرصة للثورة خارج نطاق الشعر يعــد نموذجا مألوفا لهذا النوع الحساس الذى غالبــا

ما يكون عصبيا . ودرزشنسكى Dzerzhinsky ذلك الأرستقراطى البولندى الذى وهب الحياة للعمل فى الشرطة السرية الرهيبة ، كان متعصبا رقيقا وصادقا . والماركيز دى سانت هوروج St. Huruge الذى اشتهر بطريقة مشينة خلال الاضطرابات ومعارك الشارع فى الثورة الفرنسية كان انسانا مخبولا بشكل واضح وليس فيه صفة الانسان المهذب ، وكوندورسيه Condorcet وهو ماركيز أيضا كان انسانا مهذبا وعالما واذا ما كان لديه قدر من الكبرياء مما يتناسب تناسبا طبيعيا كافيا مع كلا هاتين الصفتين وقدر كبير جدا من الاحساس الذى يصاحب أيا منهما فى بعض الأحوال فانه كان فى سريرة نفسه رجلا طيبا وحساسا . •

أن آخرين يتنكرون لطبقتهم ويشتركون فى الثورة لسبب خسيس وان كان أحيانا على قدر كبير من الفائدة من الناحية الاجتماعية وهو أنهم يظنون أن الدلائل تشير الى انتصار الثورة . وهؤلاء الرجال أحيانا مثل ميرابو أقرب الى أن يكونوا شخصيات غامضة ممن أرضوا أنفسهم لفترة ما بسلوكهم الشاذ . وهم فى أحيان أخرى رجال مثل تاليران Talleyrand حذرون عقلاء كل همهم أن يحتفظوا بمكانة رفيعة وثروة ولا يفهمون الولاء للافكار المجردة الخاصة بالعدل والظلم ، كما أننا بطبيعة الحال نجد فى المراحل الأولى لثوراتنا وحتى الثورة الروسية أن كثيرا من الأغنياء وذوى النفوذ ممن لايتميزون بشدة الذكاء أو الغباء ينضمون الى الثورة لأن الثورة كانت سمة العصر كما كانت تمثل نجاحا واضحا . وغالبا ما كان يداعب الأمل الرجال الذين لم يكونوا فى مراكز السلطة السياسية بالحصول على مثل هذه المراكز — مثل دوق أورليانز Duc d'Orléans أو بيلى Bailly أو تريشينكو Tereschenko أو كونوفالوف Konovalov — ولكنهم كانوا أساسا رجالا عاديين الى حد ما ولم يكونوا أصلح منك او منى كموضوعات لتاريخ القديسين سواء أكانوا مسيحيين أم فرويديين أم ماركسيين .

واذا ما تركنا هؤلاء الناس الذين ينتمون بمولدهم او نشأتهم الى الطبقات الحاكمة ، ومع ذلك يقفون الى جانب الثورة وتحولنا الى الزعماء الذين جاءوا من طبقات دون الطبقة الحاكمة فسوف نجد هذا التنوع

الشـــديد الذى نطلق عليه تلك العبارة المبتذلة لكثرة استعمالها وهى الطبيعة البشرية . ولسوف نجـــد الحمقى والأوغاد والمثاليين والمهيجين المحترفـــين والدبلوماسيين والمعتوهين والجبناء والأبطال .

والآن قـــد يكون من غير المفيـــد ان ننكر أن بين أولئك الذين يتربعون على القمـــة فى أوقات الثورة المضطربة كثيرين ممن يحتمل الا يسمع بهم على الاطلاق فى الأوقات العادية . وبعض هؤلاء كانوا من الفاشلين يقينا فى المجتمع القـــديم ، وكانوا عاجزين عن الوصول الى أهداف طموحهم . .ورغم كل ما كتبه مدافع متمكن مثل البرفسور ل. ر. جوتشوك L.R. Gottschalk ليثبت تبحر مارا فى العلم وحظه الكبير من الاحترام فـــلا تزال هناك حقيقة قائمة وهى أن صديق الشعب لم يصب نجاحا قبل الثورة . لقـــد كان مارا من أصل وضيع وعلم نفسه بنفسه ، اعتاد أن يقـــدم نفســـه على أنه من الحاصلين على الدرجات الأكاديمية والقاب الامتياز التى لم يستطع كتاب سيرته أو حتى معاصريه أن يثبتوها دائما . ولقد حاول جاهدا أن يهاجم الفلاسفة ، ولكن أحـــدا لم يسمح له بذلك قط ، وكمعظم الأدباء المستنيرين فى القرن الثامن عشر خاض فى العلوم الطبيعية وظهر بنظرية مخالفة لنظرية الاحتراق الفلوجيستونى القديمة ، ولكن معاصريه الذين كانوا يغارون منه لم يولوها ما تستحقه من التقدير . وعندما اجتمع مجلس طبقات الأمـــة فى ١٧٨٩ كان هو مثقفا خائب الرجاء وانسانا كان قـــد فشل فى أن تتقبله هـــذه الحفنة القليـــلة من الكتاب والمتحـــدثين ممن كانوا فى أواخر القرن الثامن عشر الفرنسى يستمتعون ربما باعجاب خالص من الشعب لم تستمتع به هـــذه الفئة من قبل . ولم يكن فى استطاعة اى فرنسى فى ذلك العصر أن يصوغ عبارة مثل « الخبراء الذين يوجهون أو ينعون الحكومة » ومع ذلك فانها ما كانت تحمل من السخرية والاحتقار ما كانت تتحمـــله فى أمريكا فى القرن العشرين . ولمـــا شعر مارا بأن قادة الفكر ينفرون منه امتلأ قلبـــه خلال ١٧٨٩ بالحقـــد والكراهية لكل ما هو قائم ومبجل فى فرنسا .

وسرعان ما هيأت الصحافة الثورية مخرجا واسعا . واصبح حارسا للثورة ـــ كلبا مسعورا فى صحيفة « لامى دى بيل » كان يكتب دائمـــا عن

المؤامرات التى تحاكَ ضـد الشعب وكان دائما يكره أولئك الذين فى يدهم السلطة حتى ولو كانوا من حزبه نفسه وكان دائمـا ينادى بطلب الدماء والانتقام ولا شك انه كان شخصا سيئا الى اقصى حـد . ولكن من الصعب ان نقول انه كان سيئا أكثر من بعض الصحفيين فى أمريكا العادية والغيـر ثورية فى القرن العشرين ، فلقد كانت الصحافة شيئا جديدا جدا فى فرنسا فى ١٧٩٠ وكان الناس يتوقعون الشيء الكثير منها . وكان لمـارا على الأقل عـذر واحد . كان يعانى من مرض جلدى عضال جعله لا يطيق الحيـاة الا أن الفاشلين ليسوا كلهم من نمط مارا البسيط نسبيا . فلقد كان سـام آدامز بكل تأكيد انسانا فاشلا اذا قيس بمقاييس نيو انجلند المقتصدة المتزنة. الا أن آدامز استطاع أن يؤدى أعمالا جيدة للغاية . واذا كانت هـذه الأعمال لم تجد فى السبعينات (فى عام ١٧٧٠) جزء ماليا مثلما تجد الآن ، فان آدامز نال مكافـآت ليست ملموسـة فى عصره اذ أصبح فعـلا حاكمـا لولاية ماساشوستس ، ولا شك أن مواهب آدامز كما حللها بمهارة مستر ج. س. ميـللر J.C. Miller فى دراسته هى مواهب الخبير بالدعاية والتنظيم ، ومن الصعب الاعتقاد بأن الخبرة بوسائل الأعلام قـد تترك رجـلا له تلك المواهب دون أن يكتشف ودون أن يكافأ .

وتوماس يين الذى نجح فى الانضمام الى ثورتين : الثورة الأمريكية والثورة الفرنسية هو أيضا ثورى آخر لم يتوصل قبل الثورة الى شيء يذكر ، وعندما أبحر الى امريكا فى ١٧٧٤ كان يبلغ الثامنة والثلاثين أى أنه بكل تأكيد لم يعـد شابا . كان ينتمى الى جماعة الأصدقاء فى شرق انجليـا ، ودرس شيئا من العلوم السـائدة فى القرن الثامن عشر وخاصـة العلوم الطبيعية وفى فلسفة الاستنارة ، بينما كان يمارس عددا من الأعمال المختلفة من العمل فى السفن وصنع الكورسيهات والاشتغال فى محال التجـارة . وتزوج زواجا فاشلا والتحق بخدمة الجمارك مرتين وتركهـا وعرف بالالحاد فى بلدة لويس Lewes فى سيسكس ، وقام بمحاولة فاشلة وغير ناضجة بعض الشيء للحصول على أصوات الناخبين من زملائه فى الجمارك . وهذه المحاولة التى تسببت فى طرده للمرة الثانية والأخيرة من الخدمة لفتت اليه أيضا نظر بنيامين فرانكلين Benjamin Franklin الذى شجعه على

الهجرة ، لكن بين وصل الى فيلاديفيا مثل كثيرين غيره من الأوربيين انسانا فاشلا يبحث عن بداية جديدة . وقــد هيأت له الثورة هــذه البداية وجعلت منه صحيفة كومن سنس محررا مشهورا . هوبين الثورى المتطرف المحترف والصحفى المناضل والمفكر الدينى ولو أنه فى الأوقات الهادئة لم يكن أكثر من برادلو اخر أو انجرسول آخر .

ومن ناحية أخرى فان الثورة توصل الى القمة فى أحوال كثيرة رجالا لهم خبرات عملية فــذة ، رجالا من ذلك النوع الذى لا بد أن يعترف لهم بأنهم يستحقون الاحترام (حتى من اشد الرجعيين حذرا وصلابة) . ولقد يعيش أمثال هؤلاء الرجال مغمورين لأنهم لم يصادفوا ما يقلق راحتهم أو أنهم قــد يكونون ضحايا شىء مثل توقف دورة الصفوة الممتازة ، أو ســد الباب أمام الكفايات ، كما عرفنا فى الفصل السابق . ويعــد كروموبل مثالا كلاسيكيا لرجل كان من المحتمل أن يظل انسانا ريفيا بسيطا ليس له عمل ممتاز فى مجلس العموم لو لم تندلع ثورة البيوريتان (المتطهرين) ، ومثل ذلك يمكن أن يقال عن وشنطن نفسه ، ولسوف نعود مرة أخرى الى هذه المسألة الخاصة بسلامة القيادة الثورية . وحتى الآن لم نقل شيئا عن اولئك الذين يتعطشون للدماء ، لم نقل شيئا عن كارير Carrier وعن اغراق المسجونين فى نانت Nantes وعن كولوت دى هيربو Collot d'Herbois وعن ضرب ليون بالمدافع وعن مندوبى اللجــان الذين لا نعرف أسماءهم والذين جعلت اعمالهم عهد الارهاب يبدو هينا اذا قورن بهــذه الأعمال ، ولا عن أولئك المندوبين الانجليز فيمــا يسمى بالجاليــة الكرومولية فى ايرلنــدة والذين يحتفظون بالرقم القياسى بين الارهابيين لطول الفترة التى مارسوا فيهــا نفوذهم وسوف نتناول فيما بعد شكلة الوسائل الارهابية ابان فترة الأزمات فى ثوراتنا ، وهنا لا يهمنا الا أن نشير الى انه من بين لفيف الثوار ويوجد عدد من الرجال الذين ينظر اليهم الناس فيما بعد الثورات على أنهم الشر الذى يظهر فى وقت الثورات . ولا أحد يستطيع ان ينكر ظهور هؤلاء الرجال ا كما لا يستطيع أحدا منهم دون مساعدة من علم الجريمــة وعلم النفس الخاص بالشواذ .

وكاريير Carrier نفسه يمثل هؤلاء الرجال تماما . ومهما قد يحاول المدافعون الجمهوريون التخفيف من المآسى التى سجلها اعداؤه لأنشطته فى نانت فستبقى الحقيقة وهى أنه كان يستحث المحاكم الثورية للعمل السريع على اغراق المدانين بالجملة فى نهر اللوار بدلا من انتظار المقصلة البطيئة الحركة ، كان كارير محاميا فى الأقاليم ، أفلح فى الفوز بالانتخابات لعضوية المؤتمر وذلك حين انضم الى ناديه المحلى واخذ يردد مجموعة العبارات التى اختص بها المستنيرون . ولقد أرسل ممثلا للمؤتمر الى مدينة نانت فى مهمة ما ، وهناك يبدو أن السلطة أسكرته . وفوق ذلك كانت نانت على حافة نهر فانديهالخطيرة دائما ، ولربما كانكاريرقد استحسن أن يمحو اعداءه بالجملة متعللا بأن هناك مؤامرة على حياته . ولا شك أنه أقام جبهة قوية ، ومشى مختالا فى المدينة وأقام حفلات الترفيه والقى الخطب الرنانة وترك وراءه جروحا من الكراهية لا تندمل جلبت له السقوط والحكم باعدامه بعد أن انتهى الارهاب .

ان كارير يذكرنا برجل من رجال العصابات التى يصفها مستر جيمس فارل James Ferrel ففيه هذه الشجاعة الجوفاء والشعور بالحياة التى يحياها الفرد على مستوى المأساة العنيفة والاحساس الجديد الفج بالقوة والخوف الدائم من الانتقام والأغراض التى تتصف بالطفولية المباشرة . والشىء الذى لا يلمسه المرء فى كارير هو ذلك الحب المرضى لسفك الدماء والعقلية المريضة من ذلك النوع الذى يقترن باسم الماركيز دى ساد. وفى الواقع أن هذا النوع الأخير من الجنون يوجد غالبا بين السجانين والقتلة والشناقين فى الثورات أكثر مما يوجد بين الزعماء — حتى الزعماء الذين فى مستوى كارير . ولا شك أن أعنف الأعمال الثورية بصفة عامة هى تلك التى يقوم بها الغوغاء الثائرون — مثلا مذابح باريس فى سبتمبر ١٧٩٢ التى تشبه الى حد كبير المحاكمات العرفية فى التاريخ الأمريكى . ففيها أعنف الأمثلة على القسوة الانسانية ، ولكنها تربط بالثورات . أن المذابح والأحكام العرفية لا تقل عنها سوءا . ان الثورات والغوغاء ليسا لفظين يمكن تبادلهما ، فأنت تستطيع وعادة تستطيع أن تجد واحدا منهما دون الآخر . والقسوة التى تكون أشد ارتباطا بالثورات هى قسوة — تعتبر

فى نظر الناس أكثر اثارة من قسوة الغوغاء — الأحكام بالاعدام عن طريق المحاكمات والتى تصدر بدون اكتراث ووفقا للمبادىء .

وهناك نمط آخر يعتقد عموما — وان كان خطأ — انه يرتفع الى القمة فى الثورات . هـذا هو المخطط المخبول والمذهبى الخيـالى والرجل الذى يملك جهـزا مسلوب العقـل يتوهم انه سيحقق بهـا عالمـا أفضـل . وباختصار ربما تسنى فى مرحلة شهر العسل للبهرجة غير المتعقلة أن يكون لهـا ثمار ، ولكن فيما يختص بالثورة الانجليزية فقـد كان لهـا أكثر ممـا ادعتـه من ثمرات أو على الأقـل فيما كتب عنهـا . ولكن الثورات ليست الا عملا جادا لا يمكن أن يضله شذوذ المنحرفين المخبولين . فاذا ما تحـدد الخط المستقيم للثورة — ومع انه — كمـا سنرى خط عبوس وجامد الا انه متزن غير منحرف — فان الحمقى سواء كان حمقهم هينـا أو مبالغـا فيه سوف يخمدون . وهنـاك الثورات المـاركسية وثورات الحقوق الطبيعيـة ولكن ليس هنـاك ثورات للضريبة الموحدة أو الائتمان الاجتماعى أو التصوف أو الاقتصار على اكل النبـاتات أو الادراك الحسى الزائد . انها مجتمعاتك المعنـة فى الاسـتقرار وحـدها مثلمـا كان المجتمع الانجليزى فى العصر الفيكتورى هى التى تستطيع أن تحتمل تسليم هايد بارك لتطرف المخبولين . وحتى لو ظننت أن كومويل وواشنطن ورولسـيد ونابليون ولينين وسـتالين جميعـا ينتمون الى فئـة المعتوهين فانه يتحتم عليك أن تقر بأنهم فى يوم سطوتهم نزلوا فى شىء من العنف على معتوهين آخرين يخالفونهم .

وليس من الممكن كذلك أن تعزل نمطـا ثوريا وندمغه بأوصاف مثل « مجرم » و « منحط » ، تتفق تمـاما مع بعض المقاييس الجسمية الخاصة بالشواذ . ومن المؤكد أن محاولات من هـذا القبيل قـد بذلت — ويحتمل أن يكون هناك من يعتقدون أن الثوريين يتناولون أدوية خاصة أو ان شعرهم داكن السواد . وقطعا هنـاك كثير من الثوريين من أمثـال كاريبيـه الذين يسلكون سلوكا يماثل المجرمين فى المجتمعات المستقرة ، ولكن نسبة هؤلاء الثوريين ليست فيما يبـدو مرتفعة بطريقة غير مألوفة وهنـاك نمط ثورى آخر وهو الشخص الذى يهوى خلق المنازعات ، ويحمل عقليـة المعارضة ،

ويجب ان يشذ عن جمهور المؤيدين . والواقع أن احدى جماعاتنـــا الثورية ونعنى بهـــا فئـــة البيوريتان الانجليز كانت مليئـــة بهـــذه الفوضوية الفظة خصوصا ولم يكن الأفراد وحدهم هم البارزون فى هـــذه الناحيـــة وانمـــا كانت الجمـــاعة بصفة عامة تخرج عمـــدا على كل ما هو عظيم وعصرى ويقول أحـــد المؤرخين الاجتماعيين : « يرفض البيوريتـــانى ارتداء كل ما هو عصرى . فعنـــدما كانت الموضة لبس القبـــاء المكشكش كان البيوريتـــانى يلبس شريطا مرسلا ، وعندما اصبحت هـــذه الأقبيـــة غير مألوفة حوالى عام ١٦٣٨ وحل محلها اشرطة عريضة مرسلة رقيقة الحواف محلاة بالدنتلا الدقيقة الصنع كان هو يرتدى شريطا ضيقا جـــدا . وعند ما كانت الأحذية العصرية عريضة عنـــد الأصابع كان حذاؤه ضيقـــا . وعندما كانت القاعدة هى ارتداء الجوارب من اى لون ما عـــدا الأســـود ارتدى هو الأســـود ، وكانت جواربه قصيرة ثم قبل كل شىء كان شعره قصيرا . وحتى فى أواخر حكم اليزابت كان الشعر القصير علامة من علامات التطهر .

ومع ذلك فان هـــذا النمط يتضح اشد الوضوح فى بعض الأشخاص ومع أن جون ليلبرن John Liburne الاشتراكى الانجليزى كان الفضيلة مجسدة الا انه كان غير مريح ، ويبـــدو انه انحدر من أسرة اشتهر أفرادها بالفظاظة . وذلك لأنه يقـــال عن ابيـــه وقـــد كان ســـيدا من ديرهام انه آخر رجل انجليزى لجأ الى الحق الاقطاعى لينـــال حكما بالتعذيب عن طريق الضرب فى قضية مدنية . وكان دائمـــا مغرما بالجـــدل وهاجم البرستاريين Presbyterians والاستقلاليين بنفس المرارة التى كان قد هاجم بهـــا القصر من قبل . والواقع انه كان كمـــا كتب أحـــد المؤرخين : « حوكم ليلبرن فى كل محكمة من المملكة تقريبـــا تحت ظروف متباينـــة خلال حوالى عشرأن عاما وذلك للقـــذف فى حق الحـــكومة و الملك والبرلمـــان ونائب الملك وكان من أول الواجبـــات التى فرضت نفسها على قضاة الكومنولث معالجـــة هـــذا السيد » .

ولكن يبدو انه كان يحتفظ بقـــدر كبير من العزة الاجتماعيـــة مع العزة الثقافيـــة والروحيـــة التى تعـــد من سمات المتطهر الانجليزى . وفى خلال

محاكمة جرت له سنة ١٦٥٣ قال لقاضيه وكان رجلا عصاميا من أسرة من الحرفيين ومن الثائرين مع كرومويل « كان من الأنسب له (للقاضى) أن يبيع كستبانات ودبابيس الشعر من أن يجلس للحكم على شخص أرفع منه مكانه » .

وقال هنرى مارستن Henry Marsten قاتل الملك والذى ينبغى أن يكون حكما جيدا فى مثل هذه الأمور انه اذا خلا العالم من كل الناس الا من جون ليلبورن فانه من المقطوع به أن ليلبرن كان سيتشاجر مع جون وكان جون سيتشاجر مع ليلبرن . وكتيبات ليلبرن مليئة بالحديث عن صلاح واستقامة أولئك الذين يكافحون دائما من أجل الحق والذين يبدو انهم يغتبطون بما يلاقونه من متاعب فى سبيل الحق ويقول جيمس رسل لورل : « الحق دائما أبدا على المشنقة والظلم دائما ابدا على العرش » . اننا قريبون من الشهداء .

لقد كانت دوافع ليلبرن بلا شك من أسمى الدوافع . كان يؤمن بالديمقراطية المطلقة كما أن دعوته لحق البالغين فى الانتخابات واجراء الانتخابات كل سنتين والتسامح الدينى والمساواة أمام القانون كانت تلقى فى يوم ما القبول الكامل جدا فى انجلترا . غير انه فى عام ١٦٤٥ لم يكن فى مقدور أحد غير متطرف مذهبى أو متعصب أن يؤمن بأن هذه الدعوة ممكنة التنفيذ مباشرة . ولم يكن ليلبرن رجلا مشاكسا فحسب بل كان كذلك داعية للاستشهاد اذ كان ما يسميه الناس عادة بالمثالى ، وكثيرا ما نرى أمثاله فى الثورات . وليس من الحكمة فيما يبدو أن نعتبر أيا من هذه الأنماط الثورى الكامل ولكن اذا كان لا بد من ايجاد هذا النمط فيحسن الا يكون ذلك الذى امتلأ بمرارة الفشل وذلك الذى ارتفع على أساس من الحقد والحسد وذلك المعتوه المتعطش للدماء وانما يكون المثالى . ان المثاليين على وجه اليقين هم فى عصرنا الحاضر أعمدة المجتمع المستقر السوى . ومن الخير لنا جميعا أن يوجد رجال تعتمل فيهم الآمال النبيلة ، رجال طرحوا وراء ظهورهم كل ما فى هذا العالم لاعلاء راية الكلمة النقية والفكرة والمثل الأعلى كما عرفها انبل الفلاسفة . ولكن يبدو

فى الأوقات العادية أن هؤلاء المثاليين لا يشغلون — على الأقل فى المجتمعات الغربية — مراكز السلطة والمسئولية . ونحن فى الأيام العادية فى عصرنا هذا نتطلع الى المثاليين فينا ونمنحهم أحيانا الجوائز والدرجات الشرفية ، ولكننا لا نختارهم ليحكمونا . بل ونرفض على وجه أخص أن ندعهم يرسمون لنا سياستنا الخارجية .

والواقع ان احدى العلامات المميزة للثورة هى : أنه فى الأوقات الثورية يحصل المثالى فى النهاية على فرصة يحاول فيها تحقيق مثله العليا . والثورات مليئة بالرجال الذين يتمسكون بمستويات بالغة السمو للسلوك الانسانى ، نوع من المستويات التى ظلت لعدة آلاف من السنين توصف بكلمة أو عبارة ما ترتفع فيها النغمات التى تعنيها كلمة المثالى بالنسبة لنا اليوم . ولسنا فى حاجة الى أن نتعب انفسنا فى معانى اللفظ العقلية أو حتى اللغوية ، فنحن جميعا نعرف المثالى عندما نراه أو على وجه التأكيد عندما نسمعه .

ان روبسبير كان لا بد أن يكون مثاليا فى أى مجتمع من المجتمعات . وهناك قصة شائعة تروى كيف أنه فضل الاستقالة من منصبه كقاض على أن يصدر حكما بعقوبة الاعدام ، التى تتعارض مع تربيته الانسانية فى القرن الثامن عشر . لقد دمر المؤرخون هذه القصة تماما اذ لديهم الكثير من القصص الأخرى يروونها عن المثاليين . الا أن هذه القصص لا تصدق عادة الا فى أضيق الحدود . فهذه القصة عن روبسبير تشير الى أنه كان ابنا بارا من أبناء حركة الاستنارة . ولا يحتاج المرء الا الى قراءة بعض خطبه المليئة بالأفكار البسيطة والحكم الأخلاقية والآمال الواسعة لذلك العصر البرىء ليتحقق من انه كان قادرا تماما على الاستقالة أو التخلى عن منصبه القضائى بدلا من التخلى عن مثله العليا . والحق أنه كان مستعدا للقتل دفاعا عن مثله العليا .

وتلك المثل العليا — عندما ظهرت مع بداية ١٧٩٣ — وقد تبدو لنا أقل من البطولة بعض الشىء وكانت مدعمة بقدر لا بأس به من الطموح الشخصى والغرور الواضح فى روبسبير . ولكن هكذا كانت ، فان روبسبير

اراد فرنسا بحيث لا يكون فيها غنى او فقير وحيث لا يتسنى للرجال أن يقامروا او يسرفوا فى تعاطى الخمور او يرتكبوا الزنا او أن يغشوا أو يسرقوا أو يقتلوا ، أرادها بايجاز بحيث لا يكون فيها رذائل صغيرة أو كبيرة — فرنسا يحكمها رجال فيهم استقامة وفيهم ذكاء منتخبون وبالاقتراع العام للناس جميعا ، رجال بلا جشع أو حب المناصب ، رجال يتركون مناصبهم بطيب خاطر على فترات سنوية ليخلوا أماكنهم لخلفائهم ، فرنسا تعيش فى سلام مع نفسها ومع العالم — ولكن هل كان ذلك كافيا ؟ ان استقامة روبسبير الشخصية ليست موضع شك الآن حتى من المؤرخين الذين يعادون ما كان يدافع عنه . ففى زمانه وخاصة فى الأيام التى أعقبت سقوطه مباشرة اتهم بكل جريمة ممكنة وبكل الانحرافات الخلقية . ولكن يبدو فعلا انه كان بريئا من اى رذيلة من الرذائل الشائعة فى ذلك الوقت — فلا شراب ولا مقامرة ولا نساء . ان المؤرخين المحدثين يدعون ان لديهم الدليل على انه لفترة وجيزة اتخذ فى باريس عشيقة . ولو أنه فعل فقد يفترض الانسان أن ذلك مرجعه دوافع صحيحة وهمية وقد يمكن أن يكون المحامى الريفى قد ارتأى أن يحيا لمدة أسابيع قليلة على نحو ما كان الباريسيون يحيون فى تلك الأيام . ومع ذلك فلا شك فى ان روبسبير عهد الارهاب كان قد طرح وراءه هذه الأفكار ، وكان كالمعصوم من الخطأ : رمزا حيا لجمهورية الفضيلة فى حياته العامة والخاصة .

والآن فان هذا النمط المثالى ليس بحال من الأحوال نموذجا بسيطا ومن الواضح أن كروميل لا يمكن ان يدرج مبدئيا تحت هذه الفئة . الا أن هناك شيئا من صفة الباحث البيوريتانى فى كروميل ، شيئا ما يصنع سياسته الملتوية — اذ كان فى الواقع مرائيا — التى يصعب جدا فهمها ، اذا ما أصررت على أن نرى الكائنات البشرية فى صورة منطقية متكاملة . وأما لينين وترولسكى فكلاهما خليط غريب من المثالية والواقعية . وهذا الازدواج بين المثالية والواقعية لا يعنى ببساطة أنهما كانا يستطيعان فى الوقت المناسب استخدام وسائل واقعية لبلوغ أهداف تمليها عليهما مثلهما العليا . ان روبسبير او كروميل أو جلادستون أو وودرو ويلسون كان فى وسعه أن يعقل ذلك .. وهذا يعنى أنهم كانوا أيضا قادرين على

تحقيق غايات واقعية قريبة . ولقد كان لينين بطبيعة الحال داعية ومنظما بارعا للغاية مع قدر كبير مما نسميه قدرة على التنفيذ . ولكن يبدو على الأقل فى ١٩١٧ انه كان يظن ان الثورة العالمية قاب قوسين او ادنى .

وان فى الامكان ادخال المساواة الاقتصادية المطلقة فى روسيا فورا ، الا أن السياسة الاقتصادية الجديدة فى ١٩٢١ تدل تماما على أن لينين لم يعمل على تحقيق مثله العليا حتى النهاية المريرة للهزيمة والاستشهاد ولقد كان تروتسكى من خير العقول الناقدة بين الماركسيين ، بل كان له القدرة فى بعض اللحظات على نوع من التشكك حتى فى أهدافه نفسها . ولقد قدمت الحرب الأهلية فيما بين ١٩١٧ — ١٩٢١ برهانا قاطعا على قدراته فى كل من مجالى الخطابة والتنفيذ تحت الضغط . الا انه فى سنوات النفى يبدو كمن يطلب المستحيل وهو تعريف ربما كان فيه قسوة شديدة ولكنه أحد تعاريف المثالية ، ولو بقى تروتسكى فى السلطة فلربما تسنى له حقا أن يسالم البيروقراطية ويتقبل فكرة عدم المساواة ومبدأ اقتصار الاشتراكية على بلد واحد والتدهور الترميدورى وكل الشرور الأخرى المقترنة فيما بعد باسم ستالين . ومع هذا فيبدو أن هذا العناد من تروتسكى وهذا الاصرار على انزال جنة السماء الى الأرض فورا ، وهذا الامتناع عن مواءمة أهدافه للضعف البشرى أو ان شئت للطبيعة البشرية ، تساعد كلها على تفسير السبب فى أنه لم يستطع البقاء فى روسيا بعد الثورة .

ولا شك ان المثالية العاطفية لم يكن لها مكان فى روسيا عام ١٩١٧ . اذ حلت الحقائق الجافة أو على اية حال التعاليم الجافة للاشتراكية الماركسية محل الآمال الساذجة التى بدات بها الثورة الفرنسية لتجعل من هذا العالم شيئا افضل . ويمكنك فى كل من لينين وتروتسكى أن تقتفى أثر هذه الرغبة الشديدة ، ولن يفيد فى شىء أن ندلل على انهما لم ينجحا فى بعض الأحيان . ومن الواضح تماما أن ستالين نجح على هذا النحو .. وهناك مثالى نقى واحد من بين الزعماء

الروس ، واحـد يقـدم لنـــا صـورة اخرى لهـذا النمط ، ذلك هو لوناشارسكى Lunacharsky وزير التعليم لمرحلة طويلة ، الفنان ورجل الثقـافة فى الحركة . ان لوناشارسكى بالرغم من ماضيه كمهيج ثورى كان بلا جدال رجلا طيب القلب الى أقصى حدود الطيبة ، وكان يملك القدرة على الحديث المؤثر فى شئون الحيـاة والتعليم والفن وينتقـل الى الحديث عن روسو وبول وفرجينى . وان العـالم لمدين له لأنه ساعد بقدر كبير على عدم تدمير الأعمـال الفنية التى تمثل المـاضى الرأسمالى المنحل .

ان مستر اريك هوفر Eric Hoffer فى كتـابه الشيق عن الحركات الجماهيرية « The true believer » ينتهى الى أن الثورات يعـدها رجال يجيدون الكلام « — أو بتعبيرنا نحن ، المثقفين المستائين — ويحققها المتحمسون المتعصبون — روبسبير على سبيل المثال — وأخيرا يروضها ، ويعيـدها الى مستوى المجتمعات العـادية » رجال عمليون مثل كرومويل ، وبونابرت وستالين . أما « الرجال الذين يتقنون الكلام » فانه يراهم مثقفين لهم مواهب غير عادية ، يقومون بالدور المألوف للمثقفين فى المجتمع الغربى وهو الشكوى من هـذا العالم الفظ ، ولكنهم ليسوا فى حـد ذاتهم مؤهلين اطلاقا للعمل الشاق الذى تتطلبه الثورة الفعليـة ، أما « رجال العمـل » فانه يجدهم أيضا مثل كل الرجال العمليين فى جميع العصور يهمهم أن تقوم الحكومة بمهامها . وهو يجد العـامل الحقيقى فى القيـادة الثورية للجماهير فى « المتحمس » الذى غالبـا ما يكون كما يقول مستر هوفر المثقف الخلاق الخائب أو هو الرجل الذى لم ينجح فى التأثير على رفاقه بما فيـه من عمق وبعـد الرؤية كمفكر وفنـان . ان مارا العـالم الكم المهمـل وروبسبير الفاشل فى كتابة المقالات والقصائد فى آراس ولينين الفيلسوف الطامح المفكر الذى قـد يتفوق على ماركس أو على الأقـل يفوق بليخانوف وموسولينى الذى كان يرجو أن يكون ضمن المثقفين ، وهتلر الرجل الذى فشل كنقاش وكذلك معظم قادة النازيين . كل هؤلاء جميعا يملأون تصنيفه تمـاما . ان حماسهم انما يتغذى من احساسهم بالفشل الشخصى فى الفن الخلاق الذى سـعوا للتفوق فيـه . والآن فانهم فى دورهم الثـورى يريدون أن يحطموا مجتمعا لم يقدرهم . انهم حقا مثاليون ولكن تملؤهم المرارة وكأن بهم مس

شيطانى ومثاليون غير انسانيين ذواتهم هى المحاور التى يرتكزون عليها بعيدا عن أصول الفلسفة .

ويوضح مستر هوفر أن « رجال الكلام » الذين قاموا بالكثير لاعداد الثورة لا يستطيعون أن يواجهوا خضم الثورة نفسها . ويقول : « وليس هكذا المتحمس . ان الفوضى عنصره . فعندما يبدأ النظام القديم فى التصدع ينزل بكل جبروته وطيشه لينسف كل الحاضر المكروه ويذروه الى أعلى . انه يشعر بالمجد حين يرى عالما يسير الى نهايته المفاجئة ولتذهب الاصلاحات الى الجحيم ، ان كل ما هو قائم لا قيمة له وليس هناك أى حكمة فى اصلاح شىء عديم القيمة . انه يبرر الرغبة فى نشر الفوضى بالقول انه ليس من المستطاع ايجاد بداية جديدة ما دام القديم قابضا على الزمام . انه ينحى جانبا رجال الكلام المذعورين اذا ما كانوا لا يزالون موجودين ولو انه يستمر فى تمجيد مذاهبهم وترديد شعاراتهم . انه وحده الذى يعرف أعمق النزعات فى سريرة الجماهير المتحركة أى الرغبة فى الاجتماع والاحتشاد للعنف والرغبة من أجل القضاء على الفردية اللعينة لتندمج من جديد فى جلال الجماعة الجبارة وعظمتها . ان الخلف هو الذى يحكم والويل لهؤلاء الذين — فى داخل الحركة أو خارجها — يستمسكون أو يتعلقون بالحاضر .

واخيرا فان هناك الرجل الذى فى استطاعته أن يمتلك زمام الجموع ويأخذ بألبابهم ونعنى به الخطيب الثورى . ويمكن ادراجه فى قائمة المثاليين وذلك لأنه رغم أن عليه أن يدفع الجماهير لارتكاب ألوان العنف الا انه مع هذا يعمل على تهدئة النفوس ويعظ الناس بالطقوس ، ويعمل على لم شملهم . ولأداء هذا الدور لا تحتاج كلماته الى المعانى اطلاقا وانما تملأ النفوس بالأمانى السعيدة . وكثير مما كان يقوله روبسبير يمكن ادراجه تحت هذا العنوان وكذلك باتريك هنرى Patrick Henry وفرنيود Vergniaud وتسيرتللى Tseretelli ان هذا النمط يوجد طبعا فى كل المجتمعات السوية ويلقى عادة الاحترام اللازم . ويبدو أن زينوفيف Zinoviev ادى فى الثورة الروسية هذا الدور الى حد ما .

ولقـــد أدرك لينين مدى ما كان لزينوفيف من نفع كخطيب بل حتى كنوع من الزعماء فى بتروجراد ولكن يبدو أنه كان يحمل له قدرا لا بأس به من الاحتقار لعقليتـــه وذكائه .

خامسا ـ تلخيص :

تلخيصا لمـــا سبق يتعين أن يكون واضحا الآن أن الأمر يكاد يستلزم أنواعا عـــديدة من الرجال والنســـاء لصنع ثورة مثلما يستلزم صنع هـــذا العالم . ويحتمل أن تكون ثوراتنــــا فى أوقات شدتها قـــد دفعت الى مراكز الصدارة أو حتى الى مراكز المسئوليـــة برجال من الصنف الذى لا يمكنـــه فى مجتمعات طبيعيـــة أو ســـوية أن يحتلوا مثل هـــذه المراكز . وجـــدير بالذكر أن الثورات العظيمة ـــ كما يبـــدو ـــ تضع المثـــاليين المتطرفين ابان فترات الشدة فى مراكز السلطة التى لا يصلون اليهـــا فى الأوقات العادية . كما يبـــدو كذلك أنهـــا تعنى بالمواهب الخاصة وذلك مثلما فعل مارا بالنسبة للصحف الصفراء والبـــذاءة الحادة . انهـــا بكل تأكيـــد تخلق عـــددا من الأماكن الشاغرة لكى تملأها وتتيح الفرص أمام شبان بارعين قـــد يكونون أيضا ممن لا خلاق لهم . وهى تولى ـــ لفترة ما على الأقل ـــ قدامى الثائرين والمستائين اهتماما كبيرا وكذلك الذين يوزعون مثل العقـــاقير الاجتماعيـــة والسياسية سرا .

ولكن الثورات لا تعيـــد خلق البشرية ولا هى تستفيد حتى من مجموعة جـــديدة من الرجال والنساء ظلت حتى وقوعهـــا معطلة . وفى كل ثوراتنـــا الأربعة ـــ حتى الثورة الروسية تتكون من أنصار عاديين جـــدا رجالا كانوا أم نســـاء ـــ ممن كانوا بطبيعـــة الحـــال أكثر امتيـــازا بعض الشىء عن قرنائهم الأقل نشاطا سواء فى طاقتهم أو قدرتهم على التجربة . وفى كل من الثورات الانجليزية والأمريكية والفرنسية حتى فى فترات الشدة نجـــد أنهم رجال ذوو أملاك كبيرة . وهـــذه الثورات لم تكن بصفـــة عامة مبتلاة بأى شىء مما يتطلب استدعاء الأطبـــاء النفسيين . فهؤلاء الأنصـــار لم يكونوا قطعـــا من الغوغاء أو الأوغاد أو من حثالة النـــاس . بل لم يكونوا كالديدان

التى تتلوى . كـذلك لم يكن زعماؤهم بأى حال فئـة من الوضعـاء ارتقت نجأة لتحتل مراكز للسلطة لا يستطيعون أن يشغلوها بجـدارة . ولا جدال فى أنه ابان غليـان الثورات يرتقى عـدد كبير جـدا من الأوغاد الى القمة ولو انهم يستطيعون أن يرتفعوا الى هـذه القمـة دون حاجة الى ثورة ، الأمر الذى تثبتـه بوضوح نظرة سريعة نلقيهـا الى بعض المراحل الخاصة من حكومتى جرانت وهاردنج . ولكن مسـتوى القـدرة ، بمفهومها الفنى فى أبعـد حـدوده والقدرة على معـاملة الرجال أو ادارة نظام اجتمـاعى معقـد ، مستوى القـدرة الذى يقترن بأسماء مثل هامبدن وبيم وكرومويل وواشنطن وجون آرامز وهاملتـون وجفرسـون وميرابو وتاليران وكارنو وكامبون ودانتون ولينين وتروتسكى وستالين هو مستوى رفيع جـدا بكل تأكيـد .

ان هـذا لا يرتفع الى الحـد الذى يؤكد القول بأن ليس هناك فوارق حقيقيـة بين الثورات وبين الأزمنـة العـادية . بل على العكس من ذلك وبخاصة فى فترات اشتداد الثورات نجـد أن الثورات لا يمكن أن تقارن بأى شىء آخر على وجه الأرض . ولكنـك لا تستطيع أن تفسر كليـة الفوارق بين المجتمعات ابان ثورتهـا والمجتمعات ابان توازنها بأن تفترض بأن طاقما جـديدا للقيادة قـد خلق لمده خلال ثورة ما ، أو أن تقول اذا ما كنت تنفر من ثورة معينـة ومن كل أعمالهـا ان الأوغاد والسـفلة قـد أشـعلوها لتدمير جماعة الطيبين أو اذا كنت تؤيد وتقر ثورة ما بأن الأبطال والعقـلاء قـد تصدوا للقضاء على الطغمة الفاسدة القـديمة . ان الأمر ليس بمثل هـذه البساطة . ولمـا كانت الدلائل تشير الى أن الثـوار ليسوا بحـال أو آخر الا قطاعا من الانسانية عامة فان شرح الحقيقـة التى لا شك فيهـا وهى أنه فى أثناء بعض مراحل الثورة يتخذ الأفراد سلوكا لم نكن نتوقعه من أمثالهم أمر يجب أن يبحث عنـه فى التغيرات التى تحدثها فيهم والظروف التى يعيشـون فى ظلهـا وكذلك بيئتهم الثورية .

الفصل الخامس

حكم المعتدلين

اولا : مشكلة المعتدلين :

فى صيف ١٧٩٢ ترك لافاييت ولفيف من ضباطه الجيش الفرنسى وعبروا الى الخطوط النمساوية . وسرعان ما أودعه النمساويون السجن اذ كانوا يعتبرونه شعلة ثورية خطرة . ولقد كان لافاييت على أى حال أوفر حظا الى حد كبير من كثير من رفاقه أبطال ١٧٨٩ الذين اختاروا البقاء فى فرنسا والذين شنقوا بالمقصلة باعتبارهم رجعيين ومناهضين للثورة . ان فيدور ليند Fedro Linde الاشتراكى المعتدل الذى حرض فى ابريل ١٩١٧ الفرقة الفنلندية على القيام بمظاهرة ثورية ضد مليوكوف احد انصار الحلفاء والذى يعتبر اكثر اعتدالا قد ارسل فيما بعد الى الجبهة على أنه مستشار الحكومة التى يراسها كيرنسكى . وهناك حاكمه الجنود الثائرون الذين رفضوا اطاعة أوامره محاكمة عرفية . وفى ١٦٤٧ نجد أن دنزيل هولز Denzil Holles الذى أخذنا فكرة مختصرة عنه فى ١٦٢٩ عندما اشترك فى انزال رئيس الجلسة بشدة من مقعده ، قد استبعد مع عشرة آخرين من الأعضاء البرسبيتيريين من البرلمان وذلك لأنهم كرسوا جهودهم للقضاء على الحقوق والحريات الخاصة بالرعايا . وعاد الى البرلمان لفترة قصيرة فى ١٦٤٨ ولكن سرعان ما اضطر للهرب الى فرنسا لانقاذ حياته . وفى ذلك يقول فرنيود الفرنسى المعتدل قوله المشهور « أن الثورة مثل زحل تلتهم من نشأ فى ظلها » .

ان شهر العسل فى هذه الثورات كان قصيرا ، فلم يكد يمضى وقت قصير على سقوط النظام القديم حتى بدأت علامات واضحة على أن المنتصرين لم يكونوا متفقين على ما يجب عمله لاعادة بناء البلاد الى الحد الذى

كان يبـــدو فى خطب الانتصار واحتفالاته الأولى . اذ كان الذين تســلموا ادارة شئون الحكومة فى كل من مجتمعاتنا الأربعة رجــالا من النــوع الذى نطلق عليــه عادة لفظ المعتدلين وكانوا يمثلون الفئــة الأغنى والأكثر شهرة والأعلى مكانة فى المعارضة القــديمة للحكومة . وكان من الطبيعى توقع تسلمهم زمام الأمور من تلك الحكومة . وفى الواقع كما راينــا يكاد ان يكون اضطلاعهم بالمسئولية تلقائيــا . ولقــد كان الاحساس بضرورة تولى المعتدلين زمام الأمور قويا حتى انه انتشر فى روسيا فى فبراير من عام ١٩١٧ . ويبــدو لنــا الآن كما لو أن ائتلافيا اشتراكيا من نوع ما — الاشتراكيون الثوريون ، وجماعات المنشفيك مع امكان انضمام البلشفيك انفسهم — قد استولى تماما على السلطة فى ذلك الشهر . وكان واضحا أن للكادتس Kadets والفئات الأخرى البرجوازية جذورا قليلة قوية فى البلاد.ومع ذلك فان لوفوف والقادة المخلصين من المعتدلين لم يجدوا صعوبة كبيرة فى فرض سيطرة اسمية على الأقل فى الأسابيع الأولى عندما تسنى للمعتدلين أن يصبحوا فى مراكز السلطة استبان أن ما لديهم من الانسجــام والنظام الحزبى أقل مما كان يبــدو عنــدما كانوا فى المعارضة . ولقــد واجهتهم المهمة الصعبة وهى اصلاح الأنظمة القائمة أو وضع دستور جديد مع العناية فى نفس الوقت بأعمال الحكومة العادية . وسرعان ما واجههم أيضا اعــداء مسلحون ووجدوا أنفسهم مشغولين فى حرب خارجية أو حرب أهلية أو كلتيهما معا . ووجدوا ضدهم جمــاعة متزايدة قوية وعنيدة من الثوريين ومن المتطرفين الذين أصروا على أن المعتدلين يحاولون وقف زحف الثورة وانهم خانوها وأنهم من السوء كحكام العهد البائد تماما — بل انهم فى الواقع أشــد سوءا حيث أنهم خونة بالقدر الذى هم فيه أغنياء وأوغاد . وبعــد فترة قصيرة فى روسيا وأطول فى كل من فرنسا وانجلترا ظهر على مسرح الحوادث صراع القوة بين المعتدلين والمتطرفين ، صراع القوة بصور متعددة يشبه تماما ذلك الصراع الذى قام من قبل بين الحكومة القــديمة والثوريين وانهزم فيه المعتدلون وهربوا الى المنفى ووضع آخرون فى السجون ليواجهوا فى النهاية المشانق والمقاصل أو الموت ضربا بالرصاص . فــاذا ما كانوا سعداء الحظ أو مغمورين بقــدر كاف اختفوا عن الأنظار واسدل

عليهم ستار النسيان . وقبض المتطرفون بدورهم على زمام السلطة. ان هذه العملية لم تحدث على هـذا النحو تماما فى الثورة الأمريكية حيث يمكن القول بوجه عام ان المتطرفين من أمثال الاستقلاليين واليعاقبة لم يصلوا الى الحكم وهم منقسمون على انفسهم ومع ذلك — كما سنرى — قام فى أمريكا صراع بين المعتدلين والمتطرفين فى وقت مبكر نسبيا من العمليـة الثورية ، وانتهى بانتصار المتطرفين . وكانت ثمرة ذلك الانتصار اعلان الاستقلال .

ولذلك يمكن القول بأنه يوجد فى كل ثوراتنا اتجاه السلطة الى التحول من اليمين الى الوسط الى اليسـار : من المحافظين فى النظام القـديم الى المعتدلين الى الثوريين أو المتطرفين . وبينما تسير السلطة فى هـذا الاتجاه فانها تركز شيئا فشيئا وتضيق قاعدتها شيئا فشيئا فى البلاد وفى الناس اذ بعـد كل أزمة هامة تضطر الجماعة المهزومة الى أن تتوارى من الميـدان السياسى . أو بعبارة أخرى بعد كل أزمة يميل المنتصرون الى الانقسام الى جناح أكثر محافظة يمسك بزمام السلطة وجناح أكثر تطرفا فى المعارضة . وعند مرحلة معينة تشهد كل أزمة انتصار المعارضة المتطرفة . وطبيعى أن تتباين تفاصيل هذه العملية من ثورة الى ثورة . فمراحلها لا تتماثل فى طولها أو فى تتابعها الزمنى وفى أمريكا لم تذهب السلطة اطلاقا الى اليسار بالقـدر الذى ذهبت اليه فى الدول الأخرى .

ومع ذلك فان هذا الصراع بين المعتدلين والمتطرفين يعتبر مرحلة فى ثوراتنا محددة تماما مثل تلك المراحل التى فرغنا من دراستها فى الفصـول السابقة ، وقيامه يمدنا بتماثل نافع وأن يكن بسيطا بعض الشىء ، وقبل أن نحاول تمحيص هـذه الملاحظة وقبل أن نحاول أن نتبين الوان التماثل فى سلوك المعتدلين والمتطرفين علينا أن نستعرض فى اختصار سير الحوادث ابان حـكم المعتدلين .

ثانيا : الأحداث خلال حكم المعتدلين :

مع اندلاع الحرب الأهلية فى صيف عام ١٦٤٢ وقف الملكيون والبرلمانيون وجها لوجه مدججين بالسلاح . وبنشوب معركة مارستون مور Marston Moor

فى عام ١٦٤٤ ، وقطعا بنشوب معركة ناسباى Naseby فى عام ١٦٤٥ ، صارت قضية انصار الملكية بالمفهوم الحربى ميئوسا منها . ولكن منذ الصدام الأول الواضح مع شارل كان البرلمانيون قد كسبوا ثورتهم تقريبا . ولم يفعل الملكيون شيئا سوى أنهم قاموا بالدور الذى قام به فى أمريكا الموالون للحكومة ، وفى فرنسا الملكيون ورجال الدين فى المقاطعات والمهاجرون فى الخارج ، وفى روديسيا الجيوش البيضاء العديدة التى جابهت البلشفيك حتى عام ١٩٢١ . ولسنا هنا نهتم كثيرا بالملكيين مثلما نهتم بالبرلمانيين . ففى نطاق هذه الفئة الأخيرة يوجد منذ ١٦٤٢ انقسام واضح ومتزايد بين الجماعات التى يمكن أن نطلق عليها بوجه عام المعتدلين والمتطرفين . وهذا الانقسام ليس أولا انقساما بسيطا بين حزبين . ففى أقصى اليمين للبرلمانيين وجدت فئة قليلة من المعتدلين من طائفة الأسقفيين الذين مستهم حينذاك أفكار البيورتيان المتطهرين الملكيين الدستوريين . وكثير من افراد هذه الجماعة كانوا بوجه عام لا يكترثون بالمسائل الدينية ويشعرون بأن أمور الكنيسة قد تحل فى هدوء اذا ما أمكن حل المشاكل السياسية حلا سليما . ولم يكن بين هؤلاء الرجال وبين الملكيين المعتدلين الذين فضلوا كارهين بعض الشىء الوقوف فى جانب مليكهم الا اختلاف ضئيل جدا . ثم جاء حزب المعتدلين الكبير أتباع الكنيسة البرسبتيرية والبيوريتان المتطهرين من الناحية الخلقية والملكيين بقلوبهم ولكن ملكيين من ذلك النوع الذى سيتأصل على أيديه فيما بعد تقليد الأحرار القائل بأن الملك يملك ولكنه لا يحكم . ان الجناح اليسارى من الكنسيين البريسبيتريين الذين ضللتهم فكرة الملكية فى البداية قد دفعهم كرههم لشارل الى الانضمام بسهولة الى الفئة الرئيسية من المتطرفين ، وهؤلاء يطلق عليهم فى الثورة الانجليزية اسم الاستقلاليين وهم من الكلفنين المتطرفين الذى أصروا على استقلال كل أسقفية منفصلة . وكانت أفكارهم عن حكومة الكنيسة فى جوهرها هى المعروفة جيدا فى هذه البلاد باسم الطائفية الكنسية وكان يشاركهم فى معظم الأغراض السياسية جماعات أخرى صارت فيما بعد تؤلف المنشقين الانجليز أو المخالفين الانجليز — وبصفة خاصة المعمديين . وكان الجيش النموذجى الحديث الذى جعل المتطرفين قوة فعالة فى الثورة يضم أفرادا

يعتنقون كل المذاهب الدينيـة الانجليزيـة تقريبـا ، وكثيرا من العقـائد الاقتصادية والاجتماعية المتنوعة . ولكن الجماعة كانت تعمل فعـلا كجماعة وكان جوهرها بالتأكيـد طابع الاستقلاليين . وفى اليسـار كانت هنـاك جماعات أخرى مثل الاشتراكيين والفلاحين ورجال الملكيـة الخامسة الذين سوف نعنى بهم فى فصل مقبل .

والآن فان الحقيقـة الواقعـة وهى أن الأسـقفيين والبريسبيتريين والاستقلاليين كانوا فى الثورة الانجليزية من المحافظين والمعتدلين والمتطرفين على التوالى ممـا يربك القـارىء العصرى . ذلك لأن المثالى الذى ينتمى الى طراز قـديم كان يرى أن من السخف أن يسوى فى القرن السـابع بين هؤلاء الانجليز والذين يكافحون من أجل أمور دينيـة ومن اجل مثل عليـا وبين الفرنسيين الذين كانوا يكافحون من أجل الحرية والمسـاواة والاخاء فى هـذه الحيـاة الدنيـا ولا يقبل أن يقارنهم بالروس الذين كانوا يكافحون من أجل مصالح اقتصادية فجـة . ومن ناحيـة أخرى فان المؤمن العصرى بالتفسير الاقتصادى للتـاريخ يميل الى النظر الى هـذه الاختلافات الدينية على أنهـا مجرد « مذاهب فكرية » أو ستارا لمعركة كانت فى حقيقـة الأمر معركة اقتصادية بسيطة . وعنـده ان البريسبيتريين فئة صغيرة من الأعيان أو من رجال الأعمـال البورجوازيين وان الاسـتقلاليين تجـار وحرفيون بورجوازيون ومزارعون تشاحنوا بعـد أن تخلصوا من الطبقـات العليـا الاقطاعيـة . المثالى والمـادى هنـا كلاهمـا على خطأ بين . فان الأمور السياسية والاقتصادية والكنيسة واللاهوت كانت مختلطة اختلاطا معقـدا فى أذهان الانجليز وقلوبهم فى القرن السابع . وكانت معاركهم تدور بين بعضهم البعض وليست بين الأفكار المجردة التى يتمسك بهـا الفيلسـوف أو الاقتصـادى أو عالم الاجتمـاع . وعلينـا هنـا أن نلاحظ الطرق التى سلكتها هـذه المعارك ، ومن المفيـد من وجهـات نظر كثيرة أن ننظر الى هـذه المعارك على أنها تبين تتابع السيطرة للمحافظين أولا ثم للمعتدلين ثم للمتطرفين . ومن الطبيعى ان هؤلاء المحـافظين والمعتـدلين والمتطرفين لم يشبهوا جماعات مماثلة فى الثورات التالية وهم اذا ما قورنوا برجال ١٧٨٩

أو ١٩١٧ فانهم قرأوا كتبا مختلفة وتشاحنوا حول أفكار مختلفة كما كانوا يلبسون ملابس مختلفة . الا أن خط سير ثورتهم يشبه تماما ثوراتنا الأخرى وذلك فيما يختص بالعلاقة بين التنظيم السياسى والطباع البشرية . فان البرسبتيريين « المعتدلين » قد نحوا جانبا من رجال أشد عزما وتطرفا تماما مثلما نحى الجيرون فى فرنسا Cirondes ومثلما حدث للكاديت Kadets والفئات المعتدلة من جماعات الاشتراكيين فى روسيا .

ولقد استطاع مجمع البرسبتيريين الذى بدأ اجتماعاته فى صيف عام ١٦٤٣ بزعامة جمعية وستمنستر أن يخضع ذلك الجزء من انجلترا الذى كان تحت اشراف البرلمان الى الميثاق الاسكتلندى المشهور ، مزقت الصلبان والصور والتماثيل التى تمثل صلب المسيح ، كما أزيل الزجاج الملون من الكنائس وأطيلت مدة العظات الدينية وبسطت الطقوس الدينية . واصبح البرلمان هو السلطة القانونية العليا فى البلاد . ولكن كان هناك ما يدل على أن حكم البرسبتيريين لم يكن ليستمر دون تحد . ولم تكن معركة مارستون مور Marston Moore انتصارا للبريسبيتريين . لقد كان المنتصر فيها كرومويل و « اتباعه من الجنود » ويطلق عليهم الحرس الحديدى 'Ironsides' وهؤلاء الرجال لم يكونوا بريسبيتريين صالحين لقد كانوا استقلاليين وكان بعضهم ممن يعارضون فكرة التعميد ويناقضون الشرائع والقوانين وغيرهم ممن لا يعرف مذاهبهم الا الله . ويقال أن أحدهم اشتكى لكرومويل من أن أحد ضباطه كان يعارض فكرة التعميد فتلقى الرد التالى :

« هب انه كذلك هل سيجعله ذلك عاجزا عن خدمة الشعب ؟ حذار أن تكون على مثل هذه الحدة ضد أولئك الذين يمكنك أن تعارضهم قليلا ولكنهم لا يتفقون معك فى كل رأى يتعلق بأمور الدين » .

وعندما كان الجيش النموذجى الحديث مؤلفا من خلاصة جنود كرومويل وكان قد كسب معركة نسباى فان الجيش والبرلمان ، والاستقلاليين والبروسبيتريين المتطرفين والمعتدلين ، قد وجدوا أنفسهم جميعا متعارضين

فى قضايا متنوعة وبخاصة فيما يتعلق بالتسامح الدينى وما يجب عمله بالنسبة لشارل الأول . اذ كان البرسبيتريون يريدون دولة كنسية مستقرة مبنية على آرائهم الخاصة المتعلقة بالحكومة الكنسية وفلسفة اللاهوت مع حد ادنى من التسامح مع أنصار الأساقفة .

وانصار البابوية والشيع الدينية الأخرى . كما انهم كانوا بكل تأكيد يريدون ملكا حتى ولو كان هذا الملك هو شارل ستيوارت . اما الاستقلاليون فكانوا يريدون ما يطلقون عليه التسامح الدينى ، ولم يكونوا قطعا يعنون به التسامح الدينى الذى يعنيه الرجل الانجليزى أو الأمريكى فى القرن التاسع عشر ، وعندما تملكوا زمام السلطة لم يظهروا أبدا شيئا من التسامح حتى بالمعنى الذى كانوا يعظون به . ولكنهم على الأقل حين كانوا فى المعارضة وافتوا على أن العقيدة الدينية مسألة شخصية وأن الدولة يجب عليها الا تسعى الى فرض شعائر أو تنظيمات دينية واحدة على مواطنيها . اما فيما يتعلق بالملك فان معظمهم كان متأكدا فى سنة ١٦٤٥ من أن شارل ستيوارت لم يعد له قيمة أو نفع . ومن المحتمل أن كرومويل لم يكن أبدا جمهورى المذهب ولكن عددا كبيرا من رجاله كان كذلك على وجه التأكيد .

وليس هناك حادث واحد يحدد بالضبط تحول السلطة من أيدى المعتدلين الى المتطرفين فى انجلترا . أن الأمور ذهبت الى مدى بعيد الى حد ما عندما قبض احد أفراد الجيش وهو كورنت جويس Cornet Joyce فى يونيه من عام ١٦٦٤ على الملك فى هولبى هاوس Holmby House عندما كان على وشك الخضوع للبرلمان ، والموافقة على أن يحكم لمدة ثلاثة أعوام كملك بريسبيتيرى . واكتمل الوضع تقريبا عندما وافق البرلمان على مضض بعد ذلك بشهرين بأمر الجيش على ابعاد أحد عشر عضوا من أعضائه وكانوا من الزعماء البارزين فى طائفة البرسبتريين . وانتهز شارل فرصة هذا النزاع لمحاولة الحصول على مزيد من المكاسب . ولم تنته دسائسه المعقدة الى شىء افضل من حرب قصيرة المدى بين جماعة البرسبيتريين والكروموليين التى استطاع فيها المعتدلون لفترة ما أن يتطلعوا

الى الانتصـــار .. وهزم كروموبل الاسكتلنديين فى موقعة برســتون بانز Preston Pans فى أغسطس من عـــام ١٦٤٨ ، وكـــان الجيش يســيطر على بريطانيا العظمى دون منازع وبعد ذلك لم يكن للوضع الرسمى للمعتدلين فى عملية التطهير التى قام بها برايد Pride فى ديسمبر أية اهميـــة . ولقـــد وقف الضابط برايد وعـــدد قليل من الجنود على باب مجلس العموم ليرجعوا الأعضاء غير المناسبين عند قدومهم وعلى هذا النحو أبعـــدوا ستة وتسعين من البرسبيتريين وتركوا خمسين أو ستين من الأعضاء المواظبين على التصويت الذين كان المتطرفون يستطعون الاعتمـــاد عليهم . وأصبح البرلمـــان الطويل هو بقايا البرلمـــان القديم .

وفى أمريكا لم يأخـــذ النزاع قط مثل هذه الخطوط الواضحة . ويمكننا أن نقول ان المحافظين كانوا الموالين للحكومة الذين لم يشكوا قط من الحكومة الامبريالية وأن المعتدلين كانوا التجار وملاك الأراضى الأقوياء الذين بدأوا الى حد ما الحركة كلها بهياجهم ضد « قانون التمغة » وأن المتطرفين كانوا بلا جدال تلك الجماعة التى انتزعت فى النهاية « اعلان الاستقلال » . وهكذا كان هناك نوع من الصراع بين هـــذه الجمـــاعات فى السنوات العشر التى سبقت نشوب الحرب مع الجيش البريطانى . وفى هـــذا الصراع أظهـــر المتطرفون قدرة فنية غير عادية فى السياسة العملية للثورة . ويقول جون آدامز فيما بعد عن المنظمات التى بدأت بلجان المراسلة المحلية ولجان الأمن والتى تطورت الى مؤتمرات القارة الأمريكية . ياله من جهاز ، لقـــد قلدته فرنسا ومن ثم انتجت ثورة .... وكانت أوربا كلها تميل الى تقليده من أجل الغرض الثورى نفسه . لقد كسب المتطرفون فى الواقع انتصارهم الحاسم بتنظيم أنفسهم مثلما نظموا أول مؤتمر للقـــارة فى عام ١٧٧٤ .

ويلخص الأســـتاذ أ. م. شلزنجر ، الأب ، فى اعجاب عمل هـــذا المؤتمر قائلا :

لقـــد حقق الراديكاليون عـــدة أهـــداف هامة . كانوا قد انشـــأوا على المستوى الوطنى نوعا من التنظيم وأنواعـــا من الخطط التى مكنت فى كثير من أجزاء أمريكا البريطانية اقلية حازمة من السيطرة على الأمور ...

لقد خطفوا من طبقة التجار الأسلحة التى كانت قد صنعتها للدفاع عن مصالحها الذاتية الخاصة فى السنوات السابقة — واستخدموها ضدها — وذلك فى محاولة لضمان الأهداف التى لا يريدها الا الراديكاليون المتطرفون . واخيرا فانهم كانوا قد حددوا المسألةالمثارة أو أعطوها الطابع الوطنىبطريقة من شأنها ان تجلب الهيبة للجماعات الراديكالية حيثما وجدت وتضعف قبضة العناصر المعتدلة على أساس أن هذه العناصر الأخيرة كانت فى خلافه مع مؤتمر القارة » .

وفى فرنسا كان الاستيلاء على الباستيل فى ١٤ من يوليه ١٧٨٩ خاتم الهزيمة لغلاة المحافظين وهم الملكيون الحقيقيون . ولم يتسن للثوار المنتصرين أن يظلوا فى وفاق ، وبدات عملية تحول السلطة الى جانب اليسار فى خلال شهور معدودة . ففى اكتوبر من العام نفسه كان الملك والملكة قد أعيدا وسط مظاهر الصخب الى باريس من قصر الفرساى فيما يعرف بأيام اكتوبر. ولقد أدت هذه الأحداث الى نفى زعماء المعتدلين من المحافظين مثل مونييه Mounier الذى خان يكن اعجابا شديدا للدستور الانجليزى ويتمنى أن يكون لفرنسا هيئة تشريعية من مجلسين : مجلس اللوردات ومجلس للعموم وملك حقيقى . وعلى مدى السنوات القليلة التالية واجهت جماعة المعتدلين التى التفت حول رجال من أمثال ميرابو ولا فييت واللامثيين The Lameths جماعة من المتطرفين التفت حول رجال مثل بتيون Pétion وروبسبير ودانتون وبريسوه Brissot الذين سرعان ما صاروا زعماء الجماعات الجمهورية المنافسة من الجيروند والجبليين ولكنهم كانوا حينذاك متحدين ضد المعتدلين . ونجح المعتدلون فى عمل الدستور وتدشين النظام الجديد . ولكن الحرب نشبت بين فرنسا ودول وسط أوربا المؤلفة من النمسا وبروسيا . وفشلت مواد معينة من الدستور وخاصة ما كان يتصل بالناحية الدينية والملكية فى أن تؤدى عملها . واتهم لويس نفسه بالخيانة من جانب كثير من رعاياه وفى خلال الاضطراب السياسى العام عصف المتطرفون النشيطون والحسنو التنظيم بالملكية فى الهجوم المشهور على قصر التويلرى فى باريس فى اغسطس من عام ١٧٩٢ .

وهكذا ابعد عن السلطة الملكيون المعروفون ودعاة الاصلاح والأحرار المعتدلون من امثال لافاييت واصبحت فرنسا جمهورية . ولكن الهزيمة الأخيرة والتامة للمعتدلين فى فرنسا كانت فى ٢ من يونيه عام ١٧٩٣ . وفى أمور مثل هذه كما هو الحال فى اى تقسيم للاحداث الى فترات قد يكون هناك اختلافات حقيقية فى التأويل . ان المحافظين والمعتدلين والراديكاليين والمتطرفين ليسوا قطعا فى أى من مجتمعاتنا جماعات ذات اصول واضحة محددة ولم يكن انتقال السلطة من جماعة الى اخرى فى اغلب الأحيان حادثا تمت الموافقة عليه من الجميع . وقد تشعر أنه لم يكن فى وسع أحد المعتدلين أن يقترع على انهاء الملكية الفرنسية . ومع ذلك فقد يبدو أن الجناح اليمينى من الجمهوريين ممن يعرفون فى التاريخ باسم الجيروند والذين يعرفهم معاصروهم باسم البريسوتينيين كانوا معتدلين حقا فرضت عليهم الظروف الأحداث التى كانت بالنسبة اليهم ثورية.وهم بصفة خاصة لم يكونوا راغبين فى موت الملك ، اذ كانت غالبيتهم من البورجوازيين الموسرين والمحامين والمثقفين . وبعد محاكمة الملك فى يناير من عام ١٧٩٣ أصبحوا واثقين تماما من أن الثورة تجاوزت المدى وأنه يتحتم وقفها عند ذلك الحد . ومهما كان ماضيهم فقد أصبحوا حينذاك من المعتدلين . ومع بداية الشهور الأولى من عام ١٧٩٣ كانوا قد فقدوا السيطرة على نادى اليعاقبة فى باريس وعلى معظم النوادى الثورية الأخرى وكل شبكة التنظيمات التى ساعدت الراديكاليين على تحقيق أهدافهم فى الأيام الأولى من الثورة . ولم يكن فى استطاعتهم أن يضمنوا معاونة كتلة النواب المترددين أو المحايدين الى حد ما من أعضاء المؤتمر الذين كانوا يسمون بالبسطاء . وكان أعداؤهم أكثر تنظيما واكثر بغيا وربما أكثر استهتارا ولكنهم كانوا بالتأكيد اكثر نجاحا .

وكما حدث تماما مع البرسبتاريين فى انجلترا ظهرت المطالبة بوجوب تنحية هؤلاء الذين صاروا معتدلين من المؤتمر والقبض عليهم . واظهارا للقوة فى مؤتمر ٢ يونيه ١٧٩٣ عمل المتطرفون على محاصرة مكان اجتماع هؤلاء الناس بعدد من رجال الميلشيا الباريسية الذين يشاركونهم الرأى والذين تجمع وراءهم جمع كبير متحفز للعداء . وحاول المؤتمر أن يدافع عن كرامة النواب وأن يرفض السماح بالقبض على اثنين وعشرين عضوا على

نحو ما طالب الجبليون وسار النواب فى خطوات رزينة وفى مقدمتهم رئيسهم الى الخارج لكى يؤكدوا وجوب احترام وضعهم كهيئة تمثل ارادة الشعب . واخـذ النواب يطوفون حول الحدائق فوجدوا الحراب المشرعة عنـد كل باب من الأبواب ، و « شعبا » له ارادته الوقتية . وعادوا أدراجهم داخل الأبواب واقترعوا بالموافقـة على القبض على الاثنين والعشرين عضـوا الجيرونديين . وبذلك أصبح الجبليون الراديكاليون أصحاب السلطة بلا منازع .

اما الحوادث فقد سارت بخطى أسرع بعض الشىء فى روسـيا ولكن تتابعها يكاد يشبه ما حدث فى انجلترا وفرنسا . اذ كانت الحكومة المؤقتـة الأولى التى يراسها الأمير لوفوف اسميا ، وميليكوف فعليا تتالف فى أغلبيتها من الكاديت وهم الجناح الأيسر من جماعات الطبقة الوسطى فى البرلـمان القـديم ، ولـكنهم لا يزيدون عن « التقـدميين » أو « الأحـرار » أو « الديمقراطيين » — فى التعاريف السياسية العربية — وكان هناك عدد من ممثلى الجماعات المحافظة . وعضو اشتراكى واحد هو كيرنسكى . وبعـد اقل من شهرين سقطت هذه الوزارة من جراء استمرار الحرب «الاستعمارية» فى جانب الحلفاء . وارغم ميليكوف على الخروج لموافقته التامة على سياسة الحلفاء الاستعمارية ووافق عـدد من المنشفيك والثوريين الاشتراكيين على قبول مناصب فى الحكومة الجديدة . وفى يوليه تولى كيرنسكى القيادة الرسمية بعد حدوث ازمة ، وفى سبتمبر انسحب الكاديت نهائيا بطريقة جماعية تاركين كيرنسكى على رأس حكومة اشتراكية معتدلة مهزوزة أشد الاهتزاز .

أما الاشتراكيون الذين وافقوا على التعاون مع الحكومات البرجوازية فى متابعـة الحرب فقد سماهم البلاشـفة « مساومين » . وكان هؤلاء الاشتراكيون ينتمون تقريبـا الى كل الفئات التى انقسمت اليها العقيـدة السياسية فى روسيا ابان القرن العشرين حيث تعقدت الاختلافات العقيدية العادية فى المـاركسية عن طريق هؤلاء الذين أخذوا يبحثون فى تاريخ روسيا القديم عن شيوعية عميقة الجذور فى القرية السلافية . وفيما يتعلق بالوضع الروسى خاصة فان هؤلاء الثوريين الاشتراكيين والترودفيكيين Trudoviks والنارودنيكيين Narodniks والمنشفيك لا بد أن يقـال عنهم المعتدلون .

فهم لم يعملوا من أجل دكتاتورية البروليتاريا وانما أرادوا ان يكسبوا الحرب وكانوا مستعدين لاستخدام الطرق البرلمـانية لضمان تنفيـذ الاصلاحات الاجتماعية . وكانوا منـذ أمد طويل لا يثقون فى الكاديتيين ولكن تحت ضغط الحوادث وافقوا على التعاون معهم . والكاديت انفسهم عانوا من المصير الذى واجهـه المتطهرون الأسـقفيون والفيبيانتيين وذلك عندما دفعهـم أعوانهم لليسـار .

ولقد رفض البلاشفة أن يسهموا فى أى من هذه الحكومات . وأصروا على ان ثورة فبراير البورجوازية لا بد أن يتبعهـا عاجلا أو آجـلا الثورة البروليتارية التى بشر ماركس وتنبأ بوقوعها . أما لينين الذى عاد من منفاه فى سويسرا لينعم بالحرية البورجوازية لمدى اشهر قليلة فانه قرر ان فى الامكان تحقيق الثورة البروليتارية فى روسيا . ومع أن حزبه لم يكن موافقا باجماع الآراء الا أن زعامته كانت كفيلة بحفظ تماسك هذا الحزب الصغـير وساعده على ذلك تخبط المنحرفين من المساومين بالاضافة الى تراث الهزيمة وسوء التنظيم . وفى يوليه قام العمال بثورة غير منظمة فى بتروجراد بقيادة محليـة مترددة من بعض رجـال الحزب وادى فشلها الى اختفاء لينين وسـجن تروتسـكى Trotsky ولوناتشـارسكى Lunacharsky أما ذبذبة البنـدول التالية الى ناحيـة اليمين فانتهت بمحاولة الجنـرال كورنيلوف Gen. Kornilov العقيمـة للزحف على بتروجـراد . وفى هذه العملية كلها ازدادت شجاعة البلاشـفة بالتدريج واكتسبوا اتبـاعا جـددا . وكان لينين فى مخبئه يمسك زمام القيادة واطلق سراح تروتسكى وانتخب رئيسا لاحدى سوفييتات بتروجراد التى أصبحت حينذاك خاضعـة لأشراف البلاشفيك . ولمـا عاد لينين سرا الى بتروجـراد رأس الجلسـة الأخيرة للجنة المركزية للحزب وتقرر القيام بثورة جـديدة . وفى استعراض فـذ للخطط الثورية حرصت لجنة ثورية حربية على التأكد من ولاء حرس بتروجراد ، كما دبرت جماعات أخرى عرقلة الصحافة ووسائل المواصلات . وفى اليوم المتفق عليه استولى البلاشفة على بتروجراد بقليل من الصعوبة ودون اراقة دماء تقريبا بشكل يثير الدهشة . وحتى محاصرة قصر الشتاء التى تمثل قمة المـد الثورى كانت خالية من كل عنف . ان ثورة أكتوبر فى

بتروجراد تمت دون اراقة دماء مثلها فى هـذا مثل عملية التطهير التى تـام بها برايد او أحداث ٢ يونيه سنة ١٧٩٣ وهى الأحـداث المماثلة فى الثورتين الانجليزية والفرنسية . أما فى موسكو فكانت هنـاك معركة حقيقية الا أن البلاشفة أحرزوا النصر خلال أسبوع واحـد . وعند ذلك هرب كيرنسكى وانتهى حكم المعتدلين فى روسيا .

ثالثا : السيادة الثنائية :

ان الثورة الروسية تقدم أدق الأمثلة على ذلك التماثل الذى يكمن خلف التماثل الظاهرى بعض الشيء فى تتابع انتقال السلطة من أيدى المحـافظين الى المعتدلين الى المتطرفين ، ومن اليمين الى الوسـط الى اليسـار . ان هـذا يمثل على الفور نظاما وعمليـة أو بالأحرى عمليـة تجرى من خلال مجموعة من الأنظمة المتشـابهة . والمشتغلون بالأمور النظرية والمؤرخون للثورة الروسية يشيرون اليها بقولهم «دفوى فلاستى» "dvoevlastie" وهى كلمة تترجم عادة بالسلطة الثنائية ، الا ان ما تحويه من رنين ربمـا يجعل من الأفضل ترجمتها « السـيادة الثنائية » . وعلينا أن نتنـاول باختصار الوضع العـام الذى تشير اليـه هـذه الكلمة .

ان مشكلة السيادة كانت لمدى طويل كافيـة لكى تشغل مئـات من الفلاسفة السياسيين وتسعدهم . ولكن لمـا كان لدينـا مهمة أخرى فعلينا أن نعفى أنفسنا من هـذه المباهج الفلسفية . وقد يكون من الصعوبة بمكان فى مجتمع سوى أو قد يكون من المستحيل أن يسمح لفـرد ـــ أو لجماعة ـــ ممن يملكون السلطة المطلقـة بحسم مسائل تتعلق بما يجب على المجتمع أن يعمله . ولقـد يبـدو أن أصحاب فكرة التعـدد من وجهـة نظر وصف العمليـات الاجتماعيـة على حق تمـاما . وحتى السياسات العريضـة للدولة الحديثـة تبدو وقـد أدركت بعمليـة طبيعية محكمة ضرورة التوفيق بين رغبـات الجماعات المتنازعة بحيث أصبح القول بأن حاكما واحـدا هو الذى يحـدد هـذه السياسات هراء . ومع ذلك ففى مجتمع سـوى يوجـد على الأقل سلسلة منسـقة من الأنظمة التى من خلالهـا تسـوى

الجماعات المتنازعة منازعاتها اثنـاء العمل ولو لفترة قصيرة على الأقـل . وقـد يبـدو ذلك التنسيق غير فعـال وغير معقول عنـد تحليله تحليـلا اكاديميا كما أنه يكون معقدا حتى أن السياسيين الذين يحركونه لا يفهمونه . وذلك لأن النـاس غالبـا لا يدركون كيف يعملون الأشياء التى يعملونهـا بنجاح كبير .

ولكنـه يعمل فعلا وبه تحسم المشاكل المثارة أو تنسى ، ممـا يعتبر كذلك نوعا من الحسم . أما أولئك الذين لا يعجبهم حسم المشاكل بما اتخـذ من قرار يحاولون تغيير القرار بأعمال متباينـة . من اثارة الفتن الى التآمر او التخريب . ولقـد تذهب الجمـاعات القوميـة اجتماعيـا أو العـديدة فى ظل ظروف مواتيـة الى حـد أن تلغى قرارا معينـا : ويذكر كل انسان التعديل الثامن عشر The Eighteenth Amendment فى الولايات المتحـدة وأيا كان الأمر فانه على وجه الاجمال تصبح القرارات قوانين والعصيـان العلني يصبح جريمـة .

وعندما تقوم سلسلة اخرى من الأنظمة المتصارعة بتقـديم مجموعة أخرى من القرارات المتعارضة فعندئذ يكون لدينـا سيادة ثنائيـة . ويطلب من المجتمع الطاعة لمجموعتين من الأنظمة والزعامات والقوانين لا فى عمل واحد وانما فى كل الأعمـال المتداخلة فى بعض والتى تكون الحياة بالنسبة للانسان العـادى . وهكذا فان قيام عـدد كبير من المواطنين فى منـاطق شاسعة من أراضى الولايات المتحدة بالغاء القرار الخاص بتحريم بيع الخمور لم يكن فى حـد ذاته يعنى أنه كان هنـاك فى هـذه البـلاد وضع ثـورى تتمثل فيـه السيادة الثنائيـة . ولو أن مثل هـذا الالغـاء اتسع نطاقه مثـلا باندماج قوى بين اتحـاد العمال فى أمريكا ولجنـة التنظيم الصناعى ابتـداء من التعديل الرابع عشر حتى القـانون العـام للملكيـة ، ولو أن هـذا الاندماج استطاع أن يعرض قوانينه الخاصة على العمال فى المصانع ، ولو تسنى له القيـام بالكثير من وظائف الحكومة المحليـة الخاصة بالأسواق والرعاية الصحية والشرطة وهلم جرا — لكان لدينا بوضوح سيادة ثنائية . وكان لا بد فى الواقع أن يكون لدينـا حالة شبيهة بعض الشىء بما حدث فى روسـيا صيف ١٩١٧ .

ومع ذلك ففى كل ثوراتنـــا لا تواجه الحكومة الشرعيـــة ــ عنــدما تكون الخطوات الأولى فى الثورة الفعلية قــد اتخذت ــ مجرد افراد واحزاب معادية فحسب ــ فهــذا تجــده كل حكومة ــ بل حكومة منافسة أحسن تنظيما واحسن تكوينـــا واكثر استحواذا على الطاعة . ولا شك ان هــذه الحكومة المنافسة غير شرعيـــة ولكن ليس كل زعمائهـــا واتباعهـــا يهدفون فى وعى منذ بداية الأمر الى الحلول مكان الحكومة الشرعية . وفى الغالب يظنون انهم مجرد مكملين لهـــا وربما كذلك حافظين لها بطريقة ثورية . الا انهم ليسوا فى حقيقـــة الأمر الا حكومة منافســـة وليسوا مجرد نقـــاد أو خصوم . وعندما تشتد الثورة يتقدمون بطريقة طبيعية وبسهولة لأخــذ مكان الحكومة المهزومة .

وفى الحـــق أن هـــذه العملية تبــدأ البروز فى النظم القــديمة قبل اتخاذ الخطوات الأولى للثورة . فالمتطهرون فى انجلترا والأحرار فى أمريكا ، والطبقة الثالثة فى فرنسا ، والكاديت والاشتراكيون المساومون فى روسيا ، كانوا جميعـــا لهم منظماتهم التى تتطلب ولاءهم والتى مكنتهم من محـــاربة النظام القديم بالثورة على الأقل كشىء قائم فى باطن عقولهم . ولكن العمليـــة تكون أشد وضوحا وأكثر حـــدة ــ ربما فيما عدا أمريكا ــ فى المرحلة التى وصلنا اليهـــا الآن .

وعندما تنتهى المرحلة الأولى فى الثورة يتحول الصراع الذى يقوم بين المعتدلين والمتطرفين الى صراع بين جهـــازين حكوميين متنافسين ، جهـــاز المعتدلين ــ وهو الحكومة الشرعية ــ الذى ورث بعضا من المكانة المستمدة من قيامهـــا ، وبعضا من الموارد المـــالية ــ الفعلية أو المحتملة ــ للحكومة القديمة ومعظم التزاماتهـــا وكل أنظمتها . ولقـــد تحاول قـــدر ما تستطيع ان تغير من تلك الأخيرة ، فنجد أنهـــا عنيدة لدرجة الازعاج وصعبـــة الالغاء الى أقصى درجات الصعوبة . والحكومة الشرعيـــة تكون غير محبوبة لدى الكثيرين للسبب نفسه ، وهو أنهـــا حكومة واضحة ومسئولة ومن ثم يتحتم عليهـــا أن تحمل على كاهلهـــا بعضـــا من الكراهيـــة التى كانت لحكومة النظـــام القديم .

ومع ذلك لا تواجه حكومة المتطرفين غير الشرعية هـذه الصعوبات . ان لهـا تلك المكانة التى تضفيهـا الحوادث القريبـة على الثائرين وعلى أولئك الذين يستطيعون أن يطالبوا بأن يكونوا فى الجبهـة الأمامية للثورة . وليس عليها مثل سائر الحكومات الا مسئوليات قليلة نسبيا . فليس عليها ان تحاول ان تستخدم ، فيما عـدا فترات مؤقتـة ، تلك الأجهزة والأنظمة العتيقـة فى النظـام القـديم ، بل على العكس من ذلك يكون لديهـا تلك الميزة الضخمة وهى استخدام الأجهزة الفعالة التى أقامها بالتدريج الثوريون من المعتدلين والمتطرفين على حـد سواء منـذ الوقت الذى بدأوا يظهرون فيـه فى ظل النظـام القديم كجماعة ضاغطة حتى ولو كانت مثلما حـدث فى روسـيا جماعة سرية من المتآمرين . والحق أن الاستيلاء نهائيـا على هـذا الجهاز — أو هـذا التنظيم ان شئت — يبـدو أنه الشىء الذى يحسم فى الواقع النصر الأخير للمتطرفين على المعتدلين قبل أن يتضح هـذا النصر الأخير من خلال الحوادث بوقت طويل . أما السبب الذى من أجله لا يحافظ المعتدلون على تحكمهم فى ذلك التنظيم الذى فعلوا الشىء الكثير للبـدء فيـه وتشكيله فليس من السهل التعليل له . ولقـد نأمل أن تظهر اجابة ما من خلال دراسة أكثر تفصيلا للمصير الذى يلقـاه المعتدلون . ومع ذلك علينـا أولا ان نرى الى أى مدى يتناسب التحليل السابق مع وقائع ثوراتنا الأربع .

ولقـد كان من الواضح أن شارل والبرلمـان الطويل سلطتان ثنائيتان منـذ قيام الاضطرابات فى ١٦٤٢ ان لم يكن منـذ دورته الأولى فى ١٦٤٠ . فمـا أن تقرر شن الحرب الأهلية ضد شارل حتى وجـد البرلمـان الذى يسيطر عليه المعتدلون أنه الحكومة الشرعية . ولكن لم يكن يمضى وقت طويل حتى واجهه الجيش النموذجى الحديث المتطرف الذى سرعان ما بدأ يمارس ذلك النوع من النشـاط الذى لا يمارسـه فى ذلك العـالم الا الحكومة . والحقيقـة أن شارل كان لا يزال موجودا على مسرح الحوادث وأن وجود الجيش الاسكتلندى عقـد الموقف فى السنوات الثلاث أو الأربع التى سبقت اعـدام شارل فى ١٦٤٩ . ولكن الخطوط العريضـة للصراع بين الحكومة الشرعية الحديثـة العهد التى يتولاها البريسبيتيريون المعتدلون فى البرلمـان من ناحية وحكومة الاستقلاليين المتطرفين غير الشرعية فى الجيش النموذجى الحديث من ناحيـة أخرى كلهـا واضحة .

اما فى أمريكا فان هـذه السلطة الثنائيـة اشـد ما تكون وضوحـا فى السنوات السابقة للانفجار النهائى فى ١٧٧٦ . اذ كانت الخطوط الفاصلة بين الحكومة الشرعية وغير الشرعية يحوطها الغموض وبخاصة فى مستعمرة مثل ماسا شوستس ، وذلك من جراء الحقيقة الواقعة وهى أن اجتماعات المدن والهيئـات التشريعيـة فى المستعمرات كانت جـزءا من الحـكومة الشرعيـة ولكنها غالبـا ما كانت تدار عن طريق رجال لهم نشـاطهم فى الحكومة غير الشرعية . ورغم هـذا فان الجهاز الذى بلغ أوجه فى المؤتمرات القارية — وقد كانت فى حـد ذاتها هيئات غـير شرعية — كان الثوار يستخدمونه ضـد السلطة القائمـة .

وفى حين كان المعتدلون فى فرنسا من الفييانت أو الملكيين الدستوريين لا يزالون يديرون دفة الأمور فى الهيئـة التشريعية والجهاز الرسمى للدولة المركزية فان خصومهم الجمهوريين المتزايدين كانوا يديرون دفة الأمـور فى شبكة جمعيـات اليعاقبـة التى كانت بمثابة الاطـار للحكومة الأخرى أو غير الشرعيـة . ومن خـلال سيطرتهم على الجمعيـات كانوا يعملون للسيطرة على كثير من الوحدات الخاصـة بالحكومة المحليـة . ومن مكانهم فى هـذا الوضع المواتى كان فى مقدورهم أن يطردوا المعتدلين من الفييانت ويقضوا على الملكيـة . وعندئذ تكررت هـذه العمليـة مع المعتـدلين من الجيروند الذين كانوا يسيطرون على الهيئة التشريعية ، والجبليين والمتطرفين الذين يسيطرون على الوحدات الهـامة من شبكة جماعات اليعاقبة أو على الأقل وحـدة بالغة الأهمية من وحـدات الحكومة المحليـة — الا وهى كوميون باريس . ومرة أخرى فى اثنـاء أزمة ٢ يونيـة ١٧٩٣ انتصرت الحكومة غير الشرعيـة على الحكومة الشرعيـة .

ومن ناحيـة أخرى كان البلاشفة والجمعيات القليلة المتطرفة المتحالفة معهم قـد سيطروا فى أواخر الصيف على شبكة السوفييتات التى تعتبر الى حـد ما تراث ثورة ١٩٠٥ الفاشـلة ووقفوا حكومة غير شرعيـة تواجه الحكومة الشرعيـة . وكلمة السوفيت لا تعنى شـيئا أكثر من « مجلس » ولم يكن لهـا فى روسـيا أصلا دلالة أكثر مما يعنيـه عنـدنا مرادفهـا فى اللغـة الانجليزية .

كانت السوفيتات مجالس محلية تضم النقابيين والجنود والبحارة والفلاحين والمثقفين المتجاوبين .. ولقد برزت هذه السوفيتات بروزا طبيعيا نتيجة لانحلال السلطة القيصرية فى ١٩١٧ ، وفضلا عن ذلك منذ ذكريات الثورة التى قامت سنة ١٩٠٥ وأدى فيها سوفيت سانت بطرسبرج دورا ضخما وقد كانت لا تزال ماثلة فى أذهان الجميع . ولما ركز البلاشفة اهتمامهم بالسوفيتات فى حين اخذ المعتدلون يعملون على المشاركة فى الحكومة الشرعية — استطاعوا أن يقبضوا على زمام السوفيتات الرئيسية فى بتروجراد وموسكو والمدن الصناعية الكبرى وينتزعوها من المعتدلين . وهنا شبه كبير يثير الدهشة بالثورة الفرنسية . فان النصر الأخير الحاسم للبلاشفة قد تحقق دون سيطرة كاملة على الشبكة العامة للسوفيتات تماما مثل النصر الذى تحقق للجبليين دون سيطرة على شبكة نوادى اليعاقبة كلها . وفى كل من الحالتين كانت السيطرة على معظم الوحدات الهامة للحكومة غير الشرعية كافية .

رابعا — مواطن الضعف فى المعتدلين :

واذن نفى هذه المرحلة من الثورة يواجه المعتدلون ابان سيطرتهم على الجهاز الرسمى للحكومة بالمتطرفين الذين يسيطرون على الجهاز المخصص للدعاية والعمل الجماعى الضاغط بل والقيام بالثورة نفسها وان يكن عندئذ يتزايد استخدامه كجهاز للحكومة . وتنتهى هذه المرحلة بانتصار المتطرفين واندماج السيادة الثنائية فتصبح واحدة لا غير . وعلينا الآن ان نتحرى أسباب فشل المعتدلين فى هذه الثورات فى القبض على زمام السلطة .

هناك أولا التناقض الذى لاحظناه من قبل وهو أن السيطرة على الجهاز الحكومى فى المراحل الأولى للثورة هى فى حد ذاتها مصدر من مصادر الضعف لهؤلاء الذين يمسكون بمقاليد هذا الجهاز . اذ يجد المعتدلون شيئا فشيئا انهم فقدوا الثقة التى كانوا قد كسبوها كخصوم للنظام القديم وان الكثيرين الذين كانوا يعلقون عليم الآمال بصفتهم ورثة

النظام القديم اصبحوا يرتابون فيهم . واذ يضطرون الى الدفاع عن انفسهم فانهم يرتكبون الخطأ وذلك يرجع الى حد ما الى انهم لم يعتادوا حالة الدفاع عن أنفسهم . انهم يكونون فى وضع لا يمكن أن يخرجهم منه الا حكمة فوق مستوى البشر فى حين أن المعتدلين يعدون بين الثوريين أشدهم انسانية .

وعندما يواجه المعتدلون بمعارضة الجماعات الأكثر تطرفا المنظمة فى الشبكة التى أطلقنا عليها اسم الحكومة غير الشرعية لا يكون أمامهم على وجه العموم الا ثلاثة حلول يختارون منها : فقد يحاولون قمع الحكومة غير الشرعية أو قد يحاولون السيطرة عليها بأنفسهم أو قد يدعونها وشأنها وفى الواقع تدور سياستهم حول هذه السياسات الثلاث ويربطون احداها بالأخرى . وفى هذه الظروف تكون النتيجة النهائية اخراج سياسة رابعة من شأنها تشجيع أعدائهم فى الحكومة غير الشرعية .

وفى الثورات التى ندرسها لا يستطيع المعتدلون قمع هذه التنظيمات المعادية . اذ ان كل الثورات قامت باسم الحرية ، وكانت جميعا — حتى ثورة فبراير فى روسيا — ترتبط بما يسميه الماركسيون « الأيدولوجية البورجوازية » ولقد وجد المعتدلون أنفسهم مجبرين على مراعاة حقوق معينة لأعدائهم — وخاصة ما يتعلق منها بحرية الخطابة وحرية الصحافة والاجتماع . وأكثر من ذلك يؤمن كثير من المعتدلين ان لم يكن معظمهم باخلاص بهذه الحقوق ويعتقدون أن الحق شىء كبير ولا بد من سيادته . الم يكن سائدا ضد طغيان النظام القديم ؟ وحتى عندما يبدأ المعتدل تحت الضغط فى محاولة مصادرة جريدة متطرفة أو الحيلولة دون عقد اجتماع متطرف أو سجن عدد قليل من زعماء المتطرفين فان ضميره يؤنبه . واهم من هذا ان المتطرفين الذين لا يقع عليهم ضغط ما ، لا يفتأون يجأرون بالصراخ : ان المعتدلين يخدعون الثورة وانهم يستخدمون الوسائل نفسها التى كان يستخدمها الطغاة الأوغاد من حكام النظام القديم .

والثورة الروسية نموذج رائع فى هذا الموضوع . فان الكاديتيين والمعتدلين لم يتمكنوا فيما بين فبراير وأكتوبر من كبت دعاية البلاشفة بطريقة ملائمة بل ولم يستطيعوا أن يمنعوا اى لون من الوان النشاط السياسى للبلاشفة . وعند ما حاولوا أن يفعلوا ذلك بعد ثورة من ثورات البلاشفة السابقة لأوانها وهى اضطرابات الشوارع فى بتروجراد التى عرفت باسم « ايام يولية » ، قوبلوا باحتجاجات من فئات الناس جميعا ومنهم البلاشفة بشكل خاص . واعتبر عملهم استبدادا ، وأسلوبا قيصريا فى أسوأ صوره . الم تحمل ثورة فبراير معها الحرية السياسية وحرية الصحافة والاجتماع الى روسيا الى الأبد ؟ يجب على كيرنسكى الا يستخدم نوع الأسلحة التى كان القيصر يستخدمها . لقد استطاع ستالين أن يستخدم فيما بعد طرقا جديرة ببطرس الأكبر او ايفان الرهيب . ولكن هذا لا يعنى شيئا سوى أن المرحلة المعتدلة من مراحل الثورة الروسية انتهت بلا جدال عندما استولى ستالين على السلطة . ومع ذلك ففى ١٩١٧ لو أن كيرنسكى كان من ذلك الصنف من الرجال الذى يستطيع أن ينظم بنجاح اجراءات القمع — ومن الواضح أنه لم يكن هذا النوع من الرجال — فان مانسميه بالراى العام ما كان ليسمح فى تلك الأيام بتنفيذ هذه الاجراءات . وهذا يشبه كثيرا ما حدث فى فرنسا حيث سمح لليعاقبة بحرية القول وحرية الاجتماع وقد أصروا فى ثبات وعلنا على حقوقهم كرجال أحرار استعدادا لفرض الدكتاتورية .

ولم يكن المعتدلون كذلك أكثر نجاحا فى محاولاتهم للسيطرة — أو على الأقل للمحافظة — على ادارة الجهاز الذى كانوا قد بنوه بالاشتراك مع المتطرفين كوسيلة للتطويح بالنظام القديم . ويبدو أن ليس هناك سبب واحد مرجح لهذا الوضع . ولا شك أن المعتدلين مشغولون بشئون الحكم الفعلية الكثيرة وليس لديهم وقت يصرفونه فى عقد لجان للجيش أو حضور نوادى اليعاقبة او اجتماعات السوفيتات . ولربما يحسون أنهم أرفع بعض الشىء من مزاولة مثل هذا النوع من النشاط . انهم من الناحية العاطفية غير صالحين للعمل السياسى المباشر العنيف القذر . انهم ذوو مبادىء خلقية ولكنهم ليسوا تماما تلك الأرواح النبيلة التى تصنعها الأسطورة التاريخية عن المعتدلين من الجيروند فى الثورة الفرنسية . حقا ان كثيرا منهم مثل بريسو

وكيرنسكى يتمتعون بقدر كبير من مواهب السياسى الماهر . ولكنهم عندما يتملكون زمام السلطة يعملون عادة على غرس بذور الفضائل الصحيحة التى تتمشى مع السلطة . الا أن هذه الفضائل تجعل منهم زعماء غير أكفاء لقيادة مجتمعات ثورية مناضلة .

ومهما يكن من أمر هذا التفسير فان حقيقة التماثل واضحة . وهذا الفشل البارز الذى يمنى به المعتدلون يتضح جيدا فى الثورة الفرنسية . ان جمعيات اليعاقبة المعروفة باسم : « أصدقاء الدستور » كانت فى بدايتها الأولى تقف بالكاد على يسار لافاييت وأصحابه ومع ذلك بدا نشاطها أكثر جنوحا الى اليسار عندما بذل اللافاييتيون جهودا قليلة ضعيفة للاحتفاظ بسيطرتهم . وبعد ذلك انطلقوا وأسسوا جمعيتهم المعروفة باسم الفييانتيين. ولم يستطع الفييانتيون أن ينتشروا الى أبعد من دوائر الطبقة العليا ودوائر المثقفين الباريسيين الضيقة . وفيما بعد حاولت الجماعات التى تكونت هنا وهناك فى طول البلاد وعرضها بأسماء «أصدقاء الملكية» أو «أصدقاء السلام»، ان تنافس اليعاقبة ولكن بقدر قليل جدا من النجاح . كانوا اذا أعطوا الخبز للفقراء صاح اليعاقبة بأنهم يحاولون الرشوة . واذا لم يفعلوا شيئا جأر اليعاقبة بالشكوى من انهم يفتقرون الى الضمير الاجتماعى . وأخيرا لجأ اليعاقبة الى اجراءات منظمة الى حد كبير . كانوا يستأجرون قليلا من « البلطجية » — وفى بعض الأحيان لم يكن الأمر يحتاج الى استئجارهم — لكى يفضوا اجتماعا لأصدقاء السلام المنافسين وقد يرسلون بعدئذ وفدا الى سلطات المدينة يطالب باغلاق جمعية أصدقاء السلام باعتبارها مصدرا لازعاج الجمهور ... وكان أصحاب السلطة اما يعاقبة أو يخافون من اليعاقبة أكثر مما يخافون من أصدقاء السلام ولذلك كان الأمر يلقى الحل الثورى المناسب .

وكذلك وجد البرسبيتاريون أنفسهم عاجزين عن السيطرة على انتشار فكرة الاستقلاليين ليس فى الجيش فحسب بل وفى الأسقفيات المحلية. وكذلك فى روسيا وجد المعتدلون أن البلاشفة يتمتعون بمركز متين فى كل السوفيتات الهامة . وسوف تظهر الدراسة التفصيلية لسوفيت بتروجراد

من فبراير حتى اكتوبر مدى البراعة التى تصيد بها حزب لينين كل خطأ صدر من خصومه ومدى نجاحه فى التمكن من الداخل ناشرا سيطرته ابتداء من سوفيتات المصانع حتى استطاع آخر الأمر الاستيلاء على زمام سوفييت المدينة . وهذه الدراسة سوف ترينا كذلك المعتدلين وهم يفقدون مراكزهم بالتدريج رغم الميزات الخطابية للزعماء من أمثال تسرتلى Tseretelli وتشخيدز Chkheidze وكيرنسكى

والحق أن هناك ضعفا يكاد يكون عضويا فى مركز المعتدلين . انهم يجدون أنفسهم بين جماعتين : الساخطين من المحافظين والذين لم يفرض عليهم الصمت بعد ، والمتطرفين المعتدين الواثقين بأنفسهم. وقد كانت لا تزال هناك بعد حرية الخطابة وغيرها من الحقوق السياسية الأخرى ولذلك استطاع المحافظون أنفسهم أن يعبروا عن آرائهم . والآن يبدو أن المعتدلين فى كل هذه الثورات يتبعون الشعار الذى كان يستخدم بوضوح تام سنة ١٩٢٤ تعبيرا عن السياسة الفرنسية لجماعة احتكار اليسار ، وهو شعار ما زال يثير المشاكل امام اليساريين غير الشيوعيين فى كل العالم الغربى اليوم وهو : « لا أعداء لليسار » . انهم لا يثقون فى المحافظين الذين ثاروا ضدهم منذ عهد قريب جدا . وكذلك هم يشمئزون من الاعتراف بأن المتطرفين الذين اتحدوا معهم منذ عهد قريب جدا يستطيعون بالفعل أن يكونوا أعداء لهم . ان قوة الأفكار والاحساسات التى دخل بها المعتدلون الثورة تجعلهم يميلون الى اليسار . وليس فى مقدورهم عاطفيا أن يتحملوا الاعتقاد بأنهم متخلفون عن العملية الثورية وفضلا عن ذلك فان كثيرا منهم يأملون أن يتفوقوا على المتطرفين فى الحصول على التأييد الشعبى وأن يهزموهم فى نفس اللعبة التى يتقنونها . ولكنك لا تستطيع فى غير الأوقات العادية أن تثق فى التعبيرات السياسية اللطيفة الناعمة مثل «اهزمهم فى لعبتهم الخاصة» . ويفشل المعتدلون نتيجة لهذه السياسة القائلة : « لا أعداء لليسار » فى التوفيق بين هؤلاء الأعداء واليسار ، كما أنهم يجعلون من المستحيل تماما كسب تأييد أى من المحافظين الذين لم يصبحوا بعد كما مهملا . عندئذ وبعد أن يمتلىء المعتدلون خوفا من موقف المتطرفين التهديدى يتجهون الى المحافظين طلبا للمساعدة فلا يجدون عندهم أى شىء على الاطلاق ، لقد هاجروا أو عادوا الى الريف وفى أعماقهم يأس واستشهاد .

ولا حاجة للقول أن المحافظ الذى يتملكه روح الاستشهاد لا يعود محافظا بل يصبح انسانا آخر غير متلائم . ومع ذلك فان هــذا الاستنجاد من جانب المعتدلين بالمحافظين يقضى عليهم نهائيا . ولمـــا كانوا يقفون وحدهم ولا سند لهم فى السيطرة على جهاز الحكومة ولا ســند لهم كذلك فى السيطرة على المدنيين أو العسكريين فانهم يستسلمون فى يسر للثورة . وانه لأمر له دلالته أن عملية التطهير التى قام بها بريد والأزمة الفرنسية فى ٢ يونية ١٧٩٣ وثورة اكتوبر فى بتروجراد لم تكن أكثر من انقلابات سياسية مفاجئة .

وفى الثورات الانجليزية والفرنسية والروسية يمكن أن نميــز اجراء خطيرا تتجمع حوله كل التيارات ، اجراء يتخــذه المعتــدلون فيقطع عنهم تأييــد اليمين ويترك المتطرفين فى وضع يمكنهم من استخدام هــذا الاجراء ضد مبتدعيه . مثل قانون « الجذر والفرع » فى الثورة الانجليزية والدستور المدنى لرجال الكنيسة فىالثورة الفرنسية والأمررقم واحد فىالثورة الروسية.

والأصل فى قانون الجذر والفرع كان عبارة عن ملتمس عليه ...ر١٥ توقيع مقدم الى مجلس العموم فى أواخر ١٦٤٠ يطالب بالغاء النظام الأسقفى بكل جذوره وفروعه . وطبيعى أن الأسقفيين المعتدلين من هايد Hyde وفولـــكلان Falkland الى ديجبى Digby كانوا ضد أى اجراء من شأنه أن يحطم كنيستهم تماما بينما كان البرسبيتاريون يميلون الى تأييد هذا المطلب . ولقــد كان ممكنا أن يتغاضى المعتدلون من ذوى العقليـــات السياسية مثل بـــيم Pym عن هذا القانون ولكن يبدو أن رفض الأساقفة التنازل عن مقاعدهم فى مجلس اللوردات شــحذ عزيمة بـــيم للوقوف الى جانب اصدار القانون . وهـــذه المساندة جعلت كل أسقفى تقريبا ملكيا ، وعندما نشبت الحرب الأهلية فى ١٦٤٢ اتخذ البروسبيتاريون مكانهم فى أقصى اليمين من التجمعات الحزبية داخل المنطقة التى سيطر عليها البرلمـــانيون . ولم يكن فى مقدورهم أن يجدوا حلفـــاء لهم الا من اليســـار . واســـتطاع الاستقلاليون — وقد كان كرومويل بالفعل أول من قدم قانون الجذر والفرع الى المجلس — حينذاك أن يقولوا أن الكنسيين الطائفيين ليسوا خيرا من الأسقفيين وان الأسباب التى تدعو الى ابطال أحدهم تدعو كذلك وبلا نزاع

الى ابطال الآخر . وفيما بعد عندما اثبت المعتدلون أنهم عاجزون عن الوصول بالحرب الى نهاية ناجحة كان لا بد أن تقبل الغالبية من البروسبيتاريين — الذين لم يكونوا قطعا أغلبية مسيطرة وانما قد تركت نفسها بلا أى امكانية لكسب تأييد المحافظين — اجراءات مثل قانون انكار الذات وانشاء الجيش النموذجى الحديث .

أما الدستور المدنى لرجال الكنيسة فقد صدر بعد شهور من المناقشة فى الجمعية الوطنية كقانون لتجديد المسيحية فى فرنسا . ويبدو أن المعتدلين الذين قاموا بوضعه كانوا الى حد كبير مخلصين ، وقد يكونون كاثوليك سيئين من بعض النواحى ولكن كان ذلك راجعا الى أنهم اكتسبوا بعضا من الروح الدنيوية العملية فى عصرهم أكثر مما كانوا ضد حقوق رجال الكنيسة مباشرة . ومع ذلك فان الاجراء الذى اتخذوه أقصى عنهم الكاثوليك الطيبين ولم يفعل شيئا سوى أن شجع العناصر العنيفة المعادية لرجال الكنيسة على محاولة القضاء على كل « الخرافات الوضيعة التى ادخلت على المسيحية ». ولقد نص الدستور المدنى بصراحة على أن تكون انتخابات قسس الأبرشيات عن طريق الهيئات المحلية الانتخابية نفسها التى كانت تختار الموظفين للمناصب الحكومية الجديدة كما نص على انتخاب الأساقفة عن طريق الهيئة الاقليمية نفسها التى تنتخب الممثلين فى الجمعية التشريعية . ولقد محى الدستور كل الأسقفيات التاريخية التى اقترنت بفرنسا القديمة وأحل محلها أسقفيات الطف وأكثر انسجاما وائتلافا مع الأقاليم الجديدة التى قسمت اليها فرنسا من حيث أجهزة الحكومة . كما وافق فعلا على « ابلاغ » البابا بمثل هذه الانتخابات .

ولما تم الاستيلاء على أملاك الكنيسة باعتبارها هيئة من الهيئات لكى تستخدم كغطاء لأوراق النقد التى أصدرتها الثورة والمعروفة باسم «أسينيات» التزمت الدولة بتحمل نفقات رجال الدين بحكم الدستور الجديد . ولكن أنتخابات القسس والأساقفة بواسطة هيئات ينتسب اليها البروتستانت واليهود والملحدون علنا كان أمرا غير متلائم اطلاقا مع الشرع بحيث لم يكن احد من البابوات يستطيع ولو للحظة واحدة يعتبره مقبولا . ورغم أنه كان

هناك ذلك التعطيل الدبلوماسى العادى فان القطيعة بين البابا وبين الحكومة الثورية كانت أمرا لا مفر منه ، واقترن بهذا أن جماعة الكاثوليك المحافظين الأقوياء اضطرت الى اتخاذ موقف . وبدأ شقاق امتد الى كل قرية فى البلاد . ولكن الكنيسة الدستورية الجديدة لم تكن اكثر قبولا لدى المتطرفين الحقيقيين من الكنيسة الكاثوليكية الرومانية القديمة وعندما اقتربت الأيام الخطيرة لعهد الارهاب وجد المعتدلون انفسهم مرتبطين بحماية كنيسة لا تقدم لهم تاييدا له اهميته .

أما الأمر رقم واحد فلم يبرز الى الوجود بعد مثل هذه المناقشة الطويلة التى حدثت فى قانون « الجذر والفرع » و « الدستور المدنى » لرجال الدين . حقا انه ليس من العدل أن نعتبره اجراء نهائيا صدر تحت رعاية المعتدلين ، وان يكن الزعيم السوفييتى الأشهر فى الجماعة التى أعدته كان ن. د. سكولوف N. D. Sokolov المعتدل ، كما أن المعتدلين قد ساندوه بحماس بالغ على اصداره . ولقد ظهر الأمر فى نهاية الأيام الأخيرة من ثورة فبراير عن قيادة سوفييت بتروجراد . لقد كان موجها للجيش كما انه بالاضافة الى الاجراءات الثورية المعتادة تجاه جيش قائم فى ظل النظام القديم — من الغاء التحيات العسكرية والمساواة الاجتماعية والسياسية بين الجنود والضباط . . . الخ — فقد دعا الى انشاء لجان منتخبة من الفصائل والكتائب تلتزم بالاشراف الكامل على الأسلحة وبخاصة منها اسلحة الضباط كما انه أمر بأن تدين كل وحدةحربية بالطاعة للسوفييتات فىالأمور السياسية. وقرر أن اللجنة الحربية فى البرلمان قد تطاع فى الشئون الحربية اذا لم يعترض السوفييت فى حالة معينة . لقد صدر الأمر أولا وفى الذهن حامية بتروجراد ولكن مواده الرئيسية سرعان ما نقلت الى الجبهة . ولقد أقنع هذا الأمر المحافظين على الفور بأن لا رجاء مطلقا من الثورة بل انه وضع حتى اكثر الضباط تحررا فى حالة ذهنية جعلتهم يرحبون بالمحاولات التى قامت فيما بعد لاحداث انقلاب رجعى . وكان من شأنه أن جعل المهمة التالية للمعتدلين وهى أعادة روسيا الى درجة من الكفاية الحربية لمواصلة الحرب ضد المانيا أمرا أكثر صعوبة عن ذى قبل . كما انه لم يساعد بحال على اقناع الجنود بمواصلة الحرب ، وترجع معظم الشعبية التى كسبها الأمر

رقم واحد فى نهاية الأمر الى الثقة التى أولاها اياه البلاشفة وانصبت كراهيته على المعتدلين . ان هـذا هو المصير النموذجى للمعتدلين فى هذه الثورات .

ثم أن المعتدلين فى مجتمعاتنا جميعا كانوا يواجهون عاجلا أو آجلا بمهمة خوض غمار حرب ما ، ولقد أثبتوا عجزهم كقواد للحروب . ففى انجلترا نشب القتال ، وقبيل انتهاء الحرب الأهلية الأولى جعل كرومويل والاستقلاليون من انفسهم أشخاصا لا غنى عنهم ، ووقفوا على أعتاب السلطة . ونشبت الحرب الخارجية فى فرنسا فى ربيع عام ١٧٩٣ وبعد شهور معدودة كانت الملكية قد سقطت وسارت الحرب على أسوأ ما تكون فى ربيع ١٧٩٣ وفى يونيـة كان الجيروند وهم فى الجانب الفرنسى اشد المتحمسين للحرب قد ازيحوا على أيدى الجبليين . ونشبت الثورة الروسية وسط خضم من الحرب المريعة ولم يتسن للمعتدلين الروس اى فرصة لتصريف الأمور فى ظروف سلمية . والحقيقة واضحة . أن المعتدلين لا يستطيعون أن يظهروا نجاحا فى قيادة حرب ما . اما أسباب ذلك فأقل وضوحا . ومما لا شك فيه ان التزام المعتدلين حريات الفرد يعتبر عاملا من العوامل . فانك لا تستطيع أن تنظم جيشا اذا ما اخذت الحرية والمساواة والاخاء مأخذ الجد .

ويبدو أن الحروب الحديثة تحمل معها ضرورة تنظيم الحكومة المدنية على الأساليب الحربية ، وذلك لممارسة السلطة الحكومية القوية والمركزية حيث لا تعتبر لحرية الفرد الأهمية العظمى وفيها قليل جدا من الجدل وقليل جدا من نوع الحكومة التى تقوم على المناقشة والتى يعتبرها المعتدلون شيئا ثمينا يجب الحرص عليه وقليل جدا من الوفاق والاعتدال . ان الحرب كما قال مادسون Madison هى الأم لكل توسع يتم انجازه فى الجهاز التنفيذى وحتى فى أمريكا أيدت حروبنا هـذا الرأى ولكن وسط ثورة ما فان الجهاز التنفيذى الذى يتم التوسع فيه لا يكون جهاز المعتدلين — فعهود الارهاب فى فرنسا وروسيا يمكن الى حد ما تفسيرها على أساس أنها تركيز السلطة فى يد حكومة للدفاع الوطنى كضرورة تقتضيها الحرب . وليس هـذا بحال تفسيرا كاملا لعهود الارهاب . ولكن من المقطوع به ان

ضروره حكومة مركزية قوية لادارة الحرب هى احد الأسباب التى جعلت المعتدلين يفشلون . انهم لم يستطيعوا أن يوفروا النظام ولا الحماس ولا الاخلاص التام اللازمة لخوض غمار حرب ولهذا تنحوا عن أماكنهم .

خامسا : فشل المعتدلين :

يعتبر المؤرخون ذوو القلوب الرحيمة الذين استقينا منهم معلوماتنا عن الثورات الحديثة أن الفشل الذى أصاب المعتدلين مأساة ضخمة . فالمعتدلون يبدون رجالا طيبين شوهتهم الظروف المحيطة والخصوم غير الشرفاء ، أو يبدون مثاليين سحقهم عالم لا يرحم ، ولكنهم واثقون بالبعث الذى يكفله التاريخ لما هو حق وعدل . أن فولكلاند الرقيق وكوندورسيه العالم يبتسمان لنا من السماء الوحيدة التى لا يملك مفتاحها الا الأموات . وصحيح انه حتى المؤرخين الأجانب لم يعدوا السماء بعد لميليكوف او كيرنسكى . ان فشلهم لأمر ما لا يزال شديدا للغاية ولأمر آخر فان المعتدلين من الروس لا يزالون محرومين من التكريم فى بلادهم .

ولربما كان معظم المعتدلين افضل او على الأقل أكثر استواء من خصومهم المتطرفين . ومع هذا فانهم كقادة ومقودين معا يؤلفون جمعا متباين الصفات لايسهل بحال من الأحوال ان يصنفهم ماركسى أو سيكولوجى. والفكرة التقليدية القائلة بأنهم كانوا مثاليين وأنهم فشلوا لأنه فى عملية المساومات غير المهذبة لا بد ان يفشل المثالى امر يعتبر هنا تضليلا واضحا . وانه لأكثر دقة أن نقول نقيض ذلك وهو انهم فشلوا لأنهم كانوا فى كثير جدا من النواحى ما يسمى عادة واقعيين ، بمعنى أن بعضهم كان بدرجة ملموسة يتلاءم جيدا مع عالم حسن الادراك .

ان بيم وميرابو اللذين قضيا نحبهما فى سلام قبل أن تتضح هزيمة المعتدلين لا يزالان يستمتعان بالشهرة كسياسيين محنكين ومعتدلين معقولين . اما الآخرون فمعظمهم لا يزال يعلق بهم بعض هذه السمعة وهذا واضح غاية الوضوح فى حالة كيرنسكى . ويبدو لنا ان الزعيم البليغ انسان يجيد الكلام او خطيب يستطيع أن يحرك الجماهير ولكن ليس

فى مقدوره أن يقودهم ، شخص غير عملى وغير كفء فى مجال العمل . ويبدو ان الجيروند يشبه ذلك الى حد كبير وكذلك زعماء البريسبيتارين الأقل تعصبا لمذهبهم من أمثال هولز . وقد يبدو من التناقض الشديد أن نعتبر هؤلاء الناس واقعيين . ومع ذلك فقد كانوا واقعيين على صورة ما من الصور . ولقد استعملوا كلمات وتعبيرات ضخمة على سبيل التسرية والامتاع لمستمعيهم وأنفسهم . ولكنهم لم يكونوا يؤمنون بها كما كان الراديكاليون يؤمنون بها ، لم يكونوا يقصدون محاولة التأثير بها لكى يصلوا بها الى نتائجها المنطقية فى مجال العمل . وموجز القول كانوا يستعملون الكلمات مثلما يستخدمها معظم الأفراد فى معظم المجتمعات العادية — بما فيهم الساسة الواقعيون أمثال جلادستون Gladstone . وقد لا يبدون واقعيين فى نظر تاجر عنيد من تجار الخيول . ولكن فى نطاق الحدود التى تخطها التقاليد والشعائر للعمل الذى يقوم به أمثال هؤلاء الناس — وهم ما بين رجل دين واداري وممثل ومدرس طيبين .

ولكن الأيام قد انقلبت راسا على عقب ، وعندما تشتد الثورة فلا يستطيع الا الشخص الذى يحظى بشىء من المثالية المتعصبة — أو بما هو أكثر من ذلك — أو على الأقل بالقدرة على أن يلعب دور المتعصب الوصول الى الزعامة . ان الأدوار الاجتماعية العادية الواقعية والمثالية تنقلب الى عكسها فى المراحل الحادة للثورة . وسوف يكون لنا عودة الى هذا الموضوع فى فصلنا القادم . وكل ما نحتاج اليه هنا هو أن نلحظ أن الشواهد الخارجية لاقتراب اشتداد الثورة تظهر فى صورة كراهية طبقية شديدة . والمعتدلون — كما يعرفون — لا يتصفون بالحقد البالغ ولا بالعمى الذى يجعل رجالا مثل روبسبير ولينين لا يضلون فى صعودهم الى السلطة . وفى الأوقات العادية لا يستطيع الرجال العاديون الاحساس تجاه جماعات من زملائهم بهذه الكراهية الشديدة المستمرة القلقة على تلك الصورة التى يبثها المتطرفون فى الثورة . ان مثل هذه الكراهية هى عاطفة بطولية والعواطف البطولية تستنفد الجهد . ان الفقراء قد يكرهون الأغنياء ، والبروتستانت قد يكرهون الكاثوليك والبورجوازيون قد يكرهون النبلاء وأهل الجنوب يكنون هذا الشعور لأهل الشمال وهكذا . ولكن هذا الكره

فى الكائنات البشرية أمر مألوف وهو جزء من الحياة مثل الطعـــام والشراب والحب .

فالمعتدلون اذن لا يؤمنون فى الواقع بالكلمات الضخمة التى يضطرون الى استعمالها . وهم لا يصدقون أن نوعا من الكمال السماوى سوف يهبط نجاة على الناس فى هـــذه الأرض . انهم جميعا يؤمنون بالتوفيق والادراك والتسامح والراحة . وفى المجتمعات العادية تكون هـــذه الرغبات جزءا من قوتهم وتشد من قبضتهم على رفاقهم الذين يشاركونهم على الأقل رغبتهم فى الراحة . ولكن فى هـــذه الثورات الثلاث كانت هناك أعداد كبيرة من الناس قـــد وصلت بدافع الرغبة والعاطفة الى نقطة بدوا فيها يبغضون كل شىء حتى الراحـــة . ولم يكن فى استطاعة المعتدلين أن يتعـــاملوا سياسيا مع هؤلاء الناس ، ولم يستطيعوا القيام بالخطوات الأولى اللازمة اذا ما أريد فهم امثال هؤلاء . لقـــد انعزل المعتدلون عن غير المعتدلين وأصبح بينهمـــا هوة لم يكن فى استطاعة الفلسفة أو الادراك أن يملأها . وفى القول المأثور أن «الأعور ملك وسط العميان» . ولكن احدى قصص هـ.ج. ويلز القصيرة الحكيمة وهى مملكة العميان ، كشف ضعف هذا المثل وعنـــد احتدام ثورة عنيفة يكون ضعفها فيما يحتمل أكثر وضوحا من الضعف البادى فى وادى آنديان الوهمى فى قصة ويلز . ان المعتدلين الذين كنا نتحـــدث عنهم كانوا جميعا بشرا وغير معصومين من الخطأ ولكن حتى ولو كانوا فى حكمة أبطال بلوتاخ Plutarch وفى كلمة واشنطن فلا بد من سقوطهم كمـــا يبـــدو . وذلك لأننـــا هنا فى أرض أسطورية ولكنهـــا واقعية لا تعتبر فيهـــا الحكمة والبصيرة التى يتصف بهما المعتدلون حكمة أو بصيرة وانما حماقة .

الفصل السادس

استيلاء المتطرفين على الحكم

١ ـ الانقــلاب :

ان الصراع بين المعتـدلين والمتطرفين ، الذى يبـدأ فى أكثر الأحوال عندما يتم التخلص المثير من العهد القـديم ، يتميز بسلسلة من الأحـداث المثيرة : فهنا معركة فى الشارع وهناك الاستيلاء بالقوة على الأملاك وفى كل مكان تقريبا مناقشات حامية ومحاولات للقمع وسـيل مستمر من الدعاية العنيفة . وتضيق الصدور الى حـد الانفجار من أجل أمور فى الامكان حلها بدون أى مجهود فى مجتمع مستقر ـ ويكاد أن يكون هناك حالة توتر شامل وتزيد الحماسة من تعقيـد أزمة . وكما هى العادة فى كثير من الحميـات يكون تزايدها فى تفاصيله مصحوبا برعشة ثم يبدو تحسن ظاهر يتبعه بعـد فترة ارتفاع مفاجىء فى الحرارة . ولكن التأثير المتراكم يكون واضحا للغاية ، وحين يطاح نهائيا بالمعتدلين يمكن أن يقال أن الثورة دخلت مرحلة التأزم .

وقبل أن نحاول وصف سلوك الناس فى المجتمعات فى أثناء هذه الأزمة ، لا بد لنـا أن نتوغل قليلا فى العملية التى يستولى بها المتطرفون على السلطة ولسوف يكون مثل هذا التحليل الى حد ما عكس كل ما سبق أن قلنـاه عن المعتدلين . ان الأسباب التى جعلت المتطرفين ينجحون ليست الا الجـانب الآخر للأسباب التى جعلت المعتدلين يفشلون ، فحيثما كان المعتدلون ضعفاء كان المتطرفون أقوياء ، ومع ذلك فالخطوات الفعلية التى وصل بها المتطرفون الى الحكم تبلغ من الأهمية حدا لا يمكن معه الاكتفاء بهذه العبارة العامة . فلا بد ان نقارن تحليلنا لجوانب الضعف عند المعتدلين بتحليلنا لجوانب القوة عنـد المتطرفين .

ان المتطرفين يكسبون لأنهم يضمنون سيطرتهم على الحكومة غير الشرعية ويستعينون بها فى القيام بانقلاب حاسم ضد الحكومة الشرعية كما ان مشكلة السلطة الثنائية تحل بالاجراءات الثورية التى بمثلها استطاع الاستقلاليون واليعاقبة والبلاشفة الاستيلاء على السلطة . ولكن المعتدلين كانوا قد شاركوهم فى وقت ما الاشراف على التنظيمات التى انقلبت على الحكومة . ان مفتاح نجاح المتطرفين يكمن فى احتكارهم لادارة هذه التنظيمات : الجيش النموذجى الجديد والكنائس المستقلة ونوادى اليعاقبة والسوفيتات .

وهم انما يحصلون على هذا الاحتكار بطردهم — عادة بسلسلة من المعارك — كل خصومهم النشيطين من هذه التنظيمات . ان النظام ووحدة الفكر والمركزية فى السلطة التى تميز حكم المتطرفين المنتصرين انما يتم نموها أولا وبلوغها حد الكمال فى المجموعات الثورية للحكومة غير الشرعية . وهذه السمات التى كانت قد تكونت خلال نمو الحكومة غير الشرعية تظل كما هى السمات نفسها للعناصر المتطرفة بعد أن تتحول الحكومة غير الشرعية الى حكومة شرعية . وفى الحق ان كثيرا من هذه السمات النافعة ظهرت منذ عهد طويل ربما يرجع الى النظام القديم عندما كان هؤلاء المتطرفون جماعات ضئيلة ومركزة وعرضة لشدة طغيان الحكومة .

لقد اكتسب الاستقلاليون النظام وانكار الذات نتيجة سلسلة طويلة من الاضطهادات التى بدأت فى عهد اليزابث التى لم يمتد حبها للتسامح الى الكاثوليك او اتباع براون Brownists ولم يعامل المتطرفون الفرنسيون ابان العهد القديم تلك المعاملة السيئة التى يحلو لخلفائهم ومؤرخيهم أن يتصوروها ، ولكن الرقابة والباستيل والأوامر الملكية بالسجن كانت حقيقية بقدر كاف حتى ولو كان من النادر وقوع أتباع المستنيرين وأنصارهم تحت طائلها . أما فى روسيا ، فان المتطرفين فيها قد كانوا معرضين لأقسى أنواع القهر وكانت تعاونهم التنظيمات السرية التى تكونت منذ قرن تقريبا والمؤامرات وايمان القسم والاستشهاد . وسنرى فيما بعد أن الثورة الروسية الكبرى قد انتهت بالفعل ولكن الكثير من ملامح السلطة المتوارثة عن فترة التطرف ما زالت باقية فى وضوح فى روسيا المعاصرة . واحد

اسباب ذلك البقاء — وان ظل الكثير غير مفهوم تماما — هو تلك القوة الجبارة التى عرفت بها السلطة فى النظام الشيوعى والتى صقلتها سنوات من التآمر السرى والرقابة المحكمة من الجهات العليا ومن الداخل .

وان ما يبرز من هذا الماضى الطويل ومن المعركة الجديدة ضد المعتدلين هو جماعة محاربة اكتسبت العادة الجديدة وهى الاصرار على النصر . ولن نستطيع أن نقول بالضبط لماذا يحرز فريق معين فى كرة القدم النصر فى جميع المباريات حتى ولا لماذا انتصر جيش ما أو حزب ثورى . ان الأسباب المتنوعة لهذه الظواهر تبلغ من الكثرة — حتى فى ابسط الحالات — حدا يتعذر معه على أى انسان عاقل أن يدلى بتنبؤات تقوم كلية على اكثر هذه الأسباب وضوحا أو ربما اشدها أهمية ألا وهو جودة المادة البشرية . ان المقامرين يعرفون هذا وان لم يعرفه المؤرخون أو علماء الاجتماع . أما أن ثوارنا أحرزوا النجاح وأنهم كانوا جماعات منظمة تنظيما يثير الاعجاب فهذا أمر نعرفه كما أننا نستطيع أن نبذل شيئا من المحاولة لابراز الطرق التى نجحوا بها أو أنواع القوة التى اظهروها ولكننا لا نستطيع أن نعطى صيغة كامله للنجاح فى بناء جماعة ثورية كما أننا لا نستطيع أن نقرر بالضبط لماذا نجح هؤلاء الثوريون وفشل غيرهم .

ثانيا — تنظيم المتطرفين :

ان ما يلفت النظر لأول وهلة فى انتصار المتطرفين فى الثورات الانجليزية والفرنسية والروسية والوطنيين غير المتطرفين ممن قاموا بالثورة الأمريكية انما هو قلة عددهم . فأعضاء هذه المنظمات الرسمية الذين قاموا بضرب المعتدلين لم يكونوا مطلقا اكثر من قلة ضئيلة من مجموع السكان . ولا شك أن العناصر النشيطة من هؤلاء الأعضاء كانت دائما أقل مما تضمه السجلات . وليس من السهل الحصول على أرقام دقيقة سواء بالنسبة للأعضاء أو بالنسبة لتعداد السكان الا أن الأرقام التالية ليست من الخطأ الى الحد الذى يضللنا . فالجيش النموذجى الحديث كان يتألف من ٢٢٫٠٠٠ فرد ولم يزد على ٤٠٫٠٠٠ فرد

فى اشد ايامه صخبا . وكان تعداد انجلترا يتراوح ما بين ثلاثة وخمسة ملايين نسمة . ولم يكن اليعاقبة على أقصى تقدير يزيدون ابان صراعهم مع المعتدلين على ٥٠٠ر٠٠٠ فرد ، وكان تعداد فرنسا ربما يزيد ولا يقل عن ٢٠ مليونا . وكان الحزب الشيوعى فى روسيا يفخر دائما بقلة عدده . فهو ليس حزبا بورجوازيا كبيرا يزخر بأعضاء سلبيين يدلون بأصواتهم فى اهمال أو قد لا يدلون بها على الاطلاق ونكرر القول بأن الأرقام غير دقيقة ولكن الذى يبدو أميل الى الوضوح أنه لم يحدث فى وقت من الأوقات خلال فترة نشاط الثورة ولا حتى فى تلك الأيام التى انتهت باستيلاء ستالين نهائيا على زمام السلطة بعد طرده للمعارضين اليمينيين فى ١٩٢٩ أن بلغ تعداد الحزب الشيوعى واحدا فى المائة من تعداد السكان الذين كانوا يزيدون على مائة مليون . أما فى أمريكا فالصعوبة أكبر حتى بالنسبة لهذه الأعداد التقريبية لأن الوطنيين لم ينتظموا فى هيئة واحدة . وواضح أنه ليس من الانصاف أن نتخذ من جيوش القارة وهى القليلة العدد نسبيا مقياسا دقيقا نقيس به مدى قوة جماعة الوطنيين أو الأحرار . ومع ذلك فان أوثق المصادر المسئولة تتفق على أنك اذا ما أسقطت من حسابك تماما فئة الموالين للعرش أو جموع السلبيين أو الحياديين فان الفريق الذى راح فى نشاط يدبر ويؤيد ويخوض معارك الثورة الأمريكية هو اقلية من المحتمل الا تزيد عن ١٠٪ من مجموع السكان .

ومن السهل أن نلاحظ انه رغم أن الحقائق تشير بوضوح الى ان هذه الجماعات الثائرة عبارة عن اقليات صغيرة الا أن كل الجمعيات ذات النشاط السيابى عبارة عن اقليات صغيرة وانه فى هذه الثورات كان المتطرفون بطريقة ما « يمثلون » أو « يحققون » روح أمتهم وارادتها وعبقريتها ومطالبها . وقد يكون هذا أمرا ميسورا على هذا النحو للمؤمنين بالغيبيات (الميتافيزيقيات) . ولكن العلاقة المتضمنة فى هذا الشأن تظل أمرا لا نستطيع فى الوقت الحاضر أن ندعى القدرة على دراسته بالوسائل التى سبق أن قررناها فى هذا الكتاب . وربما كان اليعاقبة هم الذين تتمثل فيهم الارادة العامة

للشعب الفرنسى ولكن الارادة العامة ليست الا تصورا غيبيا ليس فى امكاننا أن نحدد مدى علاقته بواقع اليعاقبة الملموس . ولقد عمل تروتسكى فى احدى حالاته الأقل واقعية على التوفيق بين القلة العددية للبلاشفة فى سنة ١٩١٧ وبين تعداد روسيا الكبير وكذلك بينهم وبين التجمعات العديدة الأخرى المعادية للبلاشفة . فهو يكتب فى رقة كأنما كان يبشر برواية جورج أورول Orwell الف وتسعمائة وثمانية وأربعون أن البلاشفة أخذوا الناس على الصورة التى كان التاريخ السابق قد خلفهم عليها وعلى أنهم قد استدعوا لتحقيق الثورة . ان البلاشفة رأوا أن رسالتهم هى أن يقودوا هذا الشعب . وكان أولئك الذين يقفون ضد الثورة « هم جميع الناس » فيما عدا البلاشفة . ولكن « البلاشفة كانوا هم الشعب » .

والحقيقة أنه لا ثوار اليمين ولا اليسار فى القرن العشرين جرؤا على أن يتخذوا موقفا نتشاويا (نسبة الى نيتشه) ملائما فى هذا الأمر الخاص بالعلاقة بين فئاتهم المنتقاة القليلة العدد وجماهيرهم الخاصة نفسها بمعنى أنهم لم يجرؤا على أن يقولوا بأن الصفوة يجب أن تسود بالمعنى التام لهذا التعبير وأن الباقين يتحتم عليهم أن يكونوا عبيدا بالمعنى التام لهذا التعبير وغالبا ما يبدو لينين وكأنه على حافة هذا الموقف النتشوى كما أن هتلر فى « كفاحى » يتردى فى هذا الموقف مرات غير قليلة . ولكن الوضع الرسمى لكل من الأحزاب — الشيوعية والنازية والفاشية — كان أن الحزب والصفوة والأقلية القابضة على زمام السلطة هى فى الواقع الأمينة على مصالح الشعب وأنها الراعية للشعب وأنها تحكم لتحسين أحوال الشعب . ولا زالت الشيوعية حتى يومنا هذا تصر على الوعد بأنها فى آخر الأمر — وقد يطول « أخيرا » — بعد هزيمة الراسمالية العالمية ، سوف يزول التمييز بين القادة والمقودين وبين الحزب والشعب فى المجتمع اللاطبقى .

وفى كل مجتمعاتنا كان هؤلاء المتطرفون على درجة كبيرة من العلم والاعتداد الشديد بأعدادهم القليلة ويحسون احساسا قاطعا بأنهم سبقوا

مواطنيهم فى العمل من اجل الثورة وأنهم كرسوا حياتهم لأداء رسالة لا يستطيع اداءها بكل تأكيد هؤلاء المواطنون . ان بعض هؤلاء المعارضين ربما أرضوا أنفسهم بأنهم يمثلون فى الواقع أحسن العناصر من المواطنين ، وانهم يمثلون الجانب الحقيقى للقوة الكامنة التى يمثلها الآخرون . ولكنهم كانوا على يقين من أنهم فوق مستوى الجموع الخاملة الهزيلة .

فى القرن السابع عشر — وهم الصفوة التى اختارها الله اختيارا مطلقا بأكثر مما فعل أى من ملوك الحياة الدنيوية البؤساء — لم يحاولوا اخفاء ازدرائهم لعامة الناس الملعونة ولاشكأن الدوقات والايرلات كانوا فى نظر هؤلاء القديسين من عامة الناس . أما اليعاقبة فقد ورثوا من طائفة المستنيرين ايمانهم بان الانسان العادى مجبول على الخير بطبيعته ولقد أدى هذا الايمان الى عدم احتقارهم لأتباعهم . الا أن هذا الاحتقار كان كامنا فى نفوسهم . وكانوا مثل الاستقلاليين يحسون برفعة منزلتهم وكان البلاشفة قد تربوا على الاعتقاد بأن المادية الجدلية تشق طريقها وسط صفوة الطبقة العاملة ، وأن الفلاحين بصفة خاصة عاجزون عن أن يحققوا خلاصهم بأنفسهم . ولذلك فضآلة البلاشفة العددية أمر طبيعى كاحساسهم بتميزهم .

وهناك أيضا أدلة كثيرة على أنه عندما تقوم الثورات يختفى عدد كبير جدا من الناس من الميدان السياسى ولا يبذلون أية محاولة لابداء آرائهم . وقد تكون الغالبية العظمى من هؤلاء الناس أيضا ممن يشاركون بقلوبهم الراديكاليين آراءهم ولكنهم بصفة عامة محافظون أو معتدلون جبناء — الرجال منهم والنساء على غير استعداد للاستشهاد . بل وهم عاجزون عقلا وخلقا وجسما عن أن يكونوا متطرفين مخلصين ابان اشتداد الثورة .

ولدينا دليل واضح على عدم قيام الرجل العادى بأى عمل سياسى فى « ثورتين » من ثوراتنا ومن حقنا أن نؤكد أنه من أوجه التشابه التى نبحث عنها .

وفى روسيا نتيجة لثورة فبراير أصبح الاقتراع العام امرا لا مفر منه . وبذلك لحقت روسيا بالغرب . وفى الانتخابات الأولى انتهز كل فرد رجلا كان أو امرأة الفرصة ليدلى بصوته فى مختلف الانتخابات المحلية. لكن سرعان ما ظهر نقص كبير فى عدد الأصوات التى أدلى بها وفى يونيه ١٩١٧ جرت فى موسكو انتخابات وحصلت جماعات الثوريين الاشتراكيين فيها على ٥٨٪ من مجموع الأصوات ، وفى انتخابات سبتمبر حصل البلاشفة على ٥٢٪ .

أهذا كسب كبير للبلاشفة بوسائل ديمقراطية ؟ أبدا ففى يونية حصل الثوريون الاشتراكيون على ٣٧٥ر٠٠٠ صوت من ٦٤٧ر٧٠٠ صوت، وحصل البلاشفة فى سبتمبر على ١٦٨ر٠٠٠ من ٣٨١ر٠٠٠ اى فى خلال ثلاثة شهور تخلف نصف عدد الناخبين . ولتروتسكى نفسه تفسير بسيط لهذا « أن كثيرا من سكان المدن الصغيرة الذين انضموا الى المعتدلين سرعان ما اعتزلوا أى نشاط سياسى نتيجة بعض الأوهام » . ان هذه القصة تردد حرفيا فى انتخابات البلدية والجمعية الوطنية الفرنسية بين عام ١٧٨٩ ذات الأيام الوردية التى أدلى بصوته فى انتخاباتها كل من كان فى استطاعته أن يذهب الى السجلات حتى ولو كان يترنح ، وبين ١٧٩٣ عندما بلغ فى بعض الحالات عدد الذين أدلوا بأصواتهم أقل من عشر الذين لهم حق الانتخاب . انهم لم ينتخبوا البلاشفة أو اليعاقبة ، ومن المحتمل كثيرا أنه لو أدلى معظم الانجليز بأصواتهم فى ١٦٤٨ فانهم ما كانوا ينتخبون الاستقلاليين أو الاشتراكيين أو الفلاحين أو رجال الملكية الخامسة أو أصحاب مذهب عودة المسيح . ان الأعداد الكبيرة ممن لهم الحق فى الادلاء بأصواتهم هم الذين لا يدلون بأصواتهم . انهم على حد تعبير تروتسكى الطريف « انهم سياسيا لا وجود لهم » .

وانعدام وجودهم السياسى لا يتحقق دون قدر كبير من مساعدة المتطرفين . ومن المفروض أن الانتخابات حرة علنية الا أن المتطرفين لا تربطهم أى رابطة من روابط الايمان بالحرية التى كانوا يتشدقون بها من قبل . وسرعان ما يتخذون اجراءات عرفتها هذه البلاد من تاريخ

جماعات كوكلوكس كلان Kuklux Klans أو التامانى هول **Tammany Hall** انهم سينكلون بالأرستقراطيين المعروفين جيدا وأمثالهم من الأعداء الطبقيين. ويثيرون القلاقل فى أماكن الاقتراع أو فى الاجتماعات الانتخابية ويحطمون النوافذ ويبداون المعارك فى الشوارع وينادون بسقوط المرشحين المعتدلين ويستأجرون أقدر الصحفيين على الهجو والغمز ، كما أنهم يلجأون الى مئات الوسائل التى لا يمكن لأى دارس واقعى للعلوم السياسية أن يلم بها جميعا لكى يجعلوا من الصعوبة بمكان على الانسان العادى المسالم البسيط سواء كان رجلا أو امرأة أن يخطو خطوة واحدة الى صندوق الانتخابات ليدلى بصوته للمعتدلين الذين يتعلق بهم . وليس الارهاب وحده هو الذى يخيف الرجل العادى . ان مجرد الخمول وعدم القدرة على اعطاء النواحى السياسية الاهتمام الذى تتطلبه الثورات هما أيضا عاملان هامان يحولان بين رجل الشارع وبين التعبير عن رأيه . انه يضيق ذرعا بالاجتماعات المتوالية والوفود والصحف والمفتشين العامين والرؤساء واللجان والطقوس الدينية والمتاعب التى لا تنتهى من اجل حكم ذاتى يقوم على أسس تفوق الأسس الأثينية . وعلى اى حال فانه ينسحب وبذلك يجد المتطرفون المجال خاليا لهم ، ان ضآلتهم العددية هى فى الواقع أحد المصادر الضخمة لقوتهم . الا أن الأعداد الضخمة تصبح فى السياسة عبئا ثقيلا تماما مثلما هى فى ميدان القتال . وان أهم شىء فى سياسة الثورات هو القدرة على الحركة السريعة واتخاذ القرارات الواضحة والحاسمة والنفاذ الى الهدف دون اقامة أى وزن للنزعات الانسانية الجريحة . ومن أجل هذا الغرض يجب أن تكون الجماعة السياسية الفعالة قليلة العدد والا فانك لن تستطيع ان تحصل على الوحدة الفكرية والتفانى والنشاط والنظام — الضرورية لهزيمة المعتدلين . كما انك لن تستطيع فى أعداد ضخمة أن تحافظ على حمى التعصب لمدى طويل حتى تضمن النصر النهائى . ان الجماهير لا تصنع الثورات ، وانما قد تستخدم فى احتفال له أثره الفعال وذلك بعد أن تكون هذه الفئة القليلة قد نجحت فى الثورة . ومع أن ثورات القرن العشرين التى قام بها اليمينيون أو اليساريون قد حققت المعجزات بسبب المشاركة الجماهيرية ، الا أن المظاهرات المؤثرة

التى سجلتها آلة التصوير فى المانيا وايطاليا وروسيا يجب الا تخدع الباحث الدقيق فى الأمور السياسية ، فلا انتصارات البلاشفة أو النازى ولا انتصارات الفاشست على المعتدلين جاءت بفضل مشاركة الجماهير وانما جاءت جميعا على أيدى حفنة قليلة من الأفراد المنظمين ذوى المبادىء والمتعصبين .

وحتى حين تبلغ الثورة هذه المرحلة فان الراديكاليين المنتصرين لا يجرون استفتاء عاما . انهم لا يرهبون أية مخاطرة مثلما يخشون الانتخابات الحرة . ولن تأتى مرحلة الاستفتاء الا بعد مضى بعض الوقت وبعد انتهاء مرحلة التأزم وعودة الحياة الطبيعية . ومن المحتمل الا تستغرق هذه المرحلة فترة طويلة ، وقد تكون فى حالة الثورة اليمينية قصيرة جداً إذ أن الغضب العنيف من أجل المثل الأعلى قلما يستثير الأفراد من ذوى الميول اليمينية . ولكن من المؤكد أنه فيما يختص بتلك الثورات التى ندرسها فاننا نقول بوجه عام أن الانتخابات النزيهة لا وجود لها فى الصراع بين المتطرفين والمعتدلين ولا يجريها المتطرفون حتى فيما بعد استحواذهم على السلطة ، وهذه الحقيقة تصدق على روسيا والدول الموالية لها .

ان المتطرفين لايوصفون فقط بأنهم فئة قليلة وانما هم أيضا متعصبون ومتفانون فى تحقيق أهدافهم . ويبدو أن ادراكهم أنهم أقلية له صلة بشدة تعصبهم . وكل من هاتين الصفتين لا تتعدى على الأخرى فحسب بل وتقويها كذلك . وسوف نشغل أنفسنا فيما بعد أولا بوسائلهم ، وثانيا بما يساورهم من غبطة وهم يحلمون بعالم افضل . وقد يبدو لهؤلاء الذين يظنون أن ألوان الاحساسات « بالتعصب » لا يتصف بها الا الذين يسهرون على خدمة الله شخصيا . ان استخدامنا لهذا اللفظ فى وصف اليعاقبة أو البلاشفة غير صحيح . ولكن هذا بكل تأكيد تضييق غير لائق فى استخدام لفظ نافع وواضح . فلقد كان البلاشفة واليعاقبة على اقتناع كأى من أتباع كالفن بأنهم وحدهم فقط على صواب ، وأن ما يقدمونه من مقترحات انما هو فقط المنهاج الممكن . لقد اظهر كل

ثوارنا من اليساريين رغبة فى العمل بهمة لا تعرف الملل وفى التضحية بسلامتهم وأمنهم والفناء فى النظام واذابة شخصياتهم فى المجموع . وكانوا جميعا يشعرون بالصعوبات الروحية « التى يتطلبها دائما الوقوف على قمة الظروف السياسية » على حد التعبير الذى اعتاد اليعاقبة أن يستخدموه ، ولكن مما يثير الدهشة انهم قد ذللوا هذه العقبات وأقاموا على هذه الأرض نوعا من العصبية ، وحدة أدبية فعالة لا تستطيع قدرات الرجل العادى فى الظروف العادية أن تحققها وتحتفظ بها .

ثم أنهم منظمون ، وهذا يرجع الى حد ما كما سبق أن أوضحنا الى ما توارثوه من ما ضيهم الذى لقوا فيه ألوان القمع . ان هذه الصفة أيضا مرتبطة بقلتهم العددية وبقوتهم التعصبية ، والجيش النموذجى الجديد مثل رائع على ذلك ، اذ هزم التجمعات العشوائية التى واجهه بها الملكيون وسحق خلاصة القوات بها وجحافل الفرسان التى اختيرت من أعيان البلاد وأتباعهم المخلصين وكان الجيش النموذجى يتألف من جماعة البيورتيان المتحمسين بعد أن زكاهم رجال يعرفونهم ، ثم دربوا تدريبا فعالا رغم قصر مدته ولا يمكن أن يقارن به فى صرامته أى من التدريبات فى كل تاريخ انجلترا العسكرى . وكانت النتيجة جيشا قويا — جماعة متينة من الثوار الأشداء تستطيع أن تشق طريقها وسط أشد المعتدلين عزيمة وأقدرهم فصاحة . ومع أن نظام اليعاقبة لم يكن عسكريا الا أنه كان صارما ويشبه فى الواقع ذلك النوع من النظام الذى تفرضه جماعة دينية محاربة على أعضائها . ولقد كان اليعاقبة يتحرون دائما عن أعضاء طائفتهم ، ويجرون عملية تطهير ، فكان أقل انحراف من جانب العضو عن النظام اليومى المقرر يؤدى الى انذاره وربما طرده . ولقد أصبح معظمنا (يعنى الأمريكيين) ملما بالأساليب الاسبرطية التى اتبعها الحزب الشيوعى الروسى فى الأيام الأولى من قيام الدولة السوفيتية . وهى نقطة قد أصبح كل المراقبين الذين يعطفون أولا يعطفون على الحزب متفقين عليها .

لقد وضع المتطرفون مهاراتهم المنظمة لتحقيق الأغراض الثورية . واذ أستخلص من القرون القليلة الأخيرة فن متقن للعمل الثورى ، وكان

الروس آخر من ورثوه . ولقد كتب كثيرا عن هذا الفن الذى ما هو الا عبارة عن الأساليب التى تستخدمها مجموعة ضاغطة ناجحة كالدعاية والمطالبة باجراء انتخابات ، ونشر الاشاعات واقامة الاحتفالات ، واثارة المعارك فى الشوارع وارسال الوفود ، والضغط المباشر على الحكام وارهاب المعارضة من وقت لآخــر .

ولقــد اتبع اليعاقبة والشيوعيون وابنــاء الحرية الكثير من هــذه الوسائل ولكن مما يدعو الى شىء من الدهشة أن نجد كثيرا من هــذه الأساليب فى انجلترا وبخاصة فى لندن فى القرن السابع عشر . ومن هذه الناحية كمــا فى نواح أخــرى كثــيرة يظهر بوضوح أن الثورة الانجليزية نمط حديث من الثورات . واليكم نبذة مما ورد عن الثورة الفرنسية : حدث خلال المناقشة التى دارت حول قانون الميليشيا ان مظاهرة من صبية بعض الصــناعات أتت الى مجلس العموم وجعلوا البــاب مفتوحــا ووضعوا قبعاتهم على رؤوسهم ... وكانوا يقولون وهم واقفون « أدل بصوتك .. ادل بصــوتك » . وظلوا على هــذا الوضع المتعجرف حتى انتهى أخذ الأصوات . ويظن المرء أن هؤلاء الصبية لم يأتوا من تلقاء انفسهم . انه نوع من التنظيم .

وأخيرا يسير المتطرفون وراء زعمائهم منكرين لذواتهم ومتفقين على رأى واحد مما لا يوجد عند المعتدلين . ان نظريات المساواة الديمقراطية التى ترتفع عالية فى بداية كل ثوراتنا لم تكن عقبة فى وجه المتطرفين لتطوير شىء يشبه كثيرا مبدأ الفوهرر الذى تربطه بالحركات الفاشية .. وهنا يتضح أن المعتــدلين الذين يعيشون من أجــل نظرياتهم ، وفى المراحــل المبكرة للثورات تكثر الشكاوى من أن فلانا يدعى لنفسه سلطات لا يريدها رجل طيب ..

فميرابو وكيرنسكى ــ اذا ما أردنا أن نضرب أمثلة واضحة ــ قــد اتهما من جانب المعتدلين والمتطرفين على السواء بأنهما يهدفان الى اقامة دكتاتورية فردية . ومع هذا فان روبسبير ولينين سارا على نهجهما تماما فى الغالب ولم نسمع غير الهتاف لهما على الأقل داخــل أوطانهما .. ان

تفخيم مبدأ القيادة يسرى فى كل تنظيم من اصغر جندى الى أعظم الأبطال القوميين من أمثال كروموبل وروبسبير ولينين .

وعلى العموم فهذه القيادة ذات أثر فعال ، ويمتلك هذه الخاصية على وجه أدق أولئك الذين يتربعون على أعلى قمة . واذا نظرنا اليهم نظرة شاملة وعلى أنهم آدميون أصحاب مواهب مختلفة فلا شك فى أننا نجد اختلافات لا يمكن انكارها بين هؤلاء الرجال الذين يشكلون الأركان العامة للمتطرفين . ان المشتغل بعلم النفس والقصاص وكذلك المؤرخ لن يستطيعوا أن يساووا بينهم جميعا . الا انهم عادة يشتركون فى سمة واحدة لها اهمية كبيرة من وجهة نظر المشتغل بعلم النفس ، انهم يتحدون جميعا بدرجات ممتفاوتة — فى المثل العليا وفى منتهى الاحتقار للمبادىء التى يستخدمها غيرهم من الرجال كمثل عليا . انهم يمثلون لونا غريبا عما ذكره أفلاطون فى خطته اللطيفة : انهم ليسوا ملوك الفلاسفة ولكن سفاحى الفلاسفة . انهم يمثلون الواقعية التى لا يحظى بها الا القليل من المعتدلين ثم ان فيهم حمية النبى لجمع الأتباع الذين يتوقعون أن تكون أورشليم الجديدة على قيد خطوات . انهم رجال واقعيون لا يصدهم أى شىء عن الجري لتحقيق مآربهم . انهم فى خدمة الجمال والخير .

ومثلا صغيرا نقتطفه من حياة لينين يوضح هذه النقطة . فى أحد الاجتماعات السرية للجنة المركزية للحزب الشيوعى البلشفى قبل ثورة أكتوبر مباشرة ، كان لينين يحرض زملاءه على الثورة وقد كانوا يظنون أن على البلاشفة أن يحترموا رأى غالبية الروس الذين كانوا ضدهم بصورة واضحة . قال لينين : « اننا نميل الى اعتبار التحضير المنتظم للقيام بثورة كأنه جريمة سياسية . وليس من العقل فى شىء أن ننتظر حتى يجتمع المجلس التأسيسى الذى لن يكون معنا أبدا » ، هذا هو لينين العملى الذى لا يقيم وزنا لشعار ديمقراطى يقف فى سبيله . وبعد ثورة أكتوبر كتب فى البرافدا عن « الأزمة التى كانت قد حدثت كنتيجة لانعدام الصلة بين الناخبين والمجلس التأسيسى وارادة الشعب ومصالح الطبقات الكادحة المستغلة » . وهنا تبدو ارادة الشعب على صورة ما فى القاع بالنسبة لارادة الحزب

البلشفى الذى يضم الأقلية . وهناك حالات مشـــابهة بالنسبة لروبسبير وكرومويل ، ونخشى أن نقول ذلك بالنسبة لزعيم مثل جفرسون . نفاق ؟ قد تبـــدو تلك الأعمـــال نفاقا عند أولئك الذين لا يملكون الا تصـــورات ضئيلة أو خبرات عملية قليلة عن العالم . ولكنها — على مستوى بطولى أنل — تعتبر الى حد بعيـــد جدا من الأعمال العادية للانســـان حتى أنها لا تستحق هذه الوصمة المهينة فهذا الرويسبير الذى حمل خطأ عبء حكم الاعدام وهو بعد شاب مثقف لم يدفع أعداءه الى المشنقة نفاقا . لقـــد اقتنع نفسه بأن أعداءه ليسوا بشرا على وجه الاطـــلاق بل آثمين وذوى نفوس ملوثة وعملاء لمـــا هو أشد نكرا من الشيطان وان ازالتهم من الوجود لم تكن فى الواقع عقوبة بالاعدام بالمعنى التقليدى بأى حال من الأحوال . وانك لتستطيع أن تعامل المجرمين العاديين وفق أعظم المبادىء الانسانية فى القانون . وكثيرا ما يقوم معظمنا بهـــذا التوفيق مع أنفسهم فى حياتهم اليومية . الا أن الاحساس بالراحـــة والظروف المناسبة والعادة وحتى الادراك يضع حدود التوفيق ولكن لاقيمة لهذه الحدود فى نظر المتطرف الثورى. ففى أثناء الثورة وخلال الأزمة تنقلب بصورة غير عادية المهـــام التى كان يقوم بهـــا الواقعيون والمثاليـــون فى الظروف الطبيعية . وهنـــا بايجاز يصبح الأعمى — أو المتنبىء — ملكا ، أما الرؤية العادية وهى التى تهم أطباء العيون فلا محل لها ولا فائدة ترجى منهـــا . ان لدى هؤلاء المتنبئين ما يجعلهم يتشبثون بمراكزهم القيادية . ولا شـــك أن كرومويل كان على قـــدر كبير مما يتصف به الانجليز من التنبؤ . ولم يكن لينين أبدا مثاليـــا أكاديميا . أما روبسبير فانه فى بعض الحالات أكثر هذه المجمـــوعة اتصافا بالتنبؤ الصحيح .

ومع هذا فانهم جميعا — ولا يستثنى من ذلك روبسبير نفسه — كانوا ممن يسميهم الناس رجال أعمال . كان فى استطاعتهم تحقيق أى شىء . كانوا ذوى قدرة على الادارة كما كانوا ذوى قدرة على التنفيـــذ ، وكانوا يديرون التنظيمـــات التى يحول العرف والروتين دون اقامتها الا بالقدر الضئيل الذى يحققه العمل الآلى . واذا كانوا قـــد خلفوا وراءهم سمعة تدمغهم بالمبالغة فى القسوة فان هذا الى حد ما انعكاس لمـــا يتركه الارهاب

فى نفوس غالبيتنا . ثم ان الغرض من هـذه القسوة التى يعاملون بها خصومهم هو تدعيم قيادتهم . فكرومويل اكتسب ثقة جماعة القديسين عند ما ارتكب مذابح الايرلنديين . كما أن الجيلوتين فى فرنسا ظلت لبضعة شهور الجيلوتين المقدسة . وتروتسكى عند ما كان يلم شمل الجنود البلاشفة ابان الحرب الأهلية أمر بقتل القائد ومأمور التعيينات وجنديا من كتيبة عمال بتروجراد كان قد هرب من الجيش ولم يتردد اطلاقا فى العمل على اقرار النظام باراقة الدماء مما بث الرعب فى قلوب زملائه الأرق قلبا . وبذا أصبح تروتسكى منقذا وبطلا . هذا كله والمدى لا يزال شاسعا قبل أن يصدر الأمر رقم واحد .

وفى نظر معظم الرجال توجد هوة بين أفعالهم وبين مهنتهم بين ما يعملون وبين ما يحبون أن يعملوا ، بين ما يعملون وما يظنون أن فى استطاعتهم عمله ، وحين تسير الأمور سيرا عاديا فانهم يحاولون أن تظل هذه الهوة ضيقة بقدر الامكان أو أنهم يحولون أنظارهم بعيدا عن جانب منها الى الجانب الآخر وذلك حتى لا يغرقوا فى المتاعب التى يسببها لهم هذا الجانب الذى تحولوا عنه . فاذا ما طبقنا هذا على زعماء المتطرفين فى أوقات الثورة فان الهوة تبدو لمن يراقبها وهو بعيد شيئا ضخما وأكبر مما فى الأوقات العادية . وهناك قليل من الرجال — كفوشيه مثلا — يبدون كارهابيين حتى يتمكنوا من أن يحموا أنفسهم . ولكن المتطرف المخلص فى ثورة ما هو وحده الذى يستطيع أن يقتل الناس لأنه يحب الانسان ، يستطيع أن يقر السلام بالعنف ويحرر الناس باستبعادهم . ان هذه التناقضات فى الأعمال قد تشل حركة الزعيم العملى ولكنها لا تقلق أبدا الزعماء المتطرفين . وحينما ينزعج الرجل العادى من شىء كانفصام الشخصية وحينما يؤلمه ضميره أو احساسه لما يجرى من الأمور يسير المتطرف قدما بعزم وشجاعة . ومهما كان اتساع الهوة بين ما هو واقع وما هو مثالى ابان فترة التأزم فانه قادر على اجتيازها وقتما يشاء . فلديه فى تلك اللحظة أحسن ما فى العالمين عالم الواقع وعالم المثاليات . وانه لقادر على انتقاء الأفراد للجان والوفود والمكاتب والوزارات

ومشاكل الادارة . ثم انه يستخدم الألفاظ الجميلة المقنعة التى تعمل أبان الثورات عمل السحر فى جموع الناس الغفيرة . ان هذه الموهبة الأخيرة هى التى تبدو وقد تركز فيها كل ما هو فوق أى قدرة لأشد ألوان المنافقين طموحا . فالزعماء الكبار لعصور الارهاب يصلحون لمهمتهم بموهبة عبقرية — موهبة تقف حائلا فى الأوقات العادية بينهم وبين السلطة السياسية وايمانهم « بالمطلق » ليس ادعاء انما أمر واقعى تماما كقدرتهم على انتهاز أية فرصة . وما المطلق الا السياسة العملية . وهناك فترة كتبها ف.و. ماتلاند F. W. Maitland استوحاها من كولردج وتوضح هذه النقطة .

« لقد لاحظ Coleridge كيف أنه فى أوقات اشتداد الاثارة السياسية تكون العبارات التى تصاغ فى السياسة غير واقعية وانما تصبح مجردة وغير عملية » وفى مثل هذه الأوقات يصوغ الناس نظرياتهم فى عبارات عامة وتسود روح التجريد ، ويبدو الخير النسبى أو الجزئى مثلا أعلى سيئا . وبعد فلسنا نعنى بهذا أشخاصا معينين أو أمما معينة أو عصرا من العصور وانما نعنى « الانسان » .

ثالثا — كفاية المتطرفين :

لم يكن الانتقال من المعارضة الى السلطة أمرا مفاجئا بالنسبة للمتطرفين . ان المسألة كلها ليست صراعا بين الحكومة والمعارضة ، بين من فى الحكم وخارجه ولكنها بين حكومتين داخل الدولة . وفى النظام القديم ربما لا يكون المتطرفون أكثر من مجموعة « ضاغطة » للثوريين تستولى تدريجيا ابان الاضطرابات فى المراحل الأولى للثورة على السلطات الحكومية التى لم تخضع للحكومة المؤقتة الوارثة شرعا للنظام القديم . وهذه العملية ظاهرة بصفة خاصة فى روسيا ولو أنها ظاهرة مشتركة فى كل ثوراتنا .

كان السوفيتيون يقومون بكل الأعمال الادارية ويعطى تروتسكى خلال دوره كمؤرخ لذلك أمثلة طيبة . « لقد اضطر السوفييت فى ساراتوف

الى التدخل فى معارك اقتصادية والى اعتقال رجال الصناعة. ومصادرة الترام التابع للبلجيكيين ، وادخال أجهزة الرقابة على العمال والى تنظيم الانتاج فى المصانع المهجورة ... وفى كثير من الأحايين كان السوفييت فى الأورال يؤلفون المحاكم لمحاكمة المواطنين ويكونون الميليشيا الخاصة بهم فى المصانع ويدفعون ثمن عتادهم من ميزانية المصنع وينظمون التفتيش على العمال ويزودون المصانع بالمواد الأولية والوقود ويشرفون على بيع المنتجات الصناعية ويحددون الأجور . وفى بعض مناطق الأورال كان السوفيتيون يأخذون الأرض من أصحابها ويزرعونها جماعيا .

وفى بعض المناطق فى روسيا كان من الواضح أن شعار « كل السلطات للسوفييت » قد أصبح زائدا عن اللازم حتى قبيل ثورة أكتوبر .

أما فى فرنسا فاننا نجد أن « جمعيات أصدقاء الدستور » لم تكن عند تكوينها فى ١٧٨٩ أكثر من جماعات ضاغطة ولكن لم يحل اليوم الثانى من يونيو ١٧١٣ حتى أخذوا يقومون بقدر كبير من الأعمال التى كانت الأجهزة الحكومية تنجزها عادة . وعند ما كانت « السلطات المسئولة » — وهو الاسم الذى كان اليعاقبة يطلقونه بكل احترام على المجالس الحاكمة والهيئات التشريعية — تفشل فى تحقيق ما يريده اليعاقبة كان اليعاقبة يقومون فورا بتحقيقه بأنفسهم ومما هو جدير بالذكر أن كل قوانين القمع صدرت عن أندية اليعاقبة فى المقاطعات . لقد نظمت تلك الأندية على نمط يشبه الهيئات البرلمانية ، بقواعد تحدد المناقشة وفيها لجان وموظفون ولها مضابط . وفى الواقع كان لها كل ما يجعل منها هيئة تشريعية صحيحة . وفى بعض الأحايين كان النادى يرغم المسئولين على اتباع السياسة التى يريدها اليعاقبة أو يقنعهم باتباعها .

واحيانا — اذا فشل فى ذلك — يصدر القوانين والمراسيم . وكان الأعضاء الذين يحتجون على هذا التدخل الشنيع فى أعمال المسئولين الذين اختيروا فى انتخابات شبه عامة يوصمون بأنهم من المعتدلين والسعيد منهم من نجا من الجيلوتين (المشنقة) فيما بعد .

اما ان الرجال الذين قاموا بالثورة الأمريكية كانوا غير مدربين على فن الحكم ، فهذا أمر معلوم لدى كتاب الأنجلوساكسون على جانبى الأطلنطى . ويجب علينا أن نذكر هنا أن ذلك الاستعداد لم يكن من النوع التقليدى القانونى . ولم يكن الراديكاليون الأمريكيون يتلقون الدراسات التى تؤهلهم لتولى الحكم من عملاء التاج فى اجتماعات المدينة والمجالس التشريعية فى المستعمرات فحسب بل ومراكز الدعاية الانتخابية واللجان والمؤتمرات التى تحمل نفس طابع السوفيتات ونوادى اليعاقبة . وفى الفصل التالى سنرى أنهم لم يترددوا فى استخدام الأساليب الارهابية للاحتفاظ بالسلطة كما استخدموها للوصول اليها . ويعزى تعقد الموقف فى انجلترا الى تلك الحقيقة وهى أنه رغم أن السلطة غير الشرعية كانت فى يد قيادة الجيش الحديث النموذجى فقد كانت جماعات الاستقلاليين تستخدم كعملاء للمتطرفين فى زحفهم لتولى الحكم . ولا شك أن الجيش بعد موقعة ناسبى أخذ يتدخل فى الأمور السياسية بأسلوب لم يمارسه من قبل اى جيش عادى . ولقد كان طرد البرسبتيريين من البرلمان لأول مرة بناء على قرارات اتخذها الجيش ولجنة الجيش ، ولكن جماعة الاستقلاليين وخاصة الاستقلاليين من رجال الكنيسة كانوا منذ فترة طويلة قد اشتركوا فى أمور دنيوية صرفة .

وفى هذا يقول الأستاذ جريرسون : « ليس الذى أقدم عليه لود Laud هو ما كان يشكو منه باكستر (أحد قديسى المتطهرين) انه يشكو من اشتراك رجال الدين فى الأمور الدنيوية المعاصرة »

ولذلك فالمتطرفون ليسوا سذجا أو عديمى الخبرة من الناحية السياسية . انهم يتمرسون بالخبرة الطويلة ابان ضغطهم كما أنهم يتدربون على القيام بشئون الحكم تدريبا شديدا وان بدت فترته قصيرة قبل أن يتمكنوا من السيطرة على الحكم سيطرة كاملة . ولئن نظرنا الى القواد أو الأتباع على أنهم عديمو الخبرة أو « مجرد نظريين » أو « من الغيبيين » كما اعتاد البعض أن ينظر اليهم وخاصة الكتاب الانجليز ،

لئن فعلنا ذلك فانما يكون ذلك ضربا من التضليل ، فلا أهدافهم ولا وسائلهم يمكن أن يوافق عليها أولئك « الطيبون » من العصر الفيكتورى من أمثال باجو Bagehot أو مين Maine أو حتى مما يمكن أن يعطفوا عليها . ولا شك أنهم مثاليون وأنهم يكنون الاحتقار للحل الوسط الا أنهم ليسوا من النظريين الأكاديميين الذين لا يصلحون كلية للعمل . بل الأمر على العكس من هذا . فانهم كانوا مهيأين للواقع بصورة تثير الاعجاب ويتلاءمون مع ظروف بيئتهم . والى هذا السبب يعزى نجاحهم .

ان عملية اقصاء المعتدلين تدل على البراعة وهى بعد نموذج ممتاز يوضح مقدرة القادة الثوريين ومدى تلاؤم التنظيمات الثورية للاضطلاع بمهامها . وهى كما رأينا ليست ثورة كبيرة شعبية . ان الجموع كانت تكيل الضربات العشوائية أثناء هجومها على الباستيل أو خلال قيامها بثورة فبراير فى بتروجراد على صورة يستحيل معها على المؤرخ أن يخرج منها بتقرير دقيق . ان هذه الجموع لم تتدخل فى عمليات التطهير التى قام بها بريد والجيرونديون وثورة أكتوبر .

وفى فرنسا وصل المتطرفون الى الحكم فى انقلابين كان أولهما الاطاحة بالملكية فى ١٠ أكتوبر سنة ١٧٩٢ ، التى تمت عن طريق الاسهام الدقيق من العناصر المختلفة التى تتألف منها الحكومة غير الشرعية : اليعاقبة ومختلف النوادى السياسية وأفراد الميليشيا المحلية الذين أتوا من مختلف أنحاء فرنسا لكى يحتفلوا بالذكرى السنوية لسقوط الباستيل والمنظمات المختلفة والتى انبثق منها كوميون باريس الثورى . وكانت كل هذه العناصر تقريبا هى نفسها التى اجتمعت بعد ذلك بعشرة شهور لانجاز المهمة الأسهل وهى تهديد المؤتمر للتخلى عن الجيرونديين . وقد كان دانتون وماران ومن المحتمل أيضا روبسبير وبكل تأكيد عدد آخر من الزعماء المهرة ولو أنهم أقل شهرة قد كونوا الهيئة العامة التى رسمت خطة الانقلابيين .

أما ثورة أكتوبر فقد تم اعدادها بطريقة متقنة ووصفت وصفا

واضحا فى كتاب تروتسكى عن «تاريخ الثورة الروسية» ولن نحتاج هنا الى الدخول فى تفاصيل هذا الاعداد ولكن هناك عبارة مقتبسة عن تروتسكى تكشف لنا « مدى العناية بالتفاصيل » لقد وجه عمال المطابع عن طريق اتحادهم نظر المجلس (مجلس الثورة العسكرى فى بتروجراد والهيئة العامة لثورة أكتوبر) الى ازدياد المنشورات والمطبوعات المعادية للثورة ومن ثم تقرر أنه فى كل حالات الشك يجب على الاتحاد أن يلتمس المشورة من مجلس الثورة العسكرى . ولقد كان لهذا التنظيم أعمق الأثر فى الرقابة على كل المطبوعات المثيرة المناهضة للثورة » .

ومن الطبيعى أن كان للمطبوعات المثيرة من يقومون بطبعها كما كان لها الحرية القانونية التى تتمتع بها الصحافة . ان بيرون فى الأرجنتين قد استخدم نفس الأسلوب ليتخلص من صحيفة « برنسا » المستقلة . وكان المعتدلون يلقون العنت قبيل الثورة البلشفية من مثل هذه الطرق . ولم يكن هناك أى تفكير فى اضراب عام ، وانما كان هناك سلسلة منسقة للاستيلاء على مراكز السلطة والصحافة والبريد والتلغراف والبنوك والوزارات .

ولربما كان القبض على شارل الأول على يد كورنت جويس Cornet Joyce فى ٣ يونية سنة ١٦٤٧ فى هولبى هاوس Holmby House أول ظاهرة من ظواهر سيطرة الجيش النموذجى الجديد على السلطة . وعندما سأل شارل جويس عمن كلفه بخلعه يقال أن جويس أجاب وهو يشير الى جنوده الذين اصطفوا أمام القصر « هؤلاء هم الذينكلفونى » . وهذه الاجابة ستعيننا على فهم كل ثوراتنا . فعند ما يقبض المتطرفون على زمام السلطة ينتهى كل اعتبار للحريات الفردية أو القانون .فالمتطرفون وهم فى المعارضة ينادون بالحرية والتسامح ولكن سرعان ما يصبحون دكتاتوريين عند ما يصلون الى الحكم . ولسنا فى حاجة الى أن نتألم من أجل ذلك أو أن نستشيط غضبا أو نتكلم عن النفاق اذ أننا نعمل على بيان التشابه فى سلوك الناس ابان بعض الثورات فى مواقف اجتماعية معينة .

ولربما كان المثال التالى أحد هذه المتشابهات . كتب جاردنر يقول أنه لم يمض أكثر من ستة أشهر على الزعيمين الاستقلاليين كروموبل Cromwell وفين Vane حتى وافقا على طرد بعض مئات من جامعة أكسفورد وهما اللذان كانا من قبل يجاهدان من أجل وضع دعائم نظام أثبتاه على رأس قائمة مقترحاتهما يقضى بنبذ أى تعصب بل انهما كانا يطالبان بوضع خطة للتسامح مع القساوسة الكاثوليك . وفى عهد البرلمان الطويل فرضت رقابة محكمة على المطبوعات كما اتجهت سياسة الحكومة بكل امكانياتها الى أن تفرض قسرا شرائع المتطهرين وأذواقهم . ولقد حدث نفس الشىء فى فرنسا وروسيا ، اذ سرعان ما طوقت كل من الحكومتين الجديدتين أعداءها ثم بدأت تضع أسس الارهاب للمرحلة التالية . وعند ما دبت الفوضى فى الجيش كما حدث فى روسيا وفرنسا تحت ضغط محاولات تطبيق مبادىء الحرية والاخاء والمساواة ، أعيد النظام فى شىء غير قليل من الحزم . ويصف تشمبرلن الوضع فى روسيا بقوله : « لقد بدأت السلطات العسكرية البلشفية تتحدث عما للجان العسكرية من أثر سىء هدام كما تحدث فى ذلك كورنيلوف ودينيكين وغيرهما من كبار ضباط الجيش فى سنة ١٩١٧ وبالتدرج أصبحت الطاعة العمياء لأوامر الضباط من الأمور الراسخة فى نظام الجيش الأحمر » .

وكانت رؤوس الاقتراحات ، و « موافقة الشعب » وهى الموضوعات التى تبناها الجيش تحت تأثير الاشتراكيين . عبارة عن اقتراح أشياء قريبة الشبه جدا مما سيكون فيما بعد من سمات ديمقراطية القرن التاسع عشر : دوائر انتخابية متساوية وبرلمانات متكررة وحدود معينة للسلطة التنفيذية بل ومنح حق الانتخاب لكل رجل . ولا يبدو مطلقا أن كروموبل كان من ذلك النوع من الثوار الذين يتمسكون بالعقائد والأقرب الى الاحتمال حقا ان نفسه كانت تجيش باحساسات تجاه السلطة والتقاليد من لون يتوقعه الانسان من أعيان الريف . واذا كان قد ضاق ذرعا بالحالة فمن المحتمل أن يكون ذلك منعا لعودة النظم البرلمانية القديمة ولا شك أن آخر ما كان يمكن عمله هو اجراء انتخابات مفتوحة وحرة . ولم يكن هذا

البرلمان المعروف باسم « برلمان القديسين » Parliament of Saints الذى انعقد فى سنة ١٦٥٣ بعد حل البرلمان الطويل بأكثر من مجلس مؤلف من المستقلين الموثوق بهم والذين اختيروا بالوسائل التى تختار بها الأندية أعضاءها .

لقد ظل البلاشفة يهاجمون الحكومة المؤقتة لعدة شهور بسبب عدم دعوة جمعية تأسيسية . وأخيرا تكونت هذه الجمعية نتيجة انتخابات عامة قبيل الانقلاب الذى قام به البلاشفة ، وكان البلاشفة أقلية فيها . وقام لينين بحل هذه الجمعية التأسيسية فى يناير سنة ١٩١٨ ببساطة متناهية ، الأمر الذى أزعج كثيرا من أتباعه رغم تمرسهم بالماركسية اذ رأوا فى هذا العمل تنكرا لأى احساس بالديمقراطية وبالتقاليد تماما كما تألم كثير من اليعاقبة الطيبين عند ما جابهتهم حقيقة الديكتاتورية الجديدة .

ثم جاءت النظرية بمثابة بلسم للضمائر الجريحة . فان نظرية الديكتاتورية الثورية تكاد تكون واحدة تماما فى كل من ثوراتنا الثلاث . الحرية لكل فرد ، الحرية الكاملة ، الطليقة من كل قيد ، والعادلة ، هذا هو من غير شك الهدف النهائى . ولكن مثل هذه الحرية فى الوقت الحاضر تعنى أن الأشخاص الذين أفسدتهم الأساليب القديمة الفاسدة قد يتمكنون من تحقيق خططهم الشريرة ، واستعادة النظم القديمة الفاسدة ، واعاقة المواطنين الصالحين . ويمضى المتطرف فيقول عند اعمال الفكر يتضح وجوب التفرقة بين الحرية لمن يستحقونها ، والحرية لمن لا يستحقونها ، وهذه الأخيرة بالطبع حرية زائفة ، شبه حرية ، أو فوضى . فالله منح الحرية للقديسين — الحرية الحقيقية التى هى طاعته ولكنه لم يمنح الحرية للآثمين . فأنت تحمد البابويين كما تحمد الشياطين . وكان القول بأن مثل هؤلاء الآثمين ينبغى أن يتركوا وشأنهم يبدو لجماعة البيوريتان من الانجليز فى القرن السابع عشر من الجنون كما يبدو لنا القول بأن البعوض الناقل للحمى الصفراء ينبغى أن يترك وشأنه . وقد عبر روبسبير نفسه عن ذلك أوضح تعبير فقال : ان الحكومة الثورية هى

السلطة المطلقة للحرية ضد الطغيان . أما ماركس فيرى ان دكتاتورية الطبقة العاملة هى مرحلة انتقال ضرورية فيها تزول كل آثار النظم الرأسمالية والعقلية الرأسمالية . ان استعمال القوة يكون ضروريا فى هذه الفترة — ولسوء الحظ أنها فترة غير محدودة. فالرأسمالى يظل رأسماليا على الدوام . ولكن عند ما يصبح الناس أخوة فى النهاية ، تبدأ حرية المجتمع اللاطبقى آخر الأمر .

والمتطرفون الذين يطربهم أن يعلموا أنهم يخدمون الحرية — بمعناها الحقيقى السامى — بتطبيق ما يبدو طغيانا لمن لا يرى رأيهم ، هؤلاء المتطرفون يمضون قدما لدعم سلطانهم عن طريق المنظمات . وقبل أن نحاول تقديم وصف موجز عام لهذه المنظمات ، يجدر بنا أن نلحظ تماثلا آخر . فانه بانتصار المتطرفين كما عرفناهم ، تتوقف عملية انتقال السلطة من اليمين الى اليسار . فالمتطرفون ليسوا فى الواقع خلوا من المشاكل التى واجهتها الجماعات المنتصرة منذ بداية الحركة الثورية . فهم ينمون الصراعات الداخلية ، ويميلون الى أن ينقسموا الى جماعات متخاصمة فيما بينها بحيث يستحيل عليها التعاون . ولكن هذه الجماعات لا يمكن أن تنتقل من اليمين الى اليسار ، وسرعان ما ينتهى خلافها وما بينها من نزاع وما يسببه الانقلاب من شغب واضطراب . فان هذه الانقسامات تصبح عندئذ مذهبية الى حد دقيق وبعيدة عن جماهير الشعب بحيث يمكن أن تتركز فى نفر قليل من القادة . ويحسمها النفى أو « القتل المشروع » — كما يبدو للأنصار المنهزمين — لبعض هؤلاء القادة . فالانتفاضات الشعبية التى بدأت على نطاق واسع قد انتهت الى ما يشبه قاعة المحكمة وما يتصل بها من مشاهد عنيفة ..

وأوضح حالة لذلك هى فرنسا . فان الجبليين المنتصرين فى الثانى من شهر يونيو انقسموا الى ثلاثة أحزاب كبرى ، حزب روبسبير ، وحزب دانتون ، وحزب هيبرت . وكانت هناك بالطبع أحزاب داخل تلك الأحزاب ، وقوى متصارعة ، ولو لم ينته الأمر باغتيال مارا فى صيف

١٧٩٣ لسارت الأمور الى أعقد من ذلك . وحينما انتصر روبسبير فى نهاية الأمر ، صور الموقف على أنه صراع بين الثوار الحقيقيين من ناحية والثوار المتطرفين (هيبرت) والثوار المعتدلين (دانتون) من ناحية أخرى . وكان يعتبر نفسه وسطا بين الرذيلة والبروليتارية والفساد البورجوازى . هكذا بلغ الموقف من التعقيد حدا لا يصدقه انسان . ولا يستطيع ازالة ما به من غموض الا بما لديه من معلومات . وقد أدين كل اتباع دانتون وهيبرت « الخونة » و « الفوضويون » أمام محكمة الثورة ، وذهبوا جماعتين كبيرتين أو اكثر الى المقصلة . وخلال الأشهر القليلة التالية أصبح « حزب روبسبير » يسيطر سيطرة تامة على فرنسا .

أما المستقلون المنتصرون فى انجلترا فى عام ١٦٤٩ فقد وجدوا أنفسهم فى مواجهة طوائف مختلفة اختلافا يدعو الى العجب ومنتصرة فى مجال الصالح العام من أجل التسامح التام مع كل « المنشقين » . وسوف نذكر كلمة سريعة عن الناحية المذهبية لهذه الجماعات . وفى الوقت نفسه ينبغى أن نلاحظ أن كرومويل لم يستمر فى اخماد البابويين والبروبستيريين والأساقفة فحسب بل انه هو وضباطه رأوا أن رجال الملكية الخامسة ، والفلاحين والاشتراكيين ، والقديسين وأنصار السلام ، وغيرهم يجب الا يسمح لهم بممارسة خططهم الشرسة . الفلاحون لن يتمكنوا من مواصلة الحفر فى الأرض . والأساليب القديمة التى تنادى بأنه « لا أعداء لليسار » ، والتى كانت سارية منذ بداية الثورة قد تركت عندئذ تماما . ويقول الأستاذ تريفيليان ان كل الثوار عند ما يضطلعون بالمسئوليات الحقيقية (الفعلية) ، يصبحون محافظين الى حد ما . فقد أعدم روبسبير الفوضويين . وكان القانون الادارى الأول لقاتلى الملك شارل هو اسكات الاشتراكيين . فهناك اذن ، اذا شئت ، أولئك الأشد تطرفا من الجماعة التى أطلقنا عليها اسم المتطرفين . غير أن هؤلاء الناس من طبقة المخبولين ، هم القوم غير العمليين الذين يظنهم بعض المحافظين — خطأ — خير من يمثل الثوار . وهم قطعا لا ينجحون فى الوصول الى الحكم .

والوضع الروسى لا يزال غامضا نوعا ما بالنسبة للمعارضة ضد البلشفية الرسمية بعد اكتوبر ١٩١٧ ، وهذا الغموض يبدو — من بعض الوجوه — اكثف . ومع ذلك فمن الواضح أنه حتى اثناء حياة لينين ، ولا سيما فى السنة أو نحوها التى تلت ثورة أكتوبر كانت هناك أزمات كثيرة داخل الحزب البلشفى ولقد قمع لينين وأتباعه الجماعات المعارضة حتى حينما كانت هذه الجماعات تدعى أنها أكثر « ثورية » من أتباع لينين — ولم يكن هناك مثل هذا الهراء حول « لا أعداء لليسار » . وبفضل النظام البارع للحزب البلشفى وخصوصا لطبيعة الحزب الضاغطة ضد البيض والحلفاء ، لم تكن هذه المنازعات شائعة شيوعها فى انجلترا وفرنسا . ولكن بعد وفاة لينين ظهرت هذه المنازعات واضحة أو اقرب ما تكون الى الوضوح . فان تروتسكى « المتطرف » وبوخارين « المعتدل » سقطا أمام ستالين كما سقط كل من دانتون وهيبرت أمام روبسبير . ويبدو أن المحاكمات والاعترافات الروسية التى جرت عام ١٩٣٠ وعمليات الارهاب التى صاحبتها تنتمى الى وجه مختلف من وجوه الثورة أو هى مشاكل داخلية لمجتمع فى احدى مراحل الثورة . ورغم بعض التشابهات السطحية ، فانها لا تبدو كجزء من التشابه الذى نبحثه هنا .

وهذه الأحزاب الصغيرة المعارضة قد نسجت فى غير نظام على يد جماعات شاذة متنوعة لم تقمع تماما حتى بلغ الارهاب ذروته . فهى تمثل ، كما رأينا ، طبقة المخبولين المعروفة فى أى حضارة معقدة ، وهى بوجه خاص تنشط ويرتفع صوتها فى المراحل الأولى لثوراتنا وخلال الصراع بين المعتدلين والمتطرفين . وهى أقل أهمية فى سير الثورات ، مما يحلو للمؤرخين المحافظين ، والمحافظين بوجه عام أن يصوروهما . ولكنها عناصر ذات شأن فى صلب العقيدة الثورية ، وهى توضح من نواح كثيرة التاريخ العام للانشقاق والمنشقين .

يقول ليتون ستراتشى « لم يصل العقل البشرى أبدا الى مثل تلك الدرجة العظيمة فى توكيد الذات مثلما وصل فى انجلترا حوالى

سنة ١٦٥٠ » . وبالتأكيد فان ما نظنه الآن من تأصل حب البريطانيين للحلول الوسط ليس ظاهرا تماما فى هذه السنين . ويذكر ستراتشى فى سخرية أن فى مقدور المرء أن يصبح بهيميا ، بيد لينيا ، كوبيتا ، أوسالمون أو ممن ينكرون وجوب تعميد الأطفال أو تيروينا أو فيلادلفيا أو كرستاد ليفا أو اى شىء آخر صارفا النظر عن الموضوع الذى كان يكتب عنه فى الواقع ، وهو لودفيك ماجلتون مؤسس الحزب القائم حاليا ، والمعروف باسم «الماجلتونيين "Muggletonians" » وهذه المصطلحات تكاد تعنى قليلا بالنسبة لنا اليوم كما كانت الحال بالنسبة للمصطلحات التى كان يشار بها الى جون جودوين فى الجزء الثالث من « جانجرينا » شيع متشابهة هى خليط من السوسينانية والبابوية والالحاد والحرية ونكران التدرية والاباحية والاستقلال وهذا خليط عجيب من المتناقضات ، كما لو كان الانسان اليوم مزيجا من الشيوعية ، والنازية ، والفاشية ، والجمهورية ، التحريمية . ويقول مستر جوش : « ان الثورة الانجليزية تقدم لنا بعض التأملات الشيوعية الهامة جدا فى التاريخ . فمنذ ١٦٤٧ طبع جون هير كتيبا هاجم فيه نظام الملكية الخاصة دون أن يوضح تماما ما الذى يمكن أن يحل محلها . حث تشمبرلين فى كتابه « نصر الفقير » Poor Man's Advocate » على تأميم ممتلكات التاج والكنيسة ، وعلى اعادة كل الأراضى المشاعة التى شملها نظام الوقف ، وعلى تسمية هذه الأراضى بالرصيد الوطنى ، وعلى ادارتها لمنفعة الفقراء .

ومع ذلك يعتبر الحفارون (The Diggers) أشهر هذه الجماعات الشيوعية ، لا لشىء سوى أنهم حاولوا أن يضعوا آراءهم موضع التنفيذ . وقد قدمت الحركة بكتيب غامض ظهر فى ديسمبر ١٦٤٨ وكان عنوانه من سمات العصر « شعاع ضوء فى باكنجهامشير Light Shining in Buckinghamshire» . وفى ابريل ١٦٤٩ ذهب آفارارد ، وهو جندى من الجيش النموذجى الحديث ، مع نفر من أتباعه الى تل سان جورج فى سوراى « وبداوا يحرثون الأرض ويزرعون الفجل ، والجزر ، والفول » وقال افارارد ان صوتا أمره أن يحفر الأرض ويحرثها ويجنى ثمار عمله .

ولم يكن فى نيتهم أن يتدخلوا فى الأرض المسورة ، ولكن فقط أن يأخذوا الأرض المشاعة والبور ويستصلحوها » . وفى ذلك الوقت تركهم الجنرال فيرفاكس لشأنهم اذ يبدو انه اعتبرهم متعصبين لا ضرر منهم .

وكان رجال الملكية الخامسة يقولون ان ملكية الانجيل الرابعة قاربت النهاية ، وأن الملكية الخامسة أو حكم القديسين قاب قوسين أو أدنى .. وكانوا هم —بالطبع— القديسين. على أنهم انقسموا حول مسألة ما اذا كان لهم أن يساعدوا العناية الالهية أم لا . فبعضهم كان يرى أن الله بنفسه قادر على أن يقهر الأقوياء فى هذا العالم ، وكان البعض يرى أنه من المطابق للقانون ومن المفيد محاربة أعداء الله بالأسلحة المادية ، والتعجيل باليوم الذى يستولى فيه القديسون على الثورة وأن يحكموا معه على الأرض . وتذكرنا مشكلتهم بالمشكلة التى واجهت الاشتراكيين فى القرن التاسع عشر وهم الذين كان عليهم أن يختاروا بين المكافحين والمصلحين .

وبالنسبة الى ثروة الخيال كان الانجليز يحلمون بجنة على الأرض ، فانه يبدو أن الثورتين الأخريين المتطرفين قد حركهما الفقر. وربما كان الاعتقاد الانجلو — سكسونى القديم فى افتقار الفرنسيين الى الخيال صحيحا ، ولكن من المؤكد انه لا يمكن أن يؤخذ هذا على الروسيين . ربما كانت الاجابة هى ببساطة أنه كمصادر للالهام الخيالى ، لا التنوير الذى قام به فلاسفة القرن الثامن عشر ، ولا المادية التاريخية عند الماركسيين صالحتان لتفسير احدى آيات الانجيل . ومع ذلك كان بفرنسا كثير من المخبولين . فان « الغاضبين » الذين كان يقودهم فارليت ورو والذين كانوا يستندون الى حد بعيد على الفئات الفقيرة فى باريس ، كانوا يعتنقون — كما يبدو — مذهبا شيوعيا الى حد ما . وعلى أية حال فقد كانوا ضد الأثرياء بشكل واضح ، وضد الأرستقراطية الجديدة من التجار . والهيبرتيون Hébertistes ، وهم جماعة شعبية باريسية أخرى — يحدث خلط احيانا بينهم وبين « الغاضبين » — وكان لهم قادة من الكتاب والصحفيين

ولكن صلب دعوتهم كان لا بد مغذيا الأحلام الخيالية الى حد ما . وكانت هناك جماعة صغيرة حول كاترين تيو « أم الله » — متخذة روبسبير على الأقل انه من آيات الله . ويبدو فى الواقع أن الأساتذة الجمهوريين فى فرنسا على حق وأن كثيرا من هذا قد أثاره أعداء روبسبير ليظهروه بمظهر مضحك ، اذ انه حتى فى أوقات تأزم الثورات يميل بعض الناس الى الى الدعاية . ومع ذلك تبقى الحقيقة وهى أن كاترين تيو وجماعتها كانت موجودة .

أما فى روسيا فان تمام النصر البلشفى وسرعته قد يفسر الافتقار النسبى للعالم الخيالى . حقا أنه من ١٩١٨ الى ١٩٢١ كان على البلشفيين أن يحاربوا البيض والحلفاء فى كثير من الجبهات ، وانه فى منطقة أوكرانيا ، مثلا ، تستطيع أن تجد كل شىء من الحكام القياصرة الى الشعبيين ومن مؤدى حكام العصابات الى الحمر الصميمين . ولكن هناك قسوة بالغة الشدة فى الثورة الروسية هى التى أبعدت الأحلام الوديعة لايفارارد وكاترين تيو .

رابعا : جهاز الدكتاتورية :

تجسدت دكتاتورية المتطرفين فى أشكال حكومية كتركيز مؤقت سريع . أما تفصيلا ، فان هذه الأشكال تتنوع فى مجتمعاتنا المختلفة ، ولكن الكومنولث فى انجلترا ، وحكومة الثورة فى فرنسا والدكتاتورية البلشفية خلال فترة « حرب الشيوعية » فى روسيا كلها تبين تماثلات من النوع الذى لا يتردد الدارس فى علم الحيوان أن يسميها تماثلات . خصوصا وأن اصدار القرارات النهائية فى كثير من الأمور قد انتزع من السلطات المحلية الثانوية لا سيما اذا كانت تلك السلطات قد انتخبت بطريقة ديمقراطية وتركز فى نفر من الأشخاص فى العاصمة الوطنية . ومع ذلك فان أسماء كرومويل وروبسبير ولينين تبرز كأمثلة لأولئك الحكام ، وعلى الرغم من أن هؤلاء الرجال قد مارسوا سلطات لا تحد ، فان الشكل المميز

لهذه السلطة العليا هو شكل اللجنة وهذه الهيئة التنفيذية المركزية — لجنة الأمن العام — اللجنة المركزية التنفيذية لكل الروس تنفذ اوامرها بواسطة بيروقراطية غير مؤهلة ، اختيرت الى حد بعيد من العاملين فى الأحـزاب ومن الجماعة الضاغطة التى رأينا أنها صلب الجماعة المتطرفة . ولاتستطيع المحاكم القديمة أن تعمل على الأقل وفق طريقتها التقليدية . ولذلك وضع بجانبها محاكم استثنائية ، ومحاكم ثورية ، أو غيرت كلية بتعيينات جديدة وتشريعات خاصة. وأخيرا يظهر نوع خاص من البوليس الثورى. والشيكا الروسية معروفة لكل من له المـام بسيط بالتاريخ الحديث . واستمرار وجودها تحت أسماء مختلفة الى الوقت الحاضر أمر واضح لا يدل كثيرا على أن روسيا فى ثورة مستمرة دلالته على أن روسيا الستالينية هى من نواح كثيرة روسيا القيصرية التى كان لها هى الأخرى بوليس سرى . وفى فرنسا كانت لجنة الأمن العام واللجان الثورية تنفذ مهام البوليس هذه . وفى الثـورة الانجليزية كانت تنفذ بكـل دقة بواسطة الأسقفية المستقلة الجديدة ، تساعدها لهذا الغرض لجان من الجيش . ولكن فى انجلترا كان كل جهـاز التركيز الحـكومى بدائيا وبسيطا — دكتاتورية كرومويل غير المـألوفة ، والقضاء الجديد الذى انشأه الثوار فى مارس ١٦٥٠ والذى ارتبطت فيه السلطات التشريعية والادارية والقضائية ارتباطا وثيقا كما كانت الحال فى مجلس تيودور واستيوارت والتجـربة الغريبة للجنرالات الغريبة الكبار فى ١٦٥٥ — ١٩٥٦ . وحقيقة التركيز فى انجلترا أمر مسلم به . فان المهام المقدسة الملقاة على عاتق أقدس حارس للحريات الانجليزية المحلية — قاضى الصلح — كانت موضع هجوم طوال سيطرة المتطرفين .

وهذه الدكتاتوريات الارتجالية لم تواجهها المشاكل العادية للحـكومة فحسب ، بل انها الحرب الأهليـة والخارجية كذلك ، وعدد غير قليل من اجراءات الاصلاح الحقيقية التى كان عليهم أن ينفذوها . وبوجه خاص فى الثورتين الفرنسية والروسية ، كان على الحكومة الجديدة — لكى تتجنب الخلاف حول معنى الاشتراكية — ان تنفذ ما يمكن ان نطلق عليـه اسم اجراءات التخطيط الاقتصـادى — تثبيت الأسـعار والأجـور ، والعملة

الموجهة ، وتوزيع الطعام ، وغير ذلك . ولا يعنينا هنا أن نبحث فى مشكلة ما اذا كانت هذه الاجراءات فى فرنسا اجراءات حرب خالصة أم لا . المهم أن الحكومة وجدت نفسها مضطرة لمحاولة اجرائها .

وفى روسيا كانت هناك بالطبع جهود واضحة لتجسيد الاشتراكية الماركسية فى نظم عمالية .

ولكن هذه كلها أشكالا سريعة مؤقتة للدكتاتورية . فحكومات الارهاب كانت بوجه عام أقل فاعلية ، وذات سلطة مطلقة أقل من كثير من حكومات زمن السلم بشكل لا يتناسب مع شهرتها فى التعسف والميل الى القتل . وكانت حكومة ستالين مركزة تركيزا قويا أكثر من حكومة لينين . وكذلك حكومة نابليون اذا قورنت بحكومة روبسبير . والحقيقة أن أحد الأسباب التى من أجلها تبدو حكومات الارهاب بمثل هذا الطغيان وصعوبة الاحتمال بل والرجعية ، هو بالتحديد أنها كانت عاجزة . وكانت تؤدى واجباتها الضخمة — ما عدا انجلترا وفرنسا وروسيا عن طريق الانحلال أو الغزو ولكنها كانت تقوم بها بطرق غير شريفة للغاية ، وبالتفصيل ، بطريقة سيئة جدا . وكان المنفذون الحقيقيون عادة عديمى الخبرة ، وكانوا غالبا من المتعصبين التافهين الذين وصلوا الى الشهرة فى النوادى أو الحزب . وكانوا يتعرضون لضغط شديد من أعلى كى يصلوا الى نتائج . وكانوا فى أغلب الأحيان يقومون بأعمال ترتضيها الثورة — مثل مصادرة اقطاعيات الملكيين والمخصصات الكنسية فى انجلترا ، والتصرف فى أرض الكنيسة المصادرة والمهاجرين فى فرنسا ، وتأميم الأرض والمصانع فى روسيا — مما أتاح لهم فرصا واسعة للوصول . وكان عليهم أن يتعاملوا مع جمهور كثير منه ان لم يكن أغلبه ممن لا يوثق به أو هو يقف موقف العداء . فلا يأخذنا العجب كثيرا اذن اذا رأينا أن عهود الارهاب هذه أصبحت تمثل أعمال العنف الشديد وأن تاريخها الكامل معقد أشد التعقيد . وليس أكثر توضيحا فى دراسة هذه الثورات من دراسة التاريخ المحلى . فأنت هنا ترى الارهاب على نحو ما كان فى الواقع ، ليس حكما ثابتا ولا فعالا من أعلى ،

كما هى الحال فى الجيش أو فى أسبرطة ، ولكن حالة من القلق والخوف ، وانحلال للقولنيين القليلة الجادة للحياة الاقليميـــة . والكثير يتوقف على مظاهر الشخصية — مواطن صالح ، أو مواطن ثورى معتدل أو الاثنين معا ، وقد تستطيع قرية ما المضى فى الثورة بثبات . وفى أخرى قد يسود الارهاب بشراسة كما فى العاصمة .

وعجز الحكومات فى فترات التأزم يظهر واضحا جليـــا فى محاولاتها لتنظيم الحياة الاقتصادية للدولة والسيطرة عليها . وهذا الموضوع برمته قد يكون قليل الصلة جدا بالمشكلة العامة التى يطلق عليهـــا « التخطيط الاقتصادى » وعلينا أن نؤكد من جـــديد أن الذى يعنينا هنا هو تشريح ثورات معينة . ويكفى أن نقول انه فى فرنســـا فى ١٧٩٣ — ١٧٩٤ ، وفى روسيا فى ١٩١٨ — ١٩٢١ كانت الجيوش عامرة بالذخـــيرة ، وبقى بعض المدنيين أحياء فى ظل سيطرة تامة مطلقة على النشاط الاقتصادى . والحد الأقصى عند الفرنسيين كان يعنى بالطبع تثبيت الأسعار والأجور ، والحرب الشيوعية الروسية كانت صورة أكثر كمالا للتخطيط المركزى . ومع ذلك ففى فرنسا كان الخروج على هذا الحد الأقصى شائعا جـــدا ، والتاريخ التفصيلى للحد الأقصى باعتباره جزءا من التاريخ المحلى يمدنا لا محـــالة ببعض الحوادث المسلية . وفى روسيا كانت التجـــارة غير المشروعة فى سنى الحرب كبيرة الشبه جدا بالسوق السوداء عندنا . وسوق سوخاريفكا الشهير فى موســـكو كان يهاجم من وقت الى آخر ، ولكن حكومة لينين غضت الطرف عنـــه . وكان كل المقيمين فى المدن القـــادرون يذهبون الى الريف ليساوموا الفلاحين على كميات الأطعمة المحرمة . وهنا نجد مرة أخـــرى أن التفاصيل القليلة لدقائق الحيـــاة اليومية ساحرة ، وتحتـــاج الى كل مواهب المؤرخ الاجتماعى . ويبـــدو أن هناك شبه تسليم اجمـــاعى من المؤرخين ، حتى المعادين منهم للثورات عامة ، بأنه خلال فترات التأزم تندر جرائم العنف العادية . وقد يكون هناك كثير من القسوة والفســـاد بين هؤلاء الحكام والقضاة الجدد ، وقد يكون العهد الجديد أبعد شىء عن اقرار

السلام والنظام ، ولكن اللصوص المعروفين ، وقطاع الطرق ، والخطافين وأمثالهم لا يكونون شديدى النشـــاط . وتعليل المحافظين لذلك هو انهم حصلوا جميعا على مناصب حكومية . ومع ذلك فاننا لا نقبل هذا على انه تفسير جامع . ويبدو محتملا أن المجرمين العاديين قد ذعروا فى ذلك الوقت نظرا للحملة الشديدة ضد الرذيلة العادية والجـريمة التى هى جزء من فترة التأزم والتى سنعود اليها بعد قليل . فاللصوص الذين لا خطر لهم بل والبغايا فى أحيان كثيرة قد تم التصرف فيهم بلا محاكمة بواسطة الأحكام العرفية فى أثناء الثورة الفرنسية ، وحدث مثل ذلك فى انجلترا وروسيا . على أنه ليس من المسلم به دائما أنك تستطيع ارهاب المجرمين بالمحاكمات العرفية . وهنا كما فى سائر أجزاء هذا الكتاب نقوم بدراسة مجمـوعة خاصة من الأحداث ، باحثين عن بعض التشابه ، غير محاولين الوصول الى نتائج عامة فى ميدان كميدان علم الجريمة . ومن الجائز أنه فى حالات التوتر العام ، وفى اثناء توسيع مجال الشئون العـــامة بشكل غير عادى بحيث تصبح الأمور الخاصة شبه مستحيلة تكون الجريمة العادية — وهى من الأشياء الخاصة — صعبة الحدوث . فالمجرم ينزعج ، ليس فقط خوفا من تطبيق الأحـــكام العرفية ، بل من خوف غامض عام يشترك فيـــه مع المواطنين العـــاديين . فالخوف لا يحتاج الى موضوع وفى عهد الارهـــاب لا موضوع فى يوجدالغالب وعلينا أن نذكر أن فترة التأزم تكون قصيرة — بضعة شهور أو بضع سنين على الأكثر . وعلى اية حال ، يبدو تشـــابه بسيط مرة اخـــرى من جديد وهو أن انخفاضا ملحوظا فى عدد الجـــرائم العادية يبدو واضحا خلال تلك الفترة . ويلاحظ مستر تشمبرلين أن موسكو كانت فى ١٩١٨ — ١٩١٩ مكانا آمنا جـدا للمعيشة — اذا استطعت أن تحصل على كفايتك من الطعام والدفء .

وهنـــاك عادة فترة قصيرة بين التخلص من المعتدلين وبين ظهـــور الارهاب بشكل كامل . فأجهزة الارهاب ، على الرغم من تجمعهـــا على عجل ، لا يمكن أن تتجمع بين عشية وضحاها . ورغم ان الثورة فى ايامها الأولى كان لها نصيب من العنف ، فقد كانت تتخللها فترات من الســـلام

الظاهرى خلال اوقات الصراع بين المعتدلين والمتطرفين . ولا يصل ضغط الأعداء الخارجيين وحلفائهم المهاجرين مباشرة الى اقصى حــدود قوته . ومع ذلك فبمرور الأيام تأخــذ القوى الممهدة للارهاب فى العمــل بأقصى طاقاتهــا .

وقد وصفنا بايجاز فى هذا الفصل ظهور المتطرفين وحاولنا أن نحلل أسباب انتصارهم . وقــد سرنا معهم الى حيث استغلوا كل الخــلافات الهامة بين الجماعات ، ودعموا موقفهم باقامة نظــام مركزى للحكومة . وخلال الشهور القليلة التالية أو خلال سنة أو نحوها ، يستطيع المتطرفون أن يسيروا فى تطرفهم كما يشاءون . فلا أحد يجرؤ على تحديهم . ثم وصلنا الى تلك الفترة الحرجة فى حمى الثورة التى يطلق عليها الناس عادة حكم الارهاب . وهذا الموضوع البالغ الأهمية يجب أن يعالج فى فصل منفصل .

الفصل السابع

عهود الارهــاب والفضيلة

١ ــ انحراف الارهــاب :

« ٨ أغسطس ١٧٧٥ . أخذ قطــاع الطرق رجــلا من نيوملفــورد كونيتكت ــ وهو من المحافظين الذين لا رجاء فى اصلاحهم ، وكان قد وصفهم بأنهم من الثوار الملعونين ، الخ ، وأجبروه على السير أمامهم الى لتشفيلد ، وهى تبعد عشرين ميلا ، حاملا احدى أوزاته طول الطريق فى يده . وحينما وصلوا الى هناك لطخوه « بالزفت » وأمروه بنزع ريش أوزته ، ثم وضعوا الريش عليــه ، وطردوه خارج القــاعة واضطروه أن يركع على ركبتيه ويشكرهم لتسامحهم . وكذلك أعد يعاقبه روديز فى جنوب فرنسا قائمة بأسماء « الكلاب اللعينة من النبلاء » وبأسماء غير الجديرين بشوارب الرجــال ، وهى الرمز الجديد للوطنية ، والرجولة الجمهورية ، والاستقامة . ثم أمروا لجنة المراقبة بالقبض على أى شخص من هؤلاء يجــرؤ على اظهار شارب وانتزاع لحيته وشاربه ، « وبأن تكون حريصة على أن تتم العمليــة دون صابون وبأسوأ موسى يمكن الحصول عليها » . ويبدو أن حلاقة الذقن من العمليات التى تفوق اجراءات الزينــة العادية فى الأهمية لأنه فى ٣ أكتوبر ١٧٧٥ حدث أن اجتمع أبناء الحرية بنيويورك فى مؤتمر هام ، وصمموا على « شكر مستر جاكوب فريدنبرج ، الحلاق ، لسلوكه الحــازم الوطنى حيث رفض اتمام العملية التى يطلق عليها العامة حلاقة الذقن وكان قد بدأها على وجه الكابتن جون كروز ، قائد احــدى سفن نقل صاحب الجلالة . . . ومن المرغوب فيه أن يحتذى كل الحلاقين هذا المثال الحكيم ، الحذر ، الهام » .

والتفاصيل الصغيرة غير الخطيرة مهمة ، لأنها تساعدنا على معرفة مدى عوج حكم الارهــاب . فالأمر لا يقتصر على مسرحية المقصلة وفرقة الرمى بالرصاص أو الصراع الشديد من أجــل الحكم بين قادة النظــام الجديد ، أو التوتر الناشىء عن الحرب الأهليــة او الخارجية ، بل يمتد أيضا الى مأساة آلاف الأرواح الصغيرة التى غزتها المسائل البطــولية

التى لا تعنيها — من وجهة النظر العادية — على الاطلاق . فالارهاب يمس الكبار والصغار بما للبدعة من قوة شريرة ، وهو قلما يأخذ الرجال للصالح العام ، الا اذا كانوا بحكم عملهم متفرغين لدراسة السياسة أو ممارستها . وخلال عهد الارهاب أصبحت السياسة أمرا لا مفر منه ولازمة لجون جونس أو جاك ديبون أو ايفان ايفانوفتش لزوم الطعام والشراب ، والزوجة أو الخليلة ، والعمل والطقس . فاللامبالاة السياسية التى هى قوام الدولة الحديثة تصبح مستحيلة حتى بالنسبة لأشد الناس أنانية وأكثرهم عزوفا عن الدنيا .

وهذه المشارية فى الأشباه العامة ، فى مسرحية الدولة الثائرة ، تعنى أشياء مختلفة بالنسبة لمن يجوز أن نسميهم بالمراقبين من الخارج ولمن يصح أن نسميهم بالمراقبين من الداخل . والتعارض هنا أمر ملائم جدا . فمما لا شك فيه أن هناك تدرجات غير محسوسة ابتداء من المتطرف الثورى المتحمس — ايفاريست جاملان الذى صوره بمهارة اناتول فرانس فى « الآلهة عطشى » مثلا — الى الوسط الحيادى الذى لا لون له الى المعادين للثورة من المضغوط عليهم . ولكن فى الخطوط العريضة فان الفضل بين الكثرة ممن هم خارج العقيدة الثورية وبين القلة من جماعات المؤمنين « المستقيمين » فى النظام الجديد أمر جدير بالذكر . ولنبدأ النظر أولا الى الارهاب من حيث تأثيره على حياة المراقب من الخارج .

٢ — الارهاب والمراقب من الخارج :

هذا المراقب العادى من الخارج ليس هو الشخص المعادى بطريقة فعالة ، الهارب فى الحقيقة أو ، كما يطلق عليه الفرنسيون حاليا ، الهارب روحيا ، الهارب بروحه ان لم يكن بجسمه الى بعيد . فليس هو المعتدل الذى خاب أمله . وانما هو الرجل الذى يكون معظم المجتمعات الحديثة ، الرجل الذى يتقبل بوجه عام ما يفعله الآخرون فى ميدان السياسة هو الرجل الذى سرعان ما يلحق بالركب . وفى فترة

التأزم بصفة خاصة تكون الثورة قاسية جدا على هذا المراقب من الخارج. فهى قد تمده بعدد معين من المظاهر فى شكل احتفالات متنوعة للعقائد الثورية الجديدة — كالاستعراضات ، وأشجار الحرية ، وما الى ذلك . ولكن من المؤكد أن هناك فى الثورة الفرنسية دلائل كثيرة على أن المراقبين من الخارج سرعان ما اجهدهم ذلك جدا ، وانهم وجدوا على المدى الطويل أن الاحتفالات الكاثوليكية القديمة أقرب الى مشاربهم . وان المرء ليتساءل ان كان الناس قد سئموا الاحتفالات التى يبدو ان ستالين كان يجيد اقامتها . ومن ناحية أخرى ، فليس من شك فى أن ثوارنا الحديثين يديرون المسرح بمهارة أكثر من سابقيهم ، ولا شك أن نماذج ثوراتنا ليست متماثلة تماما .

ويبدو أن الجنون الثورى بتغيير الأسماء يميل الى أن يصيب المراقب الخارجى بالارتباك والغضب . وقد قصر الانجليز جهودهم الى حد بعيد على أسماء الأشخاص ، وحصلوا على نتائج هامة . فلم تعد غريبة علينا جميا أسماء مثل Praise God Barebone (بيربون حمد الله) وفورتيكيش وليمز الواثق بالمسيح واللاجىء اليه Put thy Just in Christ أما اسم وليمز ابن السفاح فقد كان أكثر أسطورة . أما البيوريتان (المتطهرون) فقد استمدوا من الانجيل ومن التجريدات الانجيلية كلمات الايمان والحذر والاحسان وما اليها ، أما الفرنسيون فقد استمدوا أسماءهم من الأيام الفضيلة عند الجمهوريين من الرومان ومن تجريدات فلاسفة عهد الاستنارة ، ومن قادتهم وشهدائهم . فقد أصبح بابيف ، المبشر بالاشتراكية ، جراكوس بابيف ، أما كلود هنرى ، كونت سان سيمون ، فقد احتفظ كل منهما بأسمائه الأولى ولكنه الصق بنفسه اسم قديس فأصبح كلود هنرى بونوم . واصحاب الحظ السىء الذين كانوا يسمون ليروا (الملوك) وجدوا من الأوفق تغيير اسمهم الى لالوا (القوانين) أو شىء وطنى من هذا القبيل . وقد عمد احد اليعاقبة المؤمنين طفله باسم جمهورى . ومع ذلك لم يقف الفرنسيون عند حد الأشخاص . فأسماء الشوارع تغيرت ، فميدان لويس الخامس عشر اصبح اسمه ميدان الثورة ، وشارع التاج أصبح اسمه شارع الأمة . وقد أصاب

أسماء الأماكن تغييرات بالجملة لا بد أنها أضافت الى متاعب فترة الحرب أعباء جديدة بالنسبة للخدمة البريدية . ومعظم القديسين سقطت اسماؤهم . وهذا وحده أدى الى كثير من المتاعب . وليون ، حينما أخطأت فى حق الثورة بانحيازها الى الفيدراليين ، أعيدت تسميتها باسم « المدينة المحررة » وذلك حينما استولت عليها قوات « المؤتمر » . والهافر أصبحت هافر — مارا . وعند التحية استبدلت كلمة « مواطن » بالسيد. ولفترة ما كانت كلمة « ملك » من المحرمات بشكل واضح مثل المحرمات التى يدرسها عالم الأجناس ، وحذفت بشكل حقيقى عند الكتاب الكلاسكيين مثل راسين . وكانت هناك محاولة ، لعلها جادة ، ولعلها صحفية ، لتغيير اسم « ملكة النحل » الى النحلة « النحلة التى تبيض » .

ولتغيير كل شىء من الماضى البغيض ، قرر الثوار الفرنسيون أن يغيروا التقويم وأن يزيلوا أسماء مثل يناير الذى كان يذكرهم بالاله الرومانى الشرير القديم جانوس أو يوليو الذى كان يذكرهم بالطاغية الرومانى الأشد ميلا الى الشر ، يوليوس قيصر. ولذلك ادخلوا اثنى عشر شهرا جديدا ، واسموها ، بالفرنسية العذبة ، بأسماء الأعمال الرائعة للطبيعة — مجيرمينال ، شهر البذور ، وفريكتيدور ، شهر اليضوج ، وبرومير ، شهر الضباب . وعلى الرغم من أن الفرنسيين كانوا يفاخرون بعالمية أهدافهم ومبادئهم ، لم يبالوا على ما يبدو بذلك التحديد الضيق لتقويمهم الجديد وقصره على الأحوال الجوية الفرنسية . فالتقويم بالطبع لا يتلاءم مع استراليا ولا وسط أمريكا الغربى .

والروسيون ، الى جانب ولعهم بأسماء الحرب الثورية والشخصية ، أصبحوا اشد ولعا بتغيير أسماء الأماكن ، وعلى عكس الفرنسيين ، قد جعلوها الى الآن تلصق بالذهن طالما أن هذه الأسماء للصالحين من انصار ستالين . فكاترين العظيمة ، بوجه خاص ، لها أعمال مجيدة مثل الاسكندر الأكبر ، ولكنها اختفت مع ذلك من روسيا السوفيتية ، فاسم اكاتيرينودار، أصبح كرازنودار واكاتيرينبرج أصبح سفيردلفسك واكاتيرينوسلاف أصبح دنبروبتروفسك . كما أن نيزنى ذوفجودود المألوفة ، اصبحت لنقص فى

موسيقية اللفظ ، جوركى . وقد فعل ستالين لنفسه خير ما يفعل رجل فى حياته. ولعل ستالين أباد أعجب ما فى أسماء المدن الستالينية ، ولكن اكثر الأمور دلالة هو بلا شك تغيير تساريتزين الى ستالينجراد وهو ليس المكان الوحيد الذى غير فيه ستالين اسم قيصر. ولعل دورها فى الحرب الأخيرة قد ثبت اسم ستالينجراد ضد أىشىء ، ولكنه تغيير ثورىبشكل لا يتصور أصاب هذه الأسماء كلها بما فيها ستالينجراد نفسها التغيير بعد وفاة ستالين وبدء خروشوف لكشف اخطائه . ومنذ قديم حلت كلمة « رفيق » فى العرف الاشتراكى محل « مواطن » فى الثورة الفرنسية . والأطفال ، كذلك ، أطلقت عليهم أسماء مناسبة لأيامهم . وفلاديلين ، وهو اسم ناتج عن تداخل فلاديمير ولينين ، هو أحد الأسماء غير الملائمة للروسى القديم .

وواضح أن هذا التغيير فى الأسماء أحد التماثلات التى يمكن أن نعددها فى كل ثوراتنا . حتى الثور الأمريكية المعتدلة اندفعت الى شىء من هذا التغيير للأسماء . فقد حلت بوسطون محل شارع الملك ، كما أن شارع الملكة حل محله أسماء مثل الاتحاد والدولة ، وهى أسماء تتناسب تماما مع النظام الجديد ، ولكن لسبب أو لآخر لا يزال اسم شارع هانوفر الكريه مستعملا . وهناك حشرة ضارة تعرف باسم هسيان الذى أطلق عليها فى أيام الثورة ، وهناك نوع من فروع هذه الحشرة لا يزال معروفا فى بعض أجزاء الجنوب باسم حشرة لنكولن للتذكير بهذه الحقيقة وهى أن ما نسميه بالحرب الأهلية كان فى الأساس ثورة فاشلة .

ولا حاجة بنا لأن نشغل أنفسنا كثيرا بتفسير هذا الاندفاع الى تغيير الأسماء . فالأسماء ترتبط فى ذهن البدائيين بالسحر ، ونحن فى حالة تذكير دائم فى هذه الأيام بقربنا من البدائيين . غير الاسم بتغيير الشىء . وهذا كله بسيط غاية البساطة . فالذى يعنينا هنا بوجه خاص هو تأثير هذا التغيير فى الأسماء على المراقب من الخارج ، ونستطيع أن نوقن بطريقة معقولة أنه يمدنا بمثال لنوع الأشياء التى بدأت تحدث تأثيرها فيه . والثورة فى الأسماء أمر من التفاهة بمكان . ولكن جون جونز يرى أن الحياة مجموعة من الأمور التافهة ، وليس بالذى

يتحمل مجموعة كاملة من التغييرات فى التفاصيل التافهة التى صنعت منها عاداته .

وهنــاك أيضــا ، بالطبع ، التوتر الناشىء عن المعيشة فى ظل ذلك النوع من الحكومات الذى وصفنــاه فى الفصل السابق بأنه حكومة الارهاب. فحتى أكثر الأشخاص تواضعا ، وأقلهم اكتراثا بالسياسة لا يستطيع أن يعرف متى يحل الأذى به أو بأهل بيته ، ومتى يساق الى المحكمة على أنه عــدو طبقى أو مناهض للثورة . والدراسة التفصيلية لهــذا التهديد المستمر وهــذا الحضور للحكومة فى كل مكان وبالنســبة لكل فرد لا يمكن أن تقوم بهــا هنا . ومع ذلك فسوف نذكر بايجاز وجهين يؤثران بصفــة خاصــة على المراقب الخارجى .

أولا — كمــا سنرى بعد قليل من وجهة نظر المراقب من الداخل — ان هذه الثورات تتميز فى فترات تأزمهــا — بلا شك — بأنهــا بيوريتانية (متطهرة) أو هى تتميز بالزهد والتقشف أو — لكى نستعمل لفظــا أكثر انتشــارا — مثالية . فهنــاك محاولة جدية من القائمين على السلطــة لاستئصال الرذائل الصغرى أو ما قد يميل البعض الى أن يطلقوا عليه اسم الملذات الكبرى . وقد اعتاد معظم الأمريكيين ما حاول القديسون فى انجلترا ان يفعلوه فى القرن الســابع عشر ، نظرا لأحــداث فى نيوانجلند . ولكن الأمريكيــين ، الذين يبالغون دائمــا فى شــدة ميل الفرنسيــين للملذات الحسية ، قــد لا يكونون ملمين بهــذه الواقعة وهى أنه فى « السنوات » ٩٣ ، ٩٤ كانت هنــاك محاولة جدية لتطهير باريس ، ولاغلاق بيوت الدعارة ، ونوادى الميسر ، ولتحريم الخمور . وكانت الفضيلة هى طابع العصر . وما كان للكسول مكان فيهــا . اذ لا بد أن يبلغ أحــد اليعاقبــة النــادى منــه مقترحا ضمه للجيش ليشفى من الكسل الضار بالجمهورية . وقد تبدو بيوريتانية البلاشفة أكثر تناقضا ، ولكنها وجدت كل تأكيد ، وسوف نعود بعد قليل الى النظر فيهــا .

ليس ثمة شك الآن فى أن العالم الأفضل الذى نتطلع اليــه جميعــا

بقدر ما سوف لا يكون فيه مجال للخمر ، والعهر ، والميسر ، والكسل ، والعجرفة ومجموعة كاملة من الأشياء التى نستنكرها . ولكن لا يمكن كذلك أن ينكر أنه على هذه الأرض فى هذه الأيام والأيام السالفة ، كان عدد كبير من الناس منكبين على واحدة أو أكثر من هذه الأشياء ناظرين اليها — ليس دائما بوعى عن طريق العقل — على أنها تعويضات لا زمة للكسل أو نواحى النقص الأخرى فى حياتهم اليومية . ويجب مرة أخرى أن نذكر أنفسنا بأننا لانبحث فى مسائل أخلاقية ، لا نمدح ولا نذم ، ولكننا نحاول أن نرتب الوقائع بنظام مفيد : فان محاولة المتطرفين اقامة نوع من الحياة خلو من الرذائل العادية خلال فترة قصيرة أمر شاق بالنسبة للمراقب من الخارج من العسير عليه ، أو عليها ، أن يطيقه .

وليس فى المحظور على المراقب من الخارج أن يحظى بما قد يعتقده متعة مشروعة فحسب ، بل ان السلطات الجديدة لن تتركه وشأنه . فالثورات قاسية جدا فى الواقع فيما يتعلق بالأمور الخاصة . ويقول جوركى أن « لينين منع الناس من أن يحيوا حياتهم التى اعتادوها وهو ما لم يفعله انسان من قبل » . ولا شك فى أن هذه مبالغة خطابية ، ولكن الانسان يستطيع أن يرى ما يقصد اليه جوركى . ولما كان لدى الناس نوع من القصور الذاتى فى اتجاه ممارسة « حياتهم التى اعتادوها » ، فقد نستطيع أن نفهم بطريقة أفضل لماذا أثبت ستالين ، أكثر من تروتسكى ، أنه خليفة لينين . وفى فترة التأزم تعمل الثورة على أن تطارد جون جونز فى كل ما يفعل . ففى الثورة نرى أنه حتى النميمة العادية ، والوشاية والضغائن الشائعة فى الحياة الاجتماعية العادية تتجسم الى حد يفوق ما يحتمله الانسان . فاليعقوبيون وبخاصة فى الأقاليم ، كانوا شغوفين بأن يلتقطوا أى كلمة تدور على ألسنة الناس تظهر الحاجة الى نوع من الاصلاح . فالمواطن « و » عليه أن يحتفظ بكلبه مقيدا ، والمواطن « س » عليه أن يتزوج الفتاة « أ » والمواطن « ى » عليه أن يحذر من الانفعال ، والمواطن « ز » الغنى عليه أن يوافق على زواج ابنته من يعقوبى فقير لأنه شاب فاضل وعلى علاقة طيبة بالنادى . قد يتوقع الانسان مثل هذه الأشياء من عائلته وأصدقائه ، ولكن ليس من الحكومة ، حتى فى

الدولة الدكتاتورية . وللألمان مثل مهدىء : « الحساء لا يؤكل ابدا ساخنا كما يكون عند طهيه » . ولكن من المؤكد انه فى فترة التأزم للثورات تكون هناك محاولة لأرغام المواطن العادى على ابتلاع الاشياء ساخنة . وبمرور الأيام لا يطبق ذلك ويتعلم طهاته أن يتركوا الحساء ليبرد قليلا . ولكن هذا لا يكون الا فى فترة النقاهة من الحمى الثورية . فاذا ما حيل بينه وبين ملذاته — ورذائله المعتادة ، واذا ما أرغم على أن يحارب ، أو على الأقل أن يهتف طويلا ، وعاليا ، وبشكل واضح للدولة الثائرة فى صراعها مع الأعداء الخارجيين والأهليين ، معرضا نفسه للحرمان والآلام الناجمة عن الحرب ، وعدم كفاية الحكومة الجديدة ، مدفوعا الى « قمة الظروف الثورية » ، فى كل الحالات ، فى الصحافة ، والمسرح والمنبر ، والمنصة ، واثارة الجماهير ، وفوق هذا كله متورطا بشكل لا مفر منه فى حالة الاضطراب العصبى الشائعة والتى تتسم بها فترة التأزم ، فان جون جونز اى الانسان العادى ، عاجلا أو آجلا ، ان هذه القيود غير محتملة ، ويصبح على استعداد لأن يرحب بأى فرد يستطيع أن يطرد المتطرفين .

وقد لا يكون أحد هذه القيود فى حد ذاته غير محتمل ، رغم انه قد يكون هناك نوع من درجة التشبع فى الدعاية السياسية الموجهة على نطاق واسع والتى بعدها تصبح مثل هذه الدعاية غير محتملة . ولعلنا نأمل فى أن نستفيد أكثر فى هذه الناحية من تجربة الدكتاتوريات المعاصرة . فقد يمل الناس ايفا بيرون حتى الأرجنتين ، وعلى أية حال يبدو أن المراقب من الخارج فى ثوراتنا يضيق ذرعا بهذه الأنواع من الضغوط التى تهدف الى غرض واحد والتى ذكرناها آنفا .

٣ — الارهاب والمراقب من الداخل :

التشابه الدينى تبدو الثورة للمراقب من الداخل ، للغرض الحقيقى كشىء مختلف تماما فى هذه الفترة الحرجة ، على رغم ما قد يظنه المرء من أن بعض المراقبين من الداخل ممن هم اقل حماسا يكاد ينطبق عليهم

ما قيل بالنسبة للمراقبين من الخارج . فالثورة تبدأ فتأخذ الكثير منه ، ويتولد لديه التردد والشك ، ويضيق بالحفلات التى لا تنتهى ، والوفود ، واللجان ، والمحاكم وأعمال الميليشيا ، والواجبات الأخرى اللازمة لاقرار حكم الفضيلة على الأرض . فهو ، أيضا ، يصبح مراقبا من الخارج . وهكذا يجب أن يكون أملنا عظيما فى تلك الأيام التى تشتد فيها السياسة جدا بالنسبة لكل فرد . ولكن المخلص الصادق يظل حتى النهاية ، الى الاعدام ، الى المقصلة ، الى فرقة الرمى بالرصاص او النفى .

والآن فان هذا المراقب من الداخل ، فيما يبدو ، يجد فى خدمته المخلصة للثورة معظم أوجه الرضا النفسانى الذى يمدنا به عادة ما نطلق عليه اسم الدين . وكثيرا ما أقيم التشبيه بالدين . ولم يقتصر استخدام هذا التشبيه على الثورة الانجليزية حيث لا نزاع فى صلاحيته فحسب ، بل استخدم أيضا فى الثورتين الفرنسية والروسية . فمنذ أن كان اليعاقبة والبلاشفة معادين بشدة للمسيحية ، وكانوا يفاخرون بكونهم لا دينيين أو على الأقل منكرين للوحى والأنظمة الدينية ، فان هذا التشبيه أساء كثيرا الى المسيحيين وأعدائهم على السواء . وبالنسبة للماركسى بوجه خاص فان القول بأن سلوكه يشبه سلوك المتدينين يثير غضبه . وللماركسى الحق فى غضبه لأن العبارة الشائعة « أوه ، ان الشيوعيين ليسوا الا شيعة أخرى متعصبة » كثيرا ما يقولها المحافظون والسطحيون كمأخذ وكسبب للاستبعاد فى آن واحد . والواقع أنه فى وسع المرء على أساس التجربة السابقة أن يقول ان من الممكن الاستعانة بكثير من الناس لأداء اشياء هامة جدا من النوع الذى يريد الشيوعيون اداءه تحت تأثير ما نسميه الدين ، أى بعض نماذج من العاطف التى تتشابه كثيرا أو قليلا ، والمثل الأخلاقية والطقوس العملية . فالماركسية كدين قد حققت الشىء الكثير ، أما الماركسية « كنظرية علمية » فقط فلم تصل الى أبعد من « رأس المال » والصحف .

ولكن النزاع الذى أشرنا اليه آنفا لا ينتهى ، ولسنا من التهور بحيث ندعى أننا نستطيع أن نحسمه . فالذين يستخدمون لفظ « الدين » فى هذه

المناسبة يبدون لنا كمن يحاول أن يصف ظاهرة من عالم التجربة الحسية ، ظاهرة تحتاج الى أن تكتمل بظواهر أخرى للثورات . فمن الثابت حقا أن هذا الاستعمال يثير — ظاهريا — فى كثير من الأشخاص انفعالات غير ملائمة للدراسة الموضوعية المتصلة بالموضوع . فأى فرد يستطيع أن يقترح لفظا محايدا يشير بدقة الى نفس الظاهرة التى تشير اليها كلمة « الدين » يكون قد أدى خدمة جليلة لعلم الاجتماع . ولما كان مثل هذا اللفظ لا يوجد حاليا ، فاننا سوف نستمر فى استعمال كلمة « الدين » . ويجب أن نصر على أن هذه الكلمة لا تشير بالضرورة الى شريعة الهيئة رسمية كالمسيحية ، وفوق هذا كله أنها لا تتضمن بالضرورة الاعتقاد فيما هو « فوق الطبيعة » . ولكن نأخذها باعتبار أن أهم شىء عن العقيدة الدينية فى هذا التحليل هو أن الناس تحت تأثيرها يعملون عملا شاقا جدا وبشكل جماعى كى يحققوا هنا أو هناك مثلا أعلى ، نمطا من الحياة ليس متحققا فى الوقت الحاضر بشكل كلى أو حتى على نطاق واسع . فالمحاولات الدينية التى تسعى — فى سبيل تحقيق الآمال الانسانية — الى سد الثغرة بين ما عليه الناس وبين ما قد يرغبون فى أن يكونوا عليه ، على الأقل فى صورته الشابة ، النضرة النشيطة ، لن تسلم لفترة ما من أن مثل هذه الثغرة يمكن أن تستمر طويلا .

على أن تميز عنصر الدين فى السلوك المتطرف المتحمس ليس معناه أن ننكر وجود الدوافع الاقتصادية . وفى الحق يمكننا فى هذه المرحلة أن نلاحظ بعض الأوجه الحادة للصراع بين الطبقات ، ذلك الصراع الذى يعتبر أحد التماثلات والتشابهات التى يمكننا أن نعتبرها قائمة بوضوح — وأيا كان مكان الصراع الاقتصادى بين الطبقات فى الأيام السابقة تماما للثورة — وهو فى ثوراتنا الأربع يأخذ أشكالا متغيرة يمكن اجمالها بشكل كاف فى عبارات مثل « النبلاء الاقطاعيون » ، « الطبقة المتوسطة ، « الطبقة العاملة » — فان الثورة اذا سارت فى طريقها نجد أن هذا الصراع بين الطبقات يصبح له على الأقل وجه واحد مشترك فى كل من المجتمعات الأربعة . فملكية الكثير ، ان لم يكن الأغلب من تلك الأحزاب

السافرة العنيدة والتى هى بعينها الأحزاب المهزومة تصادر لصالح الأحزاب الناجحة التى هى بعينها « الشعب » . وأكثر من هذا فان الجماعات المعتدلة المختلفة التى هزمت تصادر أملاكها أيضا بنفس الطريقة .

ففى الثورة الانجليزية فقد الملكيون جزءا كبيرا من ملكياتهم ، ومعظمها فى الأرض ، وعلى الرغم من أن عامة البرسبيتاريين لم يكونوا — عادة — خاضعين لمصادرة ملكيتهم ما لم يكونوا — بشكل فعال — فى الجانب المخطىء سياسيا ، فلقد كان هناك عدد كبير من البروسبيتاريين الموسرين ، وعدد آخر من رجال الدين غير المقبولين جردوا من مصادر عيشهم . فلورانس واشنجتن ، وهو من رجال الكنيسة ، و والد جوف أوف فيرجينيا ، ومن سلالة جورج المباشرة ، قد « نهب» — كما كان يقال فى عام ١٦٤٣ — لأنه اشيع عنه أنه قال أن الجيش البرلمانى كان يضم عددا من البابويين اكثر ممن كانوا حول الملك . ومعنى هذا أنه حرم من مقومات معاشه . ولسنا حاجة لأن نذكر أنفسنا بأن ممتلكات الموالين للملك قد صودرت خلال الثورة الأمريكية . والحق أن ج. ف. جيمسون انتهى الى أن الثورة الأمريكية أحدثت — بطريقة هادئة ، على الأقل بالنسبة للثورات — خلال سيرها كله تأثيرا ديمقراطيا محسوسا ، أو أحدثت مثل هذا التأثير اثناء انتشارها فى وحدات أصغر ، فيما يتعلق بنظام الملكيات . وفى كل من فرنسا وروسيا شاهدت الثورة مصادرة الأرض أولا ، ولكن حتى فى فرنسا صودر الى حد ما رأس المال ، واعادة توزيعها جميعا . ولسنا فى حاجة الى أن نذكر هنا بالتفصيل مشاكل الزراعة وما يتعلق بها . ويكفى أن نذكر أن كثيرين ممن وصلوا الى القمة فى فترة التأزم سواء من الزعماء أو الأتباع ، كان لديهم من الأسباب ما يبعث فيهم الأمل على أنهم ببقائهم فى القمة سوف يكون وضعهم الاقتصادى ، بطريقة مستمرة خيرا مما كان عليه . وهذا صحيح بغض النظر عما كانت تقوله النظريات أو المثل العليا ، أو ما كانت الحرية الاقتصادية أو الاشتراكية ، تنوى أن تفعله فيما يتعلق بالتوزيع الجديد .

ولكن رغم وجوب الاعتراف بالدافع الاقتصادى ، وبالاتجاه الى

المركزية لصد الهجمات من الداخل والخارج ، فان الصورة التى تتكون لدينا تكون ناقصة ما لم ندخل فى اعتبارنا تلك العناصر التى لا مفر من تسميتها دينية . فمن ناحية لأن العناصر الاقتصادية والسياسية بمعناها الاصطلاحى صارت مألوفة لأغلب الناس فى هذه الأيام ، ومن ناحية أخرى لأن هذه العناصر الدينية — أو — على أية حال — السيكلوجية تبدو من أهم العوامل التى نوليها اهتماما كبيرا . وهى تبدو من أهم العوامل لأن وجودها بشكل حاد من شأنه أن يعطى العناصر السياسية والاقتصادية طابعا مختلفا أثناء الصراع والتى غالبا ما تحدث من تلقاء نفسها بشكل مشابه جدا بل وحتى بشدة مشابهة نوعا ما فى المواقف التى لا نطلق عليها عادة اسم الثورية . ومن الحقيقى كذلك أنه أثناء نمو حركة ويسلى فى انجلترا فى القرن الثامن عشر ، مثلا — فى أوقات لا يمكن تسميتها بالثورية — يجد المرء سلوكا دينيا نشيطا بين أعداد كبيرة من الناس ، سلوكا يشبه من وجوه كثيرة ذلك الذى سوف نقوم بتحليله فى المراقب الثورى من الداخل . ولكن حركة ويسلى كانت من الناحية السياسية محافظة بوجه عام ، وليست موجهة الى نظام اجتماعى وسياسى معين . والأمر كله ، فى الواقع ، فى الثورات الثلاث التى نحن بصدد تحليلها هو أن الحماس الدينى ، والتنظيم ، والطقوس تبدو ، مرتبطة دون انفصام بالأهداف الاقتصادية والسياسية ، وببرامج تغيير « الأشياء » ، وليس مجرد تغيير « الناس » .

ويبدو أن المرقبين من الداخل فى ثوراتنا الثلاث الكاملة والى حد ما فى الثورة الرابعة وهى الثورة الأمريكية ، ارادوا أن يدخلوا على حياة الانسان فى الأرض بعض الترتيب ، والنظام ، والاحتقار للرذائل السهلة ، تلك الأشياء التى حاول اتباع كالفن أن يضعوها هناك . والحق أن ثورتنا الأولى ، وهى الثورة الانجليزية ، يطلق عليها عادة اسم الثورة الكلفينية أو البيوريتانية . وهنا قد نتوقع معارضة من الشيوعيين ، وتوكيدا شديدا بأن ماركس وضع مثل هذا الضعف المسيحى كرغبة لاخضاع الضعف الانسانى وراءه ، وأن أتباعه ينادون بوفرة الطعام والشراب ، والأشياء الطيبة الأخرى لكل فرد . وسوف نعود الى هذه المسألة حالا .

وفى نفس الوقت يمكننا ان نبـدأ فى مشـاهدة اتجـاه تقشفى منتظر فى الشيوعية اذا تأملنـا كيف ان الشيوعيين الصالحين يرتفعون فوق شعار « الخمر والنساء والغناء لكل فرد » .

أما أن البيوريتان كانوا الى حد ما متمسكين بأصول الدين فقـد نأخذ هـذا الادعاء على أنه معقول رغم الميل فى عصرنا هذا الى الاهتمام بمعانى الألفـاظ . ولا يستطيع حتى الأمريكيين المحافظين المعاصرين أن يقنعونا بأن البيوريتـان كانوا متحررين شهوانيـين . أما فيمـا يتعلق باليعاقبة ، فان تشريعهم وفوق ذلك تنظيمهم العادى فى ١٧٩٣ — ١٧٩٤ كان يتضمن وجوه شبه ملفتة للنظر مع نوع الأشياء التى حاول البيوريتان الانجليز أن يدخلوها . فاليعاقبة كانوا — اساسا — ضـد الميسر والسكر والشذوذ الجنسى بكل أنواعه والفقر المدقع ، والبلادة والسرقة وبالطبع ، كل أنواع الجرائم . وفى الواقع شعروا بحرية فى توكيد الامتناع عن هذه الرذائل والاصرار على تنفيذ الجوانب والأعمال الايجابية للفضيلة — مثل بيع البضائع دائمـا بالسـعر المقرر المشروع ، حتى ولو بدا ان تهريب المسكرات شىء مأمون تمـاما ، وحضـور الاحتفـالات تعظيما للكائن الأعظم ، والتعبير علنـا عن الفكرة القائلة بأن وليم بت كان شريرا فاسدا وأن الأمة الانجليزية مجموعة من العبيد الذين يثيرون الشفقة . ولقـد حاولوا أن يؤكدوا هذا المنهج فى العمل بأن يجعلوا كل انسـان رقيبا على نفسه ، وفى خدمة الله ، وكثيرا مما قيل انه طبق عند كلفن فى جنيف .

وكان الذين يقومون — أساسـا — بالرقابة هم أعضـاء النوادى المحليـة وكان القـادة المحليون يدفعونهم الى العمل ، تماما كمـا كان ببوريتان يفعلون مع القسس فى الأقاليم يساعدهم رجال الكنيسة النشيطين من المسنين . وأكثر الأمور منافاة للكرامة ، والتى تبدو بصورة واضحـة تافهة جدا ، قد تؤدى فى هذه الظروف الى غلق الكنيسة أو الجمعية . وأول انشقاق فى الكنيسة الانجليزية الانفصالية بأمستردام — كما علمنا — لم ينشـأ حول نقطة مذهبيـة أو الطقوس ، وانمـا حـول الرباط الذى كانت تضعه مسز فرانسيس جونسون حول ذراعها . ويستطيع المرء أن

يجد كثيرا من هـذه التصرفات فى سلوك اليعاقبة . فقد كانت هنـاك مناقشة حامية فى أحد نوادى نورماندى الصغيرة حول موضوع ما اذا كان المواطـن الدكتـور س يطيـل فى تأدية واجبـات مهنتـه بالنسبة للأرستقراطيين ويختصرها بالنسبة للوطنيين . والضجة الكبيرة فى بورجوان حينما أعلن السكرتير أنه سوف لا يرتدى قبعة الحرية ذات اللون الأحمر لأنها غير لائقـة به . لقـد أثار هـذا الغرور الفظيع الذى يتنـافى مع الوظيفة كل كوامن الغضب عند الجمهوريين الفضلاء فى بورجوان وكان السكرتير موفقـا فى أن نجـا بحيـاته .

أما اهمال الثوار الروس للأمور الروحية فانه يخلق مشكلة ظاهرة أكثر منها مهمة أو حتى واقعيـة . فمن الحقيقى تماما أن الشيوعيـة الحديثة ، « من الناحية الفلسفية » تقوم على أسـاس من المـادية ، وأنها تنكر خلود الروح بل وجود الروح ، وأنهـا تصر على أن النـاس يجب أن يكونوا سـعداء هنا على الأرض ، متمتعين بالأشياء الطيبـة على هذه الأرض . ولكن من المؤكد أن الأمر الاكثر أهميـة اذا أردت أن تفهم مشاكل الناس فى المجتمع هو أن تعرف ماذا يفعل هؤلاء النـاس ، وكيف يسلكون ، كما يجب أن تعرف ماذا يقولون على الورق أو على المنبر انهم فاعلوه أو يريدون أن يفعلوه أو ينبغى أن يفعـلوه . ومن الحقيقى تماما أيضـا أن الشيوعيين ، والعاطفين عليهم وأخوة اليسـار بوجـه عام فى هذا البلد (امريكا) يميلون الى أن يكونوا غاضبين بشـكل متطرف حينما نحلل سلوكهم على نحو ما نرى أن نحلله . وهنـا ، كما يحـدث غالبـا ، لا يدحض الغضب الحجة .

ومن المعروف ان الزعماء البلاشفة كانوا كلهم تقريبـا متقشفين لقـد كان لينين متقشفا بشكل ملحوظ يحتقر الراحة الاعتيادية ، وكانت مساكنة فى الكرملين وهو فى أوج قوته أشـبه شىء بالثكنات من حيث البساطة . وبعض أقوال لينين تشبه اقوال كلفن كمـا حللهـا ماكس فيبر أو حتى مستر هـ. تونى : « أحمل معك حسابا صحيحا ومبلغـا شريفـا من المـال ، ودبر شئونك اقتصاديا ، ولا تضيع وقتك سـدى ،

ولا تسرق والتزم أقسى النظم فى العمل » . والحق كانت النغمة السائدة بين القيادة العليا للبلشفية فى تلك السنين المبكرة نغمة مقدسة بل وتكاد تكون لجماعة الرهبان . ففى روسيا حيث كان الناس يتضورون جوعا وقد قسا عليهم البرد لدرجة التجمد كان من عدم الحكمة عند القادة أن يظهروا بمظهر أنيق وقد بدت على وجوههم النعمة وطيب المأكل . وكما أن ضغط الحرب ليس تفسيرا كاملا للارهاب ، كذلك ليست الحاجة ولا سياسة الدولة مبررا لتقشف البلاشفة . فقد شعروا ، كما شعر البيوريتان من قبل بأن الرذائل العادية وضعف الكائنات البشرية مما يبعث على النفور ، وان الحياة الطيبة لا يمكن أن تستقيم ما لم تستأصل وجوه الضعف هذه . فمنذ زمن مبكر حرم البلاشفة الشراب الوطنى الفودكا ، وكل السوفيت الأوائل تقريبا اتخذوا خطوات ضد البغاء ، والميسر ، وحياة الليل ، وهكذا . ومن الناحية النظرية فكر البلاشفة فى أن النساء ينبغى أن يكن متحررات من القيود الصارخة التى قيدتهن بها القوانين البورجوازية : ومن هنا كانت الحرية التى سمح بها فى أوج الثورة فى روسيا فيما يتعلق بالزواج ، والطلاق والاجهاض ، ووجوه أخرى للعلاقات العائلية والجنسية . ولكن البلاشفة لم يقصدوا بذلك أن النساء لهن الحرية فى أن يسلكن على النحو الذى كانوا متأكدين من أنهن يسلكنه سرا — أو اردن أن يسلكنه — فى مجتمع بورجوازى منحل قديم . ولكنهم توقعوا ، على العكس ، أن تسلك نساؤهم كما ينبغى أن يسلكن فى مجتمع لا طبقى — وعلى الرغم من غموضه ، فهو قانون صريح جدا .

وحتى فى الثلاثينات من ١٩٣٠ ، حينما انتهت مرحلة الأزمة فى روسيا ، كان هناك عديد ممن طال بهم العمر من أتباع التقشف الصارم من أعضاء الحزب الشيوعى الحقيقى خلال فترة التأزم . ففى كتاب « روسيا السوفيتية » يجاهد سيدنى ديب وزوجته بياتريس بأن لا تقشف فى روسيا ، ويستطردان فيشرحان كيف أن الشباب الشيوعى قد تشجع ليعاهد نفسه — ليس بدافع دينى أو سماوى ، على أن تعاطى أى شراب كحولى هو « خرق للقاعدة التى تتطلب الاحتفاظ بالصحة كاملة. « واللهو ، كذلك لا يشجع بتاتا باعتباره غير لائق بالشباب الشيوعى ، لا سيما اذا

تم علانية . » ليس هناك أدب مكشوف يسمح به فى الأدب أو فى اى صورة من صور الفن . والجاذبية الجنسية الواضحة أقل انتشارا فى روسيا منها فى اى بلد غربى . ومنذ أن كتب وب وزوجته هذا ، يبدو أن الروس قد خففوا قليلا من هذه القيود . ولكن لا يزال صحيحا أن الصحافة الروسية ليس لها مثيل فى صحفنا . ويمكن لروسيا حتى فى أيامنا هذه ، أن تبدو للروحيين من ورثة الوبز مكرسة نفسها الفضائل البسيطة .

ولقد كان الروسيون القدماء معروفين بقذارتهم فيما يتعلق بالأماكن العامة — قذرين مثلنا تقريبا نحن الأمريكيين — ولذلك جعل العهد الجديد نقطة من نقط النظام الا تترك الأوراق والأشياء المهملة ، فى الحدائق العامة أو الشوارع أو المحطات . والحق أن أعضاء الحزب الشيوعى نفسه ، وهم دائما قلة مختارة ومنظمة جدا طالبوا لعدة سنوات ، والى حد ما لا يزالون يطالبون ، بممارسة قدر كبير من ضبط النفس ، والاستعداد للعيش ببساطة ، والعمل الشاق ، والسير وفقا لأعلى المستويات الأخلاق الشخصية . وكما هى العادة فى مثل هذه الظروف ، وكما رأينا سابقا عند البيوريتان واليعقوبيين ، لم يكن ضبط النفس كافيا فى الظاهر ، وظهرت فى روسيا كل أنواع الأساليب الرسمية وغير الرسمية فى التجسس ، والرقابة ، ومراجعة تصرفات الأفراد ، والاشراف عليهم بأساليب ارهابية . فالشيكا أو البوليس السرى ، كان يعمل على احياء الارهاب الستالينى فى ١٩٣٦ — ١٩٣٩ باخلاص تام لو كان هذا الارهاب هو الارهاب البكر المستمد من الدين فى فترة التأزم .

ولقد وجدت لفترات طويلة نسبيا جماعات منظمة تنظيما دقيقا وتكاد تكون متقشفة تقشفا غير طبيعى من ذلك النوع الذى حاول البيوريتان ، واليعقوبيون والبلاشفة فرضه . فلقد جاهد الاسبرطيون لاقامة شيوعية بطولية لقرون عدة . ولكن هذا النظام بطىء النمو لارتباطه الوثيق بنوع السلوك عند الناس وهو الذى يتغير ببطء جيولوجى. فالثورة لا تستطيع أن تنتج هذا النوع من النظام بين عشية وضحاها ،

وربما كان العنف — والمقصود هنا بالعنف العنف الروحى لا مجرد اراقة الدماء — خلال الارهاب هو بمعنى ما تعويض عن عدم مقدرة المتطرفين على اقتناع اخوانهم العاديين بما يفعلون . فالارهاب يحيد عن الهدف . ومرة أخرى نقول ان وجود شيء من الميل لدى الأفراد الى الاهتمام بشئون جيرانهم الخاصة ربما كان شيئا مفيدا ، اذ انه مما يمزج المجتمعات بعضها ببعض . ولكن هنا ، ايضا ، يحيد الثوار المتحمسون عن الهدف ويجعلون الحياة غير محتملة بالنسبة لجيرانهم .

وهناك آثار لهذا النوع من التقشف المنظم ، هذه الحملة ضد الرذائل العادية ، حتى فى الثورة الأمريكية التى لم تكن مرحلة التأزم فيها شديدة شدتها فى ثوراتنا الأخرى ، فقد كانت هناك اجراءات تحفظية أساس تبريرها أنها ضرورية لتنفيذ الحرب بطريقة فعالة ضد جورج الثالث . وكانت هناك اجراءات أخرى املتها بوضوح التقاليد الخلقية للطبقة الوسطى من البروتستنت التى استقرت منذ زمن طويل فى المستعمرات الوسطى وفى نيوانجلند . ولكن هنا وهناك يلتقى المرء بالنغمة الصادقة للمثالية الثورية . وهاك فقرة جديرة بالذكر لروبسبير .

« ان الألقاب وليدة الحكومات الملكية والتعسفية . وبينما كان موضوع الحرب الحاضرة مع بريطانيا هو التوفيق ، فان القاب صاحب السعادة ، والعزة ... الخ . كان يخضع لها الشعب فى أمريكا . ولكن منذ اعلان الاستقلال قطعت المستعمرات صلتها بالملكية الى الأبد ، وأصبحت دولا حرة مستقلة . فيصبح من الضرورى اذن أن نستعير اللغة البسيطة من الحكومات الحرة . ودعنا نترك القاب صاحب السعادة والعزة للخدم المهملين عند ملك طاغية ... بينما نرضى أنفسنا بمراقبة ممثلينا (النيابيين) وحكامنا ، وقوادنا الذين هم أثرياء ثراء حقيقيا فى السعادة والشرف » .

ولجنة بلتيمور التى « أوصت أهل المقاطعة فى أبريل ١٧٧٥ » بعدم تشجيع أو حضور السوق القادم لاتجاهه الى تشجيع سباق الخيل ،

والرهان ، والسكر ، ونواح أخرى من الانحلال « كانت متجاوزة مقتضيات الموقف الضرورية . ومرة أخرى نجد تصويرا دقيقا كتبه أحد الوطنيين فى كونيكتيكت فى يوليو سنة ١٧٧٥ ، قال : « فى مساء يوم الأربعاء ، اجتمع نفر من السيدات والرجال فى مكان يطلق عليه المزارع الشرقية فى كونيكتيكت ، حيث حصلوا على ترفيه غير لازم لهم ، وجعلوا يمرحون مرحا يتجاوز الحد بتناول أكواب من الخمر . ومثل هذا الترفيه من الصعب تبريره لأى ظرف من الظروف ، ولكن فى مثل هذا اليوم ، حينما يكون لكل شىء من الأشياء المحيطة بنا وجه تهديدى ، كان من الواجب على كل فرد فيهم أن يظهر نفوره منه كما كان على كل رجل صالح أن يستعمل نفوذه للقضاء عليه » .

فالمتطرفون الحقيقيون الناجحون ، اذن ، محاربون ومتعصبون ، ومتقشفون ، قوم يحاولون خلق عالم أفضل . ولا شك أن الكثيرين منهم منافقون ، وصوليون يتزيون بزى المؤمنين . ومما لا شك فيه أن الكثيرين منهم يتصدرون الركب لدوافع أنانية . ومع ذلك فانه من الخيال القول بأنه ، لا يصح أن يسمح للناس بالتوفيق بين مصالحهم وآرائهم . فكم من مخلص متحمس من أتباع روبسبير ، وكم من ساع وراء الحقيقة عند كلفن كان قادرا ، مع ما له من ضمير حى ، على أن يشترى الأرض المصادرة من غير الجمهوريين أو غير المؤمنين . والمتطرفون عندنا أيضا ، كما تدلنا على ذلك أدق تفاصيل حياتهم ، هم فى أغلب الأحيان قوم عاديون يضطرون فيما يضطرب فيه عامة الناس من حب وكراهية ، وطموح ، وشك ، وأمل وخوف . فاذا ما انقصت فترة التأزم فانهم فيما عدا القلة الذين يولدون شهداء ، يكنون عن أن يكونوا محاربين ، ومتعصبين ، ومتقشفين .

وتأخذ عقائدهم الثورية مظهر الطقوس المريحة ، وتصبح سلوى وعادة أكثر منها سعيا دائما وراء المثل الأعلى . ولكنهم ، فى فترة التأزم ، يكونون فيما يمكن أن نسميه الوجه النشيط للدين . ولنستعرض بايجاز بعض الخصائص الظاهرة لهذا الوجه فى مجتمعاتنا الثلاثة .

والكلفينية ، واليعقوبية ، والماركسية كلها قدرية متشددة . فكلها تعتقد أن ما يحدث هنا على الأرض مقدر ، ومحكوم عليه أن يتبع سبيلا لا يستطيع اى كائن بشرى أن يغيره ، أو على الأقل لا يستطيع أولئك الذين يعارضون الكلفينية ، واليعقوبية ، والماركسية أن يغيروه . والحقيقة أنه كلما ثار القسس ورجال الدين وغضبوا ، كلما أصبح النصر مؤكدا لكلفن . وأعمال الأرستقراطيين ، والخونة ، واتباع بت وكوبور لا تستطيع سوى أن تجعل انتصار الجمهورية الفرنسية أكبر وأعظم . وكلما جد أتباع روكفلر ومورجان فى العمل ، وكلما كان سلوكهم متسما بالرأسمالية ، عجل ذلك بالنهوض الحتمى المظفر النهائى للبروليتاريا . فالله عند اتباع كلفن ، والطبيعة والعقل عند اليعقوبيين ، والمادة الجدلية أو العلمية عند اتباع ماركس كلها تبشر المؤمن بها بأنه يقف فى الجانب الذى يجب أن يربح . ومن الواضح أنك حين تعتقد أنه لا يمكن أن تخسر سوف يجعل منك ذلك محاربا أفضل فى أغلب الأحوال ، لا كلها .

فأولئك الذين اختارهم الله أو الطبيعة أو العلم على استعداد تام لأن يعلنوا عن حقيقة هذا الاختيار ، وهم فى الواقع يظهرون عدم توافق — وهو أمر منطقى خالص ، وليس على الاطلاق أمر انفعالات — فى أنهم يبدون حرصين جدا على المساعدة فى التعجيل بما لا مفر منه . والقدريون المتشددون هم عادة أيضا أتباع متحمسون ، ويعتقدون أنهم أدوات للقدر المحتوم ، والوسائل التى عن طريقها يتحقق المحتوم . ومع ذلك لا يبدو فى سلوكهم أنهم يعتقدون بأن مقاومة اتجاههم ، ورفض غير المؤمنين لقبول رسالتهم ، مقدرة أيضا ، وحتمية بل ويمكن التسامح فيها .

وعلى أية حال ، فان ثوارنا جميعا حاولوا أن ينشروا تعاليم ثورتهم . ولا شك أن ما نطلق عليه الآن اسم «القومية» هو أحد عناصر هذه التعاليم الثورية كلها . ولكن على الأقل فى السنوات الأولى وخلال أزمة الثورة ، نجد أن الأفكار البدائية عن التوسع القومى لا تكون لها الغلبة . والسعداء الذين انكشفت لهم التعاليم يرغبون فى أن ينشروها خارج بلادهم . ففى حماسة المسحيين خلال فترة التأزم لم تكن القومية العدوانية ظاهرة

على السطح . لا شك ان القومية تزيد فى حماس الثوار ، وفى فترة رد الفعل تظهر بوضوح . فاليعقوبيون اعلنوا انهم سوف يحققون أسباب الحرية لجميع شعوب الأرض ، وهذا هو الخيال القوى الذى لا يزال بجعل بعض الناس ينظرون الى نابليون على انه محقق للحرية الجديدة . ولا يزال البلاشفة يبدون فى نظر جيلنا الحاضر رسلا كبارا لثورة عالمية ولكن ، على النقيض مما كان فى ١٩١٨ ، أصبح القول الشائع اليوم حتى بين المحافظين الغربيين أن ما كان ستالين يحاول أن ينشره خارج بلاده هو الاستعمار الروسى ، لا الشيوعية العالمية .

ولا شك أن اتباع كلفن ، كميسيحيين ، كانوا ، مذهبيين متحمسين . ولكن المستقلين المنتصرين من الانجليز كانوا أيضا قادرين على مزج دعايتهم الدينية بالدعاية السياسية ، وكانوا غيورين على أن يضموا العالم الى شكل مجتمعهم المتميز . وقد اعتاد مساعد كرومويل الشهير ، وهو أدميرال بليك ، أن ينشر التعاليم فى أراض أجنبية . وقد قال بليك ، ستحذو كل البلاد حذو انجلترا ، وتقضى على الطغيان وتصبح جمهوريات . وقد فعلت انجلترا ذلك من قبل . وتبعتها فرنسا ، ولما كان الثقل الطبيعى للأسبان قد جعلهم بطيئين شيئا ما ، فقد أعطاهم عشر سنوات . وسوف تصبح أوربا قريبا جمهورية ، وهذا فى الخمسينات من عام ١٦٥٠ . والذين يفخرون اليوم أو ينعون أن العالم الغربى سوف يصبح عاجلا كله شيوعيا ، أو كله فاشستيا ، أو كله ديمقراطيا ، ينبغى أن يفكروا لحظة فى الظروف التى ابديت فيها ملاحظة بليك هذه .

وقد أريقت كمية طيبة من المداد والخطابة فى سبيل هذا المجهود من جانب المتطرفين لنشر معتقداتهم بين الأمم . فالمحافظون فى الأمم الأخرى شكاكون جدا بالطبع . وموسكو فى رأيهم يجب أن تكون وراء كل حركة تحررية أو تطرفية ، وهناك مؤامرة دولية منظمة لاقامة حكم عالمى لليعاقبة اللادينيين وتحطيم المسيحية . ومن المحتمل فى أغلب الأحوال ان تكون مخاوفهم وشكوكهم مبالغا فيها الى حد كبير . فالثوار فى فترة التأزم يكونون عادة فقراء للغاية ، ومشغولين فى الداخل للغاية بحيث

لا يستطيعون أن يكرسوا أكثر من جـزء صغير من طاقاتهم لهذه المهـام الخارجية . وفضلا عن ذلك ، فهناك فى البلاد الأخـرى عادة عدد كاف من الوطنيين المتذمرين لتكوين نواة صلبة للعمـل الثورى . واستيراد عبارات انجليزية أو فرنسية أو روسية الى هذه البلاد مع طرق أخـرى ثورية هو أقرب شىء الى الطبيعة فى العالم .

وعلى أية حال ، فليس ثمـة شك حول حقيقة التماثل . وحتى فى القرن السابع عشر ، حين كان العـالم أوسع بكثير ، وطرق الاتصـال أكثر بطئا ، انتشرت الثورة الانجليزية خارج البلاد . وقد اقترح ادوارد سكسبى فى بوردو على المتـطرفين الفرنسيين دستورا جمهـوريا أطلق عليه اسم « اتفاق الشعب » ـــ وهو تعديل لاتفاق الشعب الانجليزى ـــ واضطر بالتـالى الى أن يهجر المدينـة . وفى هولندا عند سماع أخبـار الاضطراب فى انجلترا ، بدأ الناس يقفون الى هـذا الجانب أو ذاك من الأحزاب بدرجة من الحماس جعلتهم فى كثير من الأحوال يصلون الى حد التشـاجر . وهذا يشبه الى حـد كبير سلوك الاتحاديين (الفيدراليين) والجمهـوريين فى الولايات المتحـدة فى عام ١٧٩٠ حينما أمدت الثـورة الفرنسية السياسة الأمريكية بمعظم موادها المثيرة . ولكن هذا الموضوع لا يحتـاج الى بحث . وهناك أمثلة مشابهة من الثورة الروسية سوف تعرض لكل فرد .

ويمكننا أن ندفع التشابه الدينى قليلا الى أبعد من ذلك . فثوارنا مقتنعون بأنهم الصفوة التى قدر عليها أن تنفذ ارادة اللـه ، أو الطبيعة أو العلم . وقـد كان ذلك الاحساس قويا بوجـه خاص بين الشيوعيين الروس بينما كان ينبغى من الناحية المنطقية الخالصة أن يكون أقل قوة منه بين أتباع كلفن الذين يؤمنون بالله موجود . وخصوم هؤلاء الثـوار ليسوا مجرد أعداء سياسيين ، أو مجرد رجـال مخطئين ، أو نهابين أو مجانين ملعـونين ، بل آثمين ، ويجب ألا يهزموا فحسب ـــ بل يجب أن يقضى عليهم .

ومن هنا كان تبرير المقصلة وفرق اطلاق الرصاص . فان ثوارنا يظهرون عدم التسامح هذا بقوة هى فى منطق الانفعالات ، كما فى منطق العقل نتيجة تامة للاقتناع بأنهم على صواب مطلقا ازليا ، احتكاريا . فاذا لم يكن هناك غير حق واحد ، وأنت تملك هذا الحق أو هذه الحقيقة بشكل كامل ، فان التساهل فى الاختلافات معناه تشجيع للخطأ ، والجريمة ، والشر والخطيئة . والحقيقة أن التسامح بهذا المعنى مضر لمن وقع عليه التسامح كما أنه مدعاة للغضب بالنسبة لمن وقع منه التسامح . ويقول بيلادمين أن من الخير الأكيد للملحدين قتلهم لأنهم كلما عاشوا أكثر ، انهالت عليهم اللعنات اكثر .

هذه المعتقدات الثورية شائعة جدا فى فلسفتها عن الحشر والنشر ، وفى أفكارها عن الغايات النهائية مثل الجنة والجحيم . وقد كان يسيطر على الثورة الانجليزية بعض هذه الفلسفة المسيحية . وقد كان القديسون يتوقعون مجىء المسيح وحكمه للعالم عاما بعد عام واقتراب حكم رجال الدين . وكانت فكرة اليعقوبيين عن الجنة أقل مادية بكثير ، وهذه الجنة وجدت بصورة قاطعة لتكون هنا على الأرض — وهى جمهورية الفضيلة التى سبق أن رأيناها كمثل أعلى عند روبسبير . فبعد ديكتاتورية الحكومة الثورية ، كان على هذه الجمهورية الكاملة أن تظهر ، وتصبح الحرية ، والمساواة ، والاخاء أكثر من مجرد شعار . وبالنسبة للأمريكيين المتشددين لا تبدو الجمهورية مثل الجنة على الاطلاق ، ولكن يجب أن نعتقد أنها كانت مختلفة عن ذلك جدا بالنسبة لليعقوبى الجاد فى سنة ١٧٩٤ . أما الجنة الروسية فهى المجتمع اللاطبقى الذى سيتم الوصول اليه بعد أن تكون الحركة التطهيرية لدكتاتورية البروليتاريا قد قضت ببطء على مظاهر البؤس الناتجة عن الصراع الطبقى . ويبدو أنه حتى أتباع ستالين يسلمون بأن مرحلة التطهير لا تزال قائمة . أما المضمون النوعى للحياة فى المجتمع اللاطبقى فقد وصفه نوعا ما بطريقة غامضة معظم الشيوعيين وماركس نفسه ، لم يأت بأية تفصيلات عن جنته . ويرى الانسان أنه سوف يكون هناك تنافس ولكن ليس صراعا وبالتأكيد ليس صراعا حول البضائع الاقتصادية . وسوف يكون التنافس على مستوى مرتفع كما هو

بين الفنانين . ولربما يكون هناك تنافس فى الحب ، وعلى أية حال وكما فى جنة أشـــد قوة ، وهى الفالهلد الألمـــانية القديمة سوف يتصارع الأبطال طوال اليوم ، ولكن فى الليل سوف تندمل جراحهم .

كل هذه المعتقدات تجسدت فى فرق اجتماعية ، ومن هنا كانت لها تعاليم . وقد وصف مؤلف هـــذا الكتاب فى مكان آخـــر بنوع من الاطالة التعاليم اليعقوبية ، وهى مزيج غريب من الكاثوليكية ، والبروتستانتية ، والكلاسيكية وعناصر أخرى من معتقدات جمهورية ، وصلوات وتعميدات جمهورية ، وأدعية وحتى علامة الصليب الثورية باسم مارا ليه بلتييه ، أو الحرية أو الموت . أما التعاليم الشيوعية فهى أقل ميلا الى التقليد ، وربما كانت أقل ثراء . ولكنها تعاليم محـــددة تماما كما سوف تجد عند التحدث الى شيوعى منتظم . وقلما يقرأ « رأس المـــال » لمـــاركس ، فى الأوســـاط الشيوعية المستقيمة الا من حيث كونه تعـــاليم . والثوار الفرنسيون كان لهم قديسوهم وشهداؤهم ، لا سيما مارا المقتول : فتأليه لينين الذى بدأ واضحا خلال حياته قد أصبح عقيدة تركزت حول قبره فى موسكو . ربما كان لينين ، مثل جيريمى بنتام المدفون فى جامعة لنـــدن ، قديسا دنيويا ، ولكنه قديس على أى حال . وستالين ، — كما يقال لنا — كان عليه أن يكافح بشدة اتجـــاه الشعب الروسى البسيط الى أن يخلط عددا من المعتقدات الخرافية باخلاصه الطبيعى لزعيمه العظيم . وما كان ليبالى بأن يوضع فى صف الأقداس القديمة . أما الجماعات الأصغر عددا ، مثل « الشباب الشيوعى » فانها تنشـــأ فى جو من الطقوس ، وهى من هذه الناحيـــة أقرب الى بعض نواحى النشاط الذى تمارســـه الكنائس البروتستانتية منها الى الجماعات الدنيوية نسبيا مثل جماعة الكشافة .

والرمزية الدينية تسير جنبا الى جنب مع هذه الطقوس ، وقد نمت بوجه خاص فى فرنسا . ففى أثناء الارهاب ، كان المرء يلتقى بالتعاليـــم الرمزية فى كل مكان : عين الرقابة تبحث عن أعداء الجمهورية ، ومثلث الحـــرية ، والمســـاواة ، والاخـــاء ، وغطاء الرأس « الفرجيـــانى » رمز الحـــرية ، وغطاء الرأس الأحمر ، وفارة النجـــار ، التى ترمز الى

المساواة ، وأى نوع من التلال الصغيرة ، التى كانت تستعمل كرمز للجيلى الخير ، وهو الحزب الذى حمل عبء الوصول بالثورة الى نهايتها المنطقية . واغلب هذه الرموز وكثير غيرها توجد فى التاريخ الكامل للعدد العشرين من البريريال فى باريس ، حينما ، أشرف روبسبير بنفسه على الاحتفال بالكائن الأعظم . والروس ، وهم أقل حذلقة وحبا للظهور ، قد استخدموا الرموز بطريقة مشابهة ليؤلفوا بين الناس بين مجتمع شيوعى .

ولعل أهم قانون فى ثوراتنا الأربع هو أنها ، مثل التعاليم المقدسة ، ومثل الأشكال الدينية ، عالمية فى طموحها ، ووطنية ، قومية فيما يتعلق بالحقيقة النهائية . فهى تنتهى باله لكل البشر ، ولكنه يصل الى النوع البشرى ، عن طريق شعب مختار . ونحن الأمريكيين نستطيع أن نرى هذا كله أكثر وضوحا فى معاصرينا ، الشيوعيين الروس . ولكن بالنسبة لكثير من المراقبين من الخارج وبخاصة اذا أخذوا تعبير « القرن الأمريكى » مأخذ الجد ، نحن أيضا وطنيون ننشر تعاليم ولدتها الثورة منذ زمن طويل فى القرن الثامن عشر .

ومع ذلك فهناك وراء هذا التشابه تشابه أعمق من ذلك بكثير يساعد على شرح وتفسير التشابه الأكثر وضوحا وتناقضا وهو الخاص بالعالمية الوطنية التى ولدتها الثورة . فهذه الثورات الأربع تظهر عداء يتزايد تدريجيا نحو المسيحية المنظمة ، وبوجه خاص نحو الصور المسكونية للمسيحية المنظمة . وهناك لمحة دنيوية حتى بالنسبة للثورة الانجليزية فى القرن السابع عشر ، وقوة طاغية لتوكيد الضمير الفردى ضد قوة الكنيسة وتقاليدها ، والثورة الفرنسية وحتى الأمريكية كلها تسير فى الاتجاه الدنيوى للقرن الثامن عشر ، أما الثورة الروسية فهى تفخر بأنها مادية .

والآن فان هذا التبرؤ من المسيحية التقليدية لم يستوح ، على النحو الذى قد يميل المسيحى التقليدى الى الشعور به ، من رجال شريرين فاسدين يريدون أن يقضوا على أجمل ما فى الحياة البشرية . والحق أن كثيرين من هؤلاء الثوار كانوا مليئين بالغرور وكثير من الخطايا الأخرى .

ولكن الجنة عندهم كانت فى الحقيقة قريبة جدا من الجنة عند المسيحيين ، والأخلاق لديهم قريبة من الأخلاق المسيحية ، وهى فى الحق الأخلاق عند كل الأديان السماوية . أما « المادية » الماركسية فهى فى الواقع مجردة ، بل وسامية ، وهى ليست فى متناول الادراك أكثر من المادية عند علماء الطبيعة .

والذى يفصل بين هؤلاء الثوار وبين المسيحية التقليدية هو ، بشكل واضح ، اصرارهم على أن تكون الجنة هنا ، الآن ، على الأرض ونيتهم السريعة فى قهر الشر دفعة واحدة الى الأبد . والمسيحية فى اشكالها التقليدية ، لم تتخل بأى حال من الأحوال منذ زمن طويل عن الصراع الأدبى ، ولكنها تخلت عن آمالها فى تحقيق عالم ترفرف عليه أعلام السعادة وهى الآمال التى كانت لها أيضا حينما كانت ناشئة وثورية ، الآمال المتعلقة بعودة ثانية مباشرة للمسيح . وهى بتمييزها بين هذا العالم والعالم الآخر ، بين الطبيعى وما فوق الطبيعى أو الالهى ، تستطيع المسيحية أن تعبر الفجوة بين ما عليه الناس وما عندهم وبين ما يريدون أن يكونوا عليه أو أن يكون عندهم . هذه الفجوة يعرفها الثورى جيدا وبدرجة كافية . وهو يرى مع ذلك الا يعبرها ، ولكن ان يملأها أو ان يقفز من فوقها . وهو غالبا ينتهى من حيث يبدأ المتصوف ، وذلك بأن يقنع نفسه بأنه لا توجد فجوة . وحتى لو سلمت ، كما يفعل الوضعى والمادى — بأن الانسان حيوان ولا شىء أكثر من هذا ، وبأنه جزء من الطبيعة — وأن الطبيعة هى كل ما هنالك — فانه يبدو من الواضح منطقيا أن الانسان فريد فى الطبيعة وبين الحيوانات من حيث قدرته على أن يتصور المستقبل ، وعلى أية حال ، يبدو انه ليس هناك حيوان آخر لديه القدرة على أن يهتم ، ويخطط ، ويفكر . فالحيوانات الأخرى يمكن اصابتها بالعجز ولكن ، واضح أن ذلك لا يكون بفشل أفكارها ، أو فشلها فى تنفيذ خططها . وفى الواقع يستطيع كثير من الفلاسفة الوضعيين أن يعزوا أنفسهم بهذا العالم على نحو ما يرونه . ولكن ليس الجمهرة الغالبة من الناس . وهنا تأتى ملاحظة فولتير : « لو لم يوجد الله ، لكان من الضرورى اختراعه » .

وهـــذا هو ما فعله ثوارنا بالضبط . ولكن كان عليهم أن يخترعوا آلهة مجردة ، آلهة قبلية ، آلهة غيورة . وليس لمعتقداتهم الجـــديدة من النضج ما كان للمعتقدات القـــديمة . وليس لهـــا ، على الرغـــم من طموحهم ، عمومية المعتقدات القديمة . وليس لها بالنسبة للمتعب والمخذول قوة العزاء القديمة . ولم تكتسب بعد قوة ناجحة للتوفيق ، وهى حكمة العصور . فهى لا تزال ، باختصار ، معتقدات ثورية أكثر فاعلية كحوافز للعمل منها اشاعة للســـلام . وهذا قول صادق بشكل ظاهر بالنســـبة لأحدثهـــا ، وهى الشيوعية المـــاركسية .

٤ ـــ ما هى الأشياء التى تصنع الارهاب ؟

فى فترات التأزم فى كل من ثوراتنا الأربع ، نستطيع أن نميز مجموعة واحـــدة من المتغيرات ، مرتبطة مختلطة ، بشـــكل مختلف ، بكل أنواع العوامل المحتملة والتى تحدث المواقف النوعية التى يميل المؤرخ القصاص لهـــذه الثورات الى النظر اليهـــا على أنها فريدة . ولاشك فى أن هناك عددا كبيرا جدا من هذه المتغيرات ، ولكن لكى نعطى فكرة تقريبيـــة أولى يمكننا أن نميز هنـــا سبعة . وهى تبدو غير مرتبطة ببعضها البعض بأى علاقة سببية هامة . فهى تبدو ، فى الحقيقة الى حد ما أشبه بالمتغيرات المستقلة عند عالم الرياضة رغم أنه من غير المعقول أن تكون مستقـــلة استقلالا تاما . فالميل الى أفراد واحد منهـــا على أنه « سبب » الارهاب ـــ كالميل الى العثـــور على بطـــل أو شرير فى أى موقف ـــ من الصعب مقـــاومته . وكل واحد منهمـــا له تاريخ ، ويرجع على الأقل الى الجيل المـــاضى أو الى جيلين من النظام القديم .

وهى منسوجة معـــا فى نمط معقـــد فى الحقيقة ، ولكن بدونهـــا جميعا ـــ وهذه هى النقطة المهمة ـــ لمـــا كان لدينـــا « عهد ارهـــاب » ، ولمـــا كانت لدينـــا أزمة كاملة فى الثورة . على أن مشكلة استقلالهـــا الممكن ليست فى حاجـــة الى أن تقلقنـــا . فدرجة الحرارة والضـــغط متغيرات مستقلة فى الصياغة الرياضية لقوانين الديناميكا الحرارية ، ولكن الثلج يمكن أن يتكون عند درجة الصفر المئوية فقط اذا كان الضغط صغيرا

لدرجة لا يعتد بها . ولقد تكلمنا كثيرا على هذه النقطة من قبل ، ربما أكثر من حدود الكتابة الجيدة . ولكن الفكرة القديمة للتعليل البسيط، المميز ، الواحد متأصلة فى عاداتنا فى التفكير الى حد بعيد ، وهى فى الحقيقة نافعة جدا لنا فى حياتنا اليومية ، لدرجة اننا بطريقة غريزية تقريبا نطلب تفسيرا لموقف معقد كالارهاب مما سوف يمكننا من أن نعزل السبب — الشرير — أو السبب البطل فهناك أولا ما يمكن أن نسميه عادة العنف ، الموقف المتناقض لشعب هيأته الظروف لأن يتوقع ما هو غير متوقع . وأكثر الفترات عنفا وارهابا فى ثوراتنا لا تأتى الا بعد أن تكون سلسلة من الاضطرابات قد مهدت الطريق . فالمستقلون لم يتخذوا اجراءاتهم الشديدة ضد الأساليب المألوفة فى « انجلترا » الا بعد بضع سنوات من الحرب الأهلية والارهاب فى فرنسا بالمعنى الرسمى لم يبدأ الا متأخرا فى عام ١٧٩٣ ، والاضطرابات المبعثرة مثل « الرعب الأعظم » فى ١٧٨٩ ومذابح سبتمبر فى ١٧٩٢ تساعد ببساطة على ايجاد الجو اللازم للارهاب . وحتى فى روسيا حيث كانت الأحداث تراقب فى فترة اقصر فى أى واحدة من ثوراتنا الأخرى ، فان العنف المنظم تحت رعاية الحكومة لا يظهر بشكل واضح الا فى خريف ١٩١٨ ، أى بعد الثورة ضد القيصر بعام ونصف عام . وقد ذكر مستر تشمبرلين نص برقية مرسلة من بتروفسكى الى جميع السوفيت ، وهو يرى فى ذلك اشارة للارهاب المنظم . « واخيرا ، يجب تطهير مؤخرة جيوشنا من كل الحرس الأبيض ومن كل السفلة ممن يتآمرون ضد قوة الطبقة العاملة والفلاحين الفقراء . فليس أدنى تردد ، ولا أدنى تراخ فى تطبيق الارهاب بالجملة » .

هذه البرقية تضع أمامنا متغيرا ثانيا وأكثر المتغيراب أهمية — وهو ضغط الحرب الأجنبية والأهلية . فضرورات الحرب تساعد على تفسير سرعة مركزية حكومة الارهاب ، وكراهية المنشقين فى داخل الجماعة — وهم يبدون عندئذ هاربين — والاثارة الواسعة الانتشار التى يعرفها جيلنا جيدا بالتعبير الخاص «الأمراض العقلية للحروب». وفى كل من فرنسا وروسيا تجد تلازما بين الموقف الحربى لجيوش

الثورة وبين عنف الارهاب ، وكلما زاد خطر الهزيمة ، زاد بالتالى عدد ضحايا المحاكم الثورية ، ويستمر الارهاب بعد أن يزول أشد المواقف الحربية خطرا . ونستطيع أن نذكر مرة أخرى أنه فى انجلترا قام الايرلنديون والاسكتلنديون بدور العدو الأجنبى رغم أن بريطانيا العظمى كانت بمعزل عن القارة طوال فترة الثورة البيوريتانية . وفى كل من أمريكا وانجلترا كانت فترة التأزم مصحوبة بحرب رسمية ، حرب أهلية الى حد كبير . ولا يستطيع عاقل أن ينكر الدور الهام الذى تلعبه هذه الحروب فى الموقف الكلى الذى أطلقنا عليه اسم فترة التأزم .

ثالثا ، هناك حداثة عهد أجهزة تلك الحكومة المركزية . فالمتطرفون بالتأكيد ليسوا جميعا عديمى الخبرة بمعاملة الناس وقد أكدنا هذه النقطة من قبل رغم أنهم قد تعاملوا مع « ثوار » ، وليس مع كل الناس ولقد كان مرانهم الطويل على قضية الثورة نوعا من التدريب السياسى . ومن نواح كثيرة نجد أن الشبكة الجديدة من النظم التى ادخلوها يمكن أن تستعمل بعض الوسائل الروتينية التى كانت تستعملها الحكومة القديمة . وهذا يصدق بوجه خاص فى الحكومة المحلية . ومع ذلك ، فمن المؤكد بصفة قاطعة أن نظم الارهاب تكون جديدة الى حد ما ، وانها لا تعمل بهدوء ، وأن الذين عهد اليهم بإدارتها ، حتى ولو كانوا من الناحية السياسية من ذوى الخبرة ، فانهم كانوا عديمى الخبرة من ناحية الادارة . فأجهزة الارهاب تعمل على فترات صغيرة متباعدة ، غالبا ما تتصرف تصرفات سيئة . وعندما تظهر الخلافات بين الاداريين ، لا تحسم بالطرق الروتينية ، وانما بالعنف . وكل فشل للجهاز يغضب أولئك الذين يحاولون التمسك به ، ويدفعهم الى قرار جديد مفاجىء ، والى فعل آخر من أفعال العنف . وهذا بدوره يضغط على الجهاز أكثر وأكثر . وهذا هو صديقنا القديم الذى نسميه الدائرة المفرغة .

رابعا ، وهذا أيضا زمن أزمة اقتصادية حادة — وهى ليست ما نطلق عليه الآن ركود الحالة الاقتصادية ، ولكن نقص واضح فى ضروريات الحياة . ومرة أخرى يجب أن نشير الى أن الارهاب لا يأتى دفعة واحدة ، فى بداية عهد الثورة ، ولكن تسبقه فترة من الاضطرابات

من شأنهـا أن تقضى على عمليـات الانتاج العادية . وهنـا يصـاب راس المـال بالزعر ويبدأ فى مغادرة البلد . ويتردد رجال الأعمـال فى الاضطلاع بمشروعات جديدة أو فى الاستمرار على نفس الأساس القديم. وتقلل اضرابات الفـلاحين من الانتـاج الزراعى . وعندئذ تأتى الحـرب بما تتطلبه من رجال وذخيرة . ودكتاتورية المتطرفين المنتصرين التى تترتب على ذلك هى الى حد ما دكتاتورية اقتصادية ، واشراف على الحيـاة الاقتصادية بأكملها فى البلد ، والنقد ، وتثبيت الأسـعار وتوزيع الأطعمة بالبطاقات ، أى اشتراكية واقعيـة قبـل ماركس بزمن طويل . وتؤدى صعوبة توزيع كميـات غير مناسبة من المئونة الى اجهاد القائمين على الادارة من فرص المناهضين والجواسيس ، وتساعد على اثارة النفوس ، والظهور الكلى للارهاب . كما أنهـا تزيد من ضخامة صراع الطبقات الذى سبق أن أشرنا اليـه فى دراستنا للنظم القديمة .

وبصورة أو بأخرى يظهر المتغير الخامس . وهو صراع الطبقـات ، بوضوح فى أزمة كل ثوراتنا . فكراهية البيوريتان للملكيين ، واليعقوبيين للأرستقراطيين ، والفيدراليين ، والأعداء الآخـرين لجمهورية الفضيلة ، وكراهية البلشفيين للبيض ، والمعتدلين ، والأحرار الأمريكيين للمحافظين ، كان ذلك كله فى حد ذاته مزيجا معقـدا . ويحتمل ان كان أحـد عناصر هـذا المزيج ما يعنيه أتباع ماركس حينما يتحدثون عن صراع الطبقات . وعلى أية حال ، ففى خلال عهد الارهاب تمثلت الجماعات المتعارضـة المختلفة داخل المجتمع فى الثوار المستقيمين الحاكمين والكتلة المختلطـة من أعدائهم . وهذه التعارضات بين الطبقات وقد نمت — مثل كل أنواع التورتر والصراع الأخرى — بمرور الثورة تستمر عندئذ فى نوع من الحدة تظهر فى كتابات المفكرين والمهيجين الثوريين وخطبهم وروح الحـزب ، التى قد تكون ممثلة فى أحـد العناصر ولكنها صورة من صور الصراع بين الطبقات ، تتشبث بأكثر الرموز تفاهة لتجعل الناس على علم باختلافاتهم التى لا سبيل الى التوفيق بينهـا . وهكذا نجـد اليعقوبيين المحرومـين من الشراشيب يتخذون اسم « sans-culottes » كصيحة ليؤكدوا صراع الطبقات . فالشراشيب هى أغطية الركبة للجوارب الحريرية التى كان يتخذهـا سادة العهد القديم ، وهؤلاء الذين بدون شراشيب ارتدوا

عن اقتنـــاع السراويل الطويلة للرجل العادى ــ الرجل العـــامل*. وقد امتـــلأت الثورة الروســـية بشـــعارات الصراع بين الطبقـــات بالمعنى المـــاركسى الضيق . ورغم أنه كان هنـــاك فى ثوراتنا ما هو اكثر بكثير من صراع الطبقات ، ورغم أن مظاهر الصراع بين الطبقـــات ليست محددة تماما كما يستنتج أحيانا الكثيرون من انصار التفسير الاقتصادى للتاريخ ، فقـــد يكون من الغباء بمكان عظيم أن ننكر اهمية احد المتغيرات خـــلال الارهاب ــ وهذه الكراهية بين الجماعات أو « الطبقات » قد دعتهمـــا الى حـــد كبير المصالح الاقتصادية وميراث اجتمـــاعى وعقلى مشترك ، وطريقة فى الحيـــاة مشتركة ، وهى التى يعرفها جيلنـــا تحت اسم الصراع الطبقى .

والمتغير السادس ــ وهو فى هـــذا اكثر وضوحا من غيره ــ أمـــر تجريدى ، قد يكون بطريقة مؤكدة سبيلا نافعـــا لجمع عـــدد كبير من الحقـــائق الملموسة . وهو من الناحية المنطقية ليس على مستوى واحد مع متغيراتنـــا الأخرى ، وقد لا ينتظم فى مجموعة مناســـبة من المقولات الفلسفية . فهو متغير قائم على ملاحظة سلوك المجموعة الصغيرة نســـبيا من القادة التى تكونت أثنـــاء الثورة وهى عنـــدئذ تقوم بمراقبة حـــكومة الارهاب . وقـــد يتأثر كثير من سلوكهم مثل سلوك اتباعهم ومواطنيهم ، بالمتغيرات الأخرى فى قائمتنا ، ودون شك بكثير مما لم نذكره . ولكن تتوقف بعض العنـــاصر الهامة جدا فى سلوكهم على حقيقـــة كونهم قادة ، وانهم مروا بفترة تدريب على التكتيك الثورى ، وانهـــم قد انتخبوا ــ بمعنى داروني تقريبـــا ــ لقدرتهم على التحكم فى جماعة ثورية متطرفة . ولكن هـــذا لا يعنى انهم بالضرورة أو حتى عادة « غير عمليين » ، « نظريين »، « ميتافيزيقيين » أو أى واحـــد من الأسماء الأخرى التى اخترعهـــا لهم بعض النقاد مثل تين Taine وانما يعنى انهم لم يخلقوا للحلول الوسط أو للتصرفات السياسية السخيفة فى المجتمعات غير المضطربة أو الهادئة نسبيا . وانما يعنى أنهم خلقوا ليندفعوا الى التطرف، وان يستخدموا تأثيرهم الخاص ليزيدوا من حـــدة التوتر الموجود من قبل المجتمع . وقد درسوا شأن كل السياسيين ــ المهارات اللازمة للنجاح فى عملهم ، ووصلوا الى حد ان يشعروا بأن عملهم أشبه شىء باللعبة ، ــ كمـــا هى فى الحقيقة ــ

ولكنهم لاعبون مستهترون ، قادرون على أن يستثيروا حماس الجماهير ، ويحاولوا دائما الاستيلاء على الجبهة الداخلية . وليس هناك قائد ثورى صالح يمكن أن ينكص عن ذلك . وفضلا عن هذا ، فانهم يغارون أحدهم من الآخر — ولنستعمل مقارنة أخرى — كالممثلين ، وكل منهم عليه أن يحاول دائما أن يصل الى وسط المسرح . والصراع الذى لم يعد مؤخرا — فى الأزمنة العادية — أكثر من صراع عادى على السلطة بين السياسيين هو — على هذا الوضع — فى فترة التأزم للثورات قد وصل الى درجة القتل .

واخيرا ، هناك المتغير الذى ألمحنا اليه فى مكان سابق من هذا الفصل ، وهو عنصر الايمان الدينى الذى يتصف به المستقلون ، واليعقوبيون ، والبلشفيون ، ولا حاجة بنا هنا لأن نكرر ما سبق أن كتباه عن المظهر الدينى لعهود الارهاب ، ولكن هذا العنصر هو الذى يجعل من عهود الارهاب عهود فضيلة كذلك ، ومحاولات بطولية لكى تسد مرة والى الأبد الفجوة التى بين الطبيعة البشرية والتطلعات البشرية . وهو وان كان أحد المتغيرات الا أنه فى غاية الأهمية . فالأغراض والعواطف الدينية تساعد على تغيير الأزمات التى تجتازها ثوراتنا من أزمات عادية حربية أو اقتصادية وعلى أن تعطى لعهود الارهاب والفضيلة خليطها غير المألوف من الغضب الروحى ، والنشاط ، والاخلاص والتضحية الذاتية ، ومن القسوة ، والجنون ، والخداع لأقصى حد .

والآن نجد أن كل هذه العناصر فى حالة دائمة من التفاعل المتداخل أحدها مع الآخر ، وما يصيب أحدها من تغيير يحدث تغييرات معقدة مقابلة فى كل العناصر الأخرى ، وبالتالى فى الموقف كله . ويجب الا نفكر فيها بألفاظ الحصان والعربة ، أو الكتكوت والبيضة ، أو احدى كرات البليارد وهى تضرب الأخرى . ولكنها بدلا من هذا تطارد بعضها بعضا بطريقة جنونية كما تفعل الذرات داخل تركيب طبيعى كيميائى . وعلى ذلك فان مواقف الخطورة والشدة فى المراحل الأولى من ثوراتنا تجعل من السهل أن تنقاد الأمة الى الحرب — يشهد بذلك مثيرو الحرب من الجيروند فى فرنسا — والحرب نفسها تزيد من المخاطر ، وتعود

الناس على العنف . فالحرب تؤدى الى الضيق الاقتصادى والضيق الاقتصادى يزيد من حدة الصراع الطبقى ، وهذا تستمر الدورة . وكل هذه الآثار ، حتى نهاية فترة التأزم ، تزداد ببطء . فكل تخلص من عادة قديمة ، وكل انسلاخ من الماضى يؤدى فى الحال الى مواقف أخرى ويزيد الضغط على كل فرد تقريبا فى النظام الاجتماعى .

وقد يبدو أن هناك حقيقة يمكن ملاحظتها فى السلوك الانسانى وهى أن كثيرا من الناس يستطيعون تحمل مثل هذا التدخل الزائد فى الأنظمة التقليدية لحياتهم اليومية . وقد يبدو أيضا أن أكثر الناس لا يستطيعون أن يحتملوا طويلا ضغط المجهود الطويل لكى يعيشوا وفق مثل عالية جدا . فالمراقب من الخارج فى فترة التأزم يتحمل قدر طاقته من التدخل فى أقدس نظم حياته وأكثرها التصاقا به ، اما المراقب من من الداخل فيحتاج الى جهد روحى كبير يتجاوز قوى احتماله .

ولهذين النوعين من الناس قد يبدو أن هناك حدا واقعيا لتأثيرهم الاجتماعى مثل الحد الذى يجده عالم الكيمياء لرد الفعل الكيميائى . فالكائنات البشرية تستطيع فقط أن تمضى بعيدا وطويلا تحت تأثير مثل أعلى . والنظم الاجتماعية التى تتألف من الكائنات البشرية تستطيع أن تحتمل الى فترة محدودة فقط الجهد المشترك لخلق عالم أفضل وهو ما نسميه عهد الارهاب والفضيلة . ويأتى ثيرميدور Thermidor (نهاية عهد الارهاب) بطريقة طبيعية فى المجتمعات الثائرة كالمد المنحسر ، كالهدوء بعد العاصفة ، كفترة النقاهة فى أعقاب الحمى . ومثل هذه الصور من الكلام ، المستمدة من القوانين القائمة فى عالم الفيزياء (الطبيعة) ، يبدو أنها تفرض نفسها . ولعلنا نجد ، على الرغم من جهود الفلاسفة ، ورجال اللاهوت ، الأخلاقيين ، وأصحاب النظريات السياسية ، والعلماء الاجتماعيين ، وعدد لا بأس به كذلك من المفكرين الملهمين فى الألفى سنة الأخيرة ، ان النظم الاجتماعية لا تزال تقريبا غير متأثرة تأثيرا ضارا بالنوايا الثورية الطيبة أو الأربطة المطاطة .

الفصل الثامن

ثيرميدور أو نهاية عهد الارهاب

١ ــ شمول رد الفعل الترميدورى :

كان علينا فى محاولاتنا السابقة أن نوائم بين ثوراتنا الأربع فى خطتنا التصورية ولكن هذه المواءمة ما كانت لتتم بصورة متناهية فى الدقة . ومن المستحيل تماما أن نقول ان الأزمة بالنسبة لثورة ما انتهت فى الساعة الرابعة وثلاث دقائق من السادس من أغسطس لسنة ما . وتمدنا فرنسا بمثل محدد مثل هذا . فنهاية الأزمة فى فرنسا يمكن تأريخها بسقوط روبسبير فى ٢٧ يوليو ١٧٩٤ أو فى التاسع من ثيرميدور ، العام الثانى من التقويم الشاعرى الفرنسى الجديد . وتعرف فترة الهدوء التى تلت ذلك وما فيها من أعمال بطولية عند المؤرخين الفرنسيين برد الفعل الترميدورى . فالماركسيون أو أتباع تروتسكى وغيرهم من أعداء ستالين المنشقين غالبا ما كانوا يستخدمون هذا التعبير بالنسبة للثورة الروسية بحيث نستطيع أن نتخذه كما فعلنا مع « العهد القديم » كلفظ يستعمل بشكل عام . فكل ثوراتنا كانت لها «ثيرميدورات Thermidors » رغم تتابع الأحداث ، أو «الجداول» الزمنية ، أو ازدهار الحياة اليومية وأفولها أو أى شىء من هذا القبيل لم يكن متماثلا فى أى ثورتين منها .

وطبقا لخطتنا التصورية ، سنطلق كلمة « ثرميدور » على فترة النقاهة من حمى الثورة ، رغم أن كلمة « نقاهة » توحى بشىء حسن وتبدو بالتالى كطريقة لمدح رد الفعل الترميدورى . وليس علينا الا ان نكرر ما قلناه آنفا من أن مثل هذا المعنى الدال على المدح غير

مقصود . وسوف نتابع محاولاتنا لاستكشاف أوجه التقارب الأولى فى التماثلات بين الظواهر بمعنى اننا لا نمدح ولانذم لا نحيى ولا نلعن .

فى انجلترا نجد أن بداية الفترة « الترميدورية » ، أو النقاهة ، لا يمكن أن تحدد بدقة . فالسنة التالية لاعدام شارل الأول تمثل قمة الأزمة فى انجلترا ، وبقدر مدة البرلمان الطويل بقيت آثار قوية للثورة . ولعل خير تاريخ للترميدور الانجليزى هو حل كروميل للبرلمان الطويل فى ٢٠ أبريل ١٦٥٣ عندما أبدى بعض الملاحظات المشهورة غير الانجليزية حول التشابه بين عصا الضباط وعصا المهرج . وبتنصيب كروميل حاميا للدولة فى ظل « الأداة الحكومية » فى ١٦٥٣ عكف الانجليز فى الواقع على وضع دستور لبلادهم وبذلك — يمكن القول بأن فترة « الترميدور » كانت فى الطريق . وفى ١٦٥٧ أصبح كروميل يسمى « باللورد الحامى Lord Protector » نصف ملك على الأقل ، وبعودة آل ستيوارت فى ١٦٦٠ يمكن القول بأن الثورة الانجليزية العظيمة قد انتهت .

وكان السبب فى سقوط روبسبير فى فرنسا الى حد كبير مؤامرة بين النواب الملتزمين من اليعقوبيين فى المؤتمر ، وهم قوم فى أغلب الأحوال اثروا ثراء فاحشا من الحروب ، والفساد البرلمانى ، والمضاربة بالأموال واوجه نشاط أخرى لا تليق بالمواطنين فى جمهورية الفضيلة . ويبدو أن الخوف من روبسبير « غير القابل للفساد Incorruptible كان من الأسباب الرئيسية لأعمالهم . وكانوا ناجحين ، وساعدهم فى ذلك ما كان يعوز روبسبير من حكمة سياسية . ولم يكن فى نية «الترميدوريين» انفسهم انهاء الارهاب ، وكان اعدام روبسبير واحدا من قائمة طويلة من الاعدامات الثورية التى اعتادوها تماما . ولكن الرأى العام بدأ يعمل دفعة واحدة ، واوضح الفرنسيون انهم كانوا مع « النمور العطشى الى الدم » . واستمر رد الفعل يسير بخطوات ثابتة لبضع سنوات فى كلا العهدين : أيام المؤتمر المتهاوى وأيام حكومة الادارة الجديدة . وكانت هناك فترات نكوص محددة ، كما قد يتوقع المرء فى فترة النقاهة . وقد كان هناك بعث ملفت للنظر لليعقوبية لا سيما فى صيف ١٧٩٩ بعد الهزائم الفرنسية فى الخارج . وفتحت « الأندية »

من جديد ، واخذت الشعارات القديمة تدوى مرة أخرى فى الأماكن العامة ، وفى المقاهى ، وعند تقاطع الشوارع . وبعد ذلك ببضعة شهور قام نابليون بونابرت بانقلابه فى ١٨ بروميير وكانت فترة النقاهة الفرنسية قد انتهت تقريبا . ولا تعتبر عودة البوربون عام ١٨١٤ جزءا من مجرى الثورة فى فرنسا . فالأجدر بها أن تعتبر حدثا عارضا ، ونتيجة لمثل هذه العوامل الشخصية البحتة كاصرار نابليون الجنونى على محاربة أوربا كلها حتى النهاية الأليمة فى ١٨١٣ — ١٤ ، ودعوة تاليران للانقلاب ، والنوايا الدينية لاسكندر الأول فى روسيا .

وما زالت الثورة الروسية قائمة الى حد ما . فأتباع تروتسكى يرون أن ستالين واتباعه « ثرميدوريون » وأن هذه الثورة الروسية ، على أية حال ، قد انتهت . ولا شك أن التجرد الكلى فى مثل هذه الأمور صعب فى هذه الفترة . ولكن يبدو من الواضح أن فترة التأزم فى روسيا قد انتهت ، وأن روسيا فى الأغلب الآن فى فترة نقاهة طويلة مضطربة من حمى الثورة . وقد ننظر الى فترة الحرب الشيوعية ١٩١٧ — ٢١ على أنها أول أزمة رئيسية فى الثورة الروسية . ولقد بدأ ثرميدور روسيا بالسياسة الاقتصادية الجديدة فى ١٩٢١ . فوفاة لينين وما تلا ذلك من تنافس بين ستالين وتروتسكى أدت الى أزمة ثانية ، أو الى نكوص خلال فترة النقاهة التى قد نؤرخها فى الفترات الأكثر حدة لتقوية خطة السنوات الخمس الأولى بطريقة عنيفة . ولكن هذه الأزمة الثانية — كما لا حظ مراقبون كثيرون — كانت تعوزها النظرة المثالية المتفائلة التى كانت للثورة الأولى ، وتعوزها الاندفاعات والمغامرات ، ويعوزها الأعداء النشطون من أجانب وحرس أبيض ، وتبدو حتى من خلال نظرتنا التاريخية الوجيزة أشبه شىء بالأفعال المميزة « للطغاة » الذين وصلوا الى الحكم خلال فترات «ثرميدور» أخرى — مثل تقرير مصير ايرلندا على يز كرومويل ، مثلا ، أو تقرير نابليون لفكرة وحدة القارة الأوربية . أما المسألة المتعلقة بكيفية عودة روسيا فى منتصف القرن العشرين الى الوضع الطبيعى — الوضع الروسى الطبيعى — فانها تحتاج كلها الى بحث مستقل .

٢ ــ العفو والضغط :

من الناحية السياسية نجد أن أكثر التماثلات اثارة للملاحظة والانتباه فى فترة النقاهة هى التنصيب المطلق «لطاغية» فيما يشبه المعنى الذى كان يستعمله قدماء الاغريق لهـذه الكلمة ، أى حاكم غير دستورى وصل الى الحكم عن طريق ثورة أو انقلاب . وهذا التماثل قد لوحظ فى أحوال كثيرة : فكرومويل ، وبونابارت ، وستالين يبدون جميعا مؤيدين له . والحقيقة انه فى الفترة الفيدرالية فى الولايات المتحدة كان هناك عدد من أتباع جيفرسون لم يقدروا الجميل بدرجة كافية بحيث وجدوا أن واشنجطون كان مثالا طيبا للطاغية الذى ولدته الثورة . وليس هناك ما يحير فى هذه الظاهرة . فبعد أن اجتازت الثورة الأزمة وما صاحبها من تركيز للسلطة ، كان لا بد من أن يسيطر أحد الزعماء الأقوياء على تلك السلطة المركزة حينما أحرقت الطاقة الدينية المجنونة نفسها فى فترة التأزم . فالدكتاتوريات والثورات مرتبطة احداها بالأخرى ارتباطا وثيقا لا معدى عنه ، لأن الثورات الى حد ما توقف أو على الأقل تضعف القوانين ، والتقاليد ، والعادات ، والمعتقدات التى تربط الناس بعضهم ببعض فى المجتمع ، وحينما تربط القوانين ، والتقاليد ، والعادات والمعتقدات بين الناس بصورة ناقصة يجب أن تستخدم القوة لعلاج ذلك النقص . والقوة العسكرية هى ــ لفترات قصيرة ــ أكثر أنواع القوة فاعلية وصلاحية للأغراض الاجتماعية والسياسية ، والقوة العسكرية تتطلب تسلسلا فى الطاعة ينتهى آخر الأمر الى قائد أعلى . ويقول فيريرو حينما تتقطع « الخيوط الحريرية » التى تربط ما بين الناس من عادات ، وتقاليد ، وشرائع ، يجب أن يرتبط الناس بعضهم ببعض فى المجتمع بواسطة « السلاسل الحديدية » للدكتاتورية . ومع ذلك ، فان هذا كله أمر عادى فى أوقاتنا هذه .

وحكم الفرد لا يأتى مباشرة برد الفعل « الترميدورى » فحتى كرومويل نفسه ، أول من نصب من الثلاثة ، لم يصبح حاكما مطلقا (لا ينازع) بمجرد حل البرلمان الطويل . ان رد الفعل بالنسبة للأزمة يكون أول

الأمر بطيئا وغير مؤكد . وهنا تصبح عادة العنف مقررة بشكل دقيق . وتتخلف من الأزمة ميول نحو اتخاذ اجراءات صارمة . وحتى الرجال الهادئون ، المحبون للسلام تعتريهم لحظات يميلون فيها الى « مثيرى الارهاب » . واذا نظرنا من خلال هذا الضوء ، لوجدنا أن حركات التطهير والمحاكمة فى موسكو عام ١٩٣٠ ليست دليلا على ان الثورة الروسية كانت ذات حياة طويلة بشكل غير مألوف ، وانها لا تصلح لأن ينطبق عليها نموذجنا . وهذه الاستعراضات « الميلودرامية » ليست شيئا أكثر من النتيجة المتوقعة للثورة فى أرض ما وبين شعوب لم تنعم بالعهد الأعظم ، ولا بلاكستون أو جيلبرت وسليفان .

وبمرور الزمن ، يتراخى الضغط الذى يمارسه الارهاب على عامة الناس : وتخلى المحاكم الخاصة السبيل للمحاكم النظامية ، وينصهر البوليس الثورى فى البوليس النظامى ، ويحتفظ بالمشنقة أو فرق الرمى بالرصاص للمجرمين الأشد خطرا . ولا يعنى هذا بالطبع أن الحياة السياسية تتخذ بعد فترة قصيرة الاستقرار المرغوب فيه الذى يحلو لبعض معاصرينا أن يصفوه بأنه « حكم (سيادة) القانون » ولا حتى فى انجلترا الهادئة خلال القرن التاسع عشر ، أو فى القرن الثالث عشر الذى عاش فيه القديس توماس الاكوينى عيشة طيبة . فالميل الى العنف السياسى يستمر فى الانقلابات ، وحركات التطهير ، والمحاكمات المتقنة . ولكن جون جونس ، وجاك ديبون ، وايفان ايفانوفتش ، رجل الشارع — لم يعد فى الاعتبار — فهو عندئذ يترك وشأنه ليمارس دور المتفرج العادى .

وبالتدريج ، أيضا ، يعفى عن المحرومين سياسيا ويعودون الى الظهور واحيانا يسهمون فى المنافسات السياسية ، واحيانا يصبحون جزءا من العاملين فى « الحياة الجديدة ، البيروقراطية » ، وأحيانا يعيشون فى هدوء كمواطنين عاديين . والطريقة بالطبع هى عكس الطريقة التى استبعد بها هؤلاء الرجال والنساء . فهم ينتقلون من اليمين الى اليسار ثم من اليسار الى اليمين — فهم راديكاليون صميمون ، ثم معتدلون ، ثم محافظون معتدلون حتى يعيد الاستقرار النهائى بقايا العصابة القديمة . وهكذا

كانت الطريقة فى فرنسا وفى انجلترا . فبعد عام ١٦٥٣ ظهر البرسبيتاريون وبداوا ينغمسون فى السياسة ، ثم تبعهم المعتدلون من الأسقفيين والملكيين ، حتى عاد آل ستيوارت وأتباعهم فى ١٦٦٠ . وكان التتابع فى فرنسا دقيقا جدا ومحددا بصكوك واضحة للعفو : فالجيروند أولا — وهم أولئك الذين قدرلهم البقاء — عادوا بينما تساقطت الدموع وأقيمت النصب للضحايا البريئة التى طاح بها روبسبير النمر المتعطش للدماء ، وبعد ذلك المتطرفون ، ثم الملكيون ومن اليهم من المهاجرين الذين استطاع نابليون ، مع ذلك ، مراقبتهم مراقبة جيدة ، وأخيرا ، فى سنة ١٨١٤ البوربون أنفسهم .

وعلى طول العهد لم يعد آل رومانوف الى روسيا ، ولا يتوقع أحد الآن عودتهم . ويجب الا نطلب من ثوراتنا أن تقدم لنا صورة متقنة للغاية . ومن الواضح ، مع ذلك ، فيما عدا عودة الملكية للمرة الأخيرة — أن المخطط الذى عرضناه آنفا كان يسير ببطء فى روسيا ، على الأقل منذ وفاة لينين . فحتى الارستقراطيون يستطيعون أن يعودوا اذا قدموا الدليل على خضوعهم . ان جوركى المقدس ظل يوصف بما كان يوصف به أمثاله فى فرنسا من انه عاطف على النظام ، فهو لم ينضم الى النظام الشيوعى الا بعد ما مرت فترة الارهاب الأولى بسلام . ومن ناحية أخرى نجد أن البلاشفة القدماء كلهم تقريبا ، وهم الذين حكموا روسيا فى فترة التأزم ، قد تمت تصفيتهم الآن . ولم يكن ستالين فى ١٩٥٢ يستطيع أن يقيم أى اتصال انسانى مباشر مع ماضيه الثورى . وقد جرى القول فى الغرب بأن ستالين نفسه هو الوارث الفعلى للقياصرة ، وأن ما كان يجرى فى عهد آل رومانوف ان لم يكن اسمهم قد أعيد الى ما كان عليه .

ومن المحتمل أن يكون رجال الحكومة فى « الفترة الترميدورية » وفى النظام الحديث — القديم الذى انبثق آخر الأمر عن الثورة مختلفين فى شأنهم . فقد كان بعض الذين خدموا فى حكومة نابليون من الأرستقراطيين القدماء « أشراف السيف » ، والبيروقراطيين الذين دربوا فى النظام القديم ، والفايتيون ، والجيروند بل وعدد قليل من اليعاقبة الآخذين بمبدأ

العنف . ولقد كتب عن رجال من أمثال البيمارل ، وشافتسبورى ، وداوننج الذين ظهروا فى حكومة شارل الثانى بعد عودته ، « انهم كانوا من مدرسة بليك وفين نفسها وكانوا يمثلون أقصى ما وصل اليـه حزب كرومويل من الادراك السياسى » . وحياة داوننج خير مثال لمـا يستطيعه الأشخاص الأكفاء الذين يتميزون بالمرونة السياسية من اجتياز فترة الثورات . فقـد تخرج فى جامعة هارفارد فى ١٦٤٢ ، وذهب الى انجلترا فى الفترة السعيدة لسيطرة البيوريتان . وسرعان ما تلألأ نجمه بين أتبـاع كرومويل ، وكان يكرس مواهبه بصفة خاصة فى الأمور السياسية . وجاهد ليغير مذهبه فى الوقت المناسب تماما ، وقبل فى خدمة الملك الجديد . ومن هـذا الرجل الذى يمثل هارفارد تمثيلا صادقا الى حـد كبير أخذ « داوننج ستريت »(١) فى لندن اسمه . وحتى فى روسيا نجد أنه بينما استبعد البلاشفة القدماء استبعادا تاما تقـريبا من المجالس العليا ، اندرج كثير منهم دون شـك فى البيروقراطية الجديدة الهائلة وخمدت نارهم . ولكن البيروقراطية الروسية ظلت لا تعترف تمـاما بحقوق الملكيـة غير الموروثة ، الأمر الذى يمكن أن يكون سببا آخر لعـودة موجة الارهاب فى ١٩٣٦ — ٣٩ . وقد كانت فترة النقاهة الروسية فترة مضطربة .

فالطبقات الحاكمة الجديدة فى كل مجتمعاتنـا هى اذن مجموعة متنوعة جدا ولا يربطهـا الا شىء قليل يتعلق بالاصول الاجتماعيـة ، والتعليم ، والميول الحزبية القديمة . يشتركون فى القابلية للتلاؤم . وقد صمدوا لاختبار قاس قد يكون تعسفيا بعض الشىء . وهم — يبدون بعد أبطال الارهاب — ألفين غير جسورين من نواح كثيرة . ولكنهـم عادة يعملون بمهـارة على جعل النظم ، والقوانين ، والأعمال النمطية ، وكل الأجهزة الضرورية لأداء الأعمـال تحقق الغرض منهـا .

ويتمشى مع العفو عن المعتدلين السـابقين مخطط عكسى للضغط والاضطهاد ضد الثوار الذين لم يتوبوا عن سلوكهم . وكلما ساد رد الفعل

(١) « داوننج ستريت » هو مقر رئاسة الوزراء فى لندن .

نحو اليمين ، اتسع نطاق تعريفه للثوار ليكون مقيدا بشكل ملائم على انه رد فعل مناسب ضد فظائع عهد الارهاب . والثرميدوريون انفسهم غير مستعدين بحال من الأحوال لتطبيق الطرق الارهابية فى اتجاهها الصحيح وفترات الارهاب الأبيض حقيقية كالحمراء . وحتى فى انجلترا نجد أن قانون كلاريدون لعودة الملكية يتفق اتفاقا شديدا مع النموذج العام للضغط الذى طبق فيما بعد فى فرنسا وفى روسيا . والمتطرف الذكى الذى لا مبدأ له قادر بصورة دائمة تقريبا على أن ينجو من الارهاب الأبيض ــ كما يشهد بذلك فوشيه مرة اخرى . وانما المتطرفون الدؤوبون ذوو الرأى هم الذين يقاسون .

أما فيما يتعلق بمن هم أكثر نشاطا وعنفا من قادة الارهاب الأصلى ، فانهم بالطبع مستبعدون اما بالنفى أو الموت . ويقال الآن عنهم انهم كانوا متعصبين ، اشرارا ، طغاة ، متعطشين للدماء ، أوغادا . انهم يصبحون كبش الفداء ، ايضاحا للمشكلات التى حسمها النظام الجديد . واذا كان كبش الفداء المثير جدا ، قد مات ، فان ذلك يكون خيرا . فجثة كرومويل اخرجت من قبرها بعد عودة الستيوارت فى تايبرن مع كل من آيرتون وبرادشو . لقد أصبح طاغية ، غولا ، عدو الله ، وظل كذلك حتى رد له كارليل اعتباره فى القرن التاسع عشر وجعل منه بطلا . وروبسبير لم يسترد أبدا مكانته كبطل الا بالنسبة الى فئة قليلة يتزعمها البرت ماتيز. ولقد جعل « الثيرميدوريون » من روبسبير كبش فداء بارز ، وزعيم عصابة الارهابيين ، وطاغية تافها متقلبا ، وشريرا ملطخا بالدماء . ولينين ، بالطبع ، مات قديسا ، ولكن لحسن حظ ستالين كان تروتسكى كبش فداء عظيم . وفى الحقيقة يبدو أن معين كباش الفداء فى روسيا لا ينضب .

ملحوظة : ان ستالين نفسه لم يسلم من هذه الظاهرة فقد اخرج جثمانه من مقبرة العظماء ليدفن وسط مقابر الناس العاديين .

ان سمو المثل العليا قد مضى الآن ، رغم أن العبارات الضخمة ما زالت قائمة ، وقد تجمدت فى عادات وعقائد . والطبقة الحاكمة الجديدة

تستقر لتؤدى عملها على أحسن وجه تستطيعه . ولكن من الواضح أنها تقصد أيضا التمتع بالحياة ، وأن يكون لها من الامتيازات والثروة ما كان لكل طبقة حاكمة . ولا شك أن هذه الطبقة الحاكمة الجديدة لا تحاول تحقيق الحرية ، والمساواة ، والاخاء لكل فرد فى المجتمع . فهى ترضى تماما عن هذا « الوضع الطبقى Stratification » الذى نشأ تلقائيا أثناء الثورة . وهى تحسم خلافاتها الداخلية على قدر ما تستطيع ، بالطريقة التقليدية للطبقات الحاكمة . فلن يكون هناك شىء من الالتجاء المباشر الخطر للشعب دون الخوف من أخطار الاضطرابات الشعبية الشديدة . وقد لا حظنا من قبل كيف أن الشعب — كلما اقتربت فترة التأزم — يبتعد شيئا فشيئا عن السياسة « الفعلية » ، وكيف أن المتطرفين يصلون الى الحكم عن طريق الانقلاب . وتستمر هذه العملية مع « الترميدوريين » حتى أن التغيرات السياسية ، وانتقالات السلطة خلال هذه الفترة — وهى عديدة ، وليست منتظمة — لا تكون أكثر من ثورات على القصر . وعندما تهدأ الأمور يخاطر المنتصرون باجراء استفتاء . اذ لا بد من المحافظة على المظاهر ، وقد استقرت بعض الانطباعات تماما عن ارادة الشعب فى ذهن « جون جونس » . ومن هنا ، بالطبع ، كانت « ديمقراطية » دستور ستالين سنة ١٩٣٦ .

وقد يصبح « جون جونس » متعبا بعض الشىء من الاضطرابات السياسية ولكنه بالتأكيد فى الفترة « الترميدورية » ليس فى حالة جيدة بوجه عام . ومن أكثر التماثلات اثارة للانتباه والتى نستطيع أن نتبينها فى هذه الفترة أن الناس ، وبوجه خاص فى فرنسا وروسيا ، الى حد ما أيضا فى انجلترا سنة ١٦٥٠ وفى أمريكا أثناء « مواد الاتحاد Articles of Confederation » كانوا يعانون كثيرا من الناحية الاقتصادية ، وبوجه خاص أفقر الطبقات ، أكثر مما كانوا يعانون خلال فترة الارهاب أو خلال السنين الأخيرة للنظام القديم . وعندما تخلى « الترميدوريون » فى فرنسا عن تحديد الأسعار وصرف كميات محددة من الطعام (بالبطاقات) ارتفعت الأسعار ، وسارت العملة الورقية فى طريق التدهور ، وأصبح

الفقراء فى حالة سيئة جدا . ويبدو ان هنـــاك اتفاقا عاما علىّ انه كانت هناك معاناة شديدة فى فرنسا فى شـــتاء ١٧٩٥ ، ١٧٩٦ أكثر مما كان الحال فى أى وقت آخر فى العصر الثورى . ومع ذلك فانه فيمـــا عدا عدد قليل من الاضطرابات المثيرة الخاصة بالخبز فى باريس وفى بعض المدن الكبيرة حيث تستطيع الحكومة القضاء على تلك الاضطرابات بسهولة ، لم يحـدث شىء . وبالمثل فى روســـيا ، يبدو انه ليس هنـــاك شك فى أن « تصفيـــة الكولاك kulaks » والمجاعة الكبيرة خـــلال الخطة الخمسية الأولى كانتا ايذانا كبيرا بالموت والبؤس اكثر مما كان فى فترة حرب الشيوعية . ومن المحتمل أن يكون تفسير فشل هـــذه المعاناة فى أحداث اضطراب هو ان المعاناة ليست فى ذاتها حافزا لثورة فعـــالة ، وربمـــا كان السبب أن الطبقة الحاكمة الجديدة فى فترة « الترميدور » تستطيع أن تستعمل القوة وتستعملها فعلا بقدرة لم تكن فى مقـــدور الطبقة الحاكمة القديمة ، وربما ايضا بمجىء عهد « الترميدور » يكون السواد الأعظم من الشعب وهم من غير الأغنياء او الفقراء ، وليسوا على هامش الوجود قد أصبحوا منهوكى القوى ضعفـــاء وضـــاقوا ذرعا بخـــبرات الجهـــاد فى سبيل جمهورية الفضيـــلة » .

ان انتشار المثل العليـــا جاء عن الحروب التى كان الثوار يثيرونها لينشروا تعاليمهم . ومما لا شك فيـــه أن هـــذه الحروب لم يكن الغرض منهـــا كلية نشر هـــذه التعاليم ، ولا شك أيضـــا ان شعارات هذه التعاليم استمرت مدة طويلة بعد فترة التأزم البطولية . ولكن القومية العـــدوانية تحل بالتدريج محل الروح التبشيرية ، وبالتدريج يصبح الجهـــاد من أجل نشر المبادىء المسيحية حربا للغزو . فكروموبل حول الطـــاقات الانجليزية لاعادة غزو أيرلنـــدا وبالتالى لاستعـــادة الهيبة الانجليزية فى الخـــارج . والاستيلاء على جامايكا شىء صـــغير اذا قورن بغزوات نابليون ، ولكنه من نفس « النموذج » الاجتماعى . وبظهور سكسبى وبليك فى الســـنين الأولى اتخذت القومية شكل الرغبة فى جعل كل أوربا جمهورية ، وعنـــد منتصف الحقبة الخمسينية عادت القومية الانجليزية الى مســـالك اكثر طبيعية .

وكانت القومية الفرنسية فى ظل حكومة الادارة ونابليون تتفق والنموذج الذى سقناه آنفا ، وهذا واضح حتى بالنسبة لمن يعبدون نابليون .

وفى روسيا فى الأيام الأولى للثورة نبذت فكرة القومية بالمعنى العدوانى وفقا لأحسن تعاليم ماركس ، وبالمعنى الثقافى الخالص أصبحت القومية هى الأساس القيم للاتحاد السوفيتى . وبالنسبة للكثيرين من المعجبين بالثورة الروسية ، لن يكون واضحا أن روسيا قد تجاويت أيضا مع « نموذجنا » ، وأنها قد تلاءمت مع القانون الذى بواسطته تصبح مبادىء الثوار المسيحيين المناصرين فى البلاد الأخرى هى القومية العدائية التى ألفناها . والمرتاب وحده هو الذى يستطيع أن يقول أن المساواة الاتحادية للجماعات القومية داخل الاتحاد السوفيتى لم تثبت عدم تلاؤمها مع السيطرة العملية للروس العظام ، رغم أنه لا مجال للشك فى أن الحكومة السوفيتية كانت فى أغلب المواقف أكثر تحررا تجاه الجماعات القومية الأخرى مما كانت روسيا القيصرية ، وأنها كانت أكثر نجاحا فى ادماجها فى الوحدة الأكبر لاتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية . ومع ذلك حتى فى داخل الجمهوريات الاشتراكية للاتحاد السوفيتى القديم ، كان من الضرورى قمع ألمان الفولجا وبعض الجماعات المستقلة فى القوقاز بعد طرد الجيوش الألمانية فى ١٩٤٣ — ١٩٤٤

وأكثر أهمية لأغراضنا عودة القومية العادية الى الظهور بشكل واضح فى روسيا أيام ستالين . ففى الثلاثينات من سنة ١٩٣٠ ، كان المراقب الصديق لروسيا يستطيع أن يفسر العلامات الواضحة لاحياء القومية — مثل رد اعتبار الأبطال القدامى فى عهد القيصرية ، والعودة الى سياسة توازن القوى التقليدية ، وما الى ذلك — على أنها اجراءات دفاعية بحتة ضد تهديد هتلر . ولكن منذ عام ١٩٣٩ لا يستطيع أحد سوى الشخص الغليظ القلب أن يشك فى أن روسيا الماركسية لا تقل فى حماسها للقومية عما كانت فى عهد روسيا القيصرية . واذا كان الصحفيون المحافظون الأغبياء فى الغرب لا يميلون الى هذا القول فان هذا ، لسوء الحظ لا يغير شيئا من صدق هذه الحقيقة .

ويقول الأستاذ ن. س. ثيماشيف من فورد هام فى سنة ١٩٤٣ فى بيانه المعتدل عن عملية مخطط احياء القومية الروسية :

ان روسيا لم تندمج فى المجتمع الدولى الذى لم يقدر له بعد أن يولد . ويحق لنا القول بأنه ، خلال فترة معينة من الزمن ، كان اسم روسيا موضع اجتناب دقيق ، على الأقل من حيث ارتباطه بواقع السياسة العامة التى تقررها موسكو : وفى سنة ١٩٣٢ نشأ اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية الذى لم تكون الجمهورية الروسية الاشتراكية غير جزء منه . ولكن بعد ذلك بعشر سنوات تقريبا ، بدأ الزعماء يستخدمون لفظ روسيا كبديل لاتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية . ولم يلبث أن عاد لفظ « القومية » الى الظهور مشيرا الى حب بلد معين . وفى البدء كان الاصطلاح هو « القومية السوفيتية » ، ولكن عدد الحالات أخذ يتزايد سنة بعد سنة حتى استعمل اصطلاح « القومية الروسية » . وفى خلال الحرب العالمية الثانية طغى اسم روسيا بشكل نهائى على « اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية » فى التقارير الرسمية ، وفى الأعمال الأدبية التى ترتبت على مجهود الحرب ، وفى الخطب التى كانت تقال فى نفس المناسبة وما الى ذلك ؟ ومن الواضح أن لفظ « روسيا » له تأثير عاطفى أقوى بكثير وأنه ذو قوة محركة أعظم من عبارة « اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية » . والآن يتحدث الناس بطريقة شائعة عن الأعمال المجيدة « لشعوب روسيا » ، وعن انتاجها الفنى الذى لا يضارع ، وعن شجاعتها ... الخ . وعبارة « شعوب روسيا » يشير الى مرحلة ذات مغزى هام فى الموقف : فالقومية الجديدة ليست قومية عنصرية أو متصلة بالأجناس وقاصرة على أكثر الجماعات العنصرية عددا والتى تعيش داخل حدود الدول السوفيتية ، انها نوع من القومية المتحدة تضم كل الجماعات التى تتكون منها أسرة « شعوب روسيا » . وهذه القومية الجديدة أقرب الى الوضع الذى كان سائدا فى روسيا حتى سنة ١٨٨٠ منها الى « القومية » الأضيق نطاقا فى عشرات السنين الأخيرة قبل الثورة .

٣ ـ عودة الكنيسة :

ان وضع الأديان المعروفة فى النظم القديمة من أحسن الدلائل على طبيعة ردود الفعل « الترميدورية » ومداها . وقد رأينا فى الفصل الأخير أن المتطرفين نموا ما كان يجب علينا أن نسميه دينا خاصا بهم ، أى ايمانا نشيطا ، مجاهدا ، غير متسامح ، يرسل المخلصين من اتباعه للسيطرة على أبواب الجنة فى الأرض . ومن الأمور الطبيعية جدا أن المتطرفين اضطهدوا اثناء سيطرتهم القديمة المستقرة ، سواء منها الكاثوليكية والبروتستانتية . وأن المستقلين الانجليز اضطهدوا البابويين والأسقفيين والبريسبيتيريين بشدة ربما تفاوتت حسب هذا الترتيب نفسه . وفى فرنسا كانت الكنيسة الكاثوليكية لفترة طويلة درعا للفلاسفة . ولم يكن اليعقوبيون المنتصرون جميعا متفقين على معاملتهم للكنيسة الكاثوليكية او حتى على الاصلاحات المرغوب فيها . فعبادات العقل ، والوطن ، والكائن الأعظم ، كان لكل منها اتباعها . وقد تمكن معظمهم من الاتفاق على عدم الاعتراف بالكاثوليك غير الملتزمين بالقانون الذين كانوا يدينون بالولاء للبابا . وفى أوج الارهاب كان أقوى « المناهضين للمسيحية » يفعلون ما يشاءون فى بعض المناطق ، فدمروا الكنائس أو شوهوها وحكموا بالاعداء أو بالنفى على القسس ، وسخروا على المسرح من الطقوس الكاثوليكية . وقد كان فوشيه هو الذى تسبب فى أن يكتب فوق « بوابة » المدافن فى نيفرس العبارة التالية : الموت نوم ابدى .

ولقد كان البلاشفة يكرهون الكنيسة اليونانية الأرثوذكسية بدرجة لا تقل عما كان يشعر به اليعقوبيون نحو الكاثوليك الرومان . ان كانوا يعتقدون اعتقادا راسخا أن الدين « أفيون الشعوب » . وكانوا يعتقدون أنهم علميون ، وبالتالى لا دينيون . ولما وصلوا الى الحكم شنوا حملة قوية ضد الكنائس ، رغم أعمالهم الكبيرة الأخرى وبخاصة فى الأيام الاولى للحرب الشيوعية . واستعملوا العنف ضد أشخاص رجال الكنيسة وضد مبانيها ، واغلقوا الأديرة وما الى ذلك . وكان القسس يعتبرون ضمن

الجماعة غير المنتجة ، وقاسوا اكثر من سواهم من نقص الغذاء خلال فترة المجاعة الكبرى . ومع ذلك فان المرء يشعر بأن الارهاب المحض الموجه ضد المسيحية المنظمة فى روسيا لم يكن بالشدة التى كان عليها فى فرنسا . وكان للبلاشفة عقيدة كبرى فى قوة التعليم الصحيح ، وخططوا منذ البداية احتكار الدولة الذى يؤمن النشىء ضد تعرضهم لخطر عدوى الأفكار المسيحية . وبالنسبة للبالغين كانت الحكومة تركن الى الدعاية ضد الدين ، والى المتاحف التى تعرض زيف الدين القديم وفظائعه ، والى نشر الوعى بوجه عام والرغبة فى طيبات هذه الدنيا . وتكونت « عصبة المحاربين اللادينيين » بتأييد الحكومة ، وأخذت الصحف تكتب بحماس لتنفر الناس من الدين ، ولفترة ما فى العشرينيات من ١٩٢٠ كان المراقبون الأجانب يقولون ان المسيحية فى روسيا فى طريقها الى الزوال .

الا أنه لا يمكن أن يقال ذلك باطمئنان فى ١٩٥٢ . فمن الصعب جدا الحصول على معلومات موثوق بها عن مركز المسيحية المنظمة فى روسيا . ففيما يتعلق بهذا الموضوع ، بل وفيما يتعلق بمعظم الموضوعات الأخرى ، قد يكون من الصعب الحصول على معلومات كافية ولكن يبدو أنه من المقرر بصفة قاطعة أن المسيحية الآن وبعد خمسة وثلاثين عاما من سيادة البلشفية لم تندثر فى روسيا بل وانها ليست قاصرة كلية على المسنين الذين نشأوا قبل الثورة . ويبدو واضحا أن الحكومة الروسية كانت خلال الحرب الأخيرة ، تعمل على حفظ الروح المعنوية عن طريق ما تبقى من المسيحية الأرثوذكسية . بل وفى الثلاثينات من سنة ١٩٣٠ كان هناك ما يدل على أن الكنيسة فى سبيل التفاهم مع الشيوعية . ولكن يبقى أيضا ان الشيوعية — مثل اليعقوبية من قبل — تأخذ مأخذ الجد مهمتها ضد المسيحية . وقد يحدث بعد جيل أو جيلين أن تنمحى المسيحية بشكل حقيقى من روسيا ، رغم انها لم « تمح » — فيما يعتقد المرء — فى كثير من الدول الموالية لروسيا مثل بولندا والمجر . وقد يبدو أكثر احتمالا أن المسيحية فى روسيا ، كما فى فرنسا ، وكذلك « المادية » المكافحة المعادية للمسيحية سيعيشان جنبا الى جنب فى تسامح مضطرب متبادل . وخلال ذلك ، من الواضح أن

سياسة الجذر والفرع (التى طبقت فى الثورة الانجليزية) لم تطبق حتى فى روسيا . ولا يزال ممكنا فى ١٩٥٢ مشاهدة شعائر الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية فى أرض الثورة الماركسية الناجحة . وقد لا يحضر أعضاء « المكتب السياسى Polit-burau » قداس الكنيسة الأرثوذكسية ولكن معظم هيئة ضباط الجمهورية الفرنسية الثالثة كذلك لم يحضروا القداس بصفة رسمية . ومع ذلك فقد تكون الشيوعية الرسمية مادية نقية ، وضعية ، وضد العقائد الكنائسية شأنها فى ذلك شأن الاشتراكية الراديكالية الفرنسية الرسمية فى أيامنا — راغبة بطريقة غريبة فى الابقاء على المسيحيين الذين كفوا عن محاولة استعبادهم .

ومن كل الوجوه يجد المرء نتفا من الحقيقة تشير كلها الى نتيجة واحدة . فتحت الحكم الترميدورى لستالين ، أخذت الأرثوذكسية تنسحب بالتدريج الى مركز معترف به وان كان لا يزال غير مستقر فى الحياة الروسية . وليس معنى هذا القول أن المناضلين اللا دينيين صاروا غير نشطين أو أنهم بدورهم سوف يجدون أنفسهم مضطهدين . وليس معناه كذلك أن الكنيسة الأرثوذكسية هى اليوم تماما كما كانت أيام القياصرة فالأمر على العكس ، اذ من الواضح أن رجال تلك الكنيسة ، وقد عرفوا بجمودهم وعدم فاعليتهم ، قد تحركوا للقيام بمجهود واعى للتكيف مع الظروف الجديدة . ولكن معنى ذلك أن طقوس الكنيسة لا تزال مستمرة فى روسيا التى لم تعد تماما روسيا المقدسة كانت قديما ، ولكنها لم تنفصل عن نظام ارتبط بتاريخها من آلاف السنين .

وفى فرنسا سار التوفيق بين الترميدوريين والكنيسة القديمة بسرعة شديدة حتى أن نابليون استطاع خلال أقل من عشر سنوات من حركة « مناهضة المسيحية » على يد الارهابيين أن يوقع اتفاقا مع البابا أعيد بمقتضاه اعتبار المذهب الكاثوليكى الرومانى المذهب الرسمى للدولة فى فرنسا .

وخلال أسوأ عهود الارهاب ، كان على الكاثوليك فى فرنسا أن

يقيموا شعائرهم سرا ، على رغم الحقيقة الواقعة وهى أن حرية العبادة كانت مكفولة قانونا . وبسقوط روبسبير بدأوا يخاطرون باقامة الشعائر العامة فى المبانى التى كانوا لا يزالون يحتفظون بها . وكلما تم العفو عن عدد أكبر من المعتدلين ، اتخذت الحكومة موقفا وديا أكثر فأكثر ، وقد شهدت السنوات الأربع الأخيرة من القرن الثامن عشر حرية دينية كاملة فى فرنسا وفصلا يكاد يكون تاما بين الكنيسة والدولة . ولقد شعر شعر نابليون وكثيرون من أفراد الطبقة الحاكمة الجديدة بالحاجة الى أن يضموا الكاثوليك تماما الى صفوفهم ، ولذلك أبرم الاتفاق الرسمي . وبعد ذلك لم تكن الكنيسة الكاثوليكية التى أعيد تأسيسها ، فى نفس الوضع الشرعى الذى كانت عليه فى ظل النظام القديم بالضبط عندما كانت مصدر الايمان الوحيد المعترف به . وبمقتضى القوانين الجديدة منح البروتستانت واليهود وضعا مساويا لوضع الكاثوليك .

ولا تدخل المسيحية المنظمة فى الثورة الأمريكية بنفس الطريقة . ومع ذلك نجد فى انجلترا تشابها يلفت النظر مع الخطوط العريضة للنمو فى فرنسا وروسيا . فمصدر الايمان المستقر فى النظام القديم كان هو كنيسة انجلترا وهى ، من نواح كثيرة ، من حيث العبادة ، واللاهوت ، والحكومة ، ليست شديدة البعد عن التقاليد الكاثوليكية . وكان مصدر الايمان الثورى الجديد هو مذهب كلفن Calvin بصوره المتعددة التى انتصر منها أخيرا المذهب المستقل . فتحت حكم المستقلين كانت العبادة الانجيلية ، وكذلك المذاهب الأخرى المنافسة للعبادة الكلفينية مضطهدة . وكان هذا الاضطهاد الدينى أشد مما فى فرنسا وروسيا . كان المتنازعون فى تلك المذاهب علماء ذوو محصول لغوى وفى ومعتقدات ثابتة . ومن ناحية أخرى ، كانت أعمال العنف والمذابح فى المنازعات الدينية المباشرة خلال الثورة الانجليزية ما عدا فى ايرلندا أقل أقل مما كانت فى كل من فرنسا وروسيا ، وبقمع الشيع الأكثر تطرفا وبخاصة شيعة انصار السلام ، يبدأ التأرجح الى الخلف فى انجلترا . ففى السنين الأخيرة لحكم كرومويل ، اثبت البروسبيتاريون وحتى الانجيليون

وجودهم فى الحياة العـامة وواصلوا طقوسهم الدينية فى حرية حقيقية . وحينمـا عاد شارل الثانى كانت كنيسة انجلترا قد أعيد تأسيسها بشـكل قريب للغاية من مكانتها وامتيازاتهـا القديمة ، وأخذت الدورة شكلهـا العـادى باضطهاد الشيع التى صنعت الثورة .

واذن فتاريخ الأديان المعترف بها فى النظم القديمـة هو من أوضح التشـابهات التى تبينها لنـا دراستنا للثـورات . ونستطيع أن نرسم رسما بيانيا تسير فيه مكانة الأديان المنتظمة القديمة فى خط منحن يصل الى أدنى درجة فى أسوأ عهود الارهاب ، ويأخذ فى الصعود تدريجيا خلال رد الفعل الترميدورى حتى يبلغ مركزا يكاد يكون مساويا فى الارتفـاع لذلك الذى بدأت منه فى العهد القديم . ان مثل هـذا الرسم البيانى قد يكون بسـيطا خصوصا اذا تضمن تفسيره فكرة أن الكنيسـة المستعادة كانت هى نفسها الكنيسة القديمة تماما . فلا الناس ولا النظم تمر خـلال أزمة الثـورة دون تغيير . ان القسس الذين عانوا الاضطهاد لم يكونوا مطلقـا — فيما بعـد — هم نفس الرجـال الذين كانوا يتمتعـون بالاطمئنان فى العهـد القديم ، كمـا أن « المهاجرين » الذين عادوا من المنفى لم يكونوا نفس الرجال الذين كانوا فيما مضى أعضاء فى الطبقـة الحاكمة لا يتحداهم أحد . وسننظر فيما بعد فى تغير النظم التى استعيدت — ظاهريا — بعد الثورة . وهنا ينبغى أن نقول كلمة عن المهاجرين من القسس ، والنبـلاء ، والأغنياء الذين تعتبر عودتهم الى الحياة العـامة احدى الظواهر المميزة لفترة الترميدور .

وانه ليسعدنا أن نختتم حديثنا فى هـذا المجال بأن رجـال الكنيسة القدماء عادوا وقد تطهروا وزادت قوتهم باختبار الاضطهاد والنفى ، وان الحكام القدماء عادوا وقد أصبحوا أكثر تأدبا وأكثر حكمة . ولكن هـذه النتيجة لا تبـدو ممكنة . فهناك شواذ ، مثل الدوق ريشيليو الذى تعلم الاعتدال وفن حكم الناس خـلال مدة نفيه الطويلة فى روسيا ، ثم عاد ليخدم لويس الثالث عشر باخلاص على مايرام . ومع ذلك ، فان عواطف المهاجرين الدينية وأفكارهم الأخـلاقية والسياسية ضاقت ، واشتدت ،

وجمدت نتيجة لمـا قاسوه من الآلام . فكاثوليكية جـوزيف دى ميستر كانت ذات طابع صلب وخشن غير مألوف فى الايمـان الذى نشأ عليه فى النظام القديم .

ان كتب المواعظ هى وحدهـا التى تقول ان الشـدة دائمـا معلم نافع . اما العالم الذى سيق اليه الملكيون الانجليز ، والمهاجرون الفرنسيون والروس ، فنجد فيه أن الشدة علمتهم القبول الرومانسى المستسلم دون اعتراض لصور الولاء التى ظنوا أنها قديمة ولكنها فى الواقع كانت جديدة كما أنها كانت تجريدات ذات قوة عالية مستمدة من خبراتهم الجديدة داخل مسارح النضال . عادوا وقد نسوا الكثير ولكنهم تعلموا الكثير — وهو فى الغالب معلومات لا هى نافعة ، ولا هى واقعية . وانه لموضـوع شائق ذلك الذى يبحث فيما يحـدث للمهاجرين والمهزومين والمعتدلين الجبناء ، ويستحق دراسـة اعمق من ذوى الكفاية . ورغم البحث الكثير الجيـد على مستوى التاريخ القصصى ، فانه من أكثر الموضوعات غموضا فى علم الاجتماع الخاص بالثورة . ولكن على اية حال فان المهاجرين العـائدين لا ينفردون بالعمـل ، ولا يحـددون بأية وسيلة المجـرى النهـائى لرد فعل الثورة . وحتى فى انجلترا فى ١٦٦٠ ، وفى فرنسا فى ١٨١٤ ، لم يستطع أكثر المهاجرين العائدين تطرفا تسيير الأمور على النحو الذى كانوا يريدون. فأمثـال دوننج وتاليران وفوشيه ، وجـدوا الرجال الذين على مسرح الأحداث تقدموا بكثير جـدا .

٤ — البحث واللهو :

ان الملامح الكاملة لرد الفعل الثرميدورى متروكة للمؤرخ الاجتماعى. ففى الملابس ، والملاهى ، وفى التفاصيل الدقيقة للحيـاة اليومية للرجـال والنساء العاديين ، يبدو واضحا تخلى الشعب عن الجمهورية الفضيلة . وهـذا التخلى واضح جدا حتى أن المؤرخ نفسه يشعر به ، ولم يخف اغلب مؤرخى القرن التاسع عشر الأحرار اشمئزازهم وخيبة أملهم عندما قاموا بتسجيل اللهو البذىء الذى انغمس فيه الناس فى عهـد عودة الملكية فى

انجلترا أو عهد حكومة الادارة فى فرنسا .. وبدت بساطة الحياة الطيبة وخشونتها ونقاء لآراء كلفن أو روبسبير مستوى رفيعا ، وهدفا ينبغى ان يناضل الناس بشجاعة الأبطال للوصول اليه . فأفعال المجتمع الذى كان فيه نل جوين Nell Gwyn أو تيريزيا كاباروس Teresia de Cabarrus أهم الممثلين بصورة واضحة لا يمكن أن تثقف أى انسان ولا يمكن أن تهذب النفوس الا باضافة العظات المناسبة . ولا شك أن كتاب الفضائح ، ورواة سير الناس ، وغيرهم من دعاة الفساد قد انقضوا مبتهجين على أطايب الترميدور الناضجة . ولكن واسعى الأفق من الناس الذين يكتبون التاريخ بطريقة جدية مروا بهذه المراحل وقد سدوا انوفهم . ومع ذلك فاننا نستطيع — من المصادر المختلفة — أن نجد ما نحتاج اليه من معرفة بالتاريخ الاجتماعى لمجتمعاتنا فى هذه المرحلة الخاصة من الثورة . وسنحاول تجنب كل ما يثير عواطفنا ، وأن نرى كيف أن الانحلال الخلقى الواضح لردود الفعل الترميدورية متلاءم مع المتشبهات التى أعددناها بدقة . ولكن لنستعرض الحقائق أولا .

بعد اعدام روبسبير وأكثر أتباعه بروزا بأيام قليلة بدأ الباريسيون ينغمسون فى الملذات بشكل عام ويتمتعون بسلسلة من المباهج التى حرموا منها أثناء فترة الارهاب . وربما اعتقد السياسيون أن « الارهاب لن يكف عن أن يكون نظاما للحياة قبل أن يقضى على آخر اعداء الجمهورية » ، ولكن الرجال والنساء العاديين قد فرضوا مطالبهم وحاجاتهم الواضحة على السياسيين مباشرة . ان ظواهر قليلة خلال الثورة الفرنسية كانت « شعبية » و « تلقائية » بشكل حقيقى أكثر مما كان النفور من أساليب القمع أيام الارهاب . ولقد نظر الناس فى باريس الى موت روبسبير على أنه اشارة الى أن الكابوس قد انزاح .

وفتحت صالات الرقص فى جميع أنحاء باريس ، وبدأت النساء الساقطات يمارسن أعمالهن « بجراتهن السابقة المألوفة » (من تقرير للبوليس) ، وبدأ الشبان المتأنقون — وهم فى الغالب من السكارى غير الجمهوريين — يجوبون الشوارع مجاهرين بآرائهم ، بينما الجمهوريون

الفضلاء يتعقبونهم . وهؤلاء الشباب كانوا هم الشباب الذهبى « المشهور ، شبان مترفون ليست لديهم عقيدة جمهورية الفضيلة ، وممن يطلق عليهم اليوم فورا » فاشيون . وكانت أزياء الرجال والنســـاء قد أخذت أثناء فترة الأزمة تميل الى التقشف ، وقد تدثرت النساء فى أزياء جميلة ذات طابع رومانى ، وبأكثر من الفضيلة الرومانية . وعندما تغير كل شىء ، أصبحت ملابس الرجال أنيقـــة الى أبعـــد حـــد ، سراويل محكمة ، صدارى متقنة التفصيل ، وأغطية رقبـــة تصعد الى ما فوق الذقن . ولكن صانعو أزياء النساء لا يزالون يستوحون الأزياء الكلاسيكية ، ولكنهم بحاسة جمالية أكيدة ركزوا جهودهم على ابراز الصـــدور بمهارة . « وزى الديركتوار » هو رمز ممتـــاز للعصر .

ونتيجة تحديد الأسعار والتضخم المـــالى الذى أعقب ذلك ، ظهرت طبقة من المضاربين حديثى الثراء ، واغنياء الحرب والساسة الأذكياء . وفى الحقيقة تظهر الفضائح البرلمـــانية فى الفترات المتقدمة للثورات ، بل وفى فترات التأزم ومن الممكن اثبات فســـاد بعض اعضاء « البرلمـــان الانجليزى الطويل » و « المؤتمر الفرنسى » حتى فى أيامهم البارزة . ولكن فى هـــذه الفترات المتقدمة كان التشهير يتبعه عقاب سريع أكيد أما فى فترة الترميدور ، لم يكن أى انســـان يبـــالى بشىء وبالتأكيـــد لا يحدث شىء . فهنـــاك اشاعات وفى بعض الأحيـــاء سخط . ولكن السياسيين الذين اختلســـوا بطريقة موفقة كانوا فى العادة موضـــع اعجاب ، كما حدث ذلك مؤخرا فى الولايات المتحـــدة . ولمـــا كان الترميدوريون يهابون الارهاب ويخشون عـــودته ، لا يطمئنون على ثروتهم ومركزهم ، ولمـــا كانوا فى الغالب غير ملمين بالفنون النبيلة ، فقـــد أنفقوا أموالهم عن سعة وبطريقة مبتذلة . فقامروا ، وكانوا يشتركون فى سباق الخيل وكانوا مولعين بالرقص الى حد الجنـــون . كل ذلك كانوا يعملونه ويعلنونه على الملأ ، غير مكترثين بالأصول المتبعة فى القرن الثامن عشر . وفى هذه السنوات القصيرة وضعت الأسس الحقيقية للذوق الرومانتيكى لفرنســـا فى القرن التاســـع عشر . فسيدات هذه الفترة مشهورات بمرحهن وانطلاقهن . وكانت على رأسهن

تيريزا كاباروس ، التى كانت فى وقت من الأوقات خليلة للنائب الفاسد تاليان ثم أصبحت زوجته . وكانت معروفة فى كل مكان ، بعبارة تظهر سخرية العصر وهى « سيدة الترميدور » .

وكلنا يعرف عصر شارل الثانى على أنه رد فعل متطرف لحكم القديسين . و « قصة عودة الملكية » كانت ، لا سيما منذ العصر الفيكتورى ، رمزا للعبث ، لأن هذا النوع من المسرحيات لم يكن يشهده الشخص المتزن دون أن يحمر خجلا . فنيل جوين كان قد سيطر ، فى الذاكرة الوطنية ، على حياة القصور التى كانت الرذيلة فيها أرستقراطية بالقدر الذى يمكن أن يرغب فيه ويتوقعه أشد العامة تمسكا بالفضيلة . وفى الواقع لم يكن القانون البيوريتانى للسلوك والأخلاق قد استقر بالكمال المطلوب ، حتى فى السنوات التى أعقبت موت شارل الأول مباشرة . فالملذات الأقل انتشارا كانت ممكنة دائما ، وتحريم سباق الخيول ، واثارة الدببة ، والاحتفال بأعياد ميلاد المسيح وما اليها كانت عرضة للالغاء مثل تعديل البند الثامن عشر فى الدستور الأمريكى . والصرامة الشديدة التى بدت فى بعض التحريمات البيوريتانية كانت فى حد ذاتها دليلا على أن البيوريتان كانوا يمرون بأوقات عصيبة محاولين أن يجعلوا أفراد الشعب الانجليزى جميعا يسلكون بطريقة لا تجعل « رائحتهم الكريهة تزكم أنوف المنصفين » .

على أن الحكم البيوريتانى كان فى الحقيقة صارما وجامدا لدرجة أن جعل البيوريتان يضجون بالشكوى لأكثر من سبب ، وفى خطوطه الأساسية كان رد الفعل الترميدورى فى انجلترا واقعيا كما كان مفروضا أن يكون فى فرنسا . فلم يكن هناك فى انجلترا نفس الخليط من الوصوليين والأرستقراطيين المحظوظين كما كان الحال فى فرنسا ، ومن وجهة النظر الجمالية نقول أن رد الفعل فى انجلترا كان على مستوى أعلى بكثير مما كانت عليه الحال فى فرنسا . ولكن من حيث العودة الصريحة الى الملذات الحسية ، والمقامرة ، وتعاطى الخمور ا والرقص ، والحب ، والى الأدب الحسى الخفيف ، والاستمتاع الصريح بالملابس وما اليها من الأشياء التافهة ، نجد أن البلدين

متشابهان تشابها يكاد يكون تاما . ولم تكن فترة « عودة الملكية فى انجلترا » خالية مما تجد فيه النفوس الطاهرة حرجا وابتذالا . وبصفة خاصة كان التباين ملفتا للنظر فى أزياء النساء اذا قورنت بالتقشف الذى كانت عليه فى الفترة السابقة . فقد ارتدت السيدات ملابس ذات ألوان صارخة بل ومتعارضة ، ووضعن على رؤوسهن أغطية عالية للرأس ، ومساحيق غريبة على وجوههن ، ولبسن وعرضن بمهارة أزياء داخلية مطرزة .

ونحن فى حاجة شديدة الى ان نبحث هذه النقطة حول فك القيود الخلقية فى الفترة الثرميدورية فى انجلترا وفرنسا . وسنكون شديدى الحرص عند تقرير الحقائق حول فك القيود الخلقية فى الاتحاد السوفيتى . ومع أن الحقائق لم تتضح حتى الآن فى كتب التاريخ ، الا انه قبل التهديد بالحرب والعمل على التقشف ، كانت فى روسيا علامات حقيقية على العودة الى الملذات البسيطة للجسد . ويبدو انه لم يكن هناك نل جوين أو مدام دى كاباروس فى روسيا . ولكن مرة اخرى يجب ألا نتوقع أن يكون التشابه دقيقا بشكل يدعو الى الشك . ففى خطوطه العريضة ، نجد أن الثرميدور الروسى يسير بطريقة حقيقية ليتكون أخلاقيا واجتماعيا على النحو الذى وجدناه عليه فى الناحية السياسية .

فأولا بدأ الثرميدور فىروسيا ابانحياةلينين نفسهمعالسياسة الاقتصادية الجديدة فى ١٩٢١ . اذ سمح بالملكية الخاصة والتجارة الخاصة مرة أخرى فى روسيا . والطبقة الجديدة من المستثمرين الذين ظهروا نتيجة لذلك تذكر المرء تماما بطبقة أغنياء الحرب الذين ظهروا فى فرنسا نتيجة لعدم تحديد الأسعار بعد سقوط روبسبير . ولم يكن هؤلاء الناس متأكدين تماما من وضعهم ، ونقلوا الى انشطتهم الشرعية الجديدة الكثير جدا من العادات التى اكتسبوها فى عملهم فى السوق السوداء أيام الارهاب. وكانوا « كطبقة مبتذلين » الى حد يفوق الوصف ، ونفعيين ، وغير ناضجين ، وصاخبين . وفى السنين القليلة التالية عاد البغاء ، والمقامرة ، والملذات اللاماركسية الأخرى بشكل واضح فى موسكو ولينينجراد الى

حد أن الأنصار وحدهم هم الذين كانوا يعجزون على رؤيتها . لربما كان ما يمنع اغلب الأجانب فى روسيا منذ ١٩١٧ فى استعمال ما يسمى حاسة البصر ليس هو جهد الشيوعيين الذين يعهد اليهم بمرافقتهم بقدر ما هو اقتناعهم العقيدى القوى بأن كل شيء يجب أن يكون على ما يرام فى جنة ماركس . ومع ذلك حتى بدء الخطة الخمسية ، كان رجوع الرذائل البورجوازية واضحا جدا ، لاسيما فى أواسط العقد العشرين حتى أن الشيوعيين الأجانب لاحظوا ذلك .

وعودة ستالين بشكل واضح الى الشيوعية فى ١٩٢٨ — ١٩٢٩ ليست فى الواقع أهم من تبرؤ نابليون الظاهر من الفساد والانحلال الخلقى فى عهد الادارة عندما حقق لنفسه سلطة آمنة بانقلاب ١٨ برومير . ويبدو أن هناك فى كل مجتمعاتنا رد فعل ما لرد الفعل الترميدورى ، وبخاصة فيما يتعلق بجرى العامة وراء الملذات . ان جماهير الناس لا تستطيع أن تهب نفسها ببطولة وبصورة دائمة للخطيئة ولا للامور الدينية . وصالات الرقص الألف التى قيل أنها فتحت فى باريس أثر الارهاب ما كانت لتستمر فى الربح الا لأن معظم سكان باريس أرادوا ان يرقصوا معظم الوقت . وعلى عكس الآراء الأنجلوسكسونية ، فان الباريسيين لم يخلقوا فى الواقع هكذا .

وما حدث فى السنوات التالية لأزمة الارهاب هو نوع من التذبذب بين التزمت الأخلاقى والانحلال الأخلاقى يصل فى النهاية الى نوع من التوازن يكون فيه سلوك معظم الرجال والنساء حيال هذه الأمور : المقامرة ، وتعاطى الخمور ، والحب ، وتزيين أنفسهم ، وشغل أوقات الفراغ هو بعينه سلوك أجدادهم وجداتهم . واذا نظرنا الى روسيا الستالينية قبل الحرب وسألنا أنفسنا الى أى مدى كان يبدو هناك مجال لآدم القديم وحواء القديمة لكى يظهرا فى حياة الروس لحصلنا على مقياس دقيق لحقيقة الترميدور فى روسيا أكثر مما لو حاولنا أن نفعل ذلك عن طريق النظريات الماركسية أو المضادة لها .

ويحدثنا مستر يوجين ليونز بابتهاج خبيث عن قصة حيرة وغضب

احد مراسلى صحيفة « النيويورك ىرايهايت » ، وهى صحيفة شيوعية ، حينما استبعد من حفل استقبال رسمى فى روسيا لأنه لم يكن يرتدى زى السهرة . فأزياء السهرة أصبحت جزءا من دكتاتورية البروليتاريا ، ولا يمكن أن يكون شىء أكثر من ذلك استحالة ، ومخـــالفة للمنطق ، وغير طبيعى لأقصى حد . فزى السهرة يفى بعـــدد من الحاجات البشرية — ويستطيع عالم الأجناس أن يحلل معظمها لك — ويبدو أن ليس هناك دليل على أن واحدة من ثوراتنا كان لها تأثير كبير على هذه الحاجات . فالقومسير Commissaire احتـــاج الى زى السهرة على الأقل كحاجة عضو الكونجرس أو رجـــل الجامعة اليـــه .

ومن الممكن أن نستطرد فى التفاصـــيل لنبـــين كيف أن دكتاتوريـــة البروليتاريا فى روسيا قبل الحرب لم تكن بأية حـــال هى دكتاتورية الفضيلة التى رأيناها سائدة فى فترات الأزمات الملازمة لثوراتنا . فموسيقى الجاز ، مثلا ، ظلت محرمة فترة طويلة فى روسيا . ومن الواضح أن الجـــاز كان ثمرة حضارة بورجوازية منحطة ، وطريقة مبتذلة لاثارة ما لا يرغب فيـــه الماركسى الصالح أو يحتاج الى اثارته ، واحد صور « أفيون الشعوب » فى البلاد الرأسمالية . فالشيوعيون قد يرقصون فى سرور خالص على أنغام موسيقى بريئة حالمـــة . ومع ذلك ، ففى « العشرينات الأخـــيرة » بدأت الفوكس تروت والرقصات المماثلة تتسلل الى روسيا الشيوعية ، ولقـــد ظلت موسيقى الرقص الأمريكية تعزف بكثرة وبطريقة سيئة فى روسيا كما فى باقى انحاء أوروبا حتى أدت الأزمة الراهنة الى تجدد الكراهية والعـــداء للغرب .

وليست هناك حادثة مثيرة كسقوط روبسبير يمكن استخدامها لتأريخ الترميدور فى روســـيا . ولكن هناك جملة حلقات من الأمور البسيطة فى الحيـــاة اليومية ترتبط بعضها ببعض لاعطاء انطباع واضح عن حقيقة رد الفعل الروسى . فقد ظهر أحد القـــادة الشـــبان فى مؤتمر وطنى للشباب برباط رقبة ، ولا بد أن ذلك كان يصدم الحاضرين صدمة عنيفة لو حدث

فى فترة سـابقة كما لو ظهر مدير الجامعة بزى العمل فى حفل توزيع الشهادات على الخريجين فى هذه البلاد . وفى عرض للأزياء أقيم فى موسكو سارت العارضات ، متهاديات مبتسمات بانحلال كما لو كن فتيات فقيرات اجيرات فى باريس أو نيويورك . ومساحيق الشـفاة والمساحيق الأخـرى بدأت تظهر حتى فى الحوانيت التى تشرف عليها الفتيات العاملات . وقصص الجريمة ، والقصص « المسلية » بدأت تظهر على صفحـات الجرائد التى كانت حتى ذلك الوقت تأنف من تلك القصص الشائعة فى البلاد الراسمالية وتقتصر على الأمور السياسية العالية . واخرجت الأفلام السينمائية لتظهر فيها الكائنات البشرية المعروفة ، تافهة ، مثيرة للضحك ، غبية ، حسوده ، بل وروسية أكثر من الأفكار الشاحبة التى تمثـل الراسمالية ، ومالك الأرض ، والشيوعية ، وطبقة العمال والبروليتاريا والانسان الثائر .

وقد كان البلاشفة ينظرون باحتقار الى الأسرة ، وكانوا يعتبرونها نظاما من العهد القديم ، اشتركت فى وضعه العناصر الدينيـة ، التى كانت محافظة من حيث تأثيرها الاجتماعى . وانهـا كانت عشا جامدا صغيرا يولد الأنانية ، والحسد ، وحب التملك ، وعدم الاكتراث بحاجات المجتمـع الكبرى . وانها تركت الصغار يتلقون تعاليمهم من خرافات الكبار . ومن ثم أخذوا يعملون على هدم الأسرة ، وتشجيع الطلاق ، وتعليم الصغـار انكار الذات وتعويدهم على المشروعات الجماعيـة والحياة الاجتماعيـة الجماعية ، وتخليصهم من تأثير الكنيسة فى العلاقات الأسرية . أما الآن فيبدو أن ليس ثمة شك فى أنه فى روسيا المعاصرة تحاول الحكومة جاهـدة أن تغرس فضائل الأسرة القديمة . فالأفلام والمسرحيات والقصص الروائية قد استعادت احترامها للوالدين ، وللروابط الأسرية القديمـة ، ووصلت بها الى مكانتها مرة أخرى . ويبدو أن المروءة تجاه المرأة آخذة فى العـودة ، والمروءة تجاه النساء أثر سىء من بقايا الاقطاع ، ورمز لمركزهن الأدنى فى المجتمع . والطـلاق الذى كان فى وقت من الأوقات سهلا ورخيصا بقـدر الامكان أصبح الآن أكثر تكلفة وأكثر صعوبة . وأهم من هذا أن الحكومة كما يبدو آخذة فى تشجيع انتشار الشعور بأن الزواج أمر جـدى ودائم ،

شىء تصنعه السماء على النحو الذى تفهم عليه السماء الآن فى روسيا . والاجهاض الذى جعله البلاشفة القدماء بفخر أمرا مشروعا وسهلا كاستئصال الزائدة الدودية فى أمريكا ، وشائعا شيوعها تقريبا ، قد حرم الآن بحكم القانون ما لم يكن لازما للابقاء على حياة المراة . وقد اتخذت اجراءات لتشجيع الأسرة الكثيرة الأولاد . ومرة اخرى ، قد تفسر هذه الاجراءات بأنها العداوة للدول الرأسمالية التى لا بد من أن يقاتل ضدها هؤلاء الأطفال الروس يوما ما . ولكن تبقى هذه الحقيقة وهى أن تشجيع العائلات الكبيرة ليس من تقاليد الفكر الاشتراكى أو الشيوعى قبل ستالين . ويكمن وراء هذه الاجراءات المتنوعة واهم منها كدليل عام على ما يحدث فى روسيا ، هو جو يمكننا أن نسميه « فيكتورى » تقريبا . ويبدو أن حكام روسيا الحاليين يحاولون جديا أن يغرسوا المشاعر التى تتميز بها المجتمعات المتزنة — العواطف العائلية ، والوطنية البسيطة ، وحب العمل والروتين ، وطاعة الحاكمين ، وكراهية الشذوذ الفردى ، وباختصار ما أسماه باريتو « بالتجمعات » .

ولتحقيق هذه الأهداف ، أمر ستالين بالكف عن تجريد تاريخ روسيا من أمجادها بتعليم الروس مرة أخرى مفاخر الماضى الروسى . فالمبشرون البيزنطيون الذين أدخلوا المسيحية فى روسيا لم يعد ينظر اليهم على أنهم بلهاء اشرار وعملاء لما كان يسمى بالاستعمار الراسمالى واشخاص تافهون مثل المبشرين المعاصرين الذين يذهبون بالانجيل ، والخمور ، والأمراض التناسلية الى البحار الجنوبية . بل على العكس ، يجب أن ينظر الى المسيحية فى روسيا على أنها خطوة أساسية فى اعداد السلاف المتوحشين لأشياء أسمى ولم يعد ينظر الى بطرس الأكبر وكاترين على أنهما حاكمان طاغيان . فقد كانا مهندسين عظيمين للمصير الروسى وبدونهما لم يكن فى الامكان لملايين السلاف والآسيويين الآخرين أن يتمتعوا بمباهج الشيوعية . ولربما كان ستالين يأمل فى أن يزيد حب الشعب له ، عند ما يعلم كيف كان الحكام الآخرون يحكمون الشعب الروسى فى الماضى كقياصرة .

٥ ــ روســيا ثورة دائمــة ؟

ومع ذلك فمن الصعب علينــا أن ننظر الى الثــورة الروسية على انهــا انتهت فى الواقع ، أو انهــا حتى على النحو الذى كانت عليــه ثوراتنــا الأخرى فى فترة مشابهة من الزمن ــ بعد خمسة وثلاثين عاما ــ من بدئهــا . ففى روســيا ، كما رأينا منــذ قليل ، كانت هناك بالتأكيد بعد ١٩٢١ علامات كثيرة على رد الفعل الترميدورى . ولكن لم يكن هناك عودة رسمية الى النظام القديم . وهذه الحقيقة فى حد ذاتها ليست هامة لأن العودة لم تكن فى الواقع عودة النظم القديمة على النحو الذى كانت عليــه قبل الثورة . « فكل عودة الى نظام قديم هى ثورة » وفقــا للقول الفرنسى المــأثور .

ولكى نعرض الأمر بطريقة أكثر وضوحا وبساطة ، يظهر للمراقب من الخارج كمــا لو أن شيئا فى روســيا مثل عهد الارهاب والفضيــلة وبخاصة استمرار الضغط على الفرد ليشارك فى الحياة العامة وليكون دائما « فى قمــة الظروف الثورية » قد عاد الى روســيا من جديد . وفظائع التجميع الاجبارى فى المناطق الريفية فى « الثلاثينات » الأولى ، والمحاكمات ، والاعترافات ، وأعمال التطهير فى السنين من ١٩٣٦ ــ ١٩٣٩ ، وهى التى بدأت باغتيال كيروف ، بل احكام الخط الفاصل بين الشرق والغرب ممثــلا فى ظاهرة مثل مذهب ليزنكو Lysenko والخــط الحزبى فى الموســيقى والنقش ، كل ذلك يبدو فى الحقيقة على أنه « ثورة دائمة » .

وهنــاك أولا ، تحذير طالمــا كررناه خلال هــذه الدراسة . يجب الا نتوقع ان تكون ثوراتنا متماثلة تماما . فالتشابه الذى نبحث عنــه فى ثوراتنــا ينبغى الا يصبح تطابقــا تاما ، والا اتهمنا فى الحقيقة بتزييفنــا لتقاليد المنهج العلمى . وثانيا ، هناك تحــذير آخر نبهنــا اليــه . يجب الا نقع فى الخطأ الناتج عن اتخاذ طريق واحــد للتعليل . واذا كان تشريح الثورة الروسية لا يتفق مع ثوراتنا الأخــرى ، وجب علينــا الا نعتبر أن هنــاك متغيرا مفردا فى الموقف الروسى ــ البطل أو الشرير ــ وأن هــذا

يفسر كل شيء . فهنا كما فى كل المواقف الاجتماعية المعقدة دائما نجد متغيرات كثيرة تعمل . ان ف. بك ، و و. جودين فى كتابهما الحديث « التطهير الروسى وانتزاع الاعتراف » يحاولان تعليل العودة الى الارهاب من ١٩٣٦ — ١٩٣٩ التى سمياها نسبة لرئيس البوليس السرى فى ذلك الوقت «عصر بيزوف» . وهما يسجلان ما لا يقل عن خمس عشرة «نظرية» لتعليل العودة الى الارهاب فى رو سيا ، تلك العودة التى راح ضحيتها عدد ، ربما أكثر مما كان فى عهد الارهاب فى ١٩١٨ — ١٩٢١ . وفى كل منها يجدان على الأقل شيئا من الصحة .

وقد تعطينا احدى نظرياتهما نقطة بداية لتفسير هذه الظاهرة : لماذا يبدو أن روسيا فى ١٩٥٢ لا تزال — بتعبير لطيف — فى فترة النقاهة من حمى الثورة . وهما يسميانها « نظرية آسيا » ، وهى فى ابسط صورة لها النظرية القائلة بأن روسيا أمة آسيوية ولهذا فان ثورتها « الشعبية » التى تتم وفقا للتقاليد الغربية العظيمة لثوراتنا الأخرى لا تنتهى حتما الى نوع الديمقراطية الغربية الذى نعرفه فى انجلترا ، وفرنسا ، والولايات المتحدة . ومع التسليم بأن الثورات تنتهى بالعودة ، لا الى ما كانت عليه الحال من قبل ، ولكن الى نوع من التوازن ، وحالة من « السوية normalcy » تمت بصلة واضحة الى النظام القديم ، فان نهاية الثورة الروسية لا بد — طبقا لهذه النظرية — أن تكون شيئا أشبه كثيرا بروسيا أيام القياصرة ، والبوليس السرى ، والعنف المدنى ، والطغيان من القمة ، بل وفقر الجماهير وجهلها واقرب منها الى انجلترا فى ظل القوانين التى صدرت فى عهد شارل الثانى ، أو أمريكا ذات دستور ١٧٨٧ أو فرنسا صاحبة الميثاق والمواطن الملك لويس — فيليب وصاحبة هذه « القسيس الجديد ليس الا القسيس القديم وقد عاد بشكل أكبر » . « كلما تغيرت ، صارت الشيء نفسه بقدر أكبر » . وهذه الأمثال المجهدة المستمدة من الثورات الأخرى تعنى اننا فى روسيا نعود الى وضع سوى فى ١٩٥٢ — سوى بالنسبة لروسيا .

الا أن « نظرية آسـيا » لا يمكن أن تصلح كتفسير وحيد ، ولكنهـا كواحـد من المتغيرات التى تشترك فى تفسير عـامل ما يمكن قبولهـا حتى بالنسبة — للأحرار الذين بطبعهم وتدريبهم — يترددون فى قبولهـا . من الواضح ان السيدين بك وجودين — وهما أسمان مستعاران لعـالم المـانى ومؤرخ روسى قبض عليهما فى أثنـاء فترة ييزوف ، ثم وفقـا الى الهرب لروسيا — لا يحبان القـول بالتفوق الغـربى فى نظرية آسـيا ، ولكنهما من ناحية اخرى لا يطرحانه كلية . ان روسـيا فى ١٩١٧ لم تكن مجتمعا ذا طبقة وسطى قوية ومدربة على العـادات الغربية الخاصـة بالحقوق السياسية والمدنية فلو أن ثورة يقودهـا لينين وستالين انتجت مثل هـذا المجتمع فى روسيا لكان ذلك امرا عجيبـا .

وفضلا عن ذلك ، فان تشابها تاريخيا واضحا فى ثوراتنـا الأخـرى يحتـاج الى ان يشار اليه هنا . فخطـة تصور الحمى ليست ملائمـة لو اخذت على انهـا تعنى أن النظام كله ينتهى « بعلاج » بسيط . واكثر من هـذا ، فانه فى كل ثوراتنا ، توجد ، سلسلة من الثورات الأقل التى تعمل فيهـا القوى الموجودة فى الثورة الأولى . فبعـد ١٦٤٠ فى انجلترا كانت هناك « الثورة العظيمـة » فى ١٦٨٨ ، والصراعات الطويلة للقرن الثامن عشر ، وقوانين الاصـلاح للقرن التاسع عشر . وبعـد الثورة الأمريكية كانت هناك فترة التأزم فى التسعينات فى عام الـ ١٧٩٠ ، وهى انقلابات شرعية وضعت كلا من جيفرسون وجاكسون فى مراكز الحكم ، وهى محنة الحرب الأهلية الطويلة عنـدنا . وبعد الثورة الفرنسـية ، كمـا تعلم جيدا ، كانت هناك سلسلة من الانقلابات فى القرن التاسع عشر فى فرنسا وفى الحقيقة فى كل أوروبا الغربية والوسطى وقد تأثرت — الى حد بعيـد بالمثال الفرنسى . وقـد أشرنا من قبل الى أن تتـابع الزمن فى الثورة الروسية الأصليـة يمثل نوعا من التعجيل بنظـام الثورة اذا قورن بالثورات السابقة . ومن المحتمل أن تبدو الاضطرابات الروسـية فى العشرين سنة الأخيرة فى نظر المؤرخ فى المستقبـل نوعا من الثورات ، لانهـاء المشاكل التى لم تسم كلية فى الثورة الأولى ، تمـاما كمـا هى

الحـال بالنسبة لسنوات ١٨٢٠ ، ١٨٣٠ ، ١٨٤٨ فى التاريخ الأوروبى .

ويتبقى أيضـا مشكلة تفسير الصورة النوعيـة لطول فترة الحمى الثورية فى روسيا . لنفرض ، كمـا افترضنا سابقا ، أن المجتمع الروسى المستقر الذى لا بد ان يظهر فى النهـاية لن يكون ممـاثلا لمجتمعاتنـا ، ولا يبدو محتملا أن هذا المجتمع المستقر سيكون عرضة لاضطرابات جذرية ولمشاركة زائدة فى شئون السياسة من جانب العـامة كما كانت الحال فى روسيا أيام ستالين . ونحن هنـا قد انحرفنـا الى مجال غير علمى مبنى على التنبؤ . ومن الجـائز أن روسـيا أيام مذهب ليزنكو ، والسـتار الحديدى (١) ، روسيا التى أثارت خوف أورويل أو كوستلر لدرجة أكبر ممـا أثارت خوف الأمريكيين الصـالحين المحافظين — من الجـائز أن روسـيا هـذه سوف تستمر بطريقة غير واضحة فى عالم بأكمله فقـدت فيه كلمات « الاستقرار » ، و « التوازن » ، و « السلام » ، و« النظام » معناهـا . ولكننا يجب علينا الآن أن نفترض أن روسـيا ، والعـالم ، لم يعودا يوجدان وسط كابوس أبدى .

ان الموضوع ضخم ولا يمكن ايفاءه حقه بعنـاية فى هـذه المحاولة الاجتهادية لدراسـة أربع ثورات . ولكن من الجـائز أن نقترح أن الآثار المؤدية الى الأزمة المستمرة فى روسـيا هى من ناحية محلية ، داخليـة فى روسيا ، ومن ناحية أخرى متصلة بالموقف الدولى كله .

والأسباب الداخلية متعددة جـدا ، قد يخاطر المرء ويقول ان أحد الأسـباب الهـامة جدا يكمن فى الوعود المـادية للعقيـدة الماركسية . ولقـد لا حظنـا فى كل ثوراتنا الأخرى ما كان يبذل من محاولات لسـد الثغرة على هذه الأرض بين المثـالى والواقعى . والآن نجـد أن الصورة الدقيقة لمـا هو مثالى أمر هـام . ففى ثوراتنا الأخرى ، رغم حماسها

(١) نقصد به فى عرف الأوربيين والأمريكيين الذين يستخدمونه الحواجز التى فرضتها روسيا على نفسها فى فترة ما بعد الثورة .

الغامض خلال فترة التأزم ، ورغم نزواتها الشاذة التى تطالب بتحويل الأرض الى جنة دفعة واحدة ، لم يأخذ الرجل العادى وعدا بالمساواة الاقتصادية ، والمجتمع اللا طبقى ، أو القانون الماركسى القائل : «من كل فرد على قدر أستطاعته ، ولكل فرد على قدر حاجته» . وقد وعد الروس بذلك تماما . وكانت الماركسية أكثر نوعية فيما وعدت به ايفان ايفانوفتش مما كانت عليه البيوريتانية فيما وعدت به جون جونس أو اليعقوبية فيما وعدت به جاك ديبون (١) .

وفى الواقع كان على كل ثوراتنا أن تتراضى مع مثلها العليا ، وأن تحول الكلمات المعسولة الى سلوك . وكان على شعارات « الحرية ، والمساواة ، والاخاء » أن تمحى من المبانى العامة ومن قلوب الفرنسيين الصالحين من الجمهوريين ، فلم يكن من الممكن ، من الناحية الحرفية ، والمادية ، تطبيقها فى حجرات الدراسة فى المدارس الفرنسية التى هى منقوشة عليها ، والا تحولت المدارس الفرنسية الى مصحات عقلية تخالف أعظم المدارس الأمريكية الخاصة تقدما . ولم يأخذ الأمريكيون قط هذه الحقيقة الواضحة وهى أن كل الناس يولدون متساويين من ناحية حقوقهم على أنها تعنى أن كل الناس — ينبغى — أن يولدوا ولديهم القدرة على أن يقودوا الجماعة فى الأمور المحلية .

ولكن الثورة الروسية لم تعد بالمساواة السياسية أو الروحية ، وبالطريق المفتوح أمام المواهب ، ولكن بمجتمع يتساوى أفراده من الناحية الاقتصادية . ولكن الروس لديهم الآن مجتمع بلغ فيه عدم المساواة فى توزيع السلع الاستهلاكية وفى الدخل الفردى حدا واضحا جدا . فالسياسى الروسى المرموق ، أو عامل الصناعة ، أو كاتب المسرحيات الروسى الشعبى أو راقصة الباليه ، أو العالم الروسى الناجح يتمتع بالسيطرة على الثروة المادية بشكل يجعل المجتمع الروسى بشكل أساسى مجتمع عدم مساواة اقتصادية كأى مجتمع رأسمالى اليوم اكثر بكثير من بريطانيا العظمى ، مثلا .

---

(١) أسماء الرجل العادى فى روسيا وبريطانيا وفرنسا .

ولقد يستطيع حكام روسيا أن يقولوا لشعبهم ان مظاهر عدم المساواة ليست الا مرحلة انتقال تلزم بها معارضة العالم الراسمالى الشرير خارج البلاد . وأن دكتاتورية البروليتاريا ، وهى مقدمة جوهرية للمجتمع اللاطبقى ، كان لا بد أن تمتد فترة قصيرة . ويوما ما ، حينما تغزو الثورة الشيوعية العالم كله ، سوف يصبح « الكناس » مساويا من الناحية الاقتصادية لعضو المكتب السياسى . ولكن ليس الآن . ومع ذلك فهذا قول ضعيف فى أساسه ، وهناك ما يدل على ما يبذل من جهد فى روسيا الآن للتبشير بمثل أعلى قريب الشبه جدا بما يعتبره محررو مجلة فورشن عملا أمريكيا عظيما وهو وضع سياسة ثابتة للثراء المادى الذى يتقاسمه الكل ، مع مكافآت مادية خاصة للقادة المتمكنين فى كل مسالك الحياة الذين تعمل مهاراتهم على الدوام لرفع مستوى المجتمع — أو على الأقل على رفع مستوياته الخلقية .

وان أشد الغربيين حماسا لما تفعله الثورة الروسية لتحسين مستوى معيشة الشخص العادى لا يستطيعون القول بأن ذلك المستوى قد وصل بعد الى تلك المستويات فى أغلب البلاد الغربية . ويرجع ذلك الى الاستعداد لحرب محتملة ضد أمريكا ، مما حول أكثر الانتاج الروسى الى غير البضائع الاستهلاكية — هذه الوقائع قد تفسر بوضوح وباصطلاحات اقتصادية محكمة لماذا لم تصل الحياة الأكثر رخاء الى عامة الشعب . وليس المرء فى حاجة الى أن يواصل السير مع المحافظين الذين يضمرون العداء بمرارة للتجربة الروسية للقول بأن بعض الكراهية الغربية المتقدة ، وان بعض مظاهر التوتر المستمرة فى مجتمع لا يزال يعلم أنه فى حالة ثورة ، يمكن تفسيرها على أنها جهود لتحويل انتباه الرجل العادى عن حاجته الى الرخاء المادى . وقد يكون من الأمور الأكثر أهمية فى استمرار عدم الاستقرار الداخلى فى روسيا مشكلة أولئك الذين هم فوق خط الأساس ، مشكلة الطبقة الحاكمة الروسية الجديدة . فهذه الطبقة لا تزال فى جوهرها طبقة « ادارية » ، تحصل على مكافآت مجزية من ناحية الدخل ، والمكانة الاجتماعية ، والقوة السياسية ، ولكن ليس لها

حتى الأن حقوق واضحة فى الملكية ، والميراث ، وبصفة عامة تلك الحقوق التى كانت دائما فى الغرب تمكن الطبقة الحاكمة الجـديدة — أو الجديدة جزئيـا — من أن تدعم موقفهـا الى حد بعيـد .

ولقـد كان هناك منذ عصر النهضة بوجـه خاص ، حتى بدون ثورة حقيقية أبواب كثـيرة مفتوحة للمواهب فى الغرب . اذ أخـذ بمبـدأ تكافؤ الفرص فى ثقافتنا الغربية قبل أن يصبح — بوقت طويل فى الولايات المتحدة — أحد المبـادىء العظيمـة للايمان الاجتماعى . ولكن أولئك الذين ارتفعوا بنجاح فى العـالم قد نجحوا بسرعة تامة فى تدعيم مركزهم بتأمين الملكية ، وتأسيس الاسرة ، وبأن أصبحوا جزءا من الطبقة الحاكمة التى اصبحت محل رضا دون معارضة كبيرة أو كراهية شديدة من الطبقات التى كانت مستبعدة بوضوح من قمة الهرم الاجتماعى . وقد كان هذا صحيحا حتى فى الولايات المتحـدة حيث نجد أن القاعدة الواقعية ليست على الاطلاق هى أن « ثلاثة أجيال يعيشون عيش الكفاف » والمشكلة كلهـا فى العلاقة بين الحـركة الاجتمـاعية الفردية والاستقرار الاجتمـاعى فى الجمـاعة هى فى الواقع مشكلة معقـدة ، وليست على الاطلاق مفهومة بوضوح . وهى لم تحـل فى الغرب ، ولكن بطريقة أو بأخرى قد اتفقنـا على رأى فيهـا ، وليس ببساطة ، كمـا يحاول المراقبون المتهكمون على الحياة الأمريكية بوجـه خاص عند ما يدعون أن هـذه المشكلة غير موجودة ، وأن مجتمعنـا فى الواقع ، هو « المجتمع اللاطبقى » .

ومع ذلك ففى روسيا ، نجد أن الطبقة الحاكمة الجـديدة ليست على الاطلاق وطيدة الأركان . فلا يزال الكثيرون من أعضائها مضطربى الضمير لامتيازاتهم الجديدة ، وللثغرة الموجـودة بين وقائع الحياة الروسية والمثل العليـا للشيوعية فى عصرها الأول . وأهم من ذلك أنهم ليسوا متأكدين من الاستمرار ، مع علمهم بالضغط الكبير الصادر من الأشخاص الطموحين الأصغر منهم سنا . وقد أوضح بك وجودين بشىء من العنف فقالا :

« ان الفئة الجديدة من الرسميين الذين يتولون مناصبهم بصفة كاملة يتمتعون بالمزايا المادية التى تتفق مع مراقبة الملكية التى اصبحت جماعية . وهذه الفئة التى لم تكن قد بلغت بعد من العمر جيلا واحدا ، لم تكن لديها الفرصة لاقامة نفسها كطبقة حاكمة حقيقية . وكانت أيضا تخضع لضغط من جمهرة أعضاء الحزب ، الذين كانوا يقومون بالدفع من أسفل وكانوا يحسدون من هم أعلى منهم لما يحصلون عليه من مزايا . وقد تبينت السلطة المركزية الموقف بوضوح ، ووجدت فى الفئة الجديدة من الرسميين تهديدا لأمنها ، ولم يكن هناك شىء أكثر وضوحا من ضرورة البدء فى تصفية كل هؤلاء الناس . وكانت خطة رائعة . فقد تركت البناء الاجتماعى للدولة البيروقراطية سليما دون مساس . وتولى خلفاء المستبعدين والمعتقلين المناصب ، متمتعين من غير حسيب أو رقيب بالمزايا التى كانت تتفق مع مناصب أسلافهم ، وانتقلوا الى المساكن واخذوا الهيئات التى تعمل معهم . واخذ منظر المستقبل الباهر يتفتح أمام كثرة من الرسميين الصغار الذين ربما كان أمامهم — عن غير ذلك الطريق — أن ينتظروا عشرات السنين للترقية . ومع ذلك ، كان أعضاء الطبقة الحاكمة يشعرون دائما بعدم الاطمئنان . وكان لذلك تأثير عظيم القيمة جدا على الجماهير . فما من أحد كان يحسد الرسميين على حياتهم التى كانت تستتبع الحصول على حقيبتى سفر صغيرتين فى حالة استعداد دائم — احداهما فى مقر العمل والأخرى فى المنزل — تحتويان على اغطية ، ومؤن ، واشياء أخرى قد تكون لازمة فى حالة القبض على الشخص » .

والحقيقة انه فى هذه المرحلة أخذ الارهاب فى فترة ييزوف يبدو أقل شبها من الارهاب الكلاسيكى فى مرحلة الأزمة الحقيقية ، الارهاب الذى كان الناس فيه يشتعلون حماسا للمثل الأعلى للمجتمع الجديد الكامل ، واكثر شبها بالاضرابات التى كانت سائدة أيام « الترميدور » فى فرنسا ، حينما كان القادة الجدد لا يزالون يتسابقون بينهم وبين انفسهم من أجل المراكز العليا ، ولا يزالون يتآمرون للقيام بانقلابات جديدة ، ولا يزالون عاجزين عن حسم المنافسات دون الالتجاء الى العنف والقلاقل غير

المشروعة . وصحيح أن أعمال التطهير التى قامت فى روسيا فى الثلاثينات الأخيرة كانت على نطاق واسع لا يوجد مثلها فى ثوراتنا الأخرى فى المراحل المماثلة . ولكن هذا يرجع من ناحية الى أن كل شىء فى روسيا كان على نطاق أوسع من حيث الأرض والسكان من أى وقت مضى ، ومن ناحية أخرى الى أن التهديد الخارجى ، ولا سيما من ناحية المانيا ، زاد اكثر مما نقص كما حدث فى الثورات الأخرى التى انتهينا من دراستها ، ومن ناحية ثالثة — ويجب أن نلتزم طريقتنا الخاصة بالمتغيرات المتعددة — لأن روسيا نفسها قبل ثورتها لم تكن بلد الحرية وكانت فى حالة سيئة .

ومن المؤكد انه من الأمور ذات المغزى هنا أن ستالين وحده قد بقى على القمة فى روسيا بينما كانت تجرى تحته مذابح من التنافس بين المتناحرين على المركز والامتيازات . وليست السياسة العليا فى أى مكان ، حتى فى اكثر المجتمعات استقرارا ، طريقا آمنا الى حد كبير ، ولكن هناك نقطة تحتها يصبح عدم الأمان الفردى فى الواقع مظهرا لعدم الاستقرار العام فى المجتمع ، أو تهديدا مستمرا بهذا الشكل من عدم الاستقرار . والفشل فى المناصب العليا فى السياسة الروسية ، وفى الأعمال ، حتى فى الفن والعلم معناه الحرفى الاختفاء تماما من المسرح ، أو المحاكمة ، والاعتراف ، والتطهير . وليس المرء بحاجة لأن يسأل فى روسيا عن مظاهر الرقة والأدب التى كانت مستعملة فى بريطانيا الفيكتورية مع المعارضين ولكن قبل أن نقول ان فترة النقاهة الروسية ، والترميدور الروسى قد انتهيا تماما يجب على الأقل أن يكون من الممكن لمؤلف الموسيقى أن يفشل فى التلحين ، أو على أية حال يفشل فى ارضاء الذوق الموسيقى لأحد الرسميين الكبار دون أن يختفى أو يجثو مغيرا رايه ، وللبيولوجى أن يختلف فى الراى مع ليسنكو Lysenko دون أن يتعرض لنفس المصير ، بل ولمدير مصنع ما يرتكب خطأ الا يفقد اكثر من عمله .

حتى أولئك الذين يعتقدون أن المأخذ الرئيسى على التوتر الراهن فى العلاقات السياسية فى العالم هو فى الواقع روسى ينبغى ان يسلموا

بأن هــذا التوتر نفسه جزء من تفســير امتداد الترميدور فى روســيا .
فهناك أسباب خارجية وأخرى داخلية لاستمرار عدم الاستقرار الروسى .
ففى الموجز الذى قدمناه لأســباب الارهاب فى كل ثوراتنــا ، لاحظنا ، كتمثال واضح ، وجود ما يطلق عليه الآن بطريقة عصرية « مرض الحرب ».
فحكومات الارهاب هى — جزئيا — حكومات للدفاع الوطنى ضد الحرب أو التهديد بالحرب ، ضد تهديد عدو . فان الثورة كان يمكن أن يقع عليهــا اللوم الى حد كبير لدفعهــا هــذا العدو الى الاستعداد ، قد يكون هــذا صحيحا فى الواقع ، ولكن ذلك ليس من شأنه أن يغير حقيقة الضغط الذى يولده الخطر الذى يمثله العــدو . والآن نجــد أن انجلترا ، وأمريــكا ، وفرنســا الثائرة قد اتفقت جميعا — وفرنسا فقط بعد خمسة وعشرين عاما على ان تجعل نفسها مرة أخــرى كتلة واحدة على نحو يجعلهــا محترمة تمــاما ، أو محترمة تقريبا ، وأعضاء فى نظــام الدولة فى عصرهم . ولم تكن لتخشى شيئا أكثر من الأخطار العــادية التى تواجه الدولة فى سياسة ميزان القوى . وليست روســـيا كذلك . فحتى فى الثلاثينــات الأولى ، وحتى فى ١٩٤٢ — ١٩٤٤ حينمــا كانت متحالفة مع القوى الغربية ، لم يكن الروس أبدا فى الواقع أعضاء فى النــادى . ولنكرر هــذا : قد يكون الخطأ خطــأ روسيا ، أو على الأقل خطأ ســتالين وزملائه . ولكن تبقى هــذه الحقيقة وهى أن روســيا الشيوعية ، باستثناء علاقاتهــا بالدول الموالية لهــا من تشيكوسلوفاكيا الى الصين ، هى خارج ما قد يكون هنــاك من منظمات للامم ، وما قد يكون هنــاك من « نظام » فى العلاقات الدوليــة .
ومظاهر التوتر القــديمة المتولدة عن الشعور الروسى بالتعرض للهجوم والتمهيد المستمر من كل الجهات ، لا يزال قائما ليمنع تمتعها بالاستقرار الداخلى . ونستطيع أن نقول باطمئنان أنه لا يحتمل أن تخرج روســيا من المرحلة الترميدورية لثورتهــا ما لم تتحسن علاقاتها مع الولايات المتحــدة على نطاق واسع . وهــذه العلاقات ليست فى حاجة الى أن تكون صداقة كاملة فيمــا يتعلق بالعلاقات الدولية ، ولكن يجب على الأقل ان تكون نوعا من القبول المتبــادل المعروف بين أعضاء النظــام الغربى خــلال اغلب أغلب القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . فالترميدور فى روســيا ، اذن ،

لا يزال منتشرا فى منتصف القرن العشرين . وتتوقف نهايتـه على عوامل كثيرة جدا يصعب معهـا على اى انسان أن يحـدد لهـا تاريخـا . ولكن من الصحيح ايضا أن الثورة فى روسـيا قد سـارت فى طريقها بشـكل أساسى . فقـد أنتهت الأزمة وعهـد الارهاب والفضيـلة . فالفيروس المـاركسى — ولتذكر مرة أخرى أننـا نحاول استخدام هـذا اللفظ بطريقة وصفية خالصة — قد انهى شوطه تقريبـا . فروسـيا فى الواقع قـد غيرتها الحمى الى حد ما ، ولكن كذلك الحال أيضا بالنسبة للفيروس . فان الفيروس على الأقل قد اصبح ضعيفا فى هـذا الجسم بالذات . ومن الصحيح أن الفيروس قد ينشط تماما فى مجتمعات مثل المجتمع الصينى ، وجنوب شرق آسـيا ، بل والشرق الأدنى وانه هنـاك لم ينه شوطه . ولكن هـذه الثورات تتجاوز محيط هـذا الكتاب تمـاما . فهى محتاجة الى الانتباه الدقيق من جانب أحسن خبرائنـا . وهى تقترح كلمة اخيرة : ان الأفكار ، ووعود المـاركسية الأرثوذكسية كما تجسدت الآن فى روسيا الستالينية قد تثبت فى السنوات القليلة القـادمة أنهـا محيرة فى ميـدان السياسة الروسية الداخلية بقدر ما هى مفيدة فى مجال السياسة الروسية الخارجية . والجنة الماركسية على الأرض سوف ينظر اليهـا على أنهـا مجرد وعد فى اندونيسـيا أو ايران ، لفترة ما ، ولكن فى موسكو ، سرعان ما ينظر اليهـا من ناحية على انهـا متطورة — والا فان المذهب كله سوف يتعرض حتمـا لتغيير لا يمكن التنبؤ به .

ومع ذلك ما لم نكن بصفة حقيقية فى روسـيا ازاء شىء جديد بالكلية ، شىء لم يسـبق له مثيل بالكلية ، شىء — باختصار — من شأنه أن ينقض أى نوع من العلم الاجتماعى ، فان الخطوط العريضة على الأقل لذلك التغيير ليست مما لايمكن التنبؤ بها بالكلية . واذا كانت فترة الأزمة للثورة الروسية قد انتهت ، كما قلنا هنا ، واذا كانت روسيا الآن فى منتصف ما يترتب على فترة الحمى الأساسية ، فانهـا عاجلا أو آجلا لا بد منتهية الى نوع من التوازن ، الى حالة من الصحة أو الاسـتواء ، ليست فى الحقيقـة مثل شبيهتها فى فرنسا أو الولايات المتحدة ، ولكن لنقل أنه شىء أقرب الى روسيا

فى القرن التاسع عشر ، روسيا التى عاش فيها تورجنيف كما عاش فيها دستويفسكى ، روسيا بافلوف وبوشكين وباكونين — وباختصار ، روسيا التى عاش فيها جمع مختلف من الرجال على اتصال وثيق بالغرب ولكن بصورة منظمة معقولة .

والشىء الذى يجعل روسيا للآن فى معزل ، وللان فى تلك الفترة الأخيرة من متاعب الثورة هو عدم اكتمال التطابق الاجتماعى والعقائدى بين الروح والجسد ، المثالى والواقعى ، جنة المجتمع الماركسى اللاطبقى على هذه الأرض الوعرة ولكن دون استمتاع .

ولكننا قد نكون مخطئين . فلعل الروس قد وجدوا طريقا ، طريقا لم يجده البيوريتان أو اليعقوبيون ، لكى يحفظوا الرجل العادى مستمرا الى الأبد فى المشاركة فى نشاط الدولة ، والاخلاص المجهد ، والتعليل المستمر لمظاهر الضعف الشائعة والجنون الذى اجتهدنا فى أن نحلله على أنه « عهود الارهاب والفضيلة » . ونظام الحكم الجماعى المطلق Totalitarianism قد يكون فى الواقع حديثا على الأرض كما يعتقد بذلك بعض المتمكنين من كتابنا فى العصر الحاضر . ومع ذلك فالمؤرخ يجب أن يحتفظ بشكوكه ، ليس فقط فيما يتعلق بـ « المدن الفاضلة » بطريقة عكسية مثل كتاب أورويل ١٩٨٤ Orwell's Nineteen *Eighty-four* ولكن حتى مثل ذلك التحليل العميق المقنع الذى أورده حنا آرنت فى « أسس الحكم المطلق Origins of Totalitarianism وعلى أية حال فالنتيجة واضحة : اذا كانت الثورة الروسية فى سنواتها الأخيرة تحذو حذو الثورات الكبيرة الأخرى كما فعلت بوضوح فى مقدماتها وسنواتها الأولى ، فان أغلب الروس لن يكونوا بالتالى أقل جنونا من بقيتنا ، ونستطيع أن نتصل بهم فيما يتعلق بحالات سوء التفاهم المتبادل — وومضات الرؤية الداخلية ، واذا كان هناك فى الواقع شىء جديد فى روسيا ، وعنصر من الحكم المطلق الذى يغير الكائنات الحية حقيقة ، فاننا نستطيع أن نتوقع المزيد من « فترات بييزوف Yezhov periods

والمزيد من ليزنكو ، والمزيد من ستالين — « والثورة الدائمة » فى الحقيقة .

٦ — الموجز :

عهد الثرميدور اذن ليس بأية حال من الأحوال شيئا فريدا ، قاصرا على الثورة الفرنسية التى منها يستمد اسمه . فقد وجدنا فى مجتمعاتنا الثلاثة كلها التى خضعت للدولة الثورية كاملة انحلالا خلقيا متشابها ، من حيث تركيز السلطة فى يد « طاغية » أو « دكتاتور » ، وتسللا متشابها للنفعيين ، وانقلابا متشابها فى الشعور تجاه أولئك الذين صنعوا «الارهاب» وعودة مشابهة الى العادات القديمة فى الحياة اليومية .

وحتى فى الولايات المتحدة التى لم تعان من الأزمة مثل البلاد الأخرى ، والتى لم تمر بعهد حقيقى من الارهاب والفضيلة ، نجد أن الثمانينات فى عام ١٧٨٠ تظهر بصورة غير كاملة بعض علامات ثرميدور . فقد كان هناك تراخ بين نظام الحرب وتوتر الحرب واتجاه كبير نحو الثروة واللهو . وكان هناك كثير من المضاربات المالية وكثير من التألم الشديد . ويذكرنا تمرد شاى Shay ، وهو من أكثر الحركات التى لم تكن ذات أثر فعال ، بواحدة من المحاولات الضعيفة التى قام بها الفرنسيون والروس المتأملون للوقوف فى وجه من أثروا حديثا فى عهود الثرميدور . بل وقد كان هناك انحلال خلقى فى هذا البلد . وكتب جيمسون يقول « ان الأمريكيين المتزنين فى ١٧٨٤ قد استاءوا كثيرا من تفشى روح المضاربة التى ولدتها الحرب وما يترتب على الحرب من اضطراب ، ومن مظاهر القلق عند الشبان ، وعدم احترام التقاليد والسلطة ، وازدياد الجريمة ، وتبذير المجتمع وطيشه » . وهذا كله يشبه الى أبعد حد الثرميدور الأصلى فى فرنسا .

ومن بعض الوجوه نجد أن ظاهرة رد الفعل والرجوع الى القديم تبدو بشكل لا مفر منه تقريبا جزءا من عملية الثورة نفسها . وعلى

اية حال يبدو من الصعب لاكثر محبى الثورة تفاؤلا ان ينكروا اننا قد وجدنا مثل هذه الظاهرة فى كل من المجتمعات الأربعة التى اخترناها للدراسة . والمخلص الشديد الاخلاص قد يقول ان الثورة الكبرى فى روسيا قد أثبتت وجودها خالية من مثل رد الفعل هذا ، وان الأهداف النبيلة للثوار فى المجتمع الغربى قد تحققت فى روسيا أخيرا . ونحن لا نستطيع أن نلائم بين حقائق نظام ستالين وأى من هذه التفسيرات . ومع ذلك فان حقيقة الثرميدور ، بل وحقيقة العودة الرسمية الى النظام القديم كما فى ١٦٦٠ أو ١٨١٤ ، لا تعنى أن الثورة لم تغير شيئا . وسوف نحاول فى الفصل القادم أن نجيب على هذا السؤال البالغ الصعوبة : ما هى بالضبط التغييرات التى أحدثتها هذه الثورات ؟

الفصل التاسع

ملخص لأعمال الثورات

١ ـ التغييرات فى النظم والأفكار :

بهذا الاتجاه الى الحكم المطلق الذى يشارك فيه « التفكير العام » مع بعض نواح أكثر شكلية من الميتافيزيقا ، نجد أنفسنا أكثر اتجاها الى النظر الى هذا النوع من الثورات الذى كنا بصدد دراسته على أنه انقطاع مفاجىء عن الماضى . فالثورة « تؤذن بعصر جديد » أو « تقضى الى الأبد على مساوىء النظام القديم » أو « تحفر هوة عميقة بين القديم والحديث » . ومن ناحية أخرى ، نجد أن الأحرار المنزهين مثل ى. د. مارتن حينما انقلبوا على التقاليد الثورية انتهوا الى نتيجة عامة لا تصدق فى كل الحالات وهى أن الثورات فى الواقع لا تغير شيئا ذا بال ـ الا أن يكون هذا التغيير أحيانا الى أسوأ ـ وأن الثورات غير سارة وانها وقفات يمكن تجنبها فى تاريخ الأمة . وينبغى أن يكون من الواضح الآن أن دراستنا الحالية للثورات الانجليزية ، والأمريكية ، والفرنسية ، والروسية لا يمكن أن تمدنا بأية اجابات مطلقة على هذا السؤال : ما الذى غيرته هذه الثورات فى الواقع ؟ بعض النظم ، وبعض القوانين ، بل وبعض العادات البشرية ، من الواضح انها غيرتها بطرق هامة جدا ؟ بينما نظم وقوانين وعادات اخرى غيرتها فى المدى الطويل ولكن بشكل طفيف ان لم تكن تتغير بالمرة . وقد يكون لما غيرته اهمية فى نظر عالم الاجتماع أكثر مما لم تغيره . ولكننا لا نستطيع ان نبدأ فى اتخاذ قرار بشأن هذا الموضوع الأخير ما لم نكن قد حصلنا على التغييرات الفعلية الشكلية بشكل مباشر . ونحن نأخذ فى الاعتبار هنا ، وبالطبع تلك التغييرات الظاهرة فى نهاية الحمى الثورية ، تلك التغييرات التى تتجه كتب التاريخ الى تصنيفها على أنها « دائمة » . ولسنا هنا نعنى

مباشرة بالتغييرات التى وعد بهـا المتطرفون ولم ينفذوها ، ولا بالتغييرات المثيرة الكثيرة التى طرأت على حياة العاملين فى الثورة .

ويجب أن نكرر ان العلوم الاجتماعية ، مثل العلوم الطبيعية ، ترضى تمـاما اذا استطاعت أن تقيم تماثلات احصائية فعالة . وقد تتجه التجربة الفردية عكس ما تتجه اليـه مثل هـذه التماثلات . وقد تكون أكثر اثارة ، وأكثر دراميـة من التماثل . ومن المؤكد انهـا سوف تكون أكثر واقعيـة وفائدة للمرء من اى احصـاء . ومع ذلك فالاحصاءات موجودة ولا يمكن الاستغناء عنها . وعلى ذلك فان أى طريقة « لتحديد النسل Contraception وحتى أكثرهـا بدائية ، اذا استعملت على نطـاق واسع فى جمـاعة معينـة ، فانهـا سوف تحد من معدل المواليد فى تلك الجمـاعة بطريقة ذات مغزى . ولكن بالنسبة لأفراد معينين يستعملونها ، نجـد أن الطريقة البدائية لتحديد النسل ، فى الأيدى المهملة ، قد تثبت بسهولة أنهـا طريقة للحمـل بدلا من ذلك .

وكذلك الحال فى الثورات . فبالنسبة لرجل الكنيسة الانجيلى الذى جرد من وسائل معيشته فى ١٦٤٨ ، وبالنسبة للماركيزة الفرنسية التى أعدم زوجهـا باعتباره خائنـا فى ١٧٩٤ ، وبالنسبة للأمريكى المخلص الذى راح يبحث عمـا يقتات به فى غابات نيوبرونشفيك بعد رغد العيش فى بوسطون أو كمبردج ، وبالنسبة للأرستقراطى الروسى الأبيض المنفى الذى صار يقود سيارته فى باريس فى ١٩١٩ ، قد يكون من الخطأ الجسيم أن نقول ان الثورات لا تغير فى الواقع شيئا كثيرا . وقد يشعر مؤلفوا « ذا بوك اف جوب » The Book of Job بالحيرة واذا فهموا الموضوع ، فان الغضب ينتابهم — اذا ما سئلو عما اذا كانوا يعتقدون أن خبرات جوب كانت نموذجية من الناحيـة الاحصائية .

ولحسن الحظ أو لسوء الحظ فان فهمنا للأخلاق وللدراما ليس مبنيا على تماثلات علمية . وبقدر ما تكون ذكرى الثورات متجسدة فى الواقع فى انفعالات انسانية قد يكون مغزاها الحقيقى الباقى هو الصورة المزيفة

او غير الواقعية التى تأخذها فى مثل تلك الانفعالات ، وفى الحافز الأخلاقى الذى تمدنا به . وربما بطريقة أو بأخرى تنتهى كل الثورات العظيمة الى « شعارات » Slogans مثل « بنات الثورة الأمريكية » أو « اللجيون دوير » أو « الماركسية التاريخية » والأسطورة هى الحقيقة وهى بعيدة على الدوام عن مظاهر السذاجة .

ومن الناحية السياسية تقضى الثورة على اسوأ مظاهر الاستغلال ، وعلى اسوأ مظاهر العجز فى النظام القديم . وهى تقيم لفترة ما على الأقل ذلك النوع من الصراع الداخلى الذى نشأت عنه « السيادة الثنائية » . ونجد أن الجهاز الحكومى يعمل بانتظام بعد الثورة أكثر مما يكون عليه الحال قبلها مباشرة . وفرنسا خير مثال لذلك ، فالتشريعات القديمة والارتباكات الموروثة عن الصراع الذى يرجع الى الف سنة بين قوى التاج المتمركزة وقوى النبلاء الاقطاعيين الطاردة والدور المترتب على السوابق المتراكمة قد حل محلها جميعا عمل الثورة الفرنسية . فالبيروقراطية القادرة التى تعمل بمهارة داخلقطاعات ادارية خاضعة ، والنظام المتقن القائم على الكفاية ، والجيش الممتاز الذى يضم هيئة مختارة وذخيرة طيبة ، كل ذلك مكن نابليون من أن يفعل الكثير مما لم يكن يقدر لأسلافه البوربون أن يفعلوه . وقد أشار توكفيل منذ زمن طويل الى أن الثورة الفرنسية جاءت لتكمل عمل صف طويل من الملوك الفرنسيين ، ولتجعل السلطة المركزة فى فرنسا فعالة وكاملة .

وهنا نذكر شيئا واحدا من اشياء كثيرة . ففى فرنسا القديمة ، كانت الموازين والمقاييس تختلف من اقليم لآخر ، بل وفى الواقع من مدينة الى أخرى . فالمقياس المعين فى تولوز قد يكون اكثر بكثير فى مونتبان المجاورة . بل أسوأ من هذا ، أسماء المقاييس نفسها قد تكون كلمات مختلفة اختلافا تاما . وكانت العملة ، مثل العملة الانجليزية الحالية ، فى جزء منها عشرية ثنائية ، ومن الصعب تداولها لفترات طويلة ، وما فعلته الثورة فى هذا الصدد معروف تماما للجميع . فقد وضعت نظاما موحدا

للموازين والمقاييس هو المعروف بالنظام المترى ، وهو نظام شق طريقه الى معظم انحاء العالم خارج الامبراطورية البريطانية والولايات المتحدة — دون الاستعانة بالثورة .

وهذه الكفاية الادارية فى أجهزة الحكومة هى فى الواقع أكثر التشابهات استلفاتا للنظر ونستطيع أن نلاحظ عند تقدير التغييرات السياسية التى أحدثتها ثوراتنا مع مراعاة الاختلافات المحلية ، والحوادث ، والمخلفات التى لا مفر منها بالنسبة للشىء الوحيد الذى لا بد لكل من علمى التاريخ والاجتماع أن يتصديا له . فان انجلترا ، وأمريكا ، وروسيا أيضا خرجت من ثوراتها بحكومات أكثر فاعلية وتركيزا . ويبدو هـذا الأمر أقل وضوحا فى انجلترا ، وذلك لأن الثورة قبل أن يتم نضوج القوى الاقتصادية والثقافية التى ساعدت على اظهار مثل تلك الصور من الكفاية مثل النظام المترى أو مجموعة قوانين نابليون . ولكن ، رغم ما فيها من تعقيدات ، فان الحكومة الانجليزية بعد ١٦٦٠ كانت أقدر على الوفاء باحتياجات الشعب مما كانت عليه فى ١٦٢٠ . حيث كان الناس فى ضيق من الضرائب والاعانات الخيرية ، والمحكمة التى ترعى مصالح التاج ، والمحكمة العليا ، وخلاف ذلك من طغيان الحكم المطلق غير الناضج لآل استيوارت . وكان البرلمان بعد ١٦٦٠ أكثر سيطرة على انجلترا بطريقة أكمل مما كان عليه برلمانا استيوارت الأولان .

وما زالت روسيا فى هذه الناحية ، كما فى كثير غيرها ، موضعا للجدل . فمعارضو ستالين الأقوياء يصرون على أن البيروقراطيين الجدد غير أكفاء ، وينزعون الى الطغيان ، وأغبياء على نحو ما كانوا عليه أيام القياصرة . وبعض العواطف التى تتضمنها الأقوال التى من هذا النوع قد تبدو الى حد كبير أو صغير تعبيرا مستمرا عن الحياة الروسية ، والى حد ما عن الحياة فى ظل أية حكومة ، وقصة جوجول الرائعة ، المفتش العام ، 'The Inspector - Genral' تتناول بالتحليل كل مظاهر الحياة كما يفعل أى عالم من العلماء . ومع ذلك فان المؤرخين فى المستقبل سوف يسلمون بأن الأجهزة السياسية للنظام السوفيتى أفضل مما كانت عليه

ايام القياصرة ، وبأن الجهـــاز الادارى السوفيتى فى جملته اقدر مما كان عليه ايام القياصرة . فانت قد لا تميل الى خطة السنوات الخمس ، ولكن يجب ان تسلم بأن هناك وراء بياناتهم الاحصائية اكتمالا اقتصاديا ملموسا أعظم من أى شىء استطاع العهـــد القديم أن يحققـــه فى فترة مماثلة . فالشيوعيون ، باختصار ، قد جاءوا بالثورة الصناعية الى روسيا . ولربما قد جاءت فى عهد ستوليبين Stolypin ، وربما جاء بهـــا الشيوعيون بطريقة فظة ، قاسية . ولكنهم جاءوا بها على كل حال .

وهذه الثورات حدثت جميعا باسم الحرية ، وكانت كلها موجهة ضد طغيان القلة ونحو حكم الأكثرية . وهذا الوجه المشترك فى الثورات تتضمنه بشكل خاص عواطف معينة موجودة فى الطبيعة البشرية تجعل من العسير جدا تطبيق مناهج العلم على دراسة الأفراد فى المجتمع . ومع ذلك فقـــد يبدو أن الأهمية الكاملة لتلك المسائل مثل الديمقراطية ، والحقوق المدنية ، والدساتير المكتوبة ، وفى الحقيقة جهاز الحـــكومة الشعبية بأكمله يكمن بشكل أوضح داخل ذلك المجال الغامض المبهم الذى يطيب للماركسيين أن يطلقوا عليه اسم « الأيديولوجية » منه فى مجال القوى السياسية الملموسة التى نحن الآن بصدد دراستها . ومن المؤكد أن المرء ليدهش لهذه الحقيقة وهى أن كل ثوراتنا زادت من كفاية الحكومات أكثر من « حق » الفرد فى حرية رومانتيكية . وحتى الجهاز التقليدى للحكومة الشعبية يمكن تحليله على انه اداة لانجاز الأشياء فى موقف خاص ، رغم غرابة هذا التحليل فى نظر المحافظين من معـــاصرى موسولينى ، وهتلر ، وســـتالين . ووثائق حقوق الانسان ، ومجموعات القوانين ، والدساتير كانت من حيث تأثيرها مواثيق للطبقات الحاكمة الجديدة . فالحرية كمثل أعلى كانت شيئا واحدا ، أما الحرية السياسية ، من ناحية أخرى ، فقد كانت شيئا آخر اقل درجة من ذلك .

ولقد شهدت هذه الثورات جميعا انتقالا كبيرا فى الملكيـــة عن طريق المصادرة أو البيع الجبرى . كما شهدت سقوط الطبقة الحاكمـــة ومجىء

طبقة حاكمة اخرى منتخبة الى حد ما ، على الأقـل ، من الأفراد الذين كانوا قبل الثورة خارج الطبقة الحاكمة . وكانت تصحبها مطالب واضحة مجسمة للقضاء على الفقر ، والمساواة فى اقتسام الثروة ، وأولئك الذين قادوا الثورة الروسية استمروا طويلا بعد فترة التأزم يصرون على أنهم ينادون بالمساواة الاقتصادية ، وان روسيا سوف لا تعرف الملكية الخاصـة فى الأرض وفى السلع الأساسية . والتفكير المـاركسى لا يزال يقسم ثوراتنا الأربع الى نوعين مختلفين : فالثورات الانجليزية ، والفرنسية ، والأمريكية بالنسبة لنتائجها النهائية ثورات « بورجوازية » ، أى انتصارات لا مفر منها لرجال الأعمال والصناعة على أرستقراطية الأرض ، ثم الثورة الروسية التى هى فى مراحلها النهائية ثورة « بروليتارية » حقيقية . ومع ذلك فقد تكون أكثر تأثرا بهذه الحقيقة وهى أن السلطة الاقتصادية فى الثـورات الأربع جميعا قد غيرت الأوضاع ، وأن « طبقة حاكمة » متحدة فى روسيا الحديثة كما فى فرنسا الحديثة وجهت كلا من الحياة الاقتصادية والسياسية فى المجتمع .

وبشىء أكثر من التفصيل ، نقول ان الثورة الانجليزية اخذت الأرض من اتباع الملك المخلصين وكذلك من الكنيسة ومن البريسبيتيريين والأسقفيين وأعطتها للبيوريتان الحقيقيين ، يتساوى فى ذلك رجال الأعمـال ورجال الدين . وقد عادت ممتلكات الكنيسة عند عودة النظـام القديم فى ١٦٦٠ الى أيدى انجيلية ، ولكن فيما عدا ملكية عدد من كبار اللوردات شديدى الصلة بشارل الثانى ، فان الأراضى المصادرة بقيت فى حوزة ملاكها الجدد . وكان أغلب هؤلاء الملاك قد اقاموا علاقات طيبة مع حكومة ستيوارت ، وهـكذا وضع أساس الطبقة الحاكمة التى فى ظلها فازت انجلترا بامبراطورية فى القرنين التاليين طبقة حاكمة اصبحت فيها ثروة الأرض والثروة الصناعية مختلطتين احداهما بالأخرى اختلاطا يكاد يستحيل فصلهما فيه ، وهى طبقة حاكمة أثبتت أنها من أحسن ما يمكن(١) .

---

(١) ملحوظة : بالنسبة لاغراض الرأسماليـة — (المترجم) .

والتغييرات الاقتصادية الملموسة فى فرنسا تسير على هذا النهج . فالأراضى المصادرة من رجال الدين والأشراف المهاجرين أعطيت للثوار ، وفى أغلب الأحوال بقيت فى حوزة المشترين حتى بعد عودة النظام القديم فى ١٨١٤ ولا شك أن كثيرا من هذه الأراضى بقيت فى حوزة صغار الفلاحين المستقلين ، مما ساعد على وضع اللمسات الأخيرة فى اقامة تلك الطبقة الفرنسية التى ينظر اليها الكتاب والسياسيون فى العالم أجمع على أنها عماد فرنسا الحديثة . ولكن جانبا كبيرا من هذه الأراضى انتقل الى الطبقة البورجوازية . ولا شك ان الطبقة الفرنسية الحاكمة بعد الثورة تمثل خليطا يلفت النظر من الثورة القديمة والحديثة ، من الأرض والتجارة ، كما هى الحال فى الثورة الانجليزية .

وفى روسيا نجد أن الاختلافات ليست كبيرة على النحو الذى كان ينبغى أن تكون عليه تبعا لنظرية ماركس . فقد كان هناك انتقال للقوة الاقتصادية من جماعة الى أخرى أكثر منه مساواة فى اقتسام القوة الاقتصادية ، ومساواة فى توزيع السلع الاستهلاكية ونهاية للصراع حول البضائع الاقتصادية أو القوة الاقتصادية . ولكنك تستطيع أن تضع القانون الماركسى حيث تشاء . فالبيروقراطية الروسية الجديدة ، كما رأينا ، هى طبقة مميزة تتمتع بالثروة فى شكل بضائع استهلاكية دون أن تمتلكها ، فى تلك الأشكال التى تعارفنا على تسميتها « بالملكية » فهى طبقة غير مستقرة بشكل ملحوظ ، غير واثقة من نفسها . ولكن سرعان ما نجد ابناء هؤلاء المميزين يظهرون علامات تدل على وراثتهم لحالة آبائهم ، وليس من غير المتصور ان وراثة الملكية سوف تأتى بعد وقت قصير . وما يبدو أنه قد حدث هو نمو الخطوط التى تدل على الحركة فى تاريخ الاقتصاد الروسى . كما أن الثورة الفرنسية وضعت اللمسات النهائية لمركز طبقة الفلاحين — ولكنها لم « تعطهم » الأرض فجأة — كذلك الحالة الراهنة للزراعة والصناعة الروسية يبدو أنها تنمية لرغبة السلافيين Slavophile وغيرهم من العناصر فى تفضيل الفلاحة الجماعية على نظام الكولاك Kulaks وللاتجاهات التى تكاد تكون منتشرة فى العالم أجمع والتى تحبذ الصناعة

على معدل واسع والتى تدار بطريقة بيروقراطية على الأعمال المستقلة الصغيرة التى يبدو فيها التنافس . وهنا كما فى بلاد أخرى نجد أن الثورة لا تستوحى النظام من قبعة — ولا من كتاب ، بل ولا حتى من كتاب ذى تأثير مثل « رأس المال » .

وليست هناك ثورة من هذه الثورات استبدلت تماما طبقة حاكمة جديدة بالطبقة القديمة ، وعلى الأقل ما لم يفكر المرء فى « طبقة » دون أن يهتم بالكائنات البشرية التى تؤلف هذه الطبقة ، والتى هى طريقة محببة لدى الماركسيين . والذى يحدث هو أنه عند انتهاء فترة النقاهة يكون قد بدأ نوع من الاندماج ، الذى فيه يرتبط الأفراد الجسورون ، الذين يستطيعون التكيف أو الأفراد المحظوظون من الطبقات القديمة المميزة ، ولأغراض عملية فى الغالب يرتبطون بأفراد من الطبقات القديمة المكبوتة كانوا يستطيعون ، ربما بفضل نفس المواهب ، الظهور . وهذا الاندماج يظهر بشكل واضح فى الجيش والوظائف المدنية ، كما فى الأعمال والصناعة ، والسياسة العليا . وهذا التحليل يمكن تأييده بدراسة مفصلة للاصول الاجتماعية لضباط بونابرت ، أو الضباط فى الجيش الأحمر الحالى ، أو الرجال الذين تولوا أمر حكومة انجلترا فى ١٦٧٠ ، وفرنسا فى ١٨١٠ وروسيا اليوم رغم أنه أقل وضوحا لمرور زمن طويل . وفضلا عن ذلك ، فان الأفراد الجدد فى الطبقات الحاكمة بعد الثورة قد أحدثوا تآلفا واضحا مع الطبقات القديمة ، مع ذلك العالم القديم الذى تعتبر فترة تأزم الثورة نفورا شديدا منه . فلم تعد لأمثال داوننج ، وفوشيه ، وكالينين الحرية الجميلة التى كانت فى وسع تروتسكى وأمثاله أن يتمتعوا بها . فهم لم يعودوا ثوارا ، ولكن حكاما ، ومن هذه الناحية نجد أنهم مضطرون لأن « يتعلموا » من أسلافهم . وهناك من يعتقدون بأن ستالين قد أجاد التعلم الى أبعد الحدود .

وفى التنظيمات الاجتماعية التى تمس الرجل العادى بشكل وثيق ومباشر غالبا ما نجد أن التغييرات الفعلية التى أحدثتها ثوراتنا تبدو

اضال ما تكون . فالمحاولات الضخمة للاصلاح اثناء الفترة الحرجة تحاول أن تغير علاقات جون جونز بزوجته وأولاده ، وتحاول أن تمنحه دينا جديدا وعادات شخصية جديدة . ويتخلى الترميدوريون عن معظم هذه المحاولات ، وفى النهاية يقف جونس على بعض الأمور الخاصة بمكانه عندما بدأت الثورة . ودراستنا للثورات ينبغى أن تؤيد شيئا عرفه دائما الأفراد المتعقلون ، وانتهى الأمر بالمصلحين الحانقين الى أن يسلموا به ، على الأقل بالنسبة لأنفسهم — وهو أنه من بعض النواحى الهامة جدا يتغير سلوك الانسان ببطء يكاد يكون مقاربا لذلك النوع من التغير الذى يدرسه العالم الجيولوجى .

ونستطيع ان نأخذ كمثال لذلك محاولات بعض ثوارنا لكى يغيروا بطريقة سريعة وجذرية وجوه قانون الأسرة . فقد بين لى بلاى Le play ان العلاقات فى الأسرة هى من بين اكثر الأشياء استقرارا وثباتا فى حضارتنا الغربية . والثورى اليسارى المتحمس فى القرون القليلة الماضية ، كان ينفر بدرجة متناهية من العائلة المسيحية ذات الزوجة الواحدة أو الزوج الواحد ، وهو يرى أن سياجا من الأنانية الفردية ، والتسامى الاجتماعى ، والضيق العقلى قد صيغت فى مجموعة من القواعد المعقدة ، واهديت الى اسطورة تفوق الرجل ، ثم تحولت الى درجة من الجمود والصلابة بواسطة الجزاءات الدينية ، التى يجب القضاء عليها قبل أن يستطيع الرجل والمراة كلاهما ان يعيشا كما اراد لهما الله ، والطبيعة ، والعلم أن يعيشا. والثورة الفرنسية لم تشهد محاولة واسعة النطاق للقضاء على الأسرة . والحقيقة أن الطبقة المتوسطة فيها بوجه عام مليئة بالتمجيد الورع للفضائل العائلية . ولكن انصار النزعة الانسانية قد وضعوا بعض التشريعات البعيدة المدى فى هذا المجال ، مثل قوانين التبنى المتسامحة والاجراءات الأخرى التى ترمى الى القضاء على جمود قانون العائلة ، الذى يكاد يكون رومانيا ، فى النظام القديم . وبوجه خاص حاولوا أن يساووا بين الأطفال غير الشرعيين والأطفال الشرعيين مساواة مطلقة من جميع الوجوه . وعندما صدر القانون الذى يضع ذلك موضع التنفيذ ، قال

احــد الخطباء اللامعين « لم يعــد فى فرنســا أولاد سفاح » . ونحن فى حاجة الى ان نضيف انه كان مخطئــا . وفى كتيب عن « التشريع الثورى الفرنسى فى عدم الشرعيــة ، حــاول ذلك الكاتب أن يبين كيف أنه حتى البورجوازيين الصالحين الذين أقروا هــذا القــانون كانوا من الناحيــة الانفعالية متأثرين أشد التأثر بالمشاعر الأسرية التقليدية بحيث حاولوا أن يضعوهــا موضع التنفيذ . فقــالوا ان أولاد السفاح احرار ومســاوون للأطفال الشرعيين ، ولكنهم لم يستطيعوا ان يحملوا أنفسهم على التصرف كمــا لو كانوا يعتقدون حقــا أو يريدون أن يكون الأمر كذلك . وبالاختصار خرجت الأسرة التقليدية فى شكلها الفرنسى ولم يصبها أى ضرر من الثورة .

وقد شهدت روســيا هجوما أكثر قوة على العــائلة المسيحية ذات الزوجة الواحدة ، أو الزوج الواحد . فسنت القوانين التى تجعل الطــلاق أيسر ممــا فى نيفادا ، وتبيح الاجهاض وتشجع على قيام الأسرة الجماعية وشيدت دور الحضانة ورياض الأطفال ، وعملت على تربيــة الأطفال قدر الامكان خارج المنزل ، وهكذا . ومنعا لسوء الفهــم ينبغى أن نوضح أن المثاليين الروس الذين حاولوا أن يفعلوا ذلك كله لم يكونوا رجالا فاسدين ، يبتغون تيسير الحيــاة للشهوانيين من النــاس . بل الأمر على العكس ، فقــد كانوا ، كمــا حاولنا بكل جهد أن نبين ذلك ، يحتفظون بملامح قوية من البيوريتانية . وحتى هــذا اليوم ، قد تستولى الدهشة على الشــاب الشيوعى الروسى وينزعج لمجرد رؤية أى صحيفة أو مجلة أمريكية . وكان هؤلاء المثاليون يعتقدون أن الأسرة البورجوازية فاسدة ، ويتفقون فى الراى مع مســتر شو على أن الزواج يجمــع بين أكبر قدر من الاغراء وأكبر قدر من الفرص . وكانت القوانين تهــدف الى تحقيق المثل العليــا الكامنة فى نظــام الزوجة الواحدة أو الزوج الواحــد فى المسيحية رغم هدمهم ما نظروا اليــه على أنه النظم العــائلية الفــاسدة .

وهنــا أيضا نجد أننــا لسنا فى وضع المؤرخين الذين يعملون بمصادر طيبة ، ولكن من خلال التقــارير المتعارضة التى تأتى الينــا من روســيا

نستطيع ان نستشف أن المصلحين قد فشلوا ، وان الأسرة المسيحية ذات الزوجة الواحدة قد عاشت بعد البلشفيين القــدماء فى روسيا . فالقوانين ، كمــا رأينا ، صارت لا تحــد من الاجهــاض المشروع بحيث تقصره على أشــد حالات الضرورة الطبية فحسب بل فى الواقع وضعت نظام المكافآت للأسر الكبيرة . كما جعلت الطلاق اكثر صعوبة . وبر الأبنــاء بالآباء ، وفى الحقيقة كل فضائل الأسرة البورجوازية المتعارف عليها الآن موضع تكريم كبير فى الصحافة ، والسينما ، والدولة ، والمدرسة .

ولنأخذ مثلا له نوعيته الخاصة ، كان الشذوذ الجنسى ، عند البلشفيين القــدماء ، شيئا غير سوى ، ربمــا كان خاضعا للعــلاج الطبى ، ولكنه لم يكن جريمة بالطبع . ولم يكن من المستطاع أن يكون جريمــة بالنســبة لهم ، لمجرد أنه كان جريمــة فى العالم الغبى ، الفــاسد الذى كانوا يعملون على تغييره من القمة الى القــاع . وطبيعى لم يكن لديهم تجاه هــذا النوع من الجرائم اشمــئزاز بورجوازى ضيق من الناحية العمليــة . ولكن فى مارس ١٩٣٤ أصبح الشذوذ الجنسى جريمــة عقوبتها السجن من ثلاث الى ثمانى سنوات . ولا نستطيع ان نمنع أنفســنا من القول بأن « سيدنى وب وزوجتــه » قد فسروا ذلك بطريقتهما المعتــادة : « المفهوم أن هــذا جاء بعــد اكتشاف بؤر لافساد الأحداث خلقيا ، ويرجع وجود هــذه البؤر الى تأثير بعض الأجانب الذين طردوا بطريقة عنيفة من الأراضى السوفيتية . ولكن حتى مع الأجانب المطرودين ، تبقى روســيا على القوانين . والواقع أن العواطف الروسية فيما يتعلق بموضوع الشذوذ الجنسى ثابتة تقريبــا ، ولكن الأفكار الروســية فى هــذا الموضوع متغيرة وعلى مر الأيام يسود الثــابت .

على أن الموضوع المتلعق بتغير النظم الثابتة للعمل فى الحياة العادية (لجون جونز) فى أوثق علاقاته برفقائه ، وبيئته لم يكتشف بعــد بطريقة جيــدة . وهنــا نجد مرة أخرى أن الادراك بطبيعته البشرية الحاسمــة لا يتغير ، شيء مطلق جدا . ولكن يظهر أن ثوراتنــا كان لهــا تأثير ضئيل

ثابت على المسائل الصغيرة الهامة فى حياة (جون جونس) . ولعل ما يطلق عليه اسم « الانقلاب الصناعى » كان له بالتأكيد تأثير أعظم ، مما اضطر جون الى القيام بسلسلة صعبة من الأفعال ليكيف نفسه مع الحالة الجديدة اكثر مما فعلته ثوراتنا . وليس هناك واحد من مجتمعاتنا ، حتى ولا روسيا ، يبدو أنه خضع لتغييرات كاملة كتلك التى خضع لها المجتمع التركى منذ الاجراءات الثورية الشاملة الحقيقية التى اتخذت فى عهد مصطفى كمال أو المجتمع اليابانى خلال ثورة « ميجى » بغض النظر عن الثورة التى أحدثها ماك آرثر (١) ومن الطريف أن نسجل التناقض الظاهر وهو ان المجتمع الغربى فى بعض الحالات أكثر بطئا فى التغيير من المجتمع الشرقى ، ولكن الحقيقة أكثر تعقيدا من هذا التناقض . فكل من الأتراك واليابانيين يبدو أنهم احتفظوا أثناء التغيير الاجتماعى والاقتصادى بمجموعة من النظم القومية دون تغيير . وفى مجتمعاتنا الغربية نجد أن الأسرة ، والنظم الأخلاقية ، والدينية قد استعملت بطريقة مشابهة كميزان لتغييرات اجتماعية واقتصادية هامة جدا ، وليست الثورات التى انتهينا من دراستها الا جزءا منها .

والحقيقة أن المجتمع الغربى الحديث قد طرأت عليه فى القرون القليلة الأخيرة تغييرات مستمرة لدرجة أننا ، اذا تبنينا فكرة التوازن الاجتماعى ، لوجب علينا أن نتوقع وجود قوى معينة تقوم بعملية جذب فى الاتجاه المضاد ، فى اتجاه الثبات والاستقرار . وهذه القوى ليست ، كقاعدة ، مرتبطة بعضها ببعض . ويبدو أنها لا تهم رجال الفكر بدرجة تماثل درجة القوى التى تعمل على التغيير . ولربما كانت تافهة أو هى بالتأكيد « مثيرة » وبالقدر الذى تظهر فيه مترجمة الى لغة الكلام ، تظهر فى عدد من الأثواب التنكرية التى يصعب اختراقها . ولكنها موجودة ، وكما رأينا تقيم حدا واضحا لما يستطيع المصلح أو الثائر أن يعمله . فالزنا لا يمكن أن يقف فى مواجهة المنطق أو علم الحياة ، ومع

---

(١) يحاول المؤلف هنا أن ينسب الى ما آرثر قائد قوات الاحتلال الأمريكى لليابان بعد الحرب العالمية الثانية أنه أحدث فى اليابان ثورة .

ذلك فهو موجود لا بقوة المنطق ولا علم الحيـاة ، ولكن بقوة الشهوات الانسانية الثابتة ، البطيئة التغير . ان النـاس قد يشعرون بالحـزن لدرجة تستدر الدموع للاطفال المساكين الذين وصموا فى ميلادهم لأسـباب من الواضح انهـا ليست نتيجة خطـأ منهم ، ولكن حتى الآن لم تفعـل الثورة شيئا رغم التمييز بين الأطفـال الذين يولدون بعـد أن يتم نوع معين من الاجراءات وبين أولئك الذين لا يستفيدون من مثل هذه الاجراءات. فالاجراءات قد تبدو هشة ، متغيرة ، غير ذات اهمية — مجرد كلمـات او حركات تافهة الا انهـا اقوى بكثير من قوانين المنطق . وذلك لأنهـا ، وفقـا لمـا يقول باريتو Pareto ، مرتبطة « بالمجموعات الثابتة » ، وانمـاط العواطف والسلوك التى تتغير ببطء شـديد .

وكل هـذا يرجع الى القول بأن النـاس فى مجتمعنا الغربى قـد درجوا على عواطف معينة وعلى أن يتكيفوا مع طرق معينة لأداء الأشـياء حتى بعد أن يكونوا قد غيروا ما يقولونه عن هذه العواطف وهذه الأفعال. ويبدو أن ثوراتنا قد غيرت عقول الناس من نواح كثيرة أكثر بكثير ممـا غيرت عاداتهم . وليس معنى هـذا بأية حال أنهـا لم تغير شيئا على الاطلاق ، وان ما يعتقده النـاس ليس بذى اهمية . فالأفكار ليس لهـا فعل السحر فى هـذا العـالم ، والا لمـا سقط روبسبير ، ولكان تروتسكى حيـا حتى اليوم فى موسكو ، وليس ميتا فى المكسيك . لكن يجب الا تستبعد باعتبار انهـا لا تلعب دورا فى التغير الاجتماعى . والحقيقة أن ما يسميه أصدقاؤنا المـاركسيون بالتغييرات « الأيديولوجية » التى أحدثتهـا ثوراتنا يستحق الدراسة .

وقد يمـيز المرء بين دورين متعارضين تلعبهما هـذه الأفكار التى ولدتهـا الثورة . اولا ، أن ثوراتنا فى النهاية قد تبدو وكأنهـا قد انتزعت « السم » من الأفكار والشعارات المتطرفة فى أيامهـا الأولى . وحققت المعجزة الضرورية بأن هدت الرجال الطموحين الى أسباب الفشل الأساسى فى تحقيق طموحهم . وحولت ما كان أدوات لفظية للثورة ، ووسائل لتحريك الناس الى العمل الجماعى ضد النظام القـائم ، الى شىء يمكن أن نسميه

بلغة العصر الأساطير ، والادب الشعبى ، والرموز ، والقوالب الجامدة ، والطقوس لكل مجتمع منهـا . « فالحرية ، والمساواة ، والاخاء » التى كانت فى وقت من الأوقات « نفير » الدعوة لخلق عالم أفضـل ، ليست الآن فى الجمهورية الفرنسية الرابعة اكثر من جزء بسيط من التراث الوطنى، وتذكار لطيف بأن الفرنسيين هم الورثة الميزون لمـاض يتسم بالبطولة وكان هنـاك ، حتى الأزمة الراهنة فى عالم الأعمـال ، علامات على على هـذه العبارة الطنانة « يا عمال العـالم ، اتحدوا » أمكن حتى فى روسـيا تكييفهـا مع الضروريات المحافظة ، والمقيدة للعادات . وبعـد هذا كله ، كمـا أشار راديكاليون منطقيون جـدا ، فان الانجيل نفسـه ملىء بالمذاهب الثورية الصالحة ، وما فعلته المسيحية المنظمة بالانجيـل ينبغى أن تكون الشيوعية المنظمة قادرة على أن تفعله مع كتاب اكثر بساطة بكثير مثل « راس المـال » .

والدور الثانى ، دور اكثر ايجابيـة . فهـذه الأفكار حين تستعمل كطقوس دينيـة نجـد انهـا ليست سلبية محض ، ومجـرد نتف من الضجيج والصخب فقـد راينـا أن فـكرة المجتمع اللا طبقى تثقل كاهل الطبقة الحاكمة الجديدة فى روسـيا . ولا نستطيع هنـا أن نسترسل فى المسألة الهـامة المتعلقة بدور هـذه الأسـاطير والرموز فى المجتمع . ويجب علينا بالتأكيد أن نتجنب السؤال العقيم عمـا اذا كان مثل هـذه الرموز « يحدث » أى نوع من التغير الاجتماعى . وهنـا ، كمـا فى كل مكان تقريبـا فى العلوم الاجتماعية ، نجـد أن قانون العربة والحصـان المتعلق بالعلية لا فائدة منه ، بل هو فى الحقيقة مضلل ويكفينـا أننـا نجـد فى كل مجتمعاتنا أن ذكرى الثورة العظيمـة مخـلدة فى تطبيقـات عملية تبدو كأنها جزء أساسى من الدولة القومية كأمر مستمر . ان الناس اليـوم فى انجلترا ، وفرنسـا ، وأمريكا ، وروسيا يطربهم أن يعلموا أنهم أعضاء فى أمة ، وربما يقودهم ، وبالتأكيد يريحهم — عدد من المعتقدات النبيلة المجـردة ، ويشعرون بشىء من الأمن ، والكيـان ، وبكل أنواع الأفعال النموذجية المرتبطة بالدولة أو بالكنيسة كادارة من ادارات الدولة ،

تقويها التطلعات التى لا تزال سائدة فى الكلمات العظيمة لميلتون ، أو جيفرسون ، أو دانتون ، أو لينين — وهم كذلك يتحركون بالقدر نفسه على هذا النحو ، نجد ان الثورات التى درسناها قد ساعدت كثيرا على ارضاء عواطفهم . ففى انجلترا ، وامريكا ، وفرنسا أصبحت ذكرى ثوراتها العظيمة عاملا من عوامل استقرار المجتمع القائم ، وفى روسيا ، — ما لم تخطىء كل العلامات — سوف يصل الأمر الى حالة مشابهة عاجلا أو آجلا . ومع ذلك فان ثوراتنا خلفت وراءها كذلك أحد تقاليد الثورة الناجحة . وما يعتبر مصدرا للرضا عند الناس المستقرين ، الراضين ، المتكيفين ، يعتبر فى نظر الأشخاص المتذمرين « مهمازا » لاثارة تذمرهم . وتقليدنا الثورى الغربى الحديث بطىء التقدم والنمو الى حد ما ، وآخر الثوار من حيث التقليد ، وهم الروس ، قد ساروا بمعرفتهم للتاريخ الثورى الى درجة الأفكار المتسلطة تقريبا . فتروتسكى ، مثلا ، رغم انه لايستخدم تصور الحمى كما استعملناه ، يبدو فى كتاباته كما لو كان يرقب مجرى الثورة الروسية ، بطريقة اكليكينية تقريبا ، ناظرا الى الأحداث دائما على أنها تأخذ المجرى الذى لوحظ فى فرنسا من قبل ، وفى انجلترا ، أو فى أى مكان ثار فيه الناس باسم الأغلبية ضد الأقلية .

ومرة اخرى نقول ان هذا التقليد الثورى لا يمكن تقييمه ولكن يبدو انه قد أصبح جزءا من مقومات الديمقراطية الغربية ، وأحد العناصر التى كانت حتى الآن فى صورتها الكاملة ناقصة فى تطور كل من ايطاليا ، والمانيا ، حيث نجد ان الثورات الديمقراطية كانت فاشلة أو على أحسن الفروض عديمة الأثر . وتقرير وجود هذا التقليد الثورى لا يعنى بالضرورة اننا نتخذه حكما . وانما نقدمه على انه حقيقة مشاهدة لا يستطيع انكارها اى فريق . ولا نستطيع هنا تحديد تأثيرها الصحيح فى التوازن المعقد لمجتمعاتنا الحالية . وبصفة خاصة نجد صعوبات ضخمة فى تقدير مقدار رسوخها فى روسيا . ومن ناحية المثل العليا وفى أيام ١٩١٧ المليئة بالأمل كانت الثورة الروسية تسير فى أعقاب الثورات الانجليزية ، والأمريكية ، والفرنسية بشكل واضح . ولا شك ان الديمقراطيات الغربية متأثرة ،

بهذه الحقيقة ، وهى انها نتجت عن نوع واحد من الثورة ، وتدين*بنوع واحد من المثل العليا يمكن تلخيصه بأنه « الحرية ، والمساواة ا والأخاء » .

٢ – بعض التشابهات التجريبية :

حينما تتم كل التسهيلات الضرورية لأولئك الذين يصرون على أن أحداث التاريخ فريدة فى نوعها ، يبقى صحيحا أن الثورات الأربع التى قمنا بدراستها تبين لنا بعض التشابهات الملفتة للنظر . وخطتنا التصورية « للحمى » يمكن اعدادها بعناية بحيث توضح لنا هذه التشابهات . وسوف نجد أن الأمر يستحق الجهد الذى يبذل فى محاولة تلخيض عمل هذه الثورات ، وفى استرجاع النقط الرئيسية للمقارنة التى أقمنا تماثلاتنا عليها باختصار .

ويجب أن نكون تجريبيين جدا من ناحية الأغراض المحركة للثورة . فحتى لو رجعنا الى الوراء ، لوجدنا أن تشخيص المجتمعات الأربعة التى درسناها كان من الصعوبة بمكان كبير . وهناك مجال ضيق للاعتقاد بأن اى فرد اليوم لديه من المعرفة والمهارة ما يمكنه من تطبيق المناهج الشكلية للتشخيص على مجتمع معاصر ، وأن يقول ، فى هذه الحالة سوف تقع الثورة أو لا تقع قريبا . ولكن بعض التماثلات تظهر من دراسة النظم القديمة فى انجلترا ، وأمريكا ا وفرنسا ، وروسيا .

اولا ، كانت هذه المجتمعات فى الجملة سائرة فى طريق التحسن من الناحية الاقتصادية قبل أن تأتى الثورة ، ويبدو أن الحركات الثورية تنشأ من استياء الفاشلين وهم الذين يشعرون بالضغط ، والكبت ، والعجز أكثر مما يشعرون بالطغيان الشديد . ولا شك أن هذه الثورات لم تنشب عن طريق العاطلين المشردين ، أو عن طريق الجائعين ، البؤساء . فهؤلاء الثوار ليسوا « ديدانا متحركة ولا رجالا يائسين » . فالثورات تنشأ عن الأمل وفلسفاتها مبنية على التفاؤل .

ثانيا ، نجد فى مجتمع ما قبل الثورة أنواعا محـــددة وفى الواقع غير مستساغة من العـــداوة بين الطبقات ، رغم أن هـــذه العداوة تبدو أكثر تعقيـــدا مما يقره المـــاركسيون الأقل نضجـــا . فليس الأمر أمر شرفاء اقطاعيين ضـــد بورجوازيين فى ١٦٤٠ ، ١٧٧٦ ، ١٧٨٩ ، أو بورجوازيين ضد طبقة العمال (بروليتاريا) فى ١٩١٧ . فأقوى المشاعر يبدو أنها تتولد فى صدور الرجال — والنساء — الذين كونوا ثروة ، أو على الأقـــل الذين لديهم ما يكفيهم ليعيشـوا ، والذين يتأملون بحسرة نقائص الأرستقراطيين ذوى الامتيازات الاجتماعيـــة . والثورات تبدو أكثر احتمـــالا حين تكون الطبقات الاجتماعية أكثر قربا من بعضها البعض مما لو كانت متباعدة . « فالمنبوذون » نادرا ما يثورون ضد الأرستقراطية التى أوجدها الله وتمدنا هايتى بأحد الأمثلة القليلة لثورات العبيد الناجحة . ولكن التجار الأثرياء الذين تستطيع بناتهم أن يتزوجن الأرستقراطيين يكادون يشعرون أن الله على الأقل مهتم بالتجـــار اهتمامه بالأرستقراطيين . ومن الصعب معرفة الأسباب التى تدعو الى زيادة الكراهية بين طبقات تكاد تكون متســـاوية اجتماعيا فى بعض المجتمعات أكثر مما فى البعض الآخر . لمـــاذا ، مثلا ، تكون مارى أنتوانيت أكثر تعرضا للكراهية فى القرن الثامن عشر فى فرنسا من وارث ثرى ، خامل ، وأكثر شهرة فى أمريكـــا المعاصرة ، ولكن على أية حال يمكن ملاحظة هذا التململ فى مجتمعات ما قبل الثورة ، وهو من من الناحية الاكلينيكية ، أمر كاف فى هذه الفترة .

ثالثا ، هناك ما أطلقنا عليـــه اسم هروب رجال الفكر أو المثقفين . وهذا من بعض الوجوه أكثر الأعراض التى يمكن الاعتمـــاد عليها والتى نحن على وشك أن نلتقى بها . وهنا مرة أخرى لسنا بحاجة لأن نحاول أن نشرح كل الطرق والأسباب ، ولسنا بحاجة لأن نحاول أن نربط هروب رجال الفكر بعلم اجتماع ضخم وكامل للثورات . وانما نحن فى حاجة لأن نقرر ببساطة أنه يمكن ملاحظته فى كل مجتمعاتنا الأربعة .

رابعا ، من الواضح أن الجهاز الحكومى غير كفء ، بسبب الاهمال أحيانا ، وبسبب الفشل فى احداث تغييرات فى النظم القـــديمة ، واحيانا

اخرى لأن ظروفا جديدة — فى المجتمعات التى قمنا بدراستها ؛ وبنوع خاص الظروف المترتبة على التوسع الاقتصادى ونمو الطبقات التى اثرت حديثا ، وطرق حديثة للنقل ، ومناهج جديدة للأعمال — هذه الظروف الجديدة ألقت عبئا لا يحتمل على الجهاز الحكومى الذى يصلح لظروف ابسط واكثر بدائية .

خامسا ، الطبقة الحاكمة القديمة — أو بتعبير اصح كثيرون من افراد الطبقة الحاكمة القديمة — أصبحوا لا يثقون بأنفسهم ، ولا فى تقاليد طبقتهم وعاداتها ، واخذوا يتقربون الى المفكرين ، والانسانيين ، أو ينضمون للجماعات المهاجمة . وربما كان عدد منهم أكبر من المعتاد يحيون حياة سوف نسميها غير خلقية ، منحلة ، رغم أن المرء لا يستطيع بأية حال أن يتأكد من هذا على أنه عرض مثل ضياع عادات وتقاليد القيادة الفعالة بين افراد الطبقة الحاكمة . وعلى اية حال ، تصبح الطبقة الحاكمة غير صالحة من الناحية السياسية .

فالأحداث المثيرة التى تدفع الى التحرك ، والتى تصل بالأمر الى حمى الثورة ، مرتبطة ارتباطا وثيقا فى ثلاث من ثوراتنا الأربع بالتنظيم المالى للدولة . وفى الرابعة ، وهى روسيا ، نجد أن انهيار التنظيم تحت أثقال حرب غير موفقة أمر له اهميته الجزئية لا غير . ولكن فى كل مجتمعاتنا يظهر عجز الجهاز الحكومى للمجتمع وعدم كفايته ليظهر بوضوح فى المراحل الأولى للثورة فهناك فترة — هى الأسابيع أو الشهور القليلة الأولى — يبدو فيها استعمال القوة بشكل يدل على التصميم من جانب الحكومة قد يمنع الاضطراب المتزايد من التجمع فى شكل انقضاض على الحكومة . وهذه الحكومات حاولت استعمال القوة فى الثورات الأربع جميعا ، ولكنها فشلت فيها . وهذا الفشل فى الواقع أثبت أنه نقطة تحول خلال المراحل الأولى ، ووضع الثوار فى مراكز الحكم .

الا ان الانطباعات عن عجز الحكومة فى استعمال القوة اكثر من الانطباعات عن مهارة خصومها فى استخدام القوة ونحن هنا نتكلم عن

الموقف بأكمله من النــاحيتين العسكرية والبوليسية . وقد يكون هنــاك احتمال بأن غالبية النــاس غير راضين ، وأنهم يكرهون الحكومة القائمة ، ويتمنون انقلابهــا . لا أحد يعلم فليست هنــاك استفتاءات تؤخذ قبــل الثورة . وفى الصــدام الواقعى — حتى يوم الباستيل ، الكونكورد او أيام فبراير فى بتروجراد — كانت قلة من النــاس هى المشتبكة اشتباكا فعالا . ولكن كانت سيطرة الحكومة على قواتهــا الخاصة ضعيفة ، وكانت قواتها تحارب بدون حماس او تهريب ، وقوادهــا أغبياء ، وكان أعداؤها يضمون اليهم القوات الهاربة من الجيش أو « الميليشيا » القــديمة ، والقــديم يخلى السبيل للجــديد . ومع ذلك فهذه الطبيعة المحافظة والمحبة للروتين لدى الكثرة السائدة من الكائنات البشرية ، وعادات الطــاعة قوية لدى أكثرهم حتى يمكننــا أن نقول ونحن مطمئنون أن أية حــكومة لا تتعرض للسقوط الا اذا فقدت القدرة على استخدام قواتها العسكرية والبوليسية استخداما كافيــا . ويظهر هــذا العجز واضحا من انضمام جنود الجيش ورجال الشرطة الى صفوف الثوار أو من الغبــاء الذى تعــامل به الحكومة جنودهــا ورجال البوليس ، أو من الطريقتين معــا .

والأحداث التى جمعناها تحت أسماء المراحل الأولى لا ترتب نفسهــا بالطبع بنفس النظــام تمــاما من حيث الزمن ، أو بنفس المضمون تمــاما فى كل واحدة من ثوراتنــا الأربع . ولكننا أدرجنا العناصر الكبرى — وهى متماثلة — الانهيار المــالى ، وتنظيمات الساخطين لمعالجة هــذا الانهيار (أو الانهيــار الذى يهدد بالسقوط) ، والمطالب الثورية من ناحية هؤلاء الساخطين المنظمين ، وهى مطــالب لو حدث التسليم بهــا لكان معنــاه التخلى الفعلى من جانب أولئك الحاكمين ، ومحاولة استعمال القوة بواسطة الحكومة ، وفشلهــا ، والوصول الى الحكم بواسطة الثوار . وهؤلاء الثوار قد لعبوا دورهــم حتى الآن كمجموعة منظمــة وموحدة تقريبــا ، ولكن بوصولهم الى الحكم يتضح أنهم غير متحــدين . والجماعة التى تسيطر فى هــذه المراحل الأولى نسميها بالمعتدلين . وهم ليسوا دائمــا ذوى اغلبية عددية فى هــذه المرحلة — والحقيقة أنه من الواضح اننا لو قصرنا المعتدلين

على « الكادتس » Cadets لما كانوا اغلبية فى روسيا فى فبراير سنة ١٩١٧ ولكنهم كانوا يبدون الورثة الطبيعيين للحكومة القديمة ، وكانت أمامهم الفرصة وفى ثلاث من ثوراتنا لم يلبثوا عاجلا أو آجلا أن أبعدوا عن السلطة بالموت او النفى . وبالتأكيد نرى فى انجلترا ، وفرنسا ، وروسيا نظاما تنتهى فيه سلسلة من الازمات — يتضمن بعضها العنف ، والقتال فى الشوارع ، وما الى ذلك — بتنحية مجموعة من الناس ووضع أخرى فى الحكم بدلا منها وأكثر منها تطرفا . وفى هذه الثورات تنتقل السلطة بواسطة طرق عنيفة أو على الاقل غير مشروعة من اليمين الى اليسار ، حتى نجد فى فترة التأزم الراديكاليين المتطرفين ، والثوار بالمعنى الكامل يصلون الى الحكم . وهناك ، عادة قلة هى مجموعات أشد ضراوة وخروجا على العقل من المتطرفين المنتصرين — ولكنهم ليسوا عديدين ولا أقوياء ومن الممكن أن يقوم المتطرفون المسيطرون بقمعهم أو تقليم اظفارهم حتى يؤمن شرهم . وعلى ذلك فالقول بأن السلطة تنتقل من اليمين الى اليسار حتى تصل الى أقصى اليسار هو قول صادق .

وحكم المتطرفين هو الذى أطلقنا عليه اسم الفترة الحرجة . وهذه الفترة لم تصل اليها الثورة الأمريكية ، رغم أنه فى الاتفاق مع الموالين للحكومة ، وفى الضغط لمساندة الجيش ، وفى بعض وجوه الحياة الاجتماعية ، تستطيع أن تميز فى أمريكا كثيرا من ظواهر الارهاب كما هى واضحة فى مجتمعاتنا الثلاثة الاخرى . ولا نستطيع أن نحاول هنا الخوض فى المسألة المعقدة التى تتصل بالسبب فى أن الثورة الأمريكية وقفت غير بعيد من الفترة الحرجة الحقيقية ، والسبب فى أن المعتدلين لم يستبعدوا يوما ما فى هذا البلد . ويجب أن نعيد القول بأننا نحاول ببساطة أن نقيم تشابهات فى الوصف ، ولسنا بصدد محاولة اقامة علم اجتماع كامل للثورات .

ولا شك فى أن الذى ساعد المتطرفين على الوصول الى الحكم هو وجود ضغط قوى تجاه الحكومة القوية المتمركزة ، وهو شىء لا يستطيع المعتدلون بوجه عام أن يوجدوه ، بينما المتطرفون ، بنظامهم ، واحتقارهم

لأنصاف الحلول ، واقدامهم على اتخـــاذ قرارات حاسمة ، وتحررهم من العرف المـــألوف ، قادرون على استعداد للتركيز . وخصوصا فى فرنســـا وروسيا حيث هدد الأعداء ،لأجانب الأقوياء وجود الأمة نفسه ، وكان جهاز الحكومة خلال الفترة الحرجة قد أقيم جزئيا ، ليخدم كحكومة للدفاع الوطنى . ومع أن الحروب الحديثة ، كما نعرف ، تتطلب تركيزا للسلطة ، فان الحرب وحدها تفسر لنا — فيما يبدو — كل ما حدث فى الفترة الحرجة فى تلك البلاد .

وما يحدث يمكن تلخيصه فيما يلى : تركيز اضطرارى للحكم فى ادارة ، وهى عادة مجلس أو لجنة ، يرأسها الى حد ما « رجل قوى » — كرومويل ، روبسبير ، لينين ، حكومة بدون تأمين فعلى للحقوق المدنية العادية للفرد — أو ، اذا كان هـــذا يبدو غير واقعى ، ولا سيما فى روسيا ، فلنقل الحياة العادية الخاصة للفرد ، اقامة عدد من ساحات القضاء غير العادية وبوليس ثورى خاص لتنفيذ أوامر الحكومة وقمع كل الأفراد أو الجماعات المنشقين ، كل هذا الجهاز ينشأ آخر الأمر من جماعة صغيرة نسبيا — هى المستقلون ، اليعقوبيون ، البلشفيون — التى لها سيطرة كاملة على العمل الحكومى .

وأخيرا ، فان العمل الحكومى يصبح جزءا أكبر من العمل البشرى كله منه فى هـــذه المجتمعات فى الظروف العادية : هذا الجهاز الحـــكومى يبدأ فى العمل بلا اكتراث فوق مشاكل الحياة وصعابها — وهو معتاد أن يتدخـــل فى المســـائل المخصصة فى العادة لرجـــل الدين أو الطبيب ، أو الصديق ، وهو معتاد أن ينظم ، ويراقب ، ويخطط ، انتاج وتوزيع الثروة الاقتصادية على مستوى قومى .

وهذا الانحراف لعهد الارهاب فى الفترة الحرجة يمكن تفسيره جزئيا بعبارات ضغط ضرورات الحـــرب ومظاهر الصراع الاقتصـــادى وكذلك بتغيرات أخرى : ولكن يجب تفسيره جزئيا أيضا بأنه مجهود لتحقيق غايات عقيدية . والعصبة الصغيرة من الثـــوار المعروفين بالعنف الذين يكونون نواة العمل كله خلال عهد الارهاب يسلكون كما سلك الناس من قبل حينما

كانوا تحت تأثير ايمان دينى فعال . فالمستقلون ، واليعقوبيون ، والبلشفيون كلهم حاولوا أن يجعلوا كل النشاط الانسانى هنا على الأرض مطابقا لمثل أعلى ، يتأصل ، بعمق فى عواطفهم . ومن التشابهات التى تلفت النظر فى هذه النماذج كلها تقشفها ، أو اذا شئت ، استنكارها لكل ما يمكن أن نسميه بالرذائل صغيرة كانت أو كبيرة . ومع ذلك ، فان هذه النماذج تتشابه فيما بينها بشكل أساسى الى حد كبير ، وكلها تشبه عن قرب ما يمكن أن نسميه بالأخلاق المسيحية المتعارف عليها . والمستقلون ، واليعقوبيون ، والبلشفيون ، على الأقل خلال الفترة الحرجة ، يقومون بجهد حقيقى لتأكيد السلوك بحيث يتطابق تطابقا حرفيا مع هذه القوانين أو النماذج . ومثل هذا الجهد معناه ضغط جاد من ذلك النوع الذى اعتاد كثير من الناس أن ينظروا اليه على أنه شىء سوى ، معناه نوع من التوتر العالى لا يمكن فيه للفرد العادى ان يشعر بالاطمئنان فى عهد النظم المتواضعة التى تكون هو على أساسها : معناه أن الشبكة المتداخلة من الأفعال المتبادلة بين الأفراد — شبكة لا تزال بالنسبة لفئة قليلة من الناس كرسوا أنفسهم لدراستها دراسة مستنيرة ، لا تزال بالنسبة لهم سرا مستغلقا تقريبا — هذه الشبكة تتمزق كلها وقتيا . ويترك (جون جونس) ، رجل الشارع ، الرجل العادى ، يتخبط فى طريقه .

وعند هذه النقطة نستطيع الاعتقاد بأن تصورنا هو شىء أكثر من مجرد ملاءمة ، وانه يصف « الواقع » بطريقة ما . وعند الأزمة ، تبدو الجماعات الصابرة فاقدة الأمل ، تشق طريقها فى حالة من الهذيان . ولكننا يجب أن نحاول تجنب العواطف الانفعالية والاستعمارية ، وأن نركز اهتمامنا على توضيح ما يبدو أنه النقطة الهامة هنا فى الواقع — فأكثرنا اعتادوا سماع الاستعارة المحببة عند حزب « المحافظين » القديم وهى : الثائر العنيف يمزق البناء النبيل الذى يعيش فيه المجتمع ، أو يحرقه ، وعندئذ يفشل فى أن يشيد بناء آخر ، وتترك الكائنات البشرية المسكينة عارية تحت السماء . وليست هذه استعارة جيدة فيما عدا ما يتعلق بأغراض الدعاية عند « المحافظين » . فحتى فى ذروة الفترة

الحرجة الثورية ، يكون المتبقى من البناء القديم اكثر مما تهـدم . ولكن الاستعارة كلها الخاصة بالبناء عقيمة . ويمكننا أن نستبدل بهـا تشبيها مستمدا من الجهاز العصبى عند الانسان ، أو نفكر فى أسلاك متناهيـة التعقيد من الاتصالات الكهربائية . وهنا يظهر المجتمع كنوع من الشباك المتداخلة فى الأفعال المتبادلة بين الأفراد ، افعال متبادلة ثبتتها العـادة فى أغلب الظن ، وقد جمدت وزينت باعتبارها طقوسا ، ثم كرمت من خـلال المعنى والجمال بواسطة خيوط منسوجة من الفعل المتبادل نعرفها باسم القانون ، واللاهوت ، والميتافيزيقا ، ومعتقدات نبيلة مشابهة .

والآن فان الكثير من هذه الخيوط المنسوجة من المعتقدات النبيلة ، بل وبعض الخيوط المتعلقة بالعادات والتقاليد ، يمكن أن تقطع ، وتحـل محلها أخرى . وخلال الفترة الحرجة لثوراتنا يبدو أن مثل هذا الاجراء قد حدث ، ولكن الشبكة كلهـا تبدو وكأنها لم تتغير مطلقا او فجأة وبشـكل جذرى ، وحتى المعتقدات النبيلة تميل الى أن تلائم نفسها مع « شبكة » الأسـلاك فى نفس مواضعها السابقة . ولو أنك قتلت كل النـاس الذين يعيشون فى داخل نطـاق « الشبكة » ، فانك لا تغير الشبكة بالطبع بل تدمرها . ورغم ما يقوله المتنبئون ، فان هـذا النوع من التدمير نادر فى التاريخ البشرى . ومن المؤكد أنه لم يحدث فى اى واحدة من ثوراتنا حتى مجرد الاقتراب منه .

والذى حدث ، تحت ضغط صراع الطبقات ، والحـرب ، والمثالية الدينية ، وكثير غير ذلك ، وهو المسالك المختفية والمظلمة التى تسير فيها افعال متبادلة كثيرة فى الشبكة تعرضت فجأة للنـور ، وأصبح المرور عن طريقها صعبا بالنشر غير العادى والوعى الذاتى . وسدت مسالك الأفعال المتبادلة الأخرى ، واستمرت الأفعال المتبادلة فى مسيرها بأشق الصعوبات عن طريق كل أنواع المنحذيات . أما مسالك الأفعـال المتبادلة الثابتـة الأخرى فقد اختلطت ، وقصر تيارها ، وتزاوجت بطرق غريبة . واخيرا ، فان ادعاءات زعماء الثورة المتعصبين تضمنت محاولة خلق عدد كبير من

الأفعال المتبادلة الجديدة . ورغم أن هذه الأفعال المتبادلة الجديدة أثرت فى أغلب الأحيان بشكل رئيسى على تلك الاتجاهات التى أطلقنا عليها اسم المعتقدات النبيلة — القانون ، واللاهوت ، والميتافيزيقا ، والأساطير ، والأدب الشعبى (الفولكلور) ، والتجريدات ذات القوة المرتفعة بوجه عام — ولا يزال البعض منها يتغلغل الى مستوى تجريبى فى الجزء الأكثر غموضا والأقل هيبة من شبكة الأفعال المتبادلة بين الكائنات البشرية وتضع ثقلا اكبر عليها . وليس ثمة ما يدعو الى الدهشة انه تحت هذه الظروف ينبغى أن يسلك الرجال والنساء فى الفترة الحرجة كما لا يسلكون فى الحالات العادية ، انه فى الفترة الحرجة ينبغى الا يبدو أى شىء كما جرت العادة من قبل ، وأن هناك فى الحقيقة نصا من ثيوسيديد كتبه قبل ثوراتنا بألفى سنة وهو يبدو كما لو كان تقريرا اكلينيكيا : حينما بدأت المتاعب لأول مرة فى المدن ، فان الذين أتوا بعد ذلك ساروا بالروح الثورية اشواطا واشواطا وصمموا على أن يبزوا كل من سبقوهم بالمشروعات المبتكرة وبوحشية الانتقام . ولم يعد لمعانى الكلمات نفس الصلة بالأشياء ، ولكنها تغيرت بواسطتهم على النحو الذى كانوا يعتقدون أنه الصحيح . وأصبح ينظر الى الاستهتار الذى لا حد له على أنه شجاعة مخلصة ، والتخلف الحذر أصبح ذريعة الجبان ، والاعتدال كان يخفى وراءه ضعفا لا يليق بالرجال ، ومعرفة كل شىء كان معناها الا يفعل المرء شيئا . والطاقة الجبارة كانت هى الصفة الحقيقية للرجل . والمتآمر الذى كان يريد الأمان انما كان نذلا مستخفيا . وكان المحب للعنف موضع ثقة دائما ، بينما يوضع خصمه موضع الاتهام . والذى ينجح فى مكيدة كان يفترض فيه المعرفة ، وأما الأستاذ الأكثر مهارة فهو الذى يكشف عن الآخرين . ومن ناحية أخرى ، فان الذى قدر من البداية الا تكون له صلة بالمؤامرات هو هادم للأحزاب ، وجبان يخشى الأعداء . وباختصار ، فان الذى يستطيع أن يتفوق على الآخرين فى الأفعال الدنيئة كان يحتفى به وكذلك كانت الحال بالنسبة لمن يشجع على الشر من ليس لديه عنه فكرة ما ... وكانت رابطة الحزب أقوى من رابطة الدم ، لأن الزميل فى الحزب كان أكثر استعدادا للمخاطرة دون أن يسأل عن السبب .

ومع هذا النص نستطيع أن نضع نصا من مصدر اكثر تواضعا ، احد الزعماء التعاونيين وهو سيبيرى خامل ، يعترض على الارهـــاب الأبيض والأحمر على السواء . يقتبس مستر تشمبرلين :

ونحن نسأل ونستعطف المجتمع ، والجماعات والأحـــزاب السياسية المتصارعة : متى تستطيع روسيا المجاهدة أن تتغلب على الكابوس الذى يكتم أنفاسها ، ومتى تتوقف الوفيات بالعنف ؟ الا يستولى عليك الفزع عند رؤية ذلك الســـيلان الذى لا ينقطع من الدماء البشرية ؟ الا يستولى عليك الفزع عند ادراك أن أكثر أسس المجتمع البشرى عمقا وبدائية فى سبيلها الى الفناء : الاحساس بالانسانية ، وادراك قيمة الحيـــاة ، والشخصية الانسانية ، والاحساس بلزوم النظام الشرعى فى الدولة ؟ ... فلتسمع صرختنا ويأسنا : نحـــن نعود الى عصور ما قبل التاريخ لوجـــود الجنس البشرى ، نحن على حافة الفناء للحضارة والمدنية ، نحن نقضى على أقوى أسباب التقدم الانسانى ، التى عملت لها أجيال كثيرة من أسلافنا الفضلاء . ومع ذلك ، فيقينا ، لم تنته واحدة من ثوراتنا بفناء الحضارة والمدنيـــة . وكانت الشبكة المتداخلة أقوى من القوى التى تحاول القضاء عليهـــا أو تغيرها ، وفى كل مجتمعاتنا كانت تعقب الفترة الحرجة فترة نقاهة ، وعودة الى أكثر المسالك بساطة ولزوما وهى التى اتخذتها الأفعـــال المتبادلة فى الشبكة المتداخلة القديمة . وبصفة خاصة لقـــد اندثر النزوع الدينى الى الكمال ، والحرب المقدسة فى سبيل جمهورية الفضيلة ، فيمـــا عدا بين أقلية صغيرة يمكن لأفعالها أن تؤثر بطريق مباشر فى السياسة ، فالايمان النشيط ، الفعال ، غير المتسامح ، الزاهد ، سرعان ما أصبح ايمـــانا خامدا ، غير مكترث ، عالى الطقوس .

لقد عاد التوازن وانتهت الثورة . ولكن هـــذا لا يعنى أن شيئا ما لم يتغير . فان بعض الممرات أو المسالك الجديدة النافعة قـــد أقيمت فى شبكة الأفعال المتبادلة التى تصنع المجتمع ، وبعض المسالك القديمة غير الملائمة ـــ ويمكنك أن تسميها غير عادلة ان شئت ـــ قد استبعدت . ومن

القسوة القول بأن الثورة الفرنسية اخذت على عاتقها وضع النظام المترى والقضـــاء على الضرائب الاقطاعية وما اليها من النظم الاقطـــاعية غير المستساغة ، أو ان الثـــورة الروسية جعلت روسيا تستخدم التقـــويم الحديث وتستبعد عددا قليلا من الحروف عديمة الفائدة من حروف الهجاء الروسية . هذه النتائج الملموسة النافعة تبدو تافهة اذا قيست بأخـــوة الانسان وتحقيق العدالة على هـــذه الأرض — ولكن يبدو أن اراقة دم الشهداء ليس ضرورة ملحة لارساء نظام العملة العشرية .

ومع ذلك فان أولئك الذين يشعرون بأن الثورة عمل بطولى ليس لهم ان ييأسوا . فالتقليد الثورى تقليد بطولى ، والمعتقدات النبيلة التى تبدو لازمة لكل المجتمعات هى فى نظمنا الديمقراطية الغربية الى حد ما من نتاج الثورات التى كنا بصدد دراستها . فثوراتنا أضافت نسيجا قيما فضفاضا الى تلك الخيوط فى شبكة الأفعال الانسانية التى يمكن عزلها ، كالقانون ، واللاهوت ، والميتافيزيقا وبالمعنى التجريدى ، الأخلاق . فلو أن هـــذه الثورات لم تقع على الاطلاق ، لكان من الممكن لك ولى أن نظل الى الآن نضرب زوجاتنا أو « نغش » فى لعب الورق أو نتجنب السير تحت « الدرجات الخشبية » ، ولكننا ما كنا نستطيع التمتع بامتلاكنا لبعض الحقوق الثابتة فى الحياة ، والحرية ، والسعى وراء السعادة ، او التأكد من أن دفعـــة واحدة الى الأمام سوف توصلنا الى المجتمع اللاطبقى .

وحين يقارن المرء سير هذه الثورات كاملا ، يجد بعض التشـــابه التجريبى . فاذا قارنا الثورة الروسية فى نهاية سلسلتنا بالثورة الانجليزية فى بدايتها ، يبدو أن هناك نموا فى « الاتجاه الفنى » الثورى الواعى . وهذا بالطبع واضح بشكل خاص منذ أن جعل ماركس تاريخ الحركات الثورية فى المـــاضى تمهيدا ضروريا لثـــوار الحاضر . وقـــد تابع لينين ومعـــاونوه تدريبا فى « أساليب الثورة » ، وهو ما كان يعوز المستقلين واليعقوبيين . وان روبسبير ليبدو من سذج الساسة تقريبا اذا ما قورن تدريبه الثورى بتدريب اى واحد من الزعماء البلاشفة الصالحين . ويجب أن نسلم بأن

سام آدمز اقل سذاجة بكثير . والمهم أنه من المحتمل الا يكون هذا الاختلاف فى وضوح الاعداد الواعى للثورة ، وهذا النمو لأدب الثورة الغزير ، وهذا الشيوع المتزايد للأفكار الثورية ، واحدا من المتشابهات البالغة الأهمية التى علينا أن نسجلها . فهو اضطراد ظاهر ، ولكنه ليس هاما . فالثورات ليست حتى الآن شكلا من أشكال الفعل المنطقى . فلا يبدو أن البلشفيين قد اهتدوا فى افعالهم بالدراسة « العلمية » للثورات الى درجة أعظم بكثير من المستقلين واليعقوبيين . وانما هم ببســاطة واعموا بين « أساليب » العمل قديما وبين أيام البرق والسكة الحديد .

وهذا الاتجاه الأخير يقودنا الى اتجاه آخر واضح الظهور ولكنـه غير بالغ الأهمية فى ثوراتنا الأربع . فقد حدثت الثــورات فى مجتمعات كانت تتأثر باستمرار « بالثورات الصناعية » ، كما كانت تتأثر كثيرا بتلك التغييرات التى أحدثتهــا فى مجتمعاتنا انتصاراتنا الحديثــة على الزمان والمكان . ولذلك فان الثورة الروسية اثرت بطريق مباشر على شعوب اكثر وعلى أميال مربعة من الأرض اكثر من اية ثورة سابقة ، وتتابع الحوادث فيهــا يختصر فى شــهور قليلة ما استغرق انجازه فى انجلترا فى القرن السابع عشر سنين طويلة ، باستخدامها للصحافة المطبوعة ، والبرق ، والراديو ، والطائرات وما اليها فيما يبدو ، لو قورنت بثوراتنا الأخرى ، (فهو موضوع انسيابى بشكل نهائى) . ولكننا مرة اخرى قد نشك فيها اذا كانت مثل هذه التغييرات هى فى حد ذاتها عوامل هامة من الناحيــة الواقعية . فرغبات الانسان واحدة سواء استعمل فى تحقيقها الطــائرات او ركب ظهور الخيل . والثورات قد تكون اليوم أكبر ، ولكنها بالتأكيــد ليست أحسن .

وأخيرا ، فاننا خُشية الاملال ، يجب علينا أن نرجع الى الوراء الى بعض المشاكل المنهجية بالنسبة للعلوم الاجتماعية والتى تعرضنا لها فى الفصل الأول . فيجب أن نسلم بالنظريات ، والقوانين ، التى تمكننا من أن نعرضها بألفاظ تخطيطنا التصورى ، غامضــة ، وغير مثيرة . وهى ليست بأية حال مهمة ولا مثيرة مثل الآراء التى نادى بهــا جورج أورويل

الذى كان يعتقد فى الواقع ان الزعماء الزوريين (الجماعيين) قد تعلموا كيف يغيرون الكائنات البشرية الى شىء يختلف اختلافا كليا عن أسلافهم المباشرين . وهى لا يمكن تقريرها بألفاظ كمية ، ولا يمكن أن تستخدم لأغراض التنبؤ أو المراقبة . ولكننا فى البداية قد حذرنا القارىء من أن يتوقع أكثر مما فى الامكان . وحتى مثل هذه النظرية الغامضة ، كهروب المثقفين ، ودور القوة فى المراحل الأولى للثورة ، والدور الذى يلعبه الحماس « الدينى » أو العقيدى فى الفترة الحرجة ، ونظرية الجرى وراء اللذة خلال فترة الترميدور ، ليست فيما يرجو الانسان ، غير ذات قيمة فى دراسة الناس أثناء حياتهم الاجتماعية . وهى فى حد ذاتها قليلة الأهمية ، ولكنها توحى ببعض الامكانيات فى البحوث الأخرى .

فهى أولا ، لعدم كفايتها تشير الى الحاجة الى علاج أكثر دقة للمشاكل القائمة . متحديا أولئك الذين يجدونهم غير كاملين وغير ملائمين للقيام بعمل أحسن .

وثانيا ، سوف تخدم الغرض الخاص « بالتقريبات » الأولية فى العمل العلمى — وسوف تعرض دراسة أوفى للحقائق ، وبخاصة فى تلك الميادين التى نجد فيها محاولة عمل « تقريبات » أولية قد كشفت عن معين غير كاف للحقائق . وهنا ، نجد ان الحقائق اللازمة لدراسة الكراهية بين الطبقات غير كافية بشكل يدعو للأسف . وكذلك أيضا الحقائق اللازمة لدراسة حركة « الصفوة » فى المجتمعات السابقة للثورة . ولكن هناك مئات من مثل هذه الثغرات ، وان كان بعضها بالتأكيد يمكن سده . فتقريباتنا الأولية سوف تقودنا اذن الى طريق تقريبات ثانية . وليس هناك عالم يستطيع أن يطلب أكثر من ذلك ، وان كان عامة الناس يفعلون ذلك .

٣ — تناقض الثورة :

اذا حكمنا على أساس من ماضى العلم ، سوف تظهر يوما ما تشابهات من دراسات أكمل لعل اجتماع الثورات . وهنا لا نجرؤ على

أن نخاطر كثيرا بما لم نذكره تماما فى خلال تحليلنا لأربع ثورات نوعيـــة . وهى ، فى آخر الأمر ، ليست غير أربع ثورات لمـــا يبدو أنه نوع واحد ، ثورات فيما يبدو مخالفـــة للتراث الديمقراطى . فكلمة « ثورة » كلمـــة ثمينة جدا بالنسبة للكثيرين فى ذلك التراث ، وبوجه خاص للماركسيين ، لدرجة أنهم يرفضون بحق أن يطلقوها على حركات مثل استيلاء موسيلينى أو هتلر على الحـــكم بطريقة دموية نسبيا ولكنها بالتأكيـــد عنيفة وغير مشروعة . فهذه الحـــركات ، فيما نعلم ، لم تكن ثورات لأنها لم تنتزع الحكم من احدى الطبقات لصالح طبقة أخرى . ومن الواضح أنك تستطيع بكلمة غير محددة من بعض الوجوه مثل كلمة « الثورة » أن تقـــوم بكل أنواع الحيل مثل ذلك . ولكن بالنسبة للدراسة العلمية للتغيير الاجتماعى يبدو من الحكمة اطلاق كلمة الثورة على اسقاط حكومة برلمـــانية مستقرة بواسطة الفاشيين . واذا كان الأمر كذلك ، فان ثوراتنا الأربع اذن لن تصبح غير نوع واحـــد من الثـــورة ، ويجب الا نحاول أن نحملها عبء تعميمات يقصد بها أن تطبق على كل الثورات .

ولعله أكثر اغراء لنا أن نحاول ملاءمة هـــذه الثورات لشىء يشبه بشىء فلسفةالتاريخ . ولكن فلسفة التاريخ تكاد تكون مضطرة الى أن تؤدى الى ذلك النوع من النشاط التنبؤى الذى سبق أن امتنعنا عنه بحزم . ومن الجائز أن النوع الانسانى يجتاز الآن عصرا عالميا من المتاعب سوف يخرج منه الى نوع من النظام العالمى التحكمى . ومن الجائز أن الترات الديمقراطى الثورى لم يعد تقليدا حيا فعالا . ومن الجائز أن الثورات التى انتهينا من دراستها لم تكن لتحدث الا فى مجتمعات أصبح «التقدم» فيها شيئا ملموسا عن طريق فرص النمو الاقتصادى التى لا يمكن أن تعود فى عالمنا المعاصر ، مع عدم وجود حدود أو أسر كبيرة . بل ومن الجائز أن يكون المـــاركسيون على حق ، وان الراسمالية الاستعمارية تقوم الآن بحفـــر قبرها ، ممهدة للثورة العالمية للطبقة العاملة (البروليتاريا) وهى الثورة التى لا مفر منها وان طال انتظارها . وهناك احتمالات كثيرة بالنسبة لصحـــة التخمينات المتعددة . ويقيننا أن المجهود المخلص لدراسة أربع ثورات كبيرة فى العالم

الحديث على نحو ما يفعل العالم لا يمكن ان تنتهى الى شىء طليعى وغير علمى كالتشخيص الاجتماعى .

ولسنا بحاجة ، مع ذلك ، الى أن ننتهى بفكرة من الشك الخالص . فلقد يبدو ان هناك ، من دراسة هذه الثورات ، ثلاث نتائج كبرى يمكن ان نستنتجها :

أولا ، انه رغم اختلافاتها الظاهرة والمثيرة ، كان بينها تشابه بسيط من النوع الذى حاولنا أن نأتى به تحت تخطيطنا التصورى للحمى .

ثانيا ، انها تشير بالحاح الى ضرورة دراسة افعال الناس وأقوالهم دون القول بأن هناك دائما علاقة بسيطة ومنطقية بينها ، حيث أن الناس خلال حدوثها ، وبخاصة عند الأزمات ، تصدر عنهم أقوال تخالف افعالهم .

ثالثا ، انها تشير بوجه عام الى ان كثيرا من الأشياء التى يؤديها الناس ، وكثيرا من العادات البشرية ، والعواطف ، والاتجاهات ، لايمكن تغييرها سريعا على الاطلاق ، وان المحاولد التى قام بها المتطرفون لتغييرها بالقانون ، والارهاب ، والنصح فاشلة ، وان فترة النقاهة تعود بها من جديد دون أن يطرأ عليها تغيير كبير .

ومع ذلك فان ثمة تعميما كبيرا مترددا يربط هذه الثورات الأربع بعضها ببعض يمكن القول به هنا استنادا الى ما سبق أن ذكرناه فى هذا الكتاب . فهذه الثورات الأربع تعد الانسان العادى بأشياء كثيرة وعود غامضة مثل « السعادة » الكاملة ، ومحسوسة مثل الاشباع الكامل لكل الرغبات المادية ، مع التغلب على كل أنواع العقبات التى تقف فى الطريق . وليست الشيوعية الا الحد الراهن لهذه الوعود الكثيرة . وليس لنا هنا أن نتهكم أو نتعرض ، ولكننا نسجل . وعلى ذلك ، فان هذه الوعود فى شكلها المتطرف لم تتحقق فى أى مكان . اما أنها قد صدرت

فهذا يغضب المسيحى التقليدى ، والانسان المحب لخير البشرية ، بل وربما الانسان العاقل .. ولكنها قد صدرت ، وربما بشكل اقوى اليوم فى الصين ، وفى جنوب شرقى آسيا ، وفى الشرق الأدنى ، حيث لا تزال الشيوعية عقيدة ناشئة ، طازجة وفعالة . وليس يكفى لنا نحن الأمريكيين ان نعيد القول بأن الوعود مستحيل تحقيقها ، وكان ينبغى الا تصدر . ومن الغباء ان نقول للعالم اننا نحن الأمريكيين نستطيع ان ننفذ هذه الوعود ، وبخاصة اننا لم ننفذها عندنا . فالثورة ليست نوعا من الحمى يستسلم لمثل تلك الأدوية البريئة الخداعة . ولفترة ما ، على الأقل ، يجب أن نقبلها على انه لا شفاء منها « كالسرطان » .

اما عن تجربة الثورة العظيمة ما تفعله للمجتمع الذى يمر بها ، فلا نستطيع ان نصل هنا الى نتائج واسعة دون ان نستند الى مجاملات اوسع من التاريخ وعلم الاجتماع . ومع ذلك فلقد يبدو أن المريض يخرج اقوى من بعض الوجوه من الحمى المهزومة ، ويصبح محصنا ضد أمراض قد تكون اكثر خطورة . فمن الحقائق المشاهدة أنه كان فى كل مجتمعاتنا ازدهار ، وانجازات ثقافية رائعة متنوعة بعد الثورات . وليس لنا بالتأكيد ان ننظر كثيرا من وجهة النظر الأخلاقية الى مظاهر الغباء والقسوة للثورات ، ولا ان نلطخ أيدينا بفظائعها . فمن الممكن تماما أن تبين لنا دراسة اوسع نطاقا ان المجتمعات الضعيفة والمنهارة لا تتعرض للثورات ، وان الثورات ، على العكس ، دليل قوة وشباب فى المجتمعات .

فالشخص الهادىء لا يخرج من دراسته ،مشمئزا من الفظائع وأعمال العنف فحسب ، بل ويمتلىء اعجابا بالقوة العميقة التى لا حد لها فى الرجال والتى يكره أن يسميها روحية لما يتسم به هذا اللفظ من رقة . وقد رأى ذلك وأحس به مونتينى Montaigne منذ زمن بعيد :

« أنا لا أرى فعلا واحدا ، ولا ثلاثة ، ولا مائة ، ولكن حالة خلقية معترفا بها غير طبيعية ، وبخاصة فيما يتعلق بعدم الانسانية والخداع ،

وهما فى نظرى اسوأ انواع الخطايا ، لدرجة اننى لا استطيع التفكير فيهما دون ان ارتعد ، وهما تثيران دهشتى بقدر ما تثيران كراهيتى . ان ممارسة هذه الرذائل تحمل فى طياتها علامات القوة والفتوة فى الروح بقدر ما تحمل من الخطأ والاختلال » .

ويخبرنا بيركمان الفوضوى ، الذى كان يكره الثورة الروسية ، بقصة قد تصور ببساطة فكرته الخاصة ، ولكنها قد تصلح كخاتمة رمزية مختصرة لهذه الدراسة يقول بيركمان : انه سأل احد معارفه البلشفيين الطيبين خلال فترة محاولة التأميم الكامل أيام لينين ، لماذا لم يؤمم سائقوا العربات المشهورون فى موسكو والذين استمروا بأعداد متناقصة يجوبون انحاء موسكو ويحصلون على مبالغ ضخمة من أوراق النقد (الروبلات) لقاء خدماتهم ، مثل كل شىء آخر . فأجاب البلشفى ، « لقد وجدنا أنك اذا لم تطعم الكائنات البشرية فانها تواصل حياتها بطريقة ما . ولكنك اذا لم تطعم الخيول ، فانها لا بد أن تموت . وهذا هو السبب فى أننا لم نؤمم سائقى العربات » . وليست تلك قصة مرحة ، وقد يأسف المرء من بعض الوجوه للقدرة البشرية على العيش بدون طعام . ولكن من الواضح اننا لو كنا أغبياء — أو ذوى حساسية — كالخيول لما قامت عندنا ثورات .

شركة الأمل للطباعة والنشر
(موراڤيتلى سابقاً)
ت:23904096 - 23952496

الغلاف .. د. خالد سرور

الثمن : ستة جنيهات

الهيئة العامة لقصور الثقافة

www.gocp.gov.eg
www.qatrelnada.com.eg
www.althaqafahalgadidah.com.eg

تم إعادة الرفع بواسطة
مكتبة عسكر
ask2pdf.blogspot.com